نحو تأصيل اسلامي للتاريخ

جزيرة العرب منذ أقدم العصور

تأليف

الدكتورة وفاء محمد رفعت
الأستاذة المساعدة
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة

الدكتور جمال عبد الهادي محمد
الاستاذ المساعد بكلية الآداب
جامعة الملك عبد العزيز
جدة

الجزء الأول

طبع سنة ١٣٩٨ هجرية

نحو تأصيل اسلامى للتاريخ

جزيرة العرب
منذ
أقدم العصور

تــأليف

الدكتورة وفاء محمد رفعت

الأستاذة المساعدة
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
جامعة الملك عبد العزيز ـ مكه المكرمة

الدكتور جمال عبد الهادى محمد

الاستـاذ المسـاعد بكلية الآداب
جـامعة الملك عبـد العـزيز
جــــدة

الجزء الأول

طبــع ســنة ١٣٩٨ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد الرسول الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين . يقول الله تعالى :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » .

(يونس : ١٣ ـ ١٤)

مقـــدمة :

ان الامة المسلمة الموعودة من الله بالنصر والتمكين ، والتى تهدف الى صـــياغة الشخصية الانسانية صياغة اســـلامية ، اعـــدادا للجهاد ضـــد أعـداء الله ، لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى . لابد أن تضع فى الاعتبار أن تاريخ البشرية عامة وتاريخ الامـة المسلمة على وجه الخصوص بالصورة التى هى عليها الآن مكتوبا فى معظمه بأيدى ومناهج غريبة عن الامـــة المسلمة .

وقد نجم عن هـــذا أن أصبحت البشرية عامة والامة الاسلامية على وجـــه الخصوص تنظر الى نفسها وسواها بعدسة صنعتها أيـــد أجنبية عنها .. أجنبية عن عقيدتها وتاريخها .. ، أجنبية عن مشاعرها وادراكها .. أجنبية عن اهتمامها بالامور واحساسها بالحياة وتقدير الاشياء ، ثم هى بعد ذلك كله مغرضة ــ فى الغالب ــ تبغى لهـــا الشر لا الخير .. لأن مطامحها ومطامعها ومصالحها الخاصـــة وأهدافها القومية ، كلهـــا تدفع بهـــا دفعـــا لأن تبغى الشر للأمة المسلمة ، لأن خير الامـــة المسلمة لا يتفق مع أطماعها ، ولأن استقامة الامة المسلمة تحول بينها وبين التسلط على بنى البشر .

كما أن أخطاء المنهج الغير اسلامى الذى اتبع فى كتابة تاريخ البشرية وتاريخ الأمـــة المسلمة كانت كفيلـــة بأن تشـــوه الحقائق التاريخية ــ وخاصة من ناحية العقيدة السليمة والدين الصحيح الـــذى ارتضاه اللـــه للبشرية ــ فى غير صالح الامة المسلمة .

وهذه جريمة ترتكب فى حق الأمة المسلمة التى من صالحهـــا أن ترى حقيقة دورها فى تاريخ البشرية وأن تعرف مكانتها فى خط سير التاريخ وأن تتبين قيمتها فى العالم الانسانى . وليست فائدة هذا فائدة نظرية فكـرية مجردة ، بل انها أكبر من ذلك وأشمل ، فعلى ضوئها يمكن للأمة المسلمة أن تحدد موقعها الحاضر ودورها فى المستقبل ، وأن تسير فى أداء هـــذا الدور على هدى ومعرفة بالظروف والعوامل العالمية المحيطة بها ، بعد ما تتخـــذ من الوسائل والأسباب اللازمة لمواجهة هذه الظروف وتلك العوامل .

والمؤسف حقا أن دور العلم التى أنشئت أساسا لتربية الشباب المسلم الأساس الضرورى لبناء الأمة المسلمة ، دأبت على تلقين الاجيال تاريخا اسلاميا مشوها ، وتاريخا جاهليا مضخما لا عن مجرد خطأ غير مقصود ولكن عن نية

خبيثة من الاستعمار الغربي والصليبيه والصهيونية العالمية التى يهمها أن لا تجد الأمة المسلمة فى تاريخها ما تعتز به ، وأن تـرى أوروبا ــ كنموذج للجاهليات ــ على العكس هى صاحبة الدور الأول فى التاريخ الانسانى • فاذا يئست الأمة المسلمة من ماضيها بعد أن استعرضت دورها فى حياة البشرية • وامتلأت نفوسها اعجابا بالدور الذى قامت به أوروبا ، واكبارا للرجل الابيض • سهل قيادها على الاستعمار وذلت رقابها له •

ولذلك فانه وضعا للأمور فى نصابها ، لابد من اعادة كتابة تاريخ البشرية وعلى الأخص تاريخ جزيرة العرب والعراق ومصر وبلاد الشام وآسيا الصغرى وايران **بمنهج اسلامى** ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لكشف هذه الأباطيـــل واثبات حقيقة الدور الذى أداه الاسلام والأمة المسلمة منذ رسالة نوح عليه السلام الى زمن رسالة محمد صلى الله عليـــه وسلم ، والدور الذى لعبتـه الجاهليات ومنها الجاهلية الاوروبية ، بعد ما يصور طبيعة الدين الاسلامى وطبيعة النظام الذى ينبثق منه ومدى مـا منح البشرية من الخير والتقدم ، وضخامة الدور الذى أداه لبنى الانسان •

وسوف يكون لهذا التصحيح قيمة فى حساب المصلحة الانسانية العامة ، فكم لأخطاء التاريخ من أثر فى اقامة الحواجز بين بعض الأمم وبعض العناصر وبعض الكتل وكم لها من أثر فى سوء تقدير الجماعات للجماعات والاجناس للاجناس والافراد للافراد والعقيدة والمبادىء والحضارات ، وكل هذا يؤذى البشرية فى حاضرها ويؤذيها فى مستقبلها •

ولذلك فانه من حق البشرية الضالة اليوم أن تحصل على صورة صحيحة لتاريخ البشر على الأرض ، ومن الاجرام فى حقها تزوير ذلك التاريخ ، واعطائها معلومات مضللة وخاصة فى مجال العقيدة • ومن الأمانة العلمية أن يمتنـــع العلماء وخاصة الذين يرسمون للناس صورة القرون الخوالى عن تقـــديم كتابات يعلمون أنها غير صحيحة ، كما أنه من واجب القادرين ازالة اخطـاء التاريخ وازالة آثارها وتصحيحها التصحيح الواجب لأنه ليس من مصـــلحة الانسانية أن ترى الحياة كلها من زاوية واحدة لا تكشف عن كل جوانبها • وأن تسودها فكرة خاطئة عن ماضيها وحاضرها ، وأن تجهل الدوافع الكاملة لسيرها وتحركها ، والقيم الأساسية لحياتها وحضارتها ، لأن هذا الجهـل لينشىء أخطاء عميقة الأثر لا فى التصور والتفكير فحسب ، ولكن فى علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفى علاقات الكتل الدولية بعضها ببعض ، كما ينشىء أخطاء بعيدة المدى فى تكييف سياسة كل أمة وتوجيهها ، هذه الأخطاء ينشأ معظمها عن سوء دراسة التاريخ البشرى وسوء تقدير الدور الذى قام به الاسلام والذى يمثله العالم الاسلامى ، هذا العالم الذى يمثل وحدة انسانيـــة شاملة

لها كل خصائصها المستقلة ، ويمثل قوة انسانية ثابتة لا يؤثر ضعفها العسكرى الطارىء الا تأثيرا عارضا فى وزنها الحقيقى ٠

على أن يوضع فى الاعتبار أن التصحيح لا يمكن أن يطلب الا من باحث مسلم صاحب عقيدة سليمة ، أى أن يكون له عقلية اسلامية فى صميمها ، مشربة بالروح الاسلامية ، لكى تدرك العناصر الاساسية فى الحياة وتحسها وتتجاوب معها ، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير للحكم على هذه الحياة ٠٠ وبذلك يمكن للحياة الاسلامية أن تعطى كل أسرارها واشعاعاتها وتتكشف بكل عناصرها ومقوماتها ٠

ان التصحيح لا يمكن أن يطلب الا من باحث مسلم يعيش بعقله وروحه وحسه فى جو الاسلام كعقيدة وفكرة ونظام ٠٠٠ فى جو العقيدة الاسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية ، حتى يستطيع ادراكها ادراكا حقيقيا داخليا متجاوبا معها بكل ذاتيته ، عائشا فى جوها بكامل مؤثراتها وايحاءاتها ٠٠

ان التصحيح لا يمكن أن يطلب الا من باحث مسلم درس الحياة الاسلامية وأدرك ادراكا كاملا روح العقيدة الاسلامية وطبيعة الفكرة الاسلامية عن الكون والحياة والانسان ، وادراك أيضا طبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة بـل وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل العقيدة ٠

الفصل الأول

الاهداف التى نسعى الى تحقيقها
من خلال دراستنا لتاريخ وحضارة الامم التى عاشت فى جزيرة العرب منذ أقدم العصور

أولا : التعرف على تاريخ وحضارة الأمم التى سكنت جزيرة العـرب ، معروضا من زاوية النظر الاسلامية ٠

ثانيا : اثبات أن الأمة المسلمة من لدن نوح عليه السلام الى محمد صلى الله عليه وسلم هى صاحبة الدور الأول فى تاريخ البشرية ، وهى الجديرة بأن تكون المحور الذى يجب أن يتحرك من حوله العالم على اعتبار انها صاحبـة رسالة خير أمـة أخرجت للناس ، ولأن تراثها العقائدى الاسـلامى أعظم ما عرفته البشرية على مـدار تاريخها الطويل ، وان العدول عنـه الى غيره ، يعتبر ارتكاسة فى الحمأة الوبيئة ٠

ثالثا : تتبع خطى رسـل الله الكرام ـ صلوات اللـه وسلامه عليهم أجمعين ـ وجهادهم فى دعوتهم الى اسلام الوجـه للـه وحده دون شريك ٠

رابعا : تتبع رواسب خط توحيد اللـه سبحانه وتعالى ، فى حيـاة أمـة العرب التى نحن بصدد دراسة تاريخها وحضارتها ٠

خامسا : التعرف الى العلماء ـ ورثة الأنبيـاء ، والى الدعاة من المسلمين ، ومواقف المجتمعات من الدعـوة الى الاسـلام التى كان يحملها هـؤلاء ، والابتلاءات التى تعرض لها جنـد اللـه ، وصبرهم على الاذى ، وما يمكن أن ينشئه كل ذلك ـ فى النفس البشرية من ثبات على الحق والاستهانة بكل غال فى سبيل تبليغ ما أنزل اللـه على رسله الكرام ـ ، الى بنى البشر جميعا ٠

سادسا : ادراك حقيقة دور الاسـلام وطبيعته ٠٠ وانه الدين الواحـد الذى جـاء به رسل اللـه الكرام منذ القدم ، ويتطلب ذلك منـا الالمـام

بالحالة التى صارت اليهـــا المجتمعات العربية فى ظـل حكامها ، وبخاصـة من ناحية العقائد الدينية وسائر ما يتعلق بهـا من أفكار ونظريات ، ومن ناحية الاوضاع الاجتماعية وما يتعلق بها من نظم الحكم وسياســة المال وعلاقات المجتمع والعادات والاخلاق والافكار ، ثم الالمـــام بالصورة التى انتهت اليها تجربة المجتمعات العربية فى ظـــل دعوة هود وصالح وسليمان وغيرهم من الرسل ـ صلوات اللـــه وسلامه عليهم أجمعين ـ ، لكى يمكن تفسير استجابة العالم للنظام الاســـلامى قبولا أو رفضا ، وأسباب الصراع وعوامل النصر والهزيمة كاملة ، وعناصر التفاعل والتلاقى والانعكاس على مـــر الايام .

سابعا : التعرف على النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادي للمجتمعات التى نحن بصـــدد دراستها ، والعقائد التى كان يعتنقها الاقوام الذين كانوا يعيشون على أرضها والصفات التى كانوا يتصفون بهـا وان تيسر ـ التعرف على مـــدى تقدمهم العلمى والاقتصادى والاجتماعى نتيجة لانعـــام اللـه عليهم ، ثم ننتقل الى تتبع الرســـالات السماوية التى أنزلت على هـــذه المجتمعات من دعوة الرســـل صلوات اللـــه وســـلامه عليهم ، ومن الصف المجتمعات ، ومن الذى كان له شرف القيام بهذه المهمة من رسل الله الكرام : نشأته وسيرته وموضوع رسالته ، وبعد ذلك نحـــاول تقصى موقف تلك المؤمن الموحد ثم تصرف الله سبحانه وتعالى حيـــال الفريقين ، حزب الرحمن وحزب الشيطان .

ثامنا : تتبع أعمال البنـــاء والهدم التى قام بها الاسلام فى حيـــاة تلك المجتمعات التى نحن بصدد دراستها ، وما مصير الافكار والعقائد التى كانت سائدة فيها ، ومـــا هى التغييرات والتفاعلات التى طرأت على النظم التى كانت ســائدة فى تلـــك المجتمعات . ان دراســـة هـــذه التفاعلات فى ضـــوء المنهج الاسلامى كفيلة بأن تنشىء صورة للعالم الانســانى وخطواته مختلفة قليلا أو كثيرا عن الصورة التى اعتـــاد غير المتتلمذين أن يرسموها والتى اعتدنا نحن أن نراها .

تاسعا : وفى النهاية تأتى الاستفادة من عرض تاريخ وحضارة هـذه المجتمعات ، وهى تأكيد حقيقة هامة لحياة الانسان :

(أ) ان الانسان قـــد خلق ليعبد اللـــه وحـــده دون شريك ، ولذلك فقد تعهده بالرسل ليعرفونه بربه الحق ودينه الحق وهو الاسلام .

(ب) ان الصراع بين الحق والباطل ، صراع قديم وسيستمر الى أن يشـــاء اللـه ، وانه مهما قدر لدولة الظلم ان تقوم على البـــاطل وتنمو

وتقوى ، فهى حتما الى زوال ، لأن الظلم والطغيان اعتداء على سلطان الله ، فى الارض ، ولابد أن يؤدى عندما يشاء الله ـ بصاحبه الى الدمار لأن قدر الله لابد أن يجرى على الظالمين ، « فكأين من قريه أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ٠

(جـ) ان المجتمع العربى يعز ويقوى ويكون له الدور القيادى فى الارض عندما يتمسك بالاسلام عقيدة وشريعة ، ويذل ويخزى وتتنازعه الأمم عندما تسير حياته بعيدا عن الاسلام ٠

عاشرا : التعرف على المنهج الغير اسلامى المستخدم فى تدوين أحداث التاريخ البشرى من أقدم العصور ، وتقويمه فى ضوء التصور الاسلامى للدراسات التاريخية ، وسوف يؤدى ذلك بنا حتما الى الحذر الكامل ٠ لا من تولى هذه الدراسات على علاتها ، بل من تولى المنهج الذى قامت عليه أو محاولة اتباعه فى الدراسات الاسلامية ٠

حادى عشر : اثبات أن النظرة والبحوث الغربية غير الاسلامية لتفسير الاحداث التاريخية فى ضوء المذاهب السياسية والاجتماعية كالفاشستية فى ايطاليا والوطنية فى ألمانيا والشيوعية فى روسيا والتى أخذت تتصارع فيما بينها وتحوى تفسيرا خاطئا وناقصا للاحداث التاريخية وسبب ذلك أن كتابها غير مسلمين ٠٠ والكاتب غير المسلم لا يؤمن بالغيب ، ومن كان ينقصه الروحية الغيبية فانه يتلقى المادية بادىء ذى بدء وهو معطل الروح والفكر والحس عن عمد أو غير عمد ، وهذا التعطيل يجد من الاستجابة المعينة للحادثة التاريخية ، أى أنه يحرم صاحبها عنصرا من عناصر ادراكها وفهمها وتفسيرها وتصويرها على الوجه الاكمل وما يترتب على ذلك من تقويم غير سديد وحكم غير سليم ٠

اثنا عشر : محاولة بلورة المنهج الاسلامى للدراسات التاريخية ، فى ضوء دراستنا لتاريخ الامة الاسلامية فى جزيرة العرب قبل وبعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

الفصـــل الثـانى

الاسباب التى تدعو الى اعادة كتابة تاريخ وحضارة أمة العرب منذ أقدم العصور

الواقع أن هنـــاك ضرورة ملحة لاعـــادة كتابة تاريخ أمـــة العرب منـــذ أقدم العصور وذلك لاسباب عديدة نجملها ، ثم نفصلها كالتالى :

* أسباب تتعلق بتسمية الحقبة التى تسبق رســـالة محمد صـلى الله عليه وسلم ، والحقبة التى تعقبها .

* أخرى تتعلق بمن كتبوا تاريخ أمـــة العرب فى القرن الاخير ، والكتب المتداولة عنها .

* ثالثة تتعلق بالمصـــادر التى اعتمد عليها فى كتـــابة تاريخ أمـة العرب .

* رابعة تتعلق بالمنطلقات الفكرية التى انبثقت عنها تلك الدراسـات التاريخية .

* وخامسة ذات صـــلة وثيقة بالنتائج التى نجمت عن تلك الدراسات.

* وسادسة تتعلق بالمنهج المستخدم فى كتـــابة تاريخ أمة العرب .

أولا ـ الاسباب التى تتعلق بالتسمية :

تمتد الحقبة الزمنية التى سنعالجها فى كتابنا الاول عن تاريخ وحضارة أمـــة العرب من عصر ما قبل الميلاد (لا يمكن تحديد تاريخ قاطع له) حتى عصر رسالة خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد جرت عـــادة بعض المؤرخين فى القرن الاخير على تسمية تلك

الحقبة بـ « العرب قبل الاسلام » أو « العرب فى الجاهلية » ، أو «جاهلية العرب (١) » ٠

وتلك التسميات مجافية للصواب لأن تلك الحقبة ينتظم فيها رسالات هود وصالح وسليمان وموسى وعيسى وغيرهم من الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكلهم دعوا الى دين الاسلام الذى دعا اليه رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ٠

أضف الى ذلك ، أن أمة العرب التى عاصرت تلك الرسالات ، قد استجاب البعض منها لدعوة الرسل فأسلم ، والبعض عاند ورفض فأهلكه الله بذنبه ، أى أن الامة العربية كان فيها المسلم والكافر وان تاريخها كان موزعا بين الاسلام والجاهلية نتيجة لرسالات السماء التى سبقت الرسالة الخاتمة وهى رسالة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ٠

اذن فالاسلام هو الدين الذى ارتضاه الله للبشرية ، واليه دعا رسل الله الكرام جميعا من لدن نوح عليه السلام ، الى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل واليه دعا يعقوب (٢) وموسى ، وسليمان ٠٠٠ بل والجدير بالذكر أن فرعون حينما أدركه الغرق ، شهد لله بالوحدانية ، وأعلن أنه يرتضى الاسلام دينا ٠٠٠

والدليل على ما نقول آيات بينات من كتاب الله وبعض أحاديث رسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفقرات من كتب التراث ٠

---

(١) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨ أجزاء ، بغداد ١٩٥٠ ، جرجى زيدان (مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس) العرب قبل الاسلام ، القاهرة ، نفس المؤلف ، تاريخ التمدن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٢

و عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ٠

و طه حسين الشعر الجاهلى ، القاهرة ١٩٢٦ ٠

و محمد على كرد ، الاسلام والحضارة العربية ٠

و ل ٠ أ ٠ سيديو (ترجمة عادل زعيتر) ، تاريخ العرب العام ، القاهرة ٠

و جوستاف لوبون (ترجمة عادل زعيتر) حضارة العرب ، القاهرة ٠

(٢) وهو اسرائيل ٠

(أ) **القرآن الكريم** : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم • بسم الله الرحمن الرحيم

« وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين • بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون » (٣) •

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم (٤) •

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون • أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون » (٥) •

« وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين • قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (٦) •

« ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب • فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (٧) •

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله ، قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (٨) •

---

(٣) البقرة : ١١١ ـ ١١٢ •
(٤) البقرة : ١٢٨ •
(٥) البقرة : ١٣٠ ـ ١٣٣
(٦) البقرة : ١٣٥ ـ ١٣٦ •
(٧) آل عمران : ١٩ ـ ٢٠
(٨) آل عمران : ٥٢ •

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٩) ٠

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ٠ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » (١٠) ٠

« ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » (١١) ٠

« أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون ٠ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ؛ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » (١٢) ٠

« يأيها الذين آمنوا إتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون » (١٣) ٠

« ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » (١٤) ٠

« اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ٠ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم » (١٥) ٠

« انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيين والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه

(٩) آل عمران : ٦٤
(١٠) آل عمران : ٦٧ ــ ٦٨ ٠
(١١) آل عمران : ٨٠
(١٢) آل عمران : ٨٣ ــ ٨٥ ٠
(١٣) آل عمران : ١٠٢
(١٤) النساء : ١٢٥
(١٥) المائدة : ٣

شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لـم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (١٦) ·

« واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنـا واشهد بأننا مسلمون » (١٧) ·

قل أغير الله أتخذ وليـا فاطر السموات والارض وهو يطعم ولا يطعم قـل انى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين (١٨) ·

« فمن يرد الله أن يهديه يشرح صـدره للاسلام ومن يرد أن يضـله يجعل صدره ضيقا حرجـا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل اللـه الرجس على الذين لا يؤمنون » (١٩) ·

« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك لـه وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٢٠) ·

« **وأتل عليهم نبأ نوح** اذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاؤكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا الى ولا تنظرون · فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » (٢١) ·

« **وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم** بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين· وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيـا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت بـه بنو اسرائيل وأنا من المسلمين (٢٢) ·

---

(١٦) المائدة : ٤٤
(١٧) المائدة : ١١١
(١٨) الانعام : ١٤
(١٩) الانعام : ١٢٥ ·
(٢٠) الانعام : ١٦٣ ــ ١٦٤ ·
(٢١) يونس : ٧٢
(٢٢) يونس : ٨٩ ــ ٩٠

« فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم اللـــه وأن لا اله الا هــو فهل أنتم مسلمون » (٢٣) ٠

« واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، مـــا كان لنـــا أن نشرك بالله من شيء ذلك فضـــل اللـــه علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (٢٤) ٠

« رب قد أتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » (٢٥)٠

« ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » (٢٦) ٠

« ويوم نبعث فى كل أمـــة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنـــا بك شهيدا على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتـــاب تبيانا لكل شيء وهـــدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٢٧) ٠

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهـــدى وبشرى للمسلمين » (٢٨) ٠

« قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحـــد فهل أنتم مسلمون »(٢٩) ٠

« ولكل أمـــة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعـــام فالهكم اله واحـــد فله أسلموا وبشر المخبتين » (٣٠) ٠

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم ومـــا جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هـــو سماكم المسلمين من قبـــل وفى هـــذا ليكون

---

(٢٣) هود : ١٤ ٠
(٢٤) يوسف : ٣٨ ٠
(٢٥) يوسف : ٢٠١ ٠
(٢٦) الحجر : ٨٢ ٠
(٢٧) النحل : ٨٩ ٠
(٢٨) النحل : ١٠٢ ٠
(٢٩) الأنبياء : ١٠٨ ٠
(٣٠) الحج : ٣٤ ٠

الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (٣١) ٠

« **قالت يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ٠ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » (٣٢) ٠**

« **قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين » (٣٣) ٠**

فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت **كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » (٣٤) ٠**

« قيل لها ادخلى **الصرح فلما رأته حسبته لجة** وكشفت عن ساقيها ، قال انه صرح ممرد من قوارير ، قالت ربى انى ظلمت نفسى **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » (٣٥) ٠**

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٣٦) ٠

« انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين » (٣٧) ٠

« الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ٠ واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين » (٣٨) ٠

« ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » (٣٩) ٠

ب ت

---

(٣١) الحج : ٧٨ ٠
(٣٢) النمل : ٢٩ ـ ٣١ ٠
(٣٣) النمل : ٣٨ ٠
(٣٤) النمل : ٤٢
(٣٥) النمل : ٤٤ ٠
(٣٦) النمل : ٨١ ٠
(٣٧) النمل : ٩١ ٠
(٣٨) القصص : ٥٢ ـ ٥٣ ٠
(٣٩) العنكبوت : ٤٦ ٠

« وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٤٠) ٠

« ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور » (٤١) ٠

« ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (٤٢)٠

« قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين » (٤٣) ٠

« أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين » (٤٤) ٠

« وأنيبوا الى ربكم وأسلموا من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون » (٤٥) ٠

« قل أنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أنأسلم لرب العالمين » (٤٦) ٠

ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين (٤٧) ٠

« يا عبادى لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ٠ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » (٤٨) ٠

« ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها

---

(٤٠) الروم : ٥٣ ٠
(٤١) لقمان : ٢٢
(٤٢) الاحزاب : ٣٥
(٤٣) الزمر : ١١ ــ ١٢
(٤٤) الزمر : ٢٢ ٠
(٤٥) الزمر : ٥٤ ٠
(٤٦) غافر : ٦٦ ٠
(٤٧) فصلت : ٣٣
(٤٨) الزخرف : ٦٨ ــ ٦٩ ٠

وحمله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى انى تبت اليك وانى من المسلمين » (٤٩) ٠

« قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ٠ فان تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وان تتولوا كما توليتهم من قبل يعذبكم عذابا أليما » (٥٠) ٠

« قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الايمان فى قلوبكم وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ان الله غفور رحيم » (٥١) ٠

« يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ٠ ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما تعملون » (٥٢) ٠

« قالوا فما خطبكم أيها المرسلون ٠ قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين ٠ لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين ٠ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا غير بيت من المسلمين » (٥٣) ٠

« ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدى القوم الظالمين » (٥٤) ٠

« عسى ربه ان طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا » (٥٥) ٠

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ٠ ما لكم كيف تحكمون » (٥٦) ٠

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ٠ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » (٥٧) ٠

---

(٤٩) الاحقاف : ١٥ ٠
(٥٠) الفتح : ١٦ ٠
(٥١) الحجرات : ١٤ ٠
(٥٢) الحجرات : ١٧ ٠
(٥٣) الذاريات : ٣٦ ٠
(٥٤) الصف : ٧ ٠
(٥٥) التحريم : ٥ ٠
(٥٦) القلم : ٣٥ ــ ٣٦ ٠
(٥٧) الجن : ١٣ ــ ١٤ ٠

« تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم · انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، **ألا لله الدين الخالص** والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى أن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدى من هو كاذب كفار » (٥٨) ·

« شرع لكم من الدين **ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين** ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم اليه الله يجتبى من يشـــاء ويهدى اليه من ينيب » (٥٩) ·

(ب) سنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم :

وقد روى فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال :

« مثلى فى النبيين كمثل رجـــل بنى دارا فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة »(٦٠)

وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم انه قال : « أنا أولى النـــاس بعيسى ابن مريم فى الدنيـــا والآخرة ، **والأنبيـــاء اخوة لعلات أمهاتهم** شى **ودينهم واحد** (٦١) ·

ودين الله يعنى دائما : الدينونة للـــه وحـــده ، بالتزام ماشرعه ، ورفض ما يشرعه غيره · وأفراده ـ سبحانه ـ بالألوهية فى الارض مثـــل افراده بالألوهية فى السماء ، وتقرير ربوبيته وحـــده للناس · أى حاكميته وشرعه وسلطانه وأمره ·

---

(٥٨) الزمر : ١ ـ ٣ (٥٩) الشورى : ١٣ ·

(٦٠) أخرجه الامـــام أحمد والترمذى عن أبى بن كعب · وأخرجـــه الامـــام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله · وأخرجـه الامام أحمد والبخارى ومسلم عن ابى هريرة · واخرجـــه الامام أحمد والامـام مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنهم أجمعين ·

(٦١) (رواه البخارى ج ٤ ص ٢٠٣) ـ والحافظ المنذرى فى مختصر صحيح مسلم الذى حققه الشيخ ناصر الدين الالبانى ، تحت رقم ١٦١٨ ·

(ج) التراث الاسلامى :

ورد فى تاريخ الطبرى (٦٢) الرواية التالية التى تشير الى أن الدين الذى دعا اليه هود عليه السلام هو الاسلام ، وان ذلك الامر كان معروفا لدى أمة العرب : « وأما ابن اسحاق فانه كما حدثنا ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عنه : أن عادا لما أصابهم من القحط ما أصابهم قالوا : جهزوا منكم وفدا الى مكة فيستسقوا لكم ، فبعثوا قيل بن عتر ولقيم بن هزال بن هزيل بن عشيل ابن صد بن عاد الاكبر ، ومرثد ابن سعد بن عفير – وكان مسلما يكتم اسلامه – وجلهمة بن الخبيرى ، خال معاوية بن بكر أخا أمه ، ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان ابن صد بن عاد الاكبر ، فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا ، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وصهره • وكانت هزيلة ابنة بكر أخت معاوية بن بكر لابيه وامه كلهدة ابنة الخيبرى عند لقيم (بن هزال بن عتيل ابن صد ابن عاد الاكبر) ، فولدت له عبيد بن لقيم بن هزال وعمرو بن لقيم ابن هزال وعامر بن لقيم بن هزال ، فكانوا فى أخوالهم بمكة عند آل معاوية ابن بكر ، وهم عاد الاخيرة التى بقيت من عاد الأولى • فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان – قينتان لمعاوية بن بكر – وكان سيرهم شهرا ، ومقامهم شهرا ، فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتغوثون وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيفى نازلون على ، والله ما أدرى : كيف أصنع بهم ! استحى أن آمرهم بالخروج الى ما بعثوا اليه ، فيظنوا انه ضيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك من وراءهم من قومهم جهدا وعطشا ، أو كما قال •

فشكا ذلك من أمرهم الى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعرا نغنيهم به لا يدرون من قاله ، لعل ذلك ان يحركهم ! فقال معاوية بن بكر حين أشارتا عليه بذلك :

---

(٦٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٥٤ – ٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ١ ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٠ ، ص ٢١٩ وما بعدها ، وقد وهن بعض العلماء روايات ابن اسحاق فى الشعر الجاهلى عن عاد وثمود ، ولكن نرى أنه من الفائدة اثباتها ، على اعتبار اننا لدينا خبر يقينى من القرآن الكريم عن رسالتى هود وصالح عليهما السلام • فى الوقت الذى تتجاهلهما فيه التوراة والانجيل (انظر أمين مدنى ، التاريخ العربى ومصادره ، دار المعارف مصر جزء ٢ ، ٤٥٨ – ٤٧١) •

الا ياقيـــل ، ويحك قـــم فهينم
لعـــل اللـــه يسقينا غمـــاما

فيسقى أرض عـــاد ، ان عـــادا
قـــد أمســـوا لا يبينون الكـــلاما

من العطش الشديد ، فليس نرجو
بـــه الشيخ الكبير ولا الغـــلاما

وقـــد كانت نســـاؤهم بخير
فقـــد أمســـت نســاؤهم عيـــامى

وان الـــوحش تأتيهـــم جهـــارا
ولا تخشى لعـــادى ســهامـــا !

وانتم هـــا هنـــا فيما اشتهيتم
نهـــاركم وليلـــكم التمـــاما

فقبح وفـــدكم من وفـــد قوم
ولا لقـــوا التحية والســـلاما !

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنتهم بـه الجرادتان • فلما سمع القوم ما غنتا به ، قال بعضهم لبعض : يقـــاوم انما بعضكم قومكم يتغوثون بكم من هـــذا البلاء الذى نزل بهم ، وقـــد أبطأتهم عليهم ، فادخلوا هـــذا الحرم فاستسقوا لقومكم ، فقـــال مرثـد بن سعد بن عمير : **انكم واللـــه لا تسقون بدعائكم ، ولكن ان اطعتم نبيكم ، وأنبتم اليه سقيتم • فأظهر اسلامه عند ذلك** ، فقال لهم جلهمة بن الخيبرى ، خـــال معاوية بن بكر حين سمع قوله ، وعرف أنه قـــد تبع دين هود وآمن به :

أبـــا ســـعد فانـك من قبيـــل
ذوى كـــرم وأمـــك من ثمـود
فانـــا لن نطيعـك مـــا بقينـــا
ولســـنا فاعلـين لمـــا تريـــد

أتـأمـــرنـــا لنتـــرك آل رفـــد
وزمـــل وآل صـــد والعبـود
وتتـــرك ديـن آبـــاء كـــرام
ذوى رأى ونتبـع ديـــن هـــود

ورفد وزمل وصـــد قبائل من عاد ، والعبود منهم ، ثم قال لمعـــاوية

ابن بكر وابيه بكر : احبسا عنـــا مرثد بن سعد فلا يقدمن معنـا مكـــه ، فانه قد انبع دين هود ، وترك ديننا . ثم خرجوا الى مكـة يستسقون بهـا لعاد ، فلما ولوا الى مكـة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية ، حتى أدركهم بهـا قبل أن يدعوا الله بشيء مما خرجوا له . فلمـــا انتهى اليهم قـــام يدعو الله ، وبهـا وفـد عـــاد قـد اجتمعوا يدعون . فقال : اللهم أعطنى سؤلى وحـدى ، ولا تدخلنى فى شيء مما يدعوك بـه وفد عـــاد . وكان قيل بن عتر رأس وفد عـــاد . وقال وفـد عـاد : « اللهم أعط قيـــلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله » . وقـــد كان تخلف عن وفـد عـــاد لقمان ابن عـــاد ، وكان سيد عاد ، حتى اذا فرغوا من دعوتهم قال : اللهم انى جئتك وحـــدى فى حاجتى فاعطنى سؤلى . وقال قيل بن عتر حين دعا : يا الهنا ، ان كان هود صادقا فاسقنا فانا قد هلكنا . فأنشأ الله سحائب ثلاثا : بيضـــاء وحمراء ، وسوداء ، ثم ناداه مناد من السحاب ، يا قيـل ، اختر لنفسك وقومك من هـــذا السحاب . فقـــال : قـد اخترت السحابة السوداء ، فانها أكثر السحاب مـــاء ، فناداه منـاد : اخترت رمادا رمددا ، لا تبقى من عـــاد أحـد ، لا والدا تترك ولا ولدا ، الا جعلته همدا ، الا بنى اللوذية المهدى ــ وبنو اللوذية بنو لقيم بن هزال بن هزيل بن هزيلة ابنـة بكر ، كانوا سكانا بمكة مع أخوالهم ، لم يكونوا مع عـــاد الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد .

وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختار قيل ابن عتر بما فيها من النقمة الى عاد ، حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث . ولمـا رأوها استبشروا بها ، وقالوا : (هذا عارض ممطرنا) ، يقول الله عز وجل : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها) ، أى كل شيء امرت به . فكان اول من أبصر ما فيها أنها ريح ــ فيمـــا يذكرون ــ امرأة من عاد يقال لها مهدد ، لما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت ، فلما افاقت قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟ قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار ، أمامهـا رجال يقودونها . فسخرها الله عليهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) ، كما قال الله . والحسوم : الدائمة ، فلم تدع من عاد أحد الا هلك .

فاعتزل هود ــ فيما ذكر ــ ومن معه من المؤمنين فى حظيرة ، ما يصيبه ومن معه منها الا ما تلين عليه الجلود ، وتلتذ الأنفس ، وانها لتمر من عـــاد بالظعن ما بين السماء والارض ، وندمغهم بالحجارة وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه ، فبيناهم عنده ، اذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة مسى ثالثة من مصاب عاد ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا : فأين فارقت هودا وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر ، فكأنهم شكوا فيما حدثهم ، فقالت هزيلة ابنة بكر : صدق ورب مكة . ومثوب بن يعفر بن أخى

معاوية بن بكر معهم ۰ وقد كان قيل ــ فيما يزعمون والله أعلم ــ لمرثد بن سعد ولقمان بن عاد ، وقيل بن عتر حين دعوا بمكة : قد أعطيتم مناكم فاختاروا لأنفسكم ، الا انه لا سبيل الى الخلد ، فانه لا بد من الموت ، فقال مرثد بن سعد ، يا رب ، أعطنى برا وصدقا ، فأعطنى ذلك ، وقال لقمان بن عاد : أعطنى عمرا ، فقيل له : اختر لنفسك ، الا انه لا سبيل الى الخلد : بقاء أبعار ضأن عفر ، فى جبل وعر ، لا يلقى به الا القطر ، أم سبعة أنسر اذا مضى نسر خلوت الى نسر ؟ فاختار لقمان لنفسه النسور ، فعمر ــ فيما يزعمون ــ عمر سبعة أنسر ، يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته ، فيأخذ الذكر منها لقوته ، حتى اذا مات أخذ غيره ، فلم يزل يفعل ذلك ، حتى أتى على السابع ۰ وكان كل نسر فيما زعموا يعيش ثمانين سنة ، فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ للقمان : أى عم ، ما بقى من عمرك الا عمر هذا النسر ، فقال له لقمان : أى ابن أخى : هذا لبد ــ ولبد بلسانهم الدهر ــ فلما أدرك نسر لقمان ، وانقضى عمره طارت النسور غداة من رأس الجبل ، ولم ينهض فيها لبد ، وكانت نسور لقمان تلك لا تغيب عنه ، انما هى بعينه ۰ فلما لم ير لقمان لبدا نهض مع النسور ، نهض الى الجبل لينظر ما فعل لبد ، فوجد لقمان فى نفسه وهنيا لم يكن يجده قبل ذلك ، فلما انتهى الى الجبل رأى نسره لبدا واقعا بين النسور ، فناداه : انهض لبد ، فذهب لبد لينهض فلم يستطع ، عريت قوادمه وقد سقطت ، فماتا جميعا ۰

وقيل لقيل بن عتر حين سمع ما قيل له فى السحاب : اختر لنفسك كما اختار صاحباك فقال : أختار أن يصيبنى ما أصاب قومى ، فقيل : انه الهلاك ، قال : لا أبالى ، لا حاجة لى فى البقاء بعدهم ۰ فأصابه ما أصاب عادا من العذاب فهلك ، فقال مرثد بن سعد بن عفير حين سمع من قول الراكب الذى أخبر عن عاد بما أخبر من الهلاك :

عصت عاد رسولهم فأمسوا
عطاشا ما تبلهم السماء
وسير وفدهم شهرا ليسقوا
فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهم بربهم جهارا
على آثار عادهم العفاء
ألا نزع الاله حلوم عاد
فان قلوبهم قفر هواء
من الخبر المبين أن يعوه
وما تغنى النصحية والشفاء
فنفسى وابنتاى وأم ولدى
لنفس نبينا هود فداء

أتــانـا والقلــوب مصمـــدات
على ظلـم ، وقـد ذهب الضـياء
لنـا صـنم يقال لـه صــمود
يقابلــه صـــداء والهبـــاء

فأبصره الــذين لــه أنابـوا
وأدرك مـن يـكذبه الشـقاء
فـانى سـوف ألحق آل هـود
واخـــوته اذا جـن المســاء

وقيل : ان رئيسهم وكبيرهم فى ذلك الزمان الخلجان :

حدثنى العباس بن الوليـد ، قال : حدثنـا أبى ، عن اسماعيل بن عياش ، عن محمد بن اسحاق ، قال : لمـا خرجت الريح على عـاد من الوادى ، قال سبعة رهط منهم ، أحدهم الخلجان : تعالوا حتى نقوم على شفير الوادى فتردها ، فجعلت الريح تدخـل تحت الواحد منهم فتحمله ، ثم ترمى بـه فتندق عنقــه ، فتتركهم كما قال الله عز وجـل : (صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) حتى لم يبق منهم الا الخلجان ، فمال الى الجبل ، فأخذ بجانب منه ، فهزه فاهتز فى يده ، ثم انشأ يقول :

لـم يبق الا الخلجان نفســه
يالك من يـوم دهـانى أمســه
بثـابت الوطء شـديد وطسـه
لـو لم يجئنى جئتــه أجســه

فقال له هود : ويحك يا خلجان ! أسلم تسلم ، فقال له : ومـالى عند ربك ان اسلمت ؟ قال : الجنة ، قال : فمـا هؤلاء الذين أراهم فى هـذا السحاب كأنهم البخت ، قال هود : تلك ملائكة ربى ، قال : فان أسلمت أيعيذنى ربك منهم ؟ قال : ويلك ! هـل رأيت ملكا يعيذ من جنده ! قال : لو فعل ما رضيت ، قال : ثم جـاءت الريح فألحقته بأصحابه ، أو كـلاما هذا معناه .

قال أبو جعفر : فأهلك اللــه الخلجان ، وأفنى عـادا خلا من بقى منهم ، ثـم بادوا بعد ، ونجى الله هودا ومن آمن بــه . وقيل : كان عمر هود مائة سـنة وخمسين سنة .

ثانيـا : من الــذين كتبوا تاريخ جزيرة العرب التى نحن بصـدد دراستها ؟ ما هى معتقداتهم ؛ وهـل يجوز لمسلم يشهد ان لا اله الا اللـه

ان يتلقى عنهم ؟ نجيب على السؤالين الاول والثانى فنقول :

« ينتمى أغلب من كتب من الاجانب المهتمين بالدراسات التاريخية (٦٣)

---

(٦٣) Delacy O'Leary, Arabia before Muhammad, London 1927.

كارل بروكلمان (تعريب د · محمد كمال الدسوقى) تاريخ الشعوب الاسلامية ، الطبعة الخامسة ، بيروت ١٩٦٨ ·

Hamilton A. R. Gibb, The Arab conquests in central Asia, London 1933;

جولد تسيهر (تعريب محمد يوسف ، موسى وآخرون) ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ، القاهرة ١٩٥٩ م ·

I. Guidi, L'Arabie Anteislamique, Paris, 1921.

فيليب متى ، ودوارد جرجس ، جبرائيل جبور ، تاريخ العرب المطول ط ٤ ، جزءان بيروت ١٩٦٥ ·

أرنولد توماس (تعريب د · حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى) ، الدعوة الى الاسلام ، القاهرة ١٩٧١ ·

وليام ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الثانى ، من المجلد الرابع ، القاهرة ١٩٦١ ·

كارل بروكلمان (ترجمة عبد الحليم النجار) ، تاريخ الأدب العربى ، ثلاثة أجزاء ، القاهرة ، ٥٩ – ١٩٦٢ ·

ج · با · جلوب (تعريب خيرى حماده) ، الفتوحات العربية الكبرى ، بغداد برنارد لويس (تعريب نبيه أمين فارس ومحمود يوسف) ، العرب فى التاريخ ، بيروت ١٩٥٤

جوستاف لوبون (تعريب عادل زعيتر) ، حضارة العرب ، القاهرة ·

فلاديمير وفيجفاسيلى بارتولد (تعريب حمزة طاهر) ، تاريخ الحضارة الاسلامية ط ٤ ، القاهرة ١٩٦٦ ·

آن بلنت (تعريب محمد أنعم غالب) ، رحلة الى بلاد نجد ، الرياض ١٩٦٧ ·

رينيه دسيو (تعريب عبد الحميد الدواخلى) ، العرب فى سوريا قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٥٩ ·

تيودور نولدكه (ترجمة بندلى جوزى وقسطنطين زريق) أمراء غسان ، بيروت ١٩٣٣ ·

يوليوس فلهاوزن (تعريب د · يوسف العشى) الدولة العربية وسقوطها ، دمشق ، ١٩٥٦ ·

ل · أ · سيديو (تعريب عادل زعيتر) ، تاريخ العرب العام ، القاهرة ·

D. S. Margoliouthe, Mohammad and the Rise of Islam, London 1933.

H. Iammense, Bereau de l'Islam, Rome 1914.

الى دول أوربا الغربية والشرقية واتحاد الجمهوريات السوفيتية والولايات المتحدة الامريكية ومصر وسورية ولبنان وبعض البلاد الاخرى ٠

أما معتقداتهم فهى اليهودية والمسيحية والوثنية وغيرها ٠

أما السؤال الثالث فيجيب عليه أحد المفكرين (٦٤) المسلمين فيقول :

« ان لا اله الا الله ليس لها الا مدلول الحاكمية العليا فى حياة البشر ، كما ان له الحاكمية العليا فى نظام الكون سواء ٠ فهو المتحكم فى الكون والعباد بقضائه وقدره ، وهو المتحكم فى حياة العباد بمنهجه وشريعته ٠٠ وبناء على هذه القاعدة لا يعتقد المسلم ان الله شريكا فى خلق الكون وتدبيره وتصريفه ، ولا يتقدم المسلم بالشعائر التعبدية الا لله وحده ، ولا يتلقى الشرائع والقوانين ، والقيم والموازين ، والعقائد والتصورات الا من الله ، ولا يسمح لطاغوت من العبيد أن يدعى حق الحاكمية فى شيء من هذا كله مع الله ٠

ان شريعة الله تعنى كل ما شرعه لتنظيم الحياة البشرية وهذا يتمثل فى أصول الاعتقاد وأصول الحكم وأصول الاخلاق وأصول السلوك وأصول المعرفة أيضا ٠

ان المسلم لا يملك أن يتلقى فى أمر يختص بحقائق العقيدة أو التصور العام للوجود أو يختص بالعبادة أو يختص بالخلق والسلوك والقيم والموازين أو يختص بالمبادىء والاصول فى النظام السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى أو يختص بتفسير بواعث النشاط الانسانى وبحركة التاريخ الانسانى الا من ذلك المصدر الربانى ولا يتلقى فى هذا كله الا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته فى واقع الحياة ٠ ولكن المسلم يملك أن يتلقى فى العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والاحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الادارة — من الناحية الفنية والادارية البحتة — وطرق العمل الفنية وطرق الحرب والقتال — من الجانب الفنى — الى آخر ما يشبه هذا النشاط ٠٠ يملك أن يتلقى فى هذا لتوفير هذه الكفايات فى هذه الحقول كلها باعتبارها فروض كفاية يجب أن يتخصص فيها أفراد منه والا أثم المجتمع كله اذا لم يوفر هذه الكفايات ولم يوفر لها الجو الذى تتكون فيه وتعمل وتنتج ، ولكن الى أن يتحقق هذا فان للفرد المسلم ان يتلقى فى هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية عن المسلم

(٦٤) L. Bernard, The Aliginis of Islamisme, Cambridge, 1914.

وغير المسلم وان ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم ، وان يشغل فيها المسلم وغير المسلم ٠٠ لأنها من الامور الداخلية فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » ٠٠ وهى لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والانسان وغاية وجوده وحقيقة وظيفته ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله وبخالق الوجود كله ولا تتعلق بالمبادىء والشرائع والانظمة والاوضاع التى تنظم حياته أفرادا وجماعات ، ولا تتعلق بالاخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التى تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع ٠ ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته أو ارتداده الى الجاهلية ٠

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الانسانى كله أفرادا أو مجتمعات — وهو المتعلق بالنظرة الى نفس الانسان والى حركة تاريخه وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون نشأة الحياة ونشأة هذا الانسان ذاته من ناحية ما وراء الطبيعة — (وهو مالا يتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب ٠٠ الخ) فالشأن فيه شأن الشرائح القانونية والمبادىء والاصول التى تنظم حياته ونشاطه مرتبطة بالعقيدة ارتباطا مباشرا فلا يجوز للمسلم أن يتلقى فيه الا عن مسلم يثق فى دينه وتقواه ويعلم عنه ان يتلقى فى هذا كله عن الله ٠٠ والمهم ان يرتبط هذا فى حس المسلم بعقيدته وان يعلم أن هذا مقتضى عبوديته لله وحده ٠ أو مقتضى شهادته ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ٠

انه يطلع على كل آثار النشاط الجاهلى ٠ ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته فى هذه الشئون كلها ٠ انما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الانحرافات البشرية ، بردها الى أصولها الصحيحة فى مقومات التصور الاسلامى وحقائق العقيدة الاسلامية ٠

ان اتجاهات الفلسفة بجملتها واتجاهات «تفسير التاريخ الانسانى» بجملتها واتجاهات علم النفس بجملتها — عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها — ومباحث الاخلاق بجملتها ٠ واتجاهات دراسة « الاديان المقارنة » بجملتها ٠ واتجاهات التفسيرات والمذاهب الاجتماعية بجملتها — فيما عدا المشاهدات والاحصاءات والمعلومات المباشرة ٠ لا النتائج المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها — ان هذه الاتجاهات كلها هى الفكر الجاهلى — أى غير اسلامى — قديما وحديثا يتأثر تأثيرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية وقائمة على هذه التصورات ٠ ومعظمها — ان لم يكن كلها — يتضمن فى أصوله المنهجية عداء ظاهرا أو خفيا للتصور الدينى جملة والتصور الاسلامى على وجه خاص ٠

ان حكاية ان الثقافة ، تراث انسانى ٠٠ لا وطن له ولا جنس ولا دين ٠٠ هى حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية ـ دون أن تجاوز هـذه المنطقة الى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ولا الى التفسيرات الفلسفية لنفس الانسان ونشاطه وتاريخه ، ولا الى الفن والادب والتعبيرات الشعورية جميعا وكلها ، فيما وراء ذلك . احدى مصايد اليهود العالمية التى يهمها تمييع الحواجز كلها ـ بما فى ذلك بل فى أول ذلك حواجز العقيدة والتصور ـ لكى ينفذ اليهود الى جسم العالم كله ٠ وهو شرخ مخدر يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطانى ٠ وفى أوله نشاطهم التربوى الذى ينتهى الى جعل حصيلة كد البشرية كدها تؤول الى أصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود ٠

ولكن الاسلام يعتبر ان هناك ـ فيما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العلمية نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الاسلامية القائمة على قواعد التصور الاسلامى والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها الى قاعدة واحدة ٠٠ قاعدة اقامة الفكر البشرى الها لا يرجع الى الله فى ميزاته ٠٠ والثقافة الاسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكرى والواقعى الانسانى ، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما ٠

ويكفى ان نعلم أن الاتجاه التجريبى الذى قامت عليه الحضارة الصناعية الاوربية الحاضرة لم ينشأ ابتداء فى أوربا وانما نشأ فى الجامعات الاسلامية فى الاندلس والمشرق مستمدا أصوله من التصور الاسلامى وتوجيهاته الى الكون وطبيعته الواقعية ومدخراته وأقواته ٠٠ ثم استقلت النهضة العلمية فى أوربا بهذا المنهج واستمرت تنميه وترقيه ٠ بينما ركد وترك نهائيا فى العالم الاسلامى بسبب بعد هذا العالم تدريجيا عن الاسلام بفعل عوامل بعضها كامن فى تركيب المجتمع وبعضها يتمثل فى الهجوم عليه من العالم الصليبى والصهيونى ٠ ثم قطعت أوربا ما بين المنهج الذى اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية وشردت به نهائيا بعيدا عن الله فى أثناء شرودها عن الكنيسة التى كانت تستطيل على الناس ـ بغيا وعدوانا ـ باسم الله ٠

وكذلك أصبح نتاج الفكر الاوربى بجملته ـ شأنه شأن نتاج الفكر الجاهلى فى جميع الأزمان فى جميع البقاع ـ شيئا آخر ذا طبيعة مختلفة من أساسها عن مقومات التصور الاسلامى ٠ ومعاديا فى الوقت ذاته عداء أصيلا للتصور الاسلامى ٠٠ ووجب على المسلم ان يرجع الى مقومات تصوره وحدها والا يأخذ الا من المصدر الربانى ان استطاع بنفسه والا فلا يأخذ الا عن مسلم تقى يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه الى الاخذ عنه ٠

ان حكاية فصل العلم عن « صاحب العلم » لا يعرفها الاسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفهومات العقيدة المؤثرة فى نظرة الانسان الى الوجود والحياة والنشاط الاسانى والاوضاع والقيم والاخلاق والعادات وسائر ما يتعلق بنفس الانسان ونشاطه من هذه النواحى ٠

ان الاسلام يتسامح فى أن يتلقى المسلم عن غير المسلم أو عن غير التقى من المسلمين فى علم الكيمياء البحتة أو الطبيعية أو الفلك او الطب أو الصناعة او الزراعة أو الاعمال الادارية والكتابية ٠٠ وأمثالها ٠ وذلك فى الحالات التى لايجد فيها مسلما تقيا يأخذ عنه فى هذا كله (كما هو واقع من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم ٠ الناشىء من بعدهم عن دينهم ومنهجهم ٠ وعن التصور الاسلامى لمقتضيات الخلافة فى الارض ـ باذن الله ـ وما يلزم لهذه الخلافة) ٠ من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة ٠ ولكنه لا يتسامح فى أن يتلقى أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ٠ ولا تفسير قرآنه وسيرة نبيه ولا منهج تاريخه وتفسير نشاطه ولا مذهب مجتمعه ٠ ولا نظام حكمه ٠ ولا منهج سعادته ولا موحيات فنه وأدبه وتعبيره ٠٠٠الخ من مصادر غير اسلامية ٠ ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق فى دينه وتقواه ٠

ان ذلك الحكم ليس رأيا شخصيا ، لأنه أكبر من أن يفتى فيه بالرأى ٠٠ انه أثقل فى ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه انما هو قول الله سبحانه ـ وقول نبيه صلى الله عليه وسلم ٠٠ نحكمه فى هذا الشأن ونرجع فيه الى الله والرسول كما يرجع الذين آمنوا الى الله والرسول فيما يختلفون فيه يقول الله سبحانه وتعالى عن الهدف النهائى لليهود والنصارى فى شأن المسلمين بصفة عامة :

« ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ان الله على كل شىء قدير » ٠

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير » ٠

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » ٠

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين » ٠

« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله ان كنتم مؤمنين » ٠

« يأيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » ٠

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير » ٠

« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله لن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ٠

ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماد عن الشعبى عن جابر – رضى الله عنهم : لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ٠٠ فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا ٠ وانكم اما أن تصدقوا بباطل ٠ واما أن تكذبوا بحق وانه والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى ٠

وحين يتحدد الهدف النهائى لليهود والنصارى والمشركين فى شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذى يقرره الله سبحانه يكون من البلاهة الظن لحظة بأنهم يصدرون عن نية طيبة فى أى مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الاسلامية أو التاريخ الاسلامى أو التوجيه فى نظام المجتمع المسلم أو فى سياسته أو اقتصاده أو يقصدون الى خير أو الى هدى أو الى نور ٠٠ والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس – بعد تقرير الله سبحانه – انما هم الغافلون ٠

كذلك يتحدد فى قول الله سبحانه : « قل ان هدى الله هو الهدى » المصدر الوحيد الذى يجب على المسلم الرجوع اليه فى هذه الشئون ٠ فليس وراء هدى الله الا الضلال وليس فى غيره هدى ٠

كذلك يتحدد الامر القاطع بالاعراض عمن يتولى عن ذكر الله بقصر اهتمامه على شئون الحياة الدنيا ٠ وينص على أن مثل هذا لا يعلم الا ظنا والمسلم منهى عن اتباع الظن ٠ وانه لا يعلم الا ظاهرا من الحياة الدنيا فهو لا يعلم علما صحيحا « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ٠ ذلك مبلغهم من العلم ٠ ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله »

وهو أعلم بمن اهتدى » • « ويعلمون ظاهرا من الحيـــاة الدنيـا وهم عن الآخرة غافلون » •

ثالثا : ما هى المصادر التى اعتمد عليها فى كتابة تاريخ جزيرة العرب ؟ وهل القرآن والسيرة النبوية وكتب التراث من بينها ؟

حرصت مؤلفات القرن الأخير عن تاريخ جزيرة العرب ، على الاعتمـاد على المصادر التالية :

١ ــ آثار شـــبه الجزيرة العربية جنوبا وشمالا وتنقسم الى قسمين : آثار فكرية وتشمل كل ما خلفه انســـان جزيرة العرب من نصوص وكتابات ، وآثـار غير فكرية متمثلة فيها خلفه القوم من حصـــون وقصور ومنـــازل وسدود ومعابد ومقابر وغير ذلك •

٢ ــ ما ورد فى بعض المصـــادر الاجنبية المعاصرة لتاريخ العرب ، كالمعلومات التى وردت على آثار الفراعنة والبابليين والآشوريين •

٣ ــ ما كتبه الرحالة والجغرافيون اليونان والرومان •

٤ ــ ما ورد فى الكتب المقدسة (٦٥) (الانجيل والتوراة والقرآن) ــ

ما ورد فى تفاسير القرآن •

ما ورد فى كتب المؤرخين العرب •

وعن المصدر الاول أى المعلومات المستمدة من الآثـار فهى فى حاجـة الى كثير من التحليل والتدقيق قبـــل الاعتماد عليها أو اتخاذ مـــا جـــاء فيها كحقيقة تاريخية لأن فيها من الامور التى لا يمكن الاعتماد عليها كوقائع ثابتة لانها كتبت لغرض معين وفى وقت معين ، وغالبا للاعلاء من شـــأن صاحبها •

أما المعلومات المستقاة من المصادر الأجنبية فانها بدورها تمثل وجهة نظر معينة وخاصـــة اذا كان ذلك تسجيلا لنتائج معارك حربية على آثـار

---

(٦٥) لا يجوز أن يقـــال على الانجيل والتوراة المحرفتين انهما كتابين مقدسين لانهما فقدا شرعيتها وقدسينهما بمجرد تحريفهما •

اقامها أولئك الملوك . فمثل هذه النقوش سواء فى مصر أو فى العراق أو فى بلاد الشام أو فى غيرها تقام للاعلاء من شأن الملك فتخفى الهزائم وتحيلها الى نصر وتبالغ فى نصر ضئيل فتجعل منه عملا عظيما جبارا .

أما ثالث المصادر وهو ما كتبه رحالة اليونان والرومان فيجب ألا نثق فيه الثقة كلها لأن الغالبية العظمى من هؤلاء لم يعرفوا لغة أهل البلاد ونقلوا ما سمعوه من أفواه محدثيهم وبعضهم من صغار الكهنة أو عامة الناس الذين يقبلون على مرافقة الزوار الاجانب كمحترفين أو متطوعين ، كما ان هؤلاء الكتاب حكموا على ما رأونه أو سمعوه من وجهة نظرهم هم ، وحسب عقليتهم وادراكهم وتأثرهم بعادات بلادهم وديانتها . كما أن كتاباتهم تمثل وجهة النظر اليونانية فى وقت اختلفت فيه مصالح بلادهم مع مصالح البلاد التى زاروها .

وفى النهاية يمكن القول بأن الآثار تبقى بعد ذلك كله شاهدا لا يقبل الشك على وجود الامم السابقة التى تحدث القرآن عنها .

أما المصدر الرابع وهو التوراة والانجيل فهناك من الاسباب ما تمنع الاخذ بما جاء فيهما :

الاول : من الثابت أن صحائف التوراة قد أحرقت نسخها الاصلية على أيدى البابليين منذ عام ٥٨٦ ق . م ولم يتم اعادة كتابتها الا بعد قرون عديدة قبيل ميلاد المسيح ويقال ان الذى كتبها هو عزرا ، وجمع فيها بقايا من التوراة أما سائرها فهو مجرد تآليف ، وفي ذلك يقول أحد المستشرقين ، وهو موسكاتى (٦٦) : « ولكن هناك مشاكل مختلفة تتعلق بمصادر أسفار العهد القديم وزمن وضعها وطريقة تصنيفها ، ولا سيما الاسفار الخمسة الأول أو التوراة » . أما الاناجيل فقد قيل عنها انها جميعا لا تحوى الا ماحفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح عليه السلام — ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير ، ومن ثم لا يجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين فى أمر واحد . وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحافظ أبو يعلى عن حماده عن الشعبى عن جابر — رضى الله عنهم — « لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء ، فانهم

---

(٦٦) (تعريب د . السيد يعقوب بكر) ، الحضارات السامية القديمة ، ١٣٩ .

لن يهدو لم وقـد ضلوا · وانكم اما ان تصدقوا بباطل ، وما أن تكذبوا بحق وانه واللـه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا ان يتبعنى » ·

الثانى : تعارض ما جـاء فيهما عن الله سبحانه وتعالى ورسله الكرام مع المعتقد الاسلامى · فالتوراة تصور اللـه بكل القبائح التى تنسب الى البشرية ، بأنه : يتعب ، ويجهل ويندم ، ويصـارع كما وصفت نوحـا بأنه سكير ، ولوطا بالزنى ، وابراهيم بأنه ديوث ، ويعقوب بأنه محتال ، وحاشا لله ولرسله الكرام أن يكونوا كذلك ·

وسنقدم نماذج لدراسـة سفر التكوين ، الاصحاح الثانى ، والثالث والسادس ، والتاسع ، والثامن عشر والحادى والعشرين والسابع والعشرين والثانى والثلاثين والرابع والثلاثين لكشف جوانب الباطل التى تحدثنـا عنها ان سمح لنا المقام بذلك (٦٧) ·

الثالث : ان الجيل الاول من المسلمين كان يستقى من القرآن وحده ، فمـا كان حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وهديه الا اثرا من آثار ذلك النبع · فعندما سئلت عائشة رضى الله عنها ـ عن خلق رسول اللـه (صلى الله عليه وسلم) ـ قالت : « كان خلقه القرآن » · (أخرجه النسائى) ·

كان القرآن وحده اذن هو النبع الذى يستقون منه ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لانه لم يـكن للبشرية يومها حضارة ولا ثقافه ، ولا علم ، ولا مؤلفات ولا دراسات ·· كلا ! فقـد كانت هنـاك حضارة الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الـذى ما تزال أوربا تعيش عليه ، أو على امتداده · وكانت هنـاك مخلفات الحضارة الاغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهـو ما يزال ينبوع التفكير الغربى حتى اليوم · وكانت هنـاك حضارة الفرس وفنها وشعرها وأساطيرها وعقـائدها ونظم حكمها كذلك · وحضارات أخرى قاصية ودانية ، حضارة الهند وحضارة الصين ·· الخ · وكانا الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان بالجزيرة العربية من شمالهـا ومن جنوبها ، كما كانت اليهـودية والنصرانية تعيشـان فى قلب الجزيرة ·· فلم يكن اذن عن فقر فى الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقتصر ذلك الجيل على كتاب الله وحده ·· فى فترة تكوينه ·· وانمـا كان ذلك عن تصميم مرسوم ، ونهج مقصود يدل على هـذا القصد غضب رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد رأى فى يـد عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ صحيفة من التوراة وقوله : « انه والله لو كان موسى حيـا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعنى » ·

---

(٦٧) أنظر محمد الغزالى ، قذائف الحق ، بيروت ·

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد صنع جيل خالص القلب ، خالص العقل ، خالص التصور ، خالص الشعور ، خالص التكوين من أى مؤثر آخر غير المنهج الالهى الذى يتضمنه القرآن الكريم ٠

ذلك الجيل استقى اذن من ذلك النبع وحــــده (القرآن) ٠ فكان لــه فى التاريخ ذلك الشـــأن الفريد ٠٠ ثم ما الذى حدث ، اختلطت الينابيع ! صبت فى النبع الذى استقت منـــه الاجيال التالية ، فلســـفة الاغريق ومنطقهم وأساطير الفرس وتصوراتهم ، واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى وغير ذلك من رواسب الحضـــارات والثقافات واختلط هـــذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقـه والاصول أيضا ٠ وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الاجيـــال بعـــد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل أبـــدا ٠

وما من شك ان اختلاط النبع الأول كان عامـــلا أساسيا من عوامـــل ذلك الاختلاف البين بين الاجيـــــال كلها وذلك الجيل المميز الفريد ٠

الرابع : ان كل كتابات المستشرقين وتلاميذهم التى اعتمدت على التوراة والانجيل ، جـــاءت مشوهة ومبتورة ومزيفة ، وتحوى اعتداء على ذات الله ورسله الكرام ودينه وسوف نستعرض نماذج لهذه الكتابات المنحرفة فى ثنايا دراستنا ٠

والملاحظات التى نضيفها هنـــا : (أ) ان من كتب عن تاريخ جزيرة العرب عامـــة لم يحاول الاستفادة الكاملة من بعض تلك المصادر كالقرآن والســـنة وكتب التراث ٠ (ب) ان من كتب بدافع النيل من الاسلام والاعتقاد الصحيح عموما ، حـــاول الاعتماد على الروايات الضعيفة للمؤرخين العرب ٠ (ج) عدم الحرص على ترجيح رواية القرآن — عن اخبـــار القرون الاولى — على غيرها من روايات التوراة ، بـــل ذهب البعض منهم الى التشكيك فى وجود عـــاد وثمود أصـــلا ، كما سنعرض لذلك فيما بعد ٠

رابعا : المنطلقات الفكرية التى تنبثق عنها كتابات ودراسات تاريخ أمة العرب :

(أ) معظم هـــذه الدراسات مسخت الجنس البشرى ، فصـــورت الانسان على أنه حيوان على شاكلة القرود ٠٠٠ تطور ونرقى حتى وصـــل الى الانسان السوى ومثـــال ذلك ما قاله : **رالف لنتون فى كتـــابه شجرة الحضارة الذى قام بترجمته الاســـتاذ الدكتور أحمد فخرى ونشرته مكتبة الانجلو المصرية عام ١٩٥٥ تحت عنوان ((نحو الانسان العاقل ص ٢٧)) :**

ولكن يحسن بنـــا ان نقول شيئا قليلا عن أصول وصفات الحيوان المسئول عن ذلك السلوك الغريب ٠٠٠ لقد انتهت المعركة التى كانت بين الانتروبولوجى وبين غير المؤمنين بنظرية التطور ٠ لقد انتهت المعركه بفوز الانتروبولجى منذ وقت طويل ٠ وعلى أى حال لم يكن خصمه يقاتل الا مقاتلة صورية أو بعبارة أخرى كانت أشبه بمعركة ـ ملاكم مع ظله » ٠

« فليس هناك من يشك فى اننـــا من نسل نوع من أنواع الحيوان ٠ والمشكلتان الكبيرتان هما تحديد نوع الحيوان ٠٠ فمن المؤكد ان الانســـان لم يتناسل من أى نوع من أنواع القردة العليـــا التى ما زالت باقيـــة حتى الآن ٠ فهذه القردة ليست اجدادنا ولكنها أبناء عمومتنا » ٠

ويستمر المـــؤلف رالف لنتون فى افترائه ص ٢٩ ، ٣٠ فيقـــول :
« ويتضح من جميع ما وقفنـــا عليه من معلومات حتى الآن ان اجدادنا البعيدين كانوا قردة مذنبين ٠ ويستطيع من يغضبهم هـــذا القول أن يجدوا بعض العزاء اذا أكدنا لهم بأن مؤسسى فروع عائلتنا البشرية قـــد تلقوا تعليمهم أعلى فروع الأشجار وكانوا فى الغالب حيوانات صغيرة الحجم تتراكض فوق فروع الاشجار على قوائمها الاربع كما تفعل القردة الحديثة وبالرغم من أنه يرجح انهـــا كانت ذات ذنب فانها لم تستخدمه فى أرجحة نفسها ٠

والعجيب ان الدكتور محمد السيد غلاب والدكتور برى الجوهرى فى كتابهما الجغرافيا التاريخية عصر ما قبـــل التاريخ وفجره والذى يصدرانه بآية من سورة العنكبوت : « أو لم يروا كيف يبدىء اللـــــه الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير » يتبنون النظرية التى تقـــول بأن الانسان أصـــله حيوان (ص ١٩٧) **تحت عنوان « الانسان القرد »** وهمـــا يدعـوان بذلك لنظرية داروين التى ظهرت فى كتابه عن **أصـــل** الانواع سنة ١٨٥٩ ـ تحت عنوان تطور الانسان ٠

بل وذهب بعض هؤلاء المؤرخين الى أبعد من هـــذا فجعل سلوك الحيوان هو النموذج الذى احتـــذاه الانســـان وأدى بـه فى النهاية الى اختراع الدين ٠ ونرى نموذجـــا واضحا لذلك فيما **كتبه أدولف أرمان وعربه الدكتور عبد المنعم أبو بكر والدكتور محمد أنور شكرى (٦٨)** ٠

« ولقد استطاع الانسان ان يميز نفســـــه عن الحيوان بصفات عدة

---

(٦٨) أدولف ايرمان (تعريب د ٠ محمد أنور شكرى + د ٠ عبد المنعم أبو بكر) ديانة مصر القديمة ٠

استمدها فى أول الامر مما يحيط بالحيوان من انفعالات : فصراخ الحيوان ومناداة الذكر للانثى ، تطورنا عند الانسان وجعل منهما لغة التخاطب . كما ان غريزة التجمع عند الحيوان فى قطيع هى التى دفعت الانسان الى انشاء الاسرة ، ومنها تكونت الدولة . اما ذلك الدافع المبهم عند الحيوان للابقاء على النسل فهو الذى انمى العاطفة ودفع الانسان الى الزواج وكذلك ان الشعور الغريزى بالخوف والفزع عند الحيوان فى كل ما عرف سببا دفع الانسان الى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته دون ان يتعرف كنهها ، ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن الا الاعتقاد المسيطر على ذهن الانسان من أن هناك قوى تحيط بالانسان وتؤثر فيه » (ص ٤) .

(ب) حرصت الغالبية العظمى من جماعات المستبشرين الذين درسوا وكتبوا عن تاريخ جزيرة العرب على هدم الاسلام . والنيل من الاعتقاد الصحيح ، والسخرية من أهل التوحيد والكيد لهم ، فجاءت تلك الدراسات تهجما صريحا على وجود الله ، وعلى انبيائه ورسله وكتبه ، ولتحقيق تلك الاهداف الخبيثة ، حرصوا على :

١ ـ تبنى ما يسمى بمنهج علم مقارنة الاديان (٦٩) ، وهذا العلم ولد يهوديا كما نعلم . ويحرص على حذف فترات الهدى من حياة البشرية ، مع اظهار فترات الانحراف ، وهذه مغالطة علمية .. فيزعم أصحاب مقارنة الاديان ان الدين من اختراع العقل البشرى ، وانه تطور من الوثنية والتعدد الى التثنية ثم التوحيد ، وذلك لكى يضللوا البشرية ، ويوهموها بأنه لا اله ، ولا دين ولا نبوة . ولا وحى ، ولا رسالة سماوية ، وانما الانبياء رجال اصلاح اخترعوا ما جاءوا به من أديان ، وان اللاحق كان يستفيد من السابق ويأخذ عنه .

٢ ـ التشكيك فى أى رواية تاريخية تعتمد على القرآن الكريم .

ويشير الى ذلك **المؤرخ الدكتور أحمد فخرى فى كتابه عن الشرق القديم بقوله :** « ظهر فى كثير من ممالك أوربا بعض الكتاب الذين اضطلعوا بكتابة المؤلفات التاريخية ، ولو أردنا ان نعرف السبب فى هذا الاتجاه الجديد فى كتابة التاريخ لوجدنا ان نظرية النشوء والارتقاء هى السبب المباشر الذى جعل المؤلفين فى جميع فروع العلم يتجهون نحو النقد

---

(٦٩) انظر د . جمال عبد الهادى ، د . وفاء محمد رفعت ، تاريخ وحضارة مصر والعراق وبلاد الشام وايران وتركيا منذ أقدم العصور ، القاهرة ١٣٩٧ هـ ، ص ٢٥ ـ ٢٧

وخضوع كل شيء لسلطان العقل والتشكيك فى أى رواية تاريخية تعتمد على القصص الدينيه أو الكتب السماوية ما لم تؤيدها مصادر أخرى (٧٠) ٠

٣ ـ الحرص على طمس خط التوحيد فى حياة البشرية ، فكلما أسفرت الابحاث الأثرية والتاريخية عن جديد يؤكد ان البشرية منذ أقدم عصورها والله يتعهدها بالرسل يعرفونها بربها الحق وبالبعث وبالآخرة ، وبالجنة وبالنار ٠ وبالخلق القويم والسلوك الحسن ، حرصوا على طمسه ، مع محاولة بث الوهم فى عقول البشر بأن بعض المجتمعات العربية كانت متقدمة علميا وتكنولوجيا رغم بعدها عن الدين الصحيح وذلك فى محاولة خبيثة للترويج بأن سبب التخلف العلمى والتكنولوجى الذى تعانى منه بلاد المسلمين ليس له صلة بالبعد عن الاسلام ٠

٤ ـ تقديم أحداث التاريخ من وجهة النظر القومية ٠

٥ ـ الحرص على تجاهل أنبياء الله ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، بل وذهب الامر الى حد التشكيك فى وجودهم أصلا ، والتشكيك فى الدعوة الى الاسلام التى أوحى الله بها اليهم ، وبالاضافه الى ذلك فان هنالك اصرار على تجاهل الجهاد الذى خاضه رسل الله ومعهم جند الحق ضد الطواغيت وضد المجتمعات الشاردة من هدى الله من أجل اخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله الواحد القهار ، وذلك غير تجاهل النتائج التى كان يسفر عنها ذلك الجهاد ومنها نجاة المؤمنين الموحدين ، واهلاك المكذبين بدين الله ، والاخطر من ذلك عدم الحرص على الاستفادة من الدروس التى تترتب على عرض تلك السير النبوية الشريفة ٠

خامسا : النتائج التى نجمت عن تلك الدراسات التاريخية :

لقد نجم عن تلك الدراسات تزييف متعمد لتاريخ البشرية ، درسه وآمن به وصدقه أجيال من ابناء المسلمين ، اعتنقوا تلك النتائج وذهبوا

---

(٧٠) د ٠ أحمد فخرى ، الشرق القديم ، ص ١٩ وما بعدها ، والمثال الذى يمكن أن يوضح ذلك ، الحرص على التشكيك فى قصة عاد وثمود التى وردت فى القرآن الكريم والقول ان قصتهما ليست من التاريخ الحقيقى فى شيء بل هما من التاريخ الاسطورى لامة العرب ، ويوضح ذلك أيضا انكار التأييد الربانى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، بالملائكة والمعجزات فى غزوة بدر والخندق وغيرها (أنظر ج ٠ ب ٠ جلوب) (تعريب خيرى حماد) الفتوحات العربية الكبرى ٠

يربون عليها اجيالا لا تعرف لها تاريخا ســـوى ذلك التاريخ المزيف ولا شك أن ذلك التاريخ المزيف يؤذى البشرية فى حاضرها ومســـتقبلها ، ولا يمكن أن يتربى عليه أجيال تؤمن بالله تعالى ربـــا وبالاسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ٠

سادسا : المنهج المستخدم فى تلك الدراسات :

ان المنهج المستخدم فى تلك الدراسات التاريخية منهج غير اســـلامى وسوف نعرض لذلك فى آخر الكتاب ان شاء الله ٠

الدليـــل :

ودليلنـــا على الاتهـــام الـــذى نوجهه الى هـــؤلاء المضللين للبشرية من المستشرقين والمستغربين ومن سار على تهجم من أبناء العـــرب والمسلمين ، نماذج من كتاباتهم ، منها :

الكتاب الاول : غوستاف لوبون (تعريب عادل زعيتر) ، حضارة العرب، القاهرة

« حقا ان من أعاجيب التاريخ ان يلبى نداء ذلك المتهوس الشـــهير (يقصد سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ) شعب جامح شديد الشكيمة » (ص ٢٧) ٠

« وتقوم الكعبة الشهيرة التى يقول مؤرخو الشرق ان ابراهيم هو الذى انشأها فى المسجد الحرام (ص ٥٢) ٠

« ونشأ عن وحدة لغة العرب حشد آلهتهم فى الكعبة امـــكان صـــهر عبادات هذه الآلهة الكثيرة وتحويلها الى عبادة اله واحد ، ومما يسر هـــذا الصهر تكلم عباد هذه الآلهة الكثيرة بلغة واحدة ٠ والحق ان جمع العرب على دين واحد كان قد حل ، وهذا ما عرفه محمد ، وفى الوجه الذى عرفه فيه سر قوته ، وهو الذى لم يفكر قط فى اقامة دين جديد خلافا لما يقال أحيانا ، وهو الذى انبأ الناس بأن الاله الواحد هو اله بانى الكعبة ، أى اله ابراهيم الذى كان العرب يجلونه ويعظمونه » (ص ١٠٠) ٠

« فتوة محمد » ٠٠٠ « ورأى العرب أن يقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظـــم بالآيات ، فرووا أن العالم اهتز لولادته ، وان نار المجوس المقدسة خبت » (ص ١٠١) ٠

« ولكن ملائكة الرحمة التى أرادت مضى محمد قدما ، صبت عليه ، وهو صغير ، انواع المصائب التى يصاب بها الانسان عادة درجة درجة ، فقد مات جده بعد وفاة آمنة بسنتين ، وكفله عمه التاجر الذى كان يسافر ، ولم يجد محمد له غير نفسه حاميا بعد قليل » ٠

« وتقول القصة ان محمدا سافر مع عمه الى سورية مرة ، وتعرف فى بصرى براهب نسطورى فى دير نصرانى ، وتلقى منه علم التوراة » (ص١٠٢)
« ولم يخبرنا التاريخ عن سيرة محمد فى السنين الخمس عشرة التى انقضت بعد زواجه بخديجة ، ويفترض ، وان لم يقيم دليل على ذلك ، أنه كان يفكر فى اشقائها فى مبادىء دينه الذى سيكون زعيمه ، ولم يبد منه فى تلك السنين أى نفور من عبادات العرب » ٠٠٠ (ص ١٠٣) ٠

« ويقال أن محمدا كان قليل التعليم ، والا لوجدت فى تاليف القرآن ترتيبا أكثر مما فيه ، ونرجح أيضا أن محمدا لو كان عالما ما أقام دينا جديدا ٠ فالأميون وحدهم هم الذين يعرفون كيف يدرك امر الأميين » ٠ (ص ١١١) ٠

« وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارىء للنساء ٠٠٠ ولم يبال محمد بسن المرأة التى يتزوجها ، ٠٠٠ وأطلق محمد العنان لهذا الحب ، حتى انه رأى اتفاقا زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية ، فوقع فى قلبه منها شىء ، فسرحها بعلها ليتزوجها محمد » ٠ (ص ١١٢) ٠

« وتزوج محمد أربع نسوة فى سنة واحدة ، وبلغ عدد من تزوجهن خمس عشرة امرأة ، واجتمع منهن احدى عشر فى وقت واحد ، وقد يرى الاوروبى أن هذا العدد كبير ، ولكن الشرقيين لا يرون افراطا فيه ما رأوا أنه يمكن للنبى ان يتزوج نساء اكثر من اولئك لو سمح لنفسه أن يسير على غرار الملك سليمان العظيم الذى هو اكثر ملوك التوراة حكمة » (ص ١١٢) ٠

« ولم يثبت تماما ، وفاء زوجات محمد الكامل له » ٠٠ (ص ١١٢)

« ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح ، وذلك كأكثر مؤسسى الديانات ، ولها كبير اهمية لذلك ، فأولوا الهوس وحدهم ، لا ذوو المزاج البارد من المفكرين ، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس ، ومتى يبحث فى عمل المفتونين فى العالم يعترف بأنه عظيم ، وهم الذين أقاموا الاديان وهدموا الدول وآثاروا الجموع وقادوا البشر ، ولو كان العقل ، لا الهوى ، هو الذى يسوّد العالم لكان للتاريخ مجرى آخر » ٠

« ولا يقف اى قول بخداع محمد ثانية امام سلطان النقد كما يلوح لى .
ومحمد كان يجد فى هوسه ما يحفزه الى اقتحام كل عائق » ... (ص ١١٤)

« **خلاصة القرآن :** القرآن هو كتاب المسلمين المقدس ودستورهم الدينى والمدنى والسياسى الناظم لسيرهم ، وهـذا **الكتاب المقدس قليل الارتبـاط** مع انه أنزل وحيا من الله على محمد ، **وأسلوب هذا الكتاب** ، **وان كان جديرا بالذكر احيانا ، خال من الترتيب فأقد السياق كثيرا ، ويسـهل تفسيره عند النظر الى كيفية تأليفه ، فهو قد ألف تبعا لمقتضيات الزمن بالحقيقـة** . فاذا ما اعترضت محمدا معضلة اتاه جبريل بوحى جديد حلا لها ودون ذلك فى القرآن » .

« ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الانسان ، ومع ما فى هذا من مبالغة شرقية نعترف بأن فى القرآن آيات موزونة رائعة لم يسبقه اليها كتاب دينى آخر » .

« وتقرب فكرة الكون الفلسفية **فى القرآن مما فى الديانتين الساميتين العظيمتين اللتـين ظهرتا قبـل الاسلام اى اليهودية والنصـرانية** ... وزعم ان العنعنات الآرية الفارسية أو الهندية ذات نصب ظاهر فى النصرانية والاسلام ، ونحن نرى النقورذ والآرى فى الاسـلام ضـعيفا جـدا » ... (ص ١١٧)

« ولم يكن محمد فيلسوفا كبيرا .. ومحمد لم يزعم أنه يكتب من أجل الفلاسـفة ، وكان من مقاصـد محمد أن يقيم دينا ولا يشمئز منه قومه ، **وقد وفق لذلك حيث أخذ من الاديان الاخرى ما يلائمهم ، ولم يفكر محمد فى ابداع دين جديد قط ، وهو الذى اعلن انه يسير على غرار من تقدمه مـن انبياء بنى اسرائيل من ابراهيم الى عيسى قائلا ان ما أوصى اليهم صحيح . والحق ان اليهودية والنصرانية والاسلام فروع ثلاثة لأصل واحد ، وانهـا ذات قربى وشيجة** » (ص ١١٨) .

« واله محمد واحد فى السماء ، **واسمع تعريف محمد النبى :**

« بديع السموات والأرض ، واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون . البقرة » (ص ١١٩) .

« وما جاء فى القرآن من نص على خلق السموات والارض فى ستة أيام وخلق آدم والجنة وهبوط آدم منها ويوم الحساب مقتبس من التوراة » . (ص ١٢٠) .

« واليك وصف محمد ليوم الحساب : فاذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه (سورة عبس) » . (ص ١٢١) .

فلسفه القرآن ـ انتشاره فى العالم : « اذا رجعنا القرآن الى عقائده الرئيسية امكننا عد الاسلام صورة مبسطه عن النصرانية » (ص ١٢٥) .

الكتاب الثانى : ل.أ. سيديو (تعريب عادل زعيتر) تاريخ العرب العام ، القاهرة ، ١٣٨٩ هـ .

« ومصدر هذه المعجزة هو رجل واحد هو محمد ، فقد ألهم محمد المبادىء اليهودية والنصرانية فاقام دينا بعيدا عن الخوارق ، فكان له اتباع حمس » . (ص ١٣) .

« ومما يروى أنه أوحى الى ابراهيم أن يقيم معبدا مقدسا ... » (٣٠) وبئر زمزم الذى اكتشفته هاجر . والى اسماعيل أتى الملك جبريل بالحجر الاسود الشهير الذى اشتملت عليه الكعبة وقنا كبيرا ، فيكون شاهدا يوم الحساب لمن يسجدون أمامه ، وفى احاديث العرب غير اشارة الى العنايه السماوية دالة فى نظرهم ، على الأقل ، الى أن شعبهم مختار كبنى اسرائيل » (٣٠) .

« واذ عددت بنى قحطان وبنى اسماعيل وجدت بلاد العرب تشتمل فى غابر الازمان ، على بقية من العروق الفطرية تغشى أخبارها طبقة كثيفة من الغموض . وكل ما يعلم أو يفترض هو أن قوم عاد جابوا غالبين بقيادة شداد ونقمان بلاد العراق » . (٣١)

« ولحكم سليمان أهمية عظيمة فى تاريخ العرب ، مع ذلك ، فقد انتشر صيت هذا الملك الكبير فى جميع جزيرة العرب ، حتى أن ملكة سبأ اليمانية سافرت الى القدس لتتحقق من صحة ما كان يروى عن سلطانه ، وما شاهدته هذه الملكة من أبهة بلاط ابن داود كان فوق ما سمعت فزاد اعجابها » . (٣٢)

« وفى سنة ١٢٠ بعد الميلاد تقريبا وقع حادث قليل الاهمية فى ظاهره ، فكان ذا شئوم على الحميريين ، وبيان الامر ، أنه كان يوجد بالقرب من مأرب سد واسع معد لحفظ الماء » .... (٤٠) ، « فلما فاض الماء فيضانا مفاجئا ذات مرة خرب السد فتفلقت المياه من الحواجز التى صنعتها يد الانسان .. ولم يكن للحادث ما بعده لو اراد السكان أن يعيدوا ما كان الى حالته السابقة ، ولكنهم فزعوا من المشاق والأخطار التى تنجم عن تنفيذ هذا المشروع فعزوا

الى انتقام ربانى هذه المصيبة التى فتح لهم عهد جديد بها ، واذ غدوا معرضين لفيضانات دورية بسبب اهمالهم هجر اكثرهم بلاد اليمن ليقيم مملكة الحيرة ويقيم مملكة غسان » . (٤١)

« وكانت جهود ابرهة فى جعل النصرانية دين جزيرة العرب الوحيد غير مجدية ، وهو لم يلبث أن مات بعد أن غلب أمام مكة التى أراد أن يهدم معبدها » (٤٣) .

« فالعرب اذا كانوا يحترمونها ويقدسون معبدها المعروف بالكعبة هجم عليها الاحباش الراغبون فى نشر النصرانية فى جزيرة العرب ، فغزا أبرهة الاشرم الحجاز رأس جيش مؤلف من أربعين ألف رجل فاستولى على الطائف وتباله فاستبسلت قريش فى الدفاع عن مكة فأنقذتها من المصير الذى لاح أنه لا شىء يحفظها منه ، فعزت القصة **انقاذها الى الآلهة** فزاد تكريم الناس لها » (٤٥)

« فكان يجب أن يؤثر اذن ، فى قريش ومكة اذا ما أريدت اقامة دين وطنى واحد فى جزيرة العرب ، فهذا **ما أدركه محمد تماما** » (٥١) .

« وهو (اى سيدنا محمد ص) اذا كان على علم بتعاليم دين اليهود ودين النصارى وكان يرى كلا ذينك الدينين لا يحقق خطط الاصلاح السياسى الذى يفكر فيه **عزم على اقامة دين جديد** ، أجل ، ان هذا العمل جلل ، ولكنه لا شىء يقف العزيمه اذا ما نشطت من عقالها » (٥٩) .

« قضى محمد عاما بين تلك التجاريب فلما انقضى أدرك أن دينه ينهار اذا ما تبددت حرارة أصحابه بسبب البطالة ، وكانت الحرب أفضل وسيلة لامداد نار الحماسة التى أوقدها (٦٦) ولم تكن حياته الخاصة لتخفى على أحد ، فلم يلبث ان كشف ما فيه من ضعف » (٦٥)

الكتاب الثالث : د.ل ديورانت (ترجمة محمد بدران) ، قصة الحضارة . الجزء الثانى من المجلد الرابع (عصر الايمان) ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤ .

يقدم المترجم للمؤلف السابق رصده بهذه الكلمة ، رغم ان المؤلف يحرص على هدم الدين من أساسه :

« هذا وسيرى القارىء أن المؤلف قد أنصف الحضارة الاسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوروبا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة » (٧١) .

---

(٧١) ولا شك أن المترجم قد جانب شهادة الحق بهذه الكلمة ، كما سنرى

« الحجر الأسود ، وهو حجر قاتم اللون ، بيضى الشكل ، قطره سبع بوصات ، ويعتقد الكثيرون أن هذا الحجر قد نزل من السماء ، ولعله كان صاعقة » ٠ (١٨ ـ ١٩) ٠

« وتقول احدى الروايات ان عمه ابو طالب قد اخذه معه وهو فى الثانية عشرة من عمره فى قافلة الى بصرى ببلاد الشام وليس ببصير أن يكون قد عرف فى هذه الرحلة قليلا من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية (٢٢) وفى وصف النبى صلى الله عليه وسلم يقول ديورانت :

« كان اذا غضب أو تهيج انتفخت عروق وجهه بدرجة يرتاح لها من حوله » ٠ (ص ٢٣) ٠

« وكان فى بلادالعرب كثيرون من المسيحيين ، وكان بينهم عدد قليل فى مكة ، وكان محمد على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل وهو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذى كان مطلعا على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة ٠ وكثيرا ما كان محمد يزور المدينة ، ولعله التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها وتدل كثير من آيات القرآن على اعجابه بأخلاق المسيحيين ، وبما فى دين اليهود من نزعة الى التوحيد ، وبما عاد على المسحيين واليهودية من قوة كبيرة لأن لكليهما كتابا مقدسا تعتقد أنه موحى به من عند الله ، ولعله قد بدا له أن ما يسود بلاد جزيرة العرب من شرك ، ومن عبادة الاوثان ، ومن فساد خلقى ٠٠ الخ نقول لعله قد بدا له أن حال بلاد العرب اذا قورنت بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنها ، ولهذا أحس بالحاجة الى دين جديد لعله أحس بالحاجة الى دين يؤلف بين هذه الجماعات المتقاربة ٠٠٠٠٠ ولكنه قائم على أوامر منزلة لا ينازع فيها انسان » ٠

« ولعل هذه الافكار قد طافت بعقل غيره من الناس ، فنحن نسمع عن قيام المتنبئين فى بلاد العرب فى بداية القرن السابع ، ولقد تأثر كثير من العرب بعقيدة المسيح المنتظر التى يؤمن بها اليهود » ٠

« وكان محمد كما كان كل داع ناجح فى دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم » ٠ (ص ٢٣ ـ ٢٤) ٠

وعن نزول الوحى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول ديورانت :

« قد يكون ارتجافه ناشئا من نوبات صرع فقد كان يصحبه فى بعض الاحيان ، صوت وصفه بأن يشبه صلصلة الجرس ، وتلك حال كثيرا ما تحدث مع هذه النوبات » (ص ٢٦) ٠

« وأخذ محمد يجهر شيئا فشيئا بأنه نبى الله المبعوث لهداية العرب الى حياة اخلاقية جديدة والى دين التوحيد ٠٠ ذلك أن الافكار الجديدة لا يقبلها الناس الا اذا كان يرجون من ورائها نفعا ماديا عاجلا ٠٠ وكان مما تغلب به على بعض هذه الصعاب ما وعد به المؤمنين من النجاة فى الدار الآخرة من نار جهنم والاستمتاع بنعيم الجنة ٠٠٠ وقد تأثر بحماسه وبلاغة قوله عدد قليل ممن جاءوا اليه وآمنوا به » ٠٠٠

« واعتنق الدين الجديد بتأثير أبى بكر خمسة من زعماء مكة ، كونوا معه صحابة محمد الستة وهم الذين أخذت عنهم فيما بعد السنن الاسلامية » (ص ٢٧) ٠

« وكثيرا ما كان محمد يدخل الكعبة ، ويتحدث الى الحجاج ويدعوهم لعبادة اله واحد » ٠ (ص ٢٧) ٠

« ولم ينقطع عنه الوحى فى هذا الاثناء ، **وخيل** اليه فى ذات ليلة انه انتقل من نومه الى بيت المقدس ، حيث رأى فى انتظاره عند المبكى من انقاض الهيكل البراق وهو جواد مجنح فطار به الى السماء ٠ ثم عاد به منها ، ثم رجد النبى نفسه بمعجزة أخرى آمنا فى فراشه بمكة ، وبفضل الاسراء أصبحت بيت المقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين » ٠ (ص ٣٠) ٠

« ورحب بعض اليهود (بالمدينة) بهذه الدعوة لانهم لم يروا فارقا كبيرا بين **تعاليم محمد** وتعاليمهم » (ص ٣٠) ٠

« **محمد فى المدينة :** وهاجرت الى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفى أهلها من الطعام ٠ وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الاقوام الجياع بالحصول على الطعام ان وجد ٠ ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالاغارة على القوافل المارة بالمدينة » ٠ (ص ٣٤) ٠

« فقد كان محمد رئيس دولة ، وكان من حقه أن يصدر فيها الاحكام » ٠ (ص ٣٦) ٠

« ولم يطل حب اليهود من أهل المدينة لهذا الدين ذى النزعة الحربية والذى بدا لهم اول الأمر شديد الشبه بدينهم ، وأخذوا **يسخرون من تفسير محمد تكتابهم المقدس** ، وقوله **انه هو الذى بشر به آباؤهم** ، وكان جوابه أنه قال ، كما أوحى اليه ، أنهم حرقوا كتابهم ، وقتلوا أنبيائهم ، وأبو أن يصدقوا المسيح » ٠ (ص ٣٦) ٠

« ولم يكن النبى مشرعا علميا ، فلم يضع لأمته كتابا فى القانون أو موجزا فيه ، ولم يسر فى تشريعه على نظام مقرر • بل كان يصدر الاوامر حسبما تمليه عليه الظروف • فاذا ادى هذا الى شيء من التناقض ازاله بوحى جديد يفسخ القديم ويجعله كأن لم يكن ، وحتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض فى بعض الاحيان كأنها موصى بها من عند الله • وكان اضطراره الى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيويه مما افقد اسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، **ولكنه لعله** كان يشعر بأنه **بهذه** التضحية القليلة جعل كل تشريعاته تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة » (ص ٤٢ ـ ٤٣) .

« ولكن مع هذا لم يستنكف أن يستعين بالوحى فى الاغراض البشرية والشخصية كما حدث حين أنزل الوحى مؤيدا زواجه من زوجة زيد متبناه » •

« وتزوج النبى بعشر نساء وكانت له اثنتان من السرارى هن مبعث الدهشة والتعليق والمدح عند الغربيين ••• » •

« وكان بعضها زيجات دبلوماسية كزواجه بحفصة بنت عمر الذى أراد به أن يوثق صلته بأبيها • وكزواجه من ابنه أبى سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم • وربما كان الدافع الى بعضها أمله فى أن يكون له ولد ، وهو امل حرم منه زمنا طويلا •

« وكثيرا ما ضايقته نساؤه بمنازعتهن ، وغيرتهن ، ومطالبهن ولكنه أبى أن يجيبهن الى مطالبهن الكثيرة ، ووعدهن بالجنة » ••• ص ٤٤

« وكانت حياة النبى فيما عدا النساء والسلطان غاية فى البساطة • ولم يتعاط الخمر التى حرمها هو على غيره » •

« وكان قلقا عصبى المزاج » (ص ٤٥) ، يرى أحيانا كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحا كثير الحديث ؟ ؟ وكان محاربا صارما لا يرحم عدوا ، وقاضيا عادلا فى وسعه أن يقسو ويغدر » • (ص ٤٦) •

« وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء جميع واجبات الحب والحرب » (ص ٤٦) •

« وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم فى اللحم قبل عام »

« ان محمد أعظم عظماء التاريخ .. وقد وصل الى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ، ولم يكن ذلك لأنه هو نفســـه كان شـديد التمسك بالدين وكفى ، بـــل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب فى أيامـــه الى سلوك ذلك الطريق الذى سلكوه ، فقـد لجـأ الى خيالهم ، والى مخاوفهم وآمالهم ، وخاطبهم على قـدر عقولهم » (ص ٤٧) .

« واقام صرحا خلقيا قوامه البسالة والعزة القومية » (ص ٤٧) .

القرآن ، شكله :

« وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتـاب اليهود والمسيحيين ، من اجزاء جمع بعضها الى بعض ، ويعتقد المسلمون ان كل حرف منـه موحى به من عنـد الله ، ويختلف عن التوراة فى أنه كله نطق به رجـل واحد ، ومن أجل هـذا فهو بلا ريب لا يعادله فى آثاره أى كتاب آخر جـاء به رجل واحد » (ص ٤٨) .

وعن جمعـه :

« ولمـا كانت ألفاظـه خالية من الحركات فقد اختلف بعض القراء فى تفسير بعضها واختلفت نصوصها فى مـدن العالم الاسلامى الآخذ فى الاتساع » (ص ٤٩) .

« ومن شـأن هذه الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام ، فكل فقرة بمفردها تؤدى الى غرض واضح مفهوم . فهى امـا أن تقرر عقيدة أو تأمر بصلاة أو دعـاء ، أو تسن قانونا ، أو تشهر بعدو ، أو توجـه الى عمل أو تروى قصـة ، أو تدعو الى قتال . أو تعلن نصرا ، أو تصوغ عهدا ، **أو تطلب مالا** » .

« ولكننا لسنا واثقين حتى أن محمدا كان يريد جمع هـذه الاجزاء المتقدمة كلها فى كتاب واحـد ، فقد كان كثيرا منها حديثا لرجل بعينه فى موقف بعينه ، ويصعب فهمه دون معرفة واسـعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله » (ص ٥٠) .

« وسور القرآن مرتبة حسب طولها لا بحسب نزولها فان ذلك غير معروف ... واذا كانت قصـار السور بوجه عام أقدم عهدا ، من طوالها ، فان القرآن تاريخ مقلوب . فالسور المدنية وهى التى يبـدأ بها الكتاب عملية فى أغراضها عادية فى أسـلوبها ، أما السـور المكيـة فهى شعرية روحية وبها ينتهى الكتاب ، وخليق بنـا أن نبـدأ بقراءته من نهايته » . (ص ٥٠ ـ ٥١) .

وجمع السور ما عدا فاتحة الكتاب حديث من الله أو جبريل الى النبى أو أتباعه او أعـــدائه ، وتلك هى الطريقة التى ســـار عليها أنبيـــاء بنى اسرائيل ، وهى التى نراها فى كثير من فقرات أســـفار موسى الخمسة ، وكان محمد يعتقد أنه ما من قانون اخلاقى يمكن أن يقع فى النفوس وان يطاع طاعـــة تكفل للمجتمع النظام والقوة الا اذا آمن النـــاس انه منزل من عند الله . وهـــذه الطريقة تتفق مع الاسلوب الحماسى الفخم ومـــع البلاغة اللذين يسمعان فى بعض الاحيان عن أقوال النبى أشعيا ، وأسلوب القرآن وســـط بين الشعر والنثر تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفـــاة ولكنها لا تتبع أوزانا ولا قوافى خاصـــة منتظمة . وفى الســـور المكية الاولى نغمات موسيقية رنانة ، وأسلوب جزل قوى لا يدركه كل الادراك الا الملمون باللغـــة العربية الذين يعطفون على الدين الاسلامى .. وهـــو باجمـــاع الآراء خير كتـــاب وأول كتاب فى الأدب النثرى العربى .

العقـــائد :

ليس من شأن المؤرخ أن يســـأل هـــل هـــذا الـــدين أو ذاك حق أو باطل ؟ وانما يســـأل عن العوامل الاجتماعية والنفسية التى أدت الى قيـــام هذا الدين ؟

« وكما أن يهوه قـــد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا ، كذلك يقول الله عن الكافرين « انا جعلنـــا على قلوبهم أكنـــة أن يفقهوه وفى آذانهـــم وقرا » ... ومـــا من شك فى أن المقصود من هـــذه الآية وأمثالها حث الناس على الايمان .. غير أنـــه مع ذلك قول عنيف فى أى دين ، ولـــكن محمدا يؤكده بنفس القـــوة التى يؤكد بهـــا القديس أوغسطين أمثـــاله » (ص ٥٥) .

« وهـــذا الايمان بالقضاء والقـــدر جعل الجدية من المظاهر الواضحة فى التفكير الاسلامى وقـــد استعان بها النبى وغيره من الزعمـــاء لبث الشجاعة فى العرب المؤمنين عند القتال ... وبفضل هـــذه العقيدة لاقى المؤمنين أشـــد صعاب الحياة بحنان ثابت ، ولكنها أيضـــا كانت من الاسباب التى **عاقت تقـــدم العرب وعطلت تفكيرهم فى القرون** المتأخرة » (ص ٥٥)

« والمحور الذى تدور عليـــه المبادىء الاخلاقية فى القرآن ، كما هى الحال فى **كتـــاب العهد القديم** ، هو خوف العقاب ورجـــاء الثواب فى الحياة الآخرة » .

« وعن يوم القيامة : وسيكون آخر النذر ثلاث نفخات **فى الصور** » ... (ص ٥٦) .

(م — ٤ جزيرة العرب)

« ويجتازه المصلحون آمنين الى الجنة ، ولن يكون ذلك لما يستحقونه من عقاب أو ثواب بل لما ينالهم من رحمة الله • ذلك أن **القرآن كبعض** العقائد المسيحية يعنى على ما يظهر بصحة الايمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب » • (ص ٥٧) •

« وربما كان دانتى قد أبصر بعض الرؤى التى وصفها فى ملهاته فى القرآن » • (ص ٥٧) •

« وخمر يشرب منها الصالحون (ولو كانت الخمر محرمة فى الدنيا) » (ص ٥٨) •

القرآن والاخلاق :

« القانون والاخلاق فى القرآن ، كما هما فى التلمود ، شىء واحد ، فالسلوك الدينى فى كليهما أيضا السلوك الدنيوى » •

« ولسنا نجد فى التاريخ كله مصلحا فرض على الاغنياء من الضرائب ما فرضه عليهم محمد لاعانة الفقراء » • (ص ٥٩) •

وقد قبل محمد نظام الاسترقاق على أنه من قوانين الطبيعة (ص ٥٩)

« وكذلك رفع فى مقام المرأة فى بلاد العرب ، وان لم ير عيبا **فى خضوعها للرجل** » •

« ويكاد يصف النساء ، كما يصف آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التى أصيب بها الرجال ، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم » •

« وفى القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء وهى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية (الاحزاب : ٢٣) • **ولكن الآية انما تؤكد النهى عن التبرج** • أما زوجاته هو فقد طلب الى اتباعه ألا يكلموهن الا من وراء حجاب ، وفيما عدا هذه القيود فان نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات فى أيام النبى وفى القرن الاول بعد الهجرة » • (ص ٦١) •

« وعدم الزواج فى الاسلام ، كما هو فى الدين اليهودى اثم » (ص ٦٢) •

« وبعد أن **تسامح الاسلام** مع الرجل الى هـــذا الحد فمكنـــه بتعـدد الزوجات من اشباع **غريزته الجنسية** اشباعا حـــلالا ، **حـــرم** الزنى أشـد التحريم » • (ص ٦٢) •

الكتاب الرابع :

ول ديورانت ، (تعريب محمد بدران) قصة الحضـــارة الجزء الثانى من المجلد الاول ، الطبعـة الثالثة ، مطبـوعات جامعة الـــدول العربيـة ، القاهرة ١٩٦١ •

« ولمـــا ورث سليمان العرش قتل جميع منافسيه فى الملك ليستريح من متاعبهم ، ولـكن عمله هـذا لا يغضب يهوه الـذى أحب الملك الشـــاب فوهبه **حكمة** لم يهبها **أحد من قبله** ولا من بعده • ولعل سليمان خليق بمـــا نال من شهرة • ذلك أنه لم يكفيه أن يستمتع فى حيـــاته بكل نعيم ولـــذة وأن يقوم بجميع ما يفرضـــه عليه الملك من واجبات » • (ص ٣٣٢) •

« وفى بلاد العرب جـــاءت اليه ملكة سبـــأ تخطب وده ، ولعلهـا جات أيضا تطلب معونته • واستخدم سليمان بعض الثروة فى **ملاذه الشخصية** وأخص ما استخدمه فيهـــا أشباع شهواته من جميـــع السرارى ــ وأن كان المؤرخون ينقصون زوجاته السبعمائة وسراريه الثلثمائة الى ســـتين وثمانين على التوالى ، ولعله أراد ببعض هـــــذه الزيجات أن يوطـــد صـــلاته بمصر وفينيقية ، أو لعـــل الباعث له عليها هـــو نفس الباعث الذى حمـل رمسيس الثـــانى على هذا العمل بعينه ••• على أنه قـــد استخدم معظم موارده فى تقوية دعائم حكمـــة وتجميل عاصمته » • (ص ٣٣٣) •

« وعن توحيد الاسباط : ولكنه أفلس وأفلست بـــلاد اليهود معه •• ومن الوسائل التى استخدمها لتمويل حكومته اعـــداد البعثات لاستخراج المعادن الثمينة ولا سيما مواد الترف والسلع القيمة النادرة ومن بينهـــا العاج والقردة والطواويس وهـــذه كان يمكن بيعها للاثرياء المحدثين بأثمان غالية » • (ص ٣٣٤) •

« وكان يفرض الاتاوات على جميع القوافل المـــارة بفلسطين • وقـــد فرض جزية الرؤوس على جميع رعاياه ••• واعتزم أخيرا أن يزين المدينة بمعبد جديد ليهوه • (ص ٣٣٤) • انه ليس بعيـــدا أن يكون مكان الهيكل هو المكان الذى يشغله الحرم الشريف فى المسجد الاقصى » • (ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥)

« امـا الاعمال التى لا تحتاج الى شىء من المهارة فقـــد حشـد لهـــا

١٥٠٫٠٠٠ عامل سخروا فيها تسخيرا بلا شفقة ولا رحمـــة ، كما كانت العادة المألوفة فى تلك الايام (ص ٣٣٦) ٠

« ولما فرغ سليمان من اقامة ملكه شرع يستمتع به ، **وأخذت عنـــايته بالدين تقل على مـــر الأيام** ، ثما اخـــذ يتردد على حريمه أكثر من تردده على الهيكل اذ أقام مذابح للالهـــة الخارجيـــة التى كانت تعبـــدها زوجاته الاجنبيات ، ولا تطاوعهم أنفسهم على أن يصفحوا عنـــه لعدله الفلسفى أو لعلمه السياسى ٠٠ بين مختلف الآلهـــة ٠ وكان بنـــاء الهيكل والقصر قـــد كلف الناس كثيرا من الذهب والدماء ٠ فلما مـــات سليمان كانت موارد اسرائيل قد نضبت » ٠ (ص ٣٣٧) ٠

« فلما نشـــأت الوحدة السياسية فى أيام داود وسليمان ، وتركزت العبادة فى الهيكل بأورشليم ، أخـــذ الدين يردد اصـــداء التاريخ والسياسة ، وأمسى يهـــوه اله اليهود الاوحـــد ، ولم يخط اليهود نحو التوحيد خطوة غير هـــذه الخطوة وهى أن لليهود الها واحـــدا يعلو على آلهة غيرهم من البشر ٠ حتى كان زمن الأنبياء (ويعلق المؤلف ديورانت) « وجدير بنـــا أن نذكر أن التوحيد حتى يومنـــا هـــذا انما هو توحيد نسبى ناقص ، فكمـــا كان اليهود يعبدون الهـــا قبليا ، فاننا نحن نعبد الها أوروبيا ، أو الهـــا انجليزيا ، أو ألمانيا أو ايطاليا ولن يكون للعالم كله اله واحـــد حتى تربط الآلات الأرض وتؤلف بينها وتجعلها وحـــدة اقتصادية وتجمع الامم كلها فى حكومة واحدة » (ص ٣٤٣ ـــ ٣٤٤ والهوامش) ٠

« وبقيت عبادة يهوه قرونا كثيرة دينـــا قوامـــه الخوف لا الحب ؛ والرعب لا الرغبة ، رغم ما بذله سليمان من جهـــود لـــكى يجعل النـــاس باللين على عبـــادة هذا الاله الرهيب ٠ ولســـنا ندرى اذا رجعنا بذاكرتنـــا الى هـــذا الدين وأمثاله هـــل عادت هذه الاديان على الانسانية بالسلوى بقدر ما عادت **عليها بالفزع** » ٠

« على ان اليهود قلما كانوا يشيرون الى حيـــاة أخرى بعد الموت ٠ ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلود ، وكان ثوابهم وعقـــابهم مقصورين على الحياة الدنيا ، ولم تدر فكرة البعث فى خلد اليهود الا بعد أن فقـــدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان على الارض ، ولعلهم أخذوا هـــذه الفكرة عن الفرس ، أو لعلهم أخذوا شـــيئا عنها عن المصريين ٠ ومن هـــذه الخاتمة الروحيـــة ولدت المسيحية » (ص ٣٤٥) ٠

الكتاب الخامس :

د ٠ فيليب حتى ، د ٠ ادوارد جرجى ، جبرائيـــل جبـــور ، تاريخ العرب المطول ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ١٩٦١ ، الجامعة الامريكية ، بيروت ٠

« **الكعبة فى مكة** : وفى التقليد الاسلامى ان الكعبة بناها آدم وفقا لنموذج سماوى ... فتهدمت أركانها وأعاد بناءها بعد الطوفان ابراهيم واسماعيل ... **ويضيف التقليد أن اسماعيل** اذ قام يبنى جدرانها اتاه جبريل بالحجر الاسود » (ص ١٤١) .

« **النصرانية واليهودية فى اليمن** : وقد أخذ مؤلفوا الاسلام أكثر معارفهم عن أحوال النصرانية وبيزنطة فى عهود الجاهلية من المصادر السريانيه أو استمدوها مما نقله كتاب السريان عن آداب اليونان » (ص ٨١) .

« **انفجار سد مأرب** : وحدث فى هذه الحقبة انفجار سد مأرب المفجع الذى ذكرت اخباره **الآداب الاسلامية** » (ص ٨٤) .

« وليست قصة انفجار السد ــ **وقد حاكتها الاخبار أسطورة** منمقة ــ الا حكاية يمكن القول أنها ترمى الى الاتيان بخلاصة وجيزة فذة لحالة ترجع أسبابها الى عوامل اقتصادية وعمرانية واجتماعية نشأ عنها تداعى معالم الهيئة الاجتماعية فى البيئة العربية الجنوبية أو قل على **سبيل المجاز أنها صورة وهمية** تبلورت فيها عواقب حقب الانحطاط الطويلة وصقلتها العقول وصاغتها فى أسلوب سهل المنال . وكان الاخباريين أدركوا سر هذه الاسباب غير الملموسة التى أفضت الى المأساة المفجعة فسلكوا الى التعبير عنها أسلوبا بديعا مبتكرا وقالوا ان جرزا حفر السد وقلب برجليه صخرة منه لا يقلبها خمسون رجلا فتدفقت المياه ووقعت الكارثة » (ص ٨٦) .

« ثم تكاملت صورة الالوهية فى مخيلة الجاهلى الا أن المحسوسات الطبيعية كالاشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعتبر وسائط يتقرب العابد بها الى المعبود . فمثلا فى البرية على ما اختصت به من تنظيف جسد الانسان وشفاء غليله أصبحت فى أقدم العصور موضوع عبادة عنده . ويرجع تقديس زمزم ــ كما ذكر المؤلفون العرب ــ الى ما قبل الاسلام فمن هذه البئر استقت هاجر واسماعيل » (ص ١٣٤) .

الكعبة فى مكة : « وفى وسطها قام نصب هو عبارة عن قطعة من الحجر البركانى الاسود يعبدونه » (ص ١٣٨ ــ ١٤٠) .

« **محمد رسول الله** : فى السنة الحادية والسبعين بعد الخمسمئة أو ما يقاربها ولد فى قبيلة قريش بمكة صبى دعته أمه باسم قد يظل مجهولا ، وبعد أن شب أطلق عليه قومه لقب الأمين فلزمه . أما فى القرآن فاسمه محمد » (ص ١٥٥) .

ومع أنه ليس بين أنبياء العالم من ولـد فى ضـوء التاريخ الا محمد فان نشـأته محاطة بالغموض فليس لدينا عن سعيه فى طلب الرزق ومحاولته لبلوغ آمله وادراك الغرض الذى كان يرمى اليـه وما قاساه من المشـقة والالم فى سبيل تحقيقه سوى قليل من الاخبار الموثوقة ٠

« وفى هـذا العهد المدنى تم تنظيم الاسـلام وحـدة عربية قومية ٠٠ »

« وقطع النبى الجديد صلته باليهودية والنصرانية ٠٠٠ وحولت القبلة من بيت المقدس الى مكـة واقر الحج الى الكعبة وثم الحجر الاسـود فيها وهما من فروض الدين المرعية فى الجاهلية » (ص ١٦٣) ٠

« ولأخبار القرآن **التاريخية أمثلة تقابلها فى التوراة** خلاف بعض الانباء التى هى عربية محضـة كذكر عـاد وثمود ولقمان وأصحاب الفيل وخلاف قصتين ترمزان الى الاسكندر والى أصحاب الكهف ٠٠٠ والتوازى ظاهر بين القرآن وأسفار موسى الخمسة أكثر من سواها فى أقسام العهد القديم » (ص ١٧١) ٠

وان دراسة القصص القرآنية السابقة ومعارضة آياتها بما فى التوراة ، لتثبت ان هنالك اقتباسا صريحا ، واليك العبارات التى تتوازى فى الكتابين المقدسين (ص ١٧٢) ٠

« وليس فى القرآن آية سوى آية واحدة (١٠٥ ـ سورة الانبيـاء) حسبها البعض مقتبسة رأسـا من التوراة (المزامير ٣٧ ـ ٩) والتشابه صريح فى الآيات بين الانبياء » (ص ١٧٣) ٠

« أما الآيات التى وردت فيهـا عبـارات مثـل العين بالعين (المائدة : ٤٩ قابل الخروج ٢١ : ٢٣ ـ ٧) والجمل فى سم الخياط (الاعراف : ٣٨ قابل متى ١٩ ـ ٢٤) ٠

فالظاهر انها من الامثال السامية القـديمة وجوامع الكلم المألوفة فى العبرانية والعبرية معـا ٠ وأكثر الامثلة على التوازى بين الكتابين هى بين انجيل متى والسور المكية ٠ أما العجـائب التى ينسـبها القرآن الى عيسى كالقول أنه : « **يكلم الناس فى المهد** » (آل عمران : ٤٤) وانه خلق من الطين كهيئة الطير (آل عمران : ٤٣) فهى تذكرنا ببعض الخوارق التى نسبت الى عيسى فى الاناجيل الابوغرافية (أى غير الموثوق بها) وخصوصا فى انجيـل الطفولية ، ولسـنا نرى فى القرآن شيئا يتوازى مع ما ورد فى أسـفار الفرس المقدسة الى صورة السماء والجحيم ويقال أن صورة النعيم والجحيم

التى أخرجها القرآن أوحتها الرسوم الدقيقة أو بدائع الفسيفساء التى خلفها النصارى مما يمثل جنان الفردوس وفيها صورة الملائكة على أشكال الولدان والحور » (ص ١٧٣) ٠

« وبلغ احترام المسلمين للقرآن وتكريمهم له مـــداه الاقصى اذ شاعت فكرة بعد عصر النبى تقول ان القرآن غير مخلوق ونرى أن هذه الفكرة صدى لنظرية الكلمة على حـــد قول الانجيل والكلمة كانت عند اللـــه لذلك فالقرآن لا يمسه الا المطهرون (هذه نظرية اللوغس اليونانية) » ٠

« **الاسلام دين الخضوع لارادة الله** : من بين الديانات التوحيدية الثلاث التى انشأها الساميون يعتبر الاسلام أقرب الى دين ابراهيم الخليـــل الذى تمثله التوراة من دين عيسى الذى يبشر به الانجيل ٠٠ على أن بعض النصارى من اصل اوروبا واهل الشرق تكون عندهم فى العصور الوسطى رأى يستند الى ما بين الاسلام واليهودية والنصرانية من التشابه ومؤداه أن الاسلام بدعة نصرانية أكثر منه دينا جديدا ٠ وقد وضع دانتى فى روايته الالهية محمدا فى الجحيم الاسفل مع أولئك الانبياء الذين زرعوا بذور العثرة والانشقاق وقد تطور الاسلام بالتدريج حتى اصبح نظاما دينيا مستقلا » ٠ (ص ١٧٦)

« وهذه اللفظة « دين » فارسية الاصل ولا علاقة لها بـ « دين » بمعنى دينونة الارامية الاصل » (هامش ١٧٦)

« ولفظة الصلاة العربية مستعارة من الآرامية يدلل على ذلك أنها كانت تكتب بواو الصلوة » (ص ١٨٠) ٠

« والفاتحة ذات المعانى العميقة والبساطة المغرية التى تقابل الصـــلاة الربانية عند النصارى » (ص ١٨١) ٠

« وقد نسج الاسلام فى ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود فى عبادتهم بالكنيسة الا أنه تأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التى يمارسها النصارى فى البيع » (ص ١٨١) ٠

الزكاة :

ولفظة زكاة من أصل أرامى والحق أن المبدأ الأول التى تنبعث فـــكرة الزكاة عنه يوافق مبدأ العشر الذى قال بلينيوس أن التجار من عرب الجنوب كانوا يؤدونه لآلهتهم قبل أن يسمح لهم ببيع طيوبهم ٠ وقد تغيرت مقادير الزكاة على مر الايام الا انها تتعين دائما بالرجوع الى الفضة » ٠٠ (ص ١٨٢)

« **الصوم** : وهو يعنى الامتناع عن كل مأكل ومشرب من الفجر الى مغرب الشمس (البقرة ١٨٣) • ولا دليـــل لدينـــا يثبت وجود الصوم فى أيام الجاهلية • الا أن العادة كانت مألوفة ولا ريب عند النصارى واليهود » •

« **الحج** :

« وكان الحج الى الاماكن المقدسة نظاما ساميا قديما وكان من معالمـــه ما عرف فى زمان العهد القديم (سفر الخروج ٢٣ : ١٤ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٢٢-٣)»

« ولعله فى الاصل ظاهرة من عبادة الشمس كان القوم يحيون عيدا لها فصادف أن وقع هذا العيد فى الاحتفال الخريفى • وهو رمز انشراح صـــدر الانسان فكان العيد بمثابة توديع لقيظ الشمس وسيطرتها الغاشمة واستقبال لقزح ، اله الرعد والخصب • وكانت مواسم الاسواق السنوية فى الجاهلية فى شمالى الجزيرة تنتهى بالحج فى ذى الحجة الى الكعبة وعرفة ، ولقد استنى محمد فى السنة السابعة للهجرة عادة الحج القديمة فأضافها الى الاسلام بمـا فيها من مراسيم العبادة المتركزة فى مكة وعرفه • فتم للاسلام بتلك الفروض أعظم تراث له من جاهلية الجزيرة » • (ص ١٨٥) •

« **الجهاد** : وترفعه فرقة من فرق الاسلام (الخوارج) الى مصاف الأركان وتجعله ركنا سادسا • وتتضمن وظيفة الخليفة توسيع النطاق الجغرافى لدار الاسلام على حساب دار الحرب • وأن يقسم العالم الى منطقة سلم ومنطقـــة حرب توازيه النظرية الشيوعية التى تتمسك بها روسيا الســـوفياتية » • (ص ١٨٧) •

فلو قام فى القرن السابع الميلادى أحد وتكهن بأن دولة خاملة الذكر وضيقة الجانب تخرج من مجاهيـــل جزيرة العرب ثم تنقض على الدولتين العظيمتين المعروفتين فتقوض الدولة الواحدة •

« فتقوض الدولة الواحدة ، دولة آل ساسان وتظفر بأملاكها ثم تقتطع من ولايات الثانية بيزنطة ـ أزهى مقاطعاتها ، نقول لو صدرت مثل هـــذه النبوة من فم انسان فى ذلك العصر لحكم عليه بالجنون » (ص ١٩٣) •

فالحملات العسكرية التى قام بها خالد بن الوليد وعمرو بن العـــاص وسعد بن أبى وقاص فاتحين بها العراق وفارس وسورية ومصر هى من اعظم الحملات التى يرويها تاريخ الحروب المدون وقد كشفت عن نبــوغ قوادها وتفوقهم فى اساليب القتال وخلدت اسماءهم مع أسماء نابليـــون وهانيبال ويوليوس قيصر والاسكندر » • (ص ١٩٤) •

« الفتوحات الاسلامية : وقد مال الباحثين فى الحركة الاسـلامية الى النظرية الدينية التى كررتها المصادر العربية ففسروا التوسع الاسلامى كنتيجة لعامل الدين ولم يعلقوا كبير أهمية على العوامل الاقتصادية » (ص ١٩٩) ٠

ولا صحة لهذا الزعم فان العرب فى حروبهم خارج الجزيرة كانـوا يعرضون على أهل الكتاب من يهود ونصارى أمرا ثالثا غير القرآن والسيف هو أقرب الى مطامع المحاربين وأصلح لهم من كلا الامرين الاولين ـ الجـزية « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر من الذين أوتوا الكتـاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (التوبة : ٢٩) ٠

« ثم قضت الاوضاع أن يعرض هذا الاختيار الثالث حتى على المجوس اتباع زرادشت وعلى الوثنيين من البربر والترك فجرى عليهم وهم من غيـر أهل الكتاب وعوملوا معاملة أهل الكتاب اذ لم يمكن أخذ من لم يؤمن منهـم وهم العدد الكثير بالسيف فالضرورة كانت اذ ذاك مقـام النظرية القرآنيـة » ٠ (ص ١٩٥) ٠

« قلت الأثرة الدينية والتعصب مما حدا بالعرب الى تدويخ الدول وفتح الامصار انما هى الحاجة المادية » ٠ (ص ١٩٥) ٠

« بل بدأت الحملات كغزوات يقصد بها الوصول الى منافذ جديدة لروح القبائل الثائرة بعد أن جعل بينها وبين الحروب والخصومات ضـمن ذلك النطاق الاخوى الذى حدده الاسلام ٠ وكان الغرض منها فى اكثر الاحـوال الغنيمة لا الاحتلال او الاستعمار » ٠ (ص ١٩٧) ٠

« وفى تعليل التوسع الاسلامى تعليلا دينيا مجاراة للتعليل الألهى الذى أوردته التوراة أثناء سردها وقائع التاريخ العبرانى وموافقة لما اصطنعتـه الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى لتفسير التاريخ المسيحى ٠ وممـا سهل نشر هذه النظرية الخاطئة بين ابناء العربية أن للفظة اسلام معانى ثلاثة يسهل الالتباس بينها : بدأ الاسلام دينا فلم يلبث ان اصبح دولة ثم صـار ثقافة ٠ فالاسلام باعتبار أنه دين يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة فى أنه مثل النصرانية ديانة تبشير وجهاد فى سبيل الذيوع والانتشـار » ٠ (ص ١٩٧) ٠

« على أن الاسلام الذى فتح أراضى الشمال لم يكن الدين بل الدولة » ٠ (ص ٢٩٧) ٠ والعرب الذين فاجأوا العالم وانقضوا عليه انما كانوا مدفوعين بعامل قومى ٠ فالفوز الاول كان للقومية العربية لا للدين الاسلامى ٠ واذا كانت

الأمم المغلوبة قبلت الاسلام بعدئذ فلأنها أرادت الخلاص من الجزية وتاقت لمشاركة الطبقة الحاكمة فى ولاية الامور » • (ص ١٩٧) •

« وبعد الفتح العسكرى والفتح الدينى سار العرب والمستعربون فى منهاج الثقافة بخطى واسعة فأصبح الاسلام ثقافة وركز أركانه على أساس ما ورثه من حضارة السريان والآراميين والفرس واليونان التى تحدرت عليه »•

« **فتح الشام** : غزوة مؤته ـ والواقع أنها الطلقة الاولى من نزاع مستمر لم ينته امره حتى سقطت العاصمة البيزنطية الفخورة ١٤٥٣ على يد آخر حماة الاسلام آل عثمان • وحل اسم محمد محل اسم المسيح المنقوش على جدران سانت صوفيا افخم كاتدرائية فى العالم المسيحى حين ذاك » •

الكتاب السادس :

توماس •و• ارنولد (تعريب د • حسن ابراهيم حسن + د • عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى) ، الدعوة الى الاسلام ، القاهرة ١٩٧١ •

« تعريف دين الرسالة » :

اصبح من المعروف علميا أن الاديان الستة الكبرى فى العالم يمكن تقسيمها الى دين مختص برسالة ودين غير مختص ، فاليهودية والزرادشتية من القسم الأخير أما البوذية والمسيحية والاسلام فهى من القسم الاول • وقد وفق فى تحديد ما ينبغى أن يدل عليه اصطلاح دين الرسالة بقوله انه الدين الذى يسمو فيه نشر الحق ، وهداية الكفار الى واجب مقدس ، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده » • (ص ٢٥) •

« **الهجرة** : بداية الحياة القومية للاسلام : وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة ، اذ كان ذلك فى الواقع بداية للحياة القومية فى الاسلام : فجعل من الكعبة فى مكة مركزا دينيا للمسلمين كافة ، كما كانت تماما فى الأزمان الغابرة مقصدا لحج القبائل العربية جميعا • ونظير ذلك فى الاهمية ما كان من جعل الحج الى مكة ، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الاسلام ، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الاقل فى حياته » • (ص ٤٧) •

« وكانت رغبة محمد ترمى الى تأسيس دين جديد » • (ص ٥٢) •

الكتاب السابع :

ر . دوزى (ترجمة د . حسن حبشى) ، تاريخ مسلمى أسبانيا) :

« الدين الذى بشر به محمد فوحدانية بسيطة وهو أيسط الأديان وأقلها غموضا وأكثرها مطابقة للعقل وأنقاها ، لكنهم لم يبتدعوا شيئا ما ولم يدينوا العالم بفكرة عظيمة متميزة » . (ص ١٩) .

« فعلى الرغم من تسميتهم بالمسلمين الا أنهم لا يهتمون الا قليلا بأقامة شعائر دينهم وقد لا يصلون » . (ص ٢٢) .

« ويرجع تسامحهم الدينى الى زمن موغل فى القدم ، أضف الى ذلك أن هذا التسامح يكاد يقرب من عدم الاكتراث ويبلغ مرتبة الشك » . (ص ٢٢).

الكتاب الثامن :

س . موسكات (تعريب د. السيد يعقوب بكر ، مراجعة د. محمد القصاص) الحضارات السامية القديمة ، القاهرة .

« **عرب الوسط والشمال** : وكان للايمان بالله الواحد الأحد بعض السطوة فى بلاد العرب قبل الاسلام . وتحدثنا الرواية أنه قبيل دعوة محمد كان هناك قليلون يؤمنون بالتوحيد ، فمهدت دعواتهم الطريق للدين الجديد الذى كان فى طريقه الى الظهور . فالعرب والدين الجديد على الأبواب ، كانوا يدينون بمعتقدات جاهلية أو باليهودية أو النصرانية او التوحيد . ولم يكن يستطيع التأليف بين هذه العناصر جميعا سوى روح فريدة فى قوة التقبل . وكان محمد هذه الروح » . (ص ٢٠٨) .

الفاتحة : ولكن اكبر ما اسهم به الساميون فى سبيل الحضارة الانسانية هو الدين .. ففكرة وحدانية الله ووجود قوة خلقه واحدة مكان القوى الطبيعية المتفرقة وفوقها وهى فكرة مؤثرة الى حد بالغ بالنسبة الى وفرة الآلهة فى الزمان القديم ، وهى النواة الاساسية للدين العبرى . وقد نقلها المسيحية الى أوروبا وبشر بها الاسلام قارتى آسيا وافريقية . فهذه الاديان الكثيرة الثلاثة فى عالمنا : اليهودية والمسيحية والاسلام ، خرجت الى الوجود ، من رقعة صغيرة من المنطقة السامية . (ص ٢٢٧) .

وفى انتصار الوحدانية ختام تطور هام فى تفكير الشرق الادنى القديم . فانفصل الالهة شيئا فشيئا عن الجماعة السياسية ، وتكون جماعة روحية مستقلة ، والمسيحية التى بلغت فيها هذه العملية غايتها ، جسر بين الشرق

والغرب ، فهى سامية الاصل ، ولكنها تتجاوز النطاق السامى لأنها موجهة الى جميع البشر دون تمييز ، وقد جعلت توطد اقدامها فى حوض البحر المتوسط وتنتشر منه فى جميع انحاء العالم فى عزم وتصميم .

الكتاب التاسع :

جرجى زيدان (راجعه د. حسين مؤنس) ، العرب قبل الاسلام ، القاهرة .

« **سقم هذا التاريخ** : ليس فى تواريخ الأمم الراهنة أسقم من تاريخ العرب قبل الاسلام ، حتى تهيب الكاثيون الخوض فيه لوعورة مسلكه وتناقض الاقوال فيه . ويعكس ذلك تاريخهم بعد الاسلام ، فانهم لم يتركوا خيرا من أخباره أو رواية او واقعة الا دونوها وفصلوها ، كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية واقامة مجد الاسلام مكانها ... الخ » . (ص ١٧) .

عاد وارم ذات العماد :

عاد من الامم الارامية ، ولذلك سميت أيضا « عاد وارام » وجاء ذكرها فى القرآن « عاد ارم ذات العماد فالتبس على المؤرخين لفظ ارم وظنوا ذات العماد صفة له ، فزعموا انه اسم مدينة بناها عاد اختلفوا فى مكانها .. ففى هذه الاقوال مبالغات لم يسمع بمثلها فى المعقولات » ..

« وعثر المنقبون فى آثار بلاد العرب على نتف من بقايا لكثير من الدول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم الا عادا فانهم لم يروا ذكرا ، على أن العرب تعودوا اذا رأوا اطلالا قديمة عليها نقوشا لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عادية » (ص ٧٥ – ٧٦) .

« **ثمود** : ذكرت ثمود فى القرآن بعد عاد ، كأن المراد بهما واحد من حيث العبرة والوعظ .. ولم يزد المؤرخون على أن وسعوه وشوهوه بمبالغات لا فائدة من ذكرها .

« على أن ارتباطها (ثمود) بعاد يقتضى تقاربها بالمكان ، ولذلك قالوا ان ثمودا كانت فى اليمن قديما ، فلما ملكت حمير اخرجوها الى الحجاز ، ولم يكشف لنا حتى الآن ما يؤيد هذا القول (٧٢) » ..

---

(٧٢) يجرى الكاتب فى ذلك على منوال التوراة والانجيل التى تنكر قصة عاد وثمود اللتين ورد ذكرهما فى القرآن .

« **سبب انقضاء دولة سبأ الحقيقية** : ان هؤلاء – على كثرتهم – لم نقف حتى الآن على شيء من اخبارهم » (٣٩) • غير عنايتهم اجمالا بالتجارة ، مثل أسلافهم المعنيين ، فترك اعمال التفصيلية لما عساه أن يكشفه المستقبل • وننظر في سبب انقضاء هذه الدولة • والمشهور عند كتاب العرب أن سبب انقضائها – وهم يعنون انقضاء دولة حمير – انفجار سد مأرب (سيل العرم) ونزوح القبائل الى العراق والشام والحجاز وغيرها دفعة واحدة حوالى تاريخ الميلاد • وذلك بعيد اذ لا يعقل ان تعجز الدولة في ابان سطوتها عن اتقاء مثل هذا السيل ، واذا تصدع السد فلا تعجز عن ترميمه وسيتضح لك ذلك في الكلام عن السدود • والغالب في اعتقادنا ان دولة السبأيين ذهبت تدريجيا بذهاب أسباب قوتها » • (١٤٠) •

« **أما تهدمه فالعرب يقولون أنه حدث فجأة** ••• **ويؤخذ من مجمل** اقوالهم أن ذلك وقع حوالى تاريخ الميلاد ، أي نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبأ وريدان) وانتقال عاصمة السبأيين الى ظفار • فالظاهر ان السد تصدع حينئذ للمرة الاولى فرمموه ، وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم الى تعمير ظفار ، وقل تمسكهم بالبقاء في مأرب ، فصاروا ينزحون بطوناً وأفخاذا لاسباب مختلفة منها القحط وغيره ، وأخذت مأرب بالتقهقر ، وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه ، الى قبل الاسلام فتهدم واهملوه » • (ص ١٧٦ – ١٧٧) • (٧٣)

« **عرب الشمال** : وهم يرجعون بأنسابهم الى اسماعيل بن ابراهيم • ومكانة اسماعيل عندهم متينة على **ما ذكرته التوراة** (٧٤) من اخراج **اسماعيل وأمه هاجر الى برية بئر سبع** ••

« اما العرب فهم يجعلون المكان الذى اقام فيه اسماعيل وامه ، مكة بل في برية قارات •••••• فيكون المراد أنه البرية التى اقام فيها اسماعيل برية الحجاز أو انه اقام حينا في سيناء ثم خرج الى الحجاز وسكن هناك وتزوج (٧٥) •••• وليس لدينا مصادر تنافى هذه الرواية او تؤيدها » ••

---

(٧٣) والكاتب بذلك يشكك فيما رواه القرآن عن سبب انهيار السد وتفرق ملك السبأيين ، وهو في هذا ينفي انتقام الله منهم لما عتوا وكفروا بنعم الله •

(٧٤) ألم يذكر القرآن شيئا عن اخبارهم يا جورج زيدان ؟ وكذلك حديث الرسول ثم المؤرخون المسلمون • انه الحقد الصليبي يا زيدان •

(٧٥) والكاتب الصليبي يريد أن يشككك في موطن اسماعيل منذ كان رضيعا وامه ، بمكة كما قال سيدنا ابراهيم : « ربى انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » ••

واقعة الفيل :

وفى ايام عبد المطلب حدثت واقعة الفيل ......

« وأما ابرهه فحدث فى معسكره اضطراب وأصيبوا بالوباء ، والعرب(٧٦) .. يقولون ان طيرا خرجت من البحر يقال لها ابابيل رمت جند أبرهة بالحجارة فلم يصب أحد بحجر الا هلك . فتراجعوا عن مكة وزادت الكعبة بذلك كرامة وتقديسا » . (ص ٢٧٩) .

* * *

الكتاب العاشر :

جرجى زيدان (مراجعة د. حسين مؤنس) ، تاريخ التمدن الاسلامى ، القاهرة .

سد مأرب :

وكان بناؤه متينا صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون ، ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسوا بقرب تهدمه أخذوا فى المهاجرة من جواره فى أواسط القرن الثانى للميلاد ، وتفرقوا فى البلاد . والمشهور عند العرب أن الغساسنة فى الشام والمناذرة فى العراق ، والاوس فى المدينة فى منى وخزاعة بجوار مكة ، منهم (أى من عرب الجنوب) . ثم انفجر السد فطغت المياة فهاجر من بقى ، وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم (ص ٢٧) .

مكة :

«وكان لليهود تاثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينية وطقوسها ، فاقتبس العرب منهم أمورا كانوا يجهلونها ، كالحج والذبائح والزواج والطلاق » (٣٢) .

« **مذاهب القرشيين** : ان السدانة وهى الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها .. ويفتح بابها للناس ويقفله ، ولها المقام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب » (٣٨) .

---

(٧٦) هل نسى الكاتب الصليبى أن الذى أخبر بذلك هو رب العباد الذى أنزل قرآنا يتلى يصدح بهذه الحقائق الى يوم يبعثون ؟

« **غزو الحبشة** : ثم غزا الاحباش الحجاز فى أواسط القرن السادس للميلاد ، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة ٠ وكانت سدانتها يومئذ فى يد عبد المطلب جد النبى فجاء الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم ، وأهل مكة لم يتعودوا شيئا من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة فى نفوس القبائل وغيرهم ، فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر ، وأحسوا بافتقارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم ، فدفعوا الاحباش وقد تنبهت أذهانهم وأخذت مواهبهم فى الظهور » (٤١) ٠

« ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم فى نفوسهم انهم جعلوا يؤرخون به وهذا يسمونه عام الفيل ، وكانوا قبل ذلك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة ٠٠٠ ولم يقتصر ذلك الاحتكاك على تلك النهضة الادبية أو الدينية ، لكنها انتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقيادة والادارة وكانوا من أهم العوامل تأثيرا فى سرعة انتشار الاسلام ، كما أنتجت الثورة الفرنسية بونابرت ورجاله ٠٠٠ » ٠

« ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبل الاسلام فى نهضة أدبية دينية تمهيدا لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتها ، ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية فى الغالب استعدادا لقبولها » (٧٧) ٠

ويعلق على ذلك د ٠ حسين مؤنس فيقول « لا شك أن عرب الحجاز كانوا عندما جاءت البعثة المحمدية ـ فى حالة عقلية تمكنهم من قبولها ، وقد وصف نفر من المستشرقين على راسهم راينهارت دوزى ٠ وصول العرب الى هذه الحالة بأنه نهضة فكرية كان الاسلام يتجه اليها ٠ ذلك افتعال ومحاولة للتقليل من قيمة الرسالة الاسلامية ، خاصة اذا عرفنا أن دوزى نفسه يذهب الى أن الاسلام أوقف التطور الطبيعى لهذه النهضة والحقيقة أن وصول عرب الحجاز الى هذه الحالة كان تطورا ضعيفا ساعدت عليه العوامل التى أشار اليها هنا جرجى زيدان ٠٠ (ص ٤٢) ٠

* * *

---

(٧٧) الواقع أن كتاب جرجى زيدان من أخطر الكتب على عقيدة المسلم لتزييفه لتاريخ المسلمين ، يتضح ذلك فى عرضه لانتشار الاسلام والغزوات « غزوة بدر ـ واقعة أحد ـ واقعة الخندق) (ص ٥٧ ـ ٦٠) ٠ وفيها ينكر الكاتب تدخل يد الله الى جانب المسلمين ضد الكفار ، ويعزيها الى الاعداد المادى فقط ، وذلك يعنى انكار المعجزات الالهية التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ٠

الكتاب الحادى عشر : د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ط ٨ ، ١٩٧٤ .

« واختلف المؤرخون فى أسباب سقوط الدولة السبئية . فيرى مؤرخو العرب ان السبب فى ذلك كان السبب الاساسى فى رقى بلادهم وتقدمها . ويذهب بعض المستشرقين الى أن انكسار هذا السد كان فى حد ذاته نتيجة اهمال من أمة آخذة الى الانحطاط ، وأن هذا الخراب الذى حل بأهل سبأ لابد أن يكون قد حدث تدريجيا قبل انهيار السد بزمن طويل ، لأنه لا يعقل أن تزول مدينة عظيمة دفعة واحدة . وكان من أثر ذلك الحادث أن هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد الى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب كما تقدم » .

« ويظهر أنه لما تطاولت الأزمان على هذا السد وأهمله الملوك ، فتصدعت جوانبه ولم يعد يحتمل تدفق السيول والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت المياه على من حوله من القرى والمزارع فاتلفتها » .

« وقد ذكر أوليرى أن انكسار سد مأرب حدث تاريخى لاريب فيه وأن القرآن الكريم وصف هذا الحدث بأنه عقاب انزله الله بأهل سبأ » (٢٧ — ٢٨) .

« ولما أخذت بلاد اليمن فى الانحطاط ، وعجز أهلها عن اصلاح السد الذى اقامه اسلافهم لحفظ المياه ، وانكسر السد ، غرقت بلادهم وتفرقوا أيدى سبأ فى جميع انحاء الجزيرة العربية » (ص ٢٩) .

الرسول منذ أن ولد الى أن بعث :

« وقد اتسعت معرفته وتجربته بما شاهد من أحوال بلاد الشام وطرق التعامل وأخلاق الناس ومظاهر الحياة فى البيئة الرومانية ، كما وقف على أساليب الناس فى البيع والشراء مما كان له أعظم الأثر فى التشريعات بعد الرسالة » (ص ٧٦) .

* * *

الكتاب الثانى عشر : د . عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ، القاهرة .

« وورث داود سليمان (وحكم تقريبا من عام ٩٦٣ الى عام ٩٢٣) . وقد كانت أمه تتمتع بكثير من الدهاء وقد أضاء القرآن الكريم الطريق فى هذا الشأن حينما حدثنا عن داود فى سورة النمل » (ص ٢٣ — ٢٤)

« أراد سليمان أن يحكم البلاد حكما مطلقا لذلك سلك طريقاًمألوفة في عصره ، فقتل أخـــاه أدونيا وكان هـــو الصاحب الشرعي في عرش البلاد وكذلك قتل كبير الحاخامين حتى لا يقف في وجهـــه اذا ما خالف تعاليم الدين • ثم أطلق بعد ذلك سليمان لنفســـه العنان في تحقيق رغباته الشخصية وأراد ملكا لا ينبغي لاحـــد من بعده » (ص ٢٨٧) •

« ابراهيم بين كتب الدين وأقوال المؤرخين : نظر ابراهيم الى الكون والى الانســـان نظرة جديدة ، ورفع ابراهيم من شـــأن الانسان حينما انقذه من الشرك وعبـــادة الاوثان • ومع أن التوحيد لم يكن مجهولا قبل ايـــام ابراهيم ، كذلك كان ميزان العدل الالهي وعبادة الحق معروفة من قبل • فقد عبد المصريون الها واحدا ، كما قاموا بوزن أعمال الانســـان في العالم الآخر الذي صوروه على صفحات جدران قبورهم وعلى البردي • **وانمـا كل ذلك لم يكن دعوة نبوة ورسالة من الله** ، بـــل كان دعـــوة كهان أو ملوك • تخفي وراءها أشياء كثيرة فاخناتون حينما نادى بالوحدانية أصـــدر في ذلك مراسيم وتشريعات حكومية •• وليس من شك أن عقيدة التوحيد قـــد انتقلت من مصر الى الشرق » •

الكتاب الثالث عشر : د • احمد شلبي ، مقارنة الاديان ، اليهودية ، القاهرة ١٩٧٤ •

« ان الهدف الذي قصدت اليـــه كان الكتابة عن الاديـــان السماوية (ص ٢١) •

فان أفكارا جمـــة تسربت عن أديان الهنـــد واختلطت بعقـــائد الديانات السماوية (٧٨) » (ص ٢١) •

« **وجـــاء الاسلام ، وكان موقفـــه بالنسبة للاديان الاخرى ينضـوي** تحت اتجاهين ، الناحية النظرية ، والناحية الواقعية :

فمن الناحية النظرية يعلن الاسلام أنه الحلقـــة الاخيرة في ســـلسلة الاديـــان (من أين للمؤلف بهـــذه الفتوى) وأنه بالتـــالي ورث أهـــم **مـا في الاديان واضاف الى ذلك ما تحتاجه البشرية في مسيرتها الى يـــوم** الدين • قال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوصـــينا اليك ، ومـا وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى) (ص ٢٦) •

---

(٧٨) لا يوجد دليل واحد من كتاب الله أو سنة رسوله ، يشير الى أديان سماوية أرتضاها الله للبشرية وانما هناك دين واحد هو الاسلام ورسالات سماوية جاءت تدعوا الى هذا الدين •

« ويجمع المفكرون المسلمون على أن كل رسول يجيء برسالة تناسب زمانه وتحقق أغراضها في ذلك الزمان ، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الاديان السابقة في أصل الوحدانية الكبير ويختلف في فروعه طبقا لحاجات الناس ، وهذا هو موقف الاسلام بالنسبة للاديان السابقة ، وبالنسبة لحاضر البشرية ومستقبلها ويتجه المفكرون المسلمون في تفسير قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحى القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) يتجهون الى أن الكفر بأى دين من الاديان التى نزلت بها الكتب المشار اليها ضلال يستحق مرتكبه العذاب الشديد (يقول المؤلف أنه اعتمد على الظلال في استخراج هذا الرأى وقد عدنا الى الظلال ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨ ، ولم نجد دليلا يشير الى ما يقول) .

« فانه من الناحية الواقعية يعترف بالوجود العقلى لجماعات غير مسلمة ، ويتحدث عن أهل الكتاب وأهل الذمة . وينظم حقوقهم وواجباتهم ، **وفى ضوء هذا وجد علم مقارنة الاديان ، بل ان القرآن الكريم يضع جذور هذا العلم** عندما يقول (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) ، فالمجادلة بالحسنى هى مفهوم هذا العلم بل ، ورد فى القرآن بعض الآيات التى تحمل اتجاه المقارنة ، كقوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا .. » ففى الآية مقارنة بين التوحيد والتعدد ! وبيان أن التعدد سبب الفساد ! » .

« وعلى هذا ظهر الباحثون المسلمون فى هذا العام وكتبوا فيه (أمثال من ؟) منذ بدءوا يدونون العلوم الاسلامية الاخرى » .

« وعندما التقى المسلمون بالمسيحيين فى الاندلس وصقلية والشام حصل تبادل الافكار ، وكان علم مقارنة الاديان من الموضوعات التى تم التبادل فيها ، تخلى المسيحيون عن اتجاههم فى عدم الاعتراف بهذا العلم . فأخذوا يهتمون بمقارنة الاديان كوسيلة للتعريف بالمسيحية وللنيل من الاسلام ، واقتبس المسلمون ـ للاسف ـ اتجاه المسيحيون وهو التعصب فتخلوا عن علم مقارنة الاديان باعتبار أنه ليس هناك دين يقارن بالاسلام ، وعبر الأزهر عمره الطويل وعبرت الكليات الاسلامية دون أن يظهر علم مقارنة الاديان فى المناهج الدراسية ، ولم يتدارك المسلمون هذا النقص الا منذ عهد قريب » .

« وينسب آدم متز نشأن هذا العلم للمسلمين ، ويعدد المصادر الأولى التى كتبها المسلمون فيه فيقول ... » (ص ٢٦ ـ ٢٧) .

الكتاب الرابع عشر : توفيق الحكيم ، فى كتـاباته ، زهرة العمر ، وسليمان الحكيم ، عرض وتحليل الكاتب أحمد محمد عبد الله (٧٩) ·

« نقل الكاتب على لسان توفيق الحكيم قوله » :

« هـل أنا على حق فى تفسير الكتب السماوية تحت ضـوء مصر القديمة ، ومنها أصل الاديان » (٨٠) ·

« اننى معبد يتصاعد من جوفه لا بخار الايمان بـل بخار الشـك والقلق » ·

« يخيل الى أن مسرحية سليمان الحكيم قـد غـدت رمزا لذلك الصراع الدائر الآن على مسرح الدنيا » ·

ثم يسير الكاتب فى عرضه :

« وفى هـذا الكتاب يـرى توفيق الحكيم أن قصـة سليمان هى قصة القدرة والحكمة وحيره نبى الله فى مـدى استخدام القدرة وتغليب الحكمة ، وليقدم للناس رمزا اتخذ من نبى من انبياء اللـه مـادة للكتابة ·· لا لبيان الوجـه الناصع للدعوة الحقة وانما قلب الامور الى سواد قاتل ـ وعبارات نازفة لكوامن الشك فى نفسـه وبهـذا وقع فى منطقة الاعتـداء على حرمات انبياء الله ··· فتراه يلج فى السفاهة وهو يستعرض حيـاة النبى ويأتى بالكلمات الدنيئة وعلى لسان نبى الله يجرى ما يطيب له من الفاظ تنزفها نفسه القلقة المريضـة التى يتصاعد منهـا بخـار الشـك وبذلك تضيع كل ما فى الصورة من جمال ·

فالمسرحية تعد صارخ على النبى الكريم واتهامه بأشياء باطلة ربما لـم يجرؤ لليهود على اذاعتها ·

أنظر اليه كيف يسوق القصـة بصدد دعوة بلقيس الى مملكة سليمان عليه السلام وانشغاله بها ·· قبل وصولها ثم عند دخولها يحملها سليمان

---

(٧٩) المجتمع الكويتيـة ، العـدد ١٣٩٣/١٨١ ، ص ٣١ ومـا بعدها ، تحت عنوان : توفيق الحكيم عندما خذلته باريس افترى على الانبياء ·

(٨٠) ينطلق الكاتب فى حديثه هـذا من مبدأ أن الدين من اختراع العقل البشرى ، تطور من الوثنية الى التثنية ثم التوحيد ، وان اخناتون المصرى وصل الى التوحيد من تلقـاء نفسه وأن الانبياء أخذوا عنه فانشـأوا ديانة من عند أنفسهم ·

على ذراعيه بعد أن كذب عليها ليجلسها على السرير خشية الغرق في اللجة ثم ضحك سليمان عليها .. ويدور الحوار على تعلق سليمان عليه السلام وشغفه بها .. ثم معرفته بأنها تحب شخصا آخر ، ولا تمكنه من قلبها فيغضب ويثور ويلجأ الى طرق خسيسة يتنزه عنها الحاقدون من البشر لتعذيب بلقيس لأنها رفضت أن تحبه - ويندم نبى الله على فعلته وانه أخطأ فى تصرفاته معها ، لأنه لم يقدر أن يضمها الى صفه وظلت على حبها لحبيبها ويظهر سليمان عليه السلام فى صورة المحزون اليائس :

« صادوق ، انى لا أرى سوءا فيما صنعت . سليمان : لقد صنعت أمرا لا ينبغى أن يصنعه نبى - صادوق : ألا انك أحببت امرأة . سليمان : بل لأنى استخدمت وسائل فظيعة لقهرها وتعذيب قلبها - لقد أردت التشفى من صدها برؤية دماء نفسها تشخب . وجراح فؤادها تسيل .. حتى انهدت بين يدى وانهارت وأنا أرسل فى وجهها الشاحب الضحكات ».

أى سخرية نبى بعد هذه للصورة الكاريكاتورية المضحكة المحزنة .. أنظر الى وصفه الواضح لصورة التشفى ... وتقوم المسرحية على كثير من الهذر والافتراء فهى ليست سوى نسخة مشوهة .. ليست من التاريخ الصحيح والعقيدة السليمة وانما نسخة ممسوخة حتى عن أسفار اليهود بكل رذالتهم ونزالتهم .. فتجريد النبى من الدعوة وأخذه بصورة يشتهيها الكاتب .. صورة ساقطة .. تدور فى مخيلته .. فيرى النبى رجلا جنسيا - تحكمه شهوته فى اقتناء النساء والتحكم فيهن .. لأنه ملك ناصية القدرة .. هل أكون متجنيا عندما قلت - هل سمعتم بنشيد الانشاد الذى يردده اليهود .. وامتنعت عنه الكنائس فى أوروبا بعد أن كان يتلى عندهم .. لما يحويه من كلمات نجسه وتعبير حسى قبيح للشهوة العارمة ...

« ان توفيق الحكيم يستعيد هذا النشيد ويجعله شعرا لسليمان تردده بلقيس بعد أن دسه سليمان تحت وسادتها ليعبر لها عن حبه .. وناهيك عن كلمات النشيد لما فيها من خسة وقبح .. وتقرأ بلقيس النشيد وتردده لاجل حبيبها الذى تركته الى سليمان لترى ما يريد .. ويخترع الحكيم الذنوب والمظالم للنبى وكأنها أمور عادية لا ظلال لها » ...

« وهناك أيضا هذه المعجزة .. وما سخره الله لنبيه سليمان عليه السلام .. أتعرف كيف جعله الحكيم .. اتخذه وسيلة للتباهى به أمام

بلقيس ليبهر عينها وليجذب فؤادها حتى يستأثر بها حبيبة مخلصة له (٨١) »٠

« ويختم توفيق الحكيم وماهو بحكيم ٠٠ مسرحيته » ٠٠

ان سليمان قد هزم وكما عبر عنها محمد مندور الناقد بقوله : وبذلك انهزمت القدرة الغاشمة التى افلتت من زمام الحكمة وظنت أنها قادرة على كل شيء آكلتها الارض فى النهاية ٠٠٠

« ورجعت (٨٢) بلقيس الى ديارها كسيرة القلب ٠٠٠ ومات سليمان مهموما ٠٠٠ غلبه الغم والأسى لان امرأة غلبته ٠٠٠ ولم يستطع اخضاعها ٠٠

اليست هذه صورة من الأشعار الاسرائيلية وطائفة من الشكوك وتدمير العقائد وبث البلبلة ٠٠٠ انها صناعة جديدة فى عالم التهجم على حياة الانبياء ٠

---

(٨١) يبدو ان الكاتب لم يتح له فرصة قراءة القرآن الكريم ، ليرى ان سليمان عليه السلام ، نبى مرسل أخ لمحمد عليه السلام ، وقد أرسله الله لدعوة الناس في عصره الى الاسلام ٠ هل قرأ الكاتب رسالة سليمان الى ملكة سبأ « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ٠ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » اذ لم تكن رسالة سليمان ، رسالة حب وغرام كما يتصور الذين يتمرغون فى جاهلية القرن العشرين ، بل كانت تبليغا لدعوة رب العباد ٠

(٨٢) ألم يقرأ الكاتب قوله تعالى عن ملكة سبا : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ٠

القرون الأولى من

حياة جزيرة العرب

الفصل الثالث

المصادر والمراجع التى يجب الاعتماد عليها فى دراسة وكتابة اخبار القرون الاولى من حياة جزيرة العرب :

لما كان التاريخ فى مفهوم المسلم خبر مروى عن الذين تقدمونا ، فيجب أن يكون المؤرخ جامعا بين صحة الرواية للحوادث التى يحاضر بها أو يؤلف فيها وبين سعة الدراسة بالاصول المتصلة بتلك الحوادث (*) .

وتعرفنا على تاريخ الماضى يعتمد على المستندات (مصادر ومراجع) التى بقيت لنا أو وصلت من ذلك الماضى .

والمستندات يمكن أن تكون آثارا ظاهرة (كالكعبة المشرفة وغيرها ..) او وثيقة مكتوبة كالقرآن الكريم مثلا . وكلها مصادر لدراسة أحوال المجتمعات العربية منذ أقدم العصور .

ويلحق بالمصادر المتعلقة بالعصر بما قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة اللغة التى وصلت الينا من الجاهليين والامثال والاشعار والخطب والوصايات ، وان لم تكن قد دونت فى الوقت الذى نشأت فيه ، لأن الاجماع على صحتها ، (أو على صحة الجانب الاكبر منها) يقوم لها مقام التدوين .

والمصادر هى :

١ ـ القرآن الكريم (١) وهو أصدق المصادر .

---

* هذا الجزء مأخوذ بتصرف عن الاستاذ عمر فروخ . العرب فى حضارتهم وثقافتهم ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٨ .

(١) وقد انزل على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم على مدار ثلاث وعشرين عاما ١٣ قبل الهجرة الى ١١ هجرية منجما . وبمجرد نزول السور والآيات ، كان يتم تدوينها ، الا أن جمع القرآن الكريم على ما هو عليه الآن منذ نزوله ، فقد حدث فى أيام أبى بكر وفى أيام عثمان بن عفان :

وللقرآن الكريم تفاسير ، منها :

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) ، جامع البيان عن تأويل القرآن ، وهو معروف باسم تفسير الطبرى ، وهو تفسير تاريخى =

٢ ـ الحديث الشريف (٢) :

= يفسر الآيات بذكر الاحوال التاريخية والاجتماعية التي رافقت نزولها ، وقد نحى الطبرى المؤرخ في التفسير ، منحى يتلخص في استعراض جميع روايات الحديث وروايات التاريخ وروايات الآداب التي وردت في تفسير الآيات . ثم يفاضل بين تلك الروايات ويرجح ما يراه في نظره أقرب الى الواقع مما لا يعارض نص الآيات ، وابن جرير يسلك في التفسير مسلكا سلفيا فهو كما يقول الاستاذ عمر فروخ ـ في كتابه العرب في حضارتهم وثقافتهم ـ من أصحاب المذاهب الفقهية التي بادت ، فهو لذلك أقرب الى ما تقره الرواية الصحيحة والواقع التاريخي .

* أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨ هـ) ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل ، ويقول الأستاذ عمر فروخ أن الزمخشري من المعتزلة . الذين يحاولون تعليل مظاهر الوجود بالنظر العقلي أكثر مما يعتمدون الروايات التاريخية والدينية من أجل ذلك كره الفقهاء تفسير الزمخشري ويلحق بكتب التفسير الكتب التي تبحث في اسباب نزول السور والآيات في الزمن التي نزلت فيه كل واحدة منها ، وممن كتب في هذا أبو الحسن علي الواحدي النيسابوري (٤٦٨ هـ) ، والسيوطي (٩١١ هـ) .

كذلك يلحق بكتب التفسير الكتب التي تذكر الآيات المنسوخة ـ التي بطل حكمها والآيات الناسخة التي حلت محل الآيات المنسوخة ، والكتب التي تحمل اسم الناسخ والمنسوخ نذكر منها على سبيل المثال : كتاب لابن حزم الاندلسي (٤٥٦ هـ) ، وكتاب لابن الجوزي (٥٩٧ هـ) .

(٢) والحديث هو الاقوال التي رويت عن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد وصل الحديث الينا ، نقلا عن رسول الله ، نقله أصحابه عنه ثم أدوه الى الجيل الذي خلفهم ، وأهل هذا الجيل أدوه الى من تلاهم ، جيلا بعد جيل ، حتى وصل الى الذين دونوه ، وللحديث سند يجب أن يكون متصلا ، : أي أن يكون كل راو قد عرف الذين روى عنه ، كما يجب أن يكون جميع رجال السند ، جميع هؤلاء الرواة ، ثقاتا مشهودا لهم بالايمان والصدق والعلم والنزاهة .. على أن الاستيثاق في رواية الحديث ، بصحة الرواية وحدها ، لا يكفي ، يجب أن يكون للمحدث ، أي للعالم الذي يحفظ الحديث ويحدث به الناس ، دراية : وعلم بالاحاديث المروية عن رسول الله يتعلق بمعناها والفاظها وبالاحوال التي قيلت فيها وبالغرض المقصود منها يوم قولها . وقد يكون الحديث صحيحا ثابتا عن رسول الله ولكنه منسوخ ، أي بطل العمل به في أيام رسول الله نفسه ، فعلى المحدث ، اذن أن يكون جامعا بين صحة الرواية في الحديث وبين سعة الدراية به وبالاصول الملابسة له =

٣ ـ أدب العرب (٣) قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ وهو مصدر مساعد .

= منها الاصول فى الاستيثاق من صحة الحديث ويعرف عند العلماء المسلمين باسم مصطلح الحديث .

ولم يتم تدوين الحديث الا فى أيام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ومجاميع الحديث كثيرة منها :

صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، سنن ابى داود ، والموطأ للامام مالك (١٩٧ هـ) ، وسند الامام أحمد بن حنبل ، والدارمى ، وسنن الترمذى وسنن النسائى .

وللحديث الشريف أيضا ناسخ ومنسوخ منها ، ناسخ الحديث ومنسوخه لابى حفص عمر بن أحمد بن شاهين (٣٨٥ هـ) .

(٣) ويشمل الشعر والنثر الذى وصل الينا مرويا عن ذلك العصر ، وقد تأخر تدوينه ، كما أن رواته لم يحرصوا على ضبطه وصحته ، وقد ضاع معظم الادب الجاهلى ، كما تجرأ الكثير عليه بالنحل ، اما بنقل شيء من قائل الى قائل واما بوضع شيء منه على السنة الناثرين والشعراء .

ومن مجاميع الشعر الجاهلى :

المفضليات « للمفضل الضبى » (١٧٠ هـ) .

الاصمعيات (٢١٦) للاصمعى .

ديوان الحماسة لابى تمام .

الحماسة للبحترى .

شرح المعلقات السبع الطوال الجاهلية لابى بكر الانبارى (٣٨٨ هـ) .

جمهورية أشعار العرب لأبى زيد القرشى .

شرح المعلقات السبع للزوزنى .

شرح المعلقات العشر للتبريزى (٥٠٢ هـ) .

شرح حماسة ابى تمام للتبريزى .

ومن دواوين الشعراء الجاهليين المطبوعة :

* ديوان الشعراء الهذليين .

* دواوين امرىء القيس ، عمرو بن قميئة ، عبيد بن الابرص ، علقمة الفحل ، أوس بن حجر ، الشنفرى ، الاودى ، المتلمس ، طرفه ، الخرنق أخت طرفه ، المثقب العبدى ، عمرو بن كلثوم ، تمام بن أبى مقبل ، الحارث بن حلزة ، طفيل الغنوى ، أبى داود الايادى ، القتال الكلابى ، النابغة الذبيانى ، حاتم الطائى ، جران العود النمرى سلامه ابن جندل ، عبد القيس ابن خفاف البرجمى ، عنتره ، السموأل ، زهير ، لبيد ، كعب بن زهير ، أعشى قيس ، الخنساء ، امية بنى أبى الصلت . . =

٤ ـ كتب اللغة العربية (٤) :

= ومن مجاميع النثر :

أمثال العرب للضبى ·

جمهرة الامثال لابى هلال العسكرى ·

والمستقصى فى أمثال العرب للزمخشرى ·

مجمع الامثال للميدانى ·

وهناك أيضا مجموع حديث يدعى : جمهرة خطب العرب لاحمد زكى صفوت ·

(٤) اللغة العربية التى نكتب بها هى نتاج عصر ما قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك فهى تدل بمفرداتها على ذلك العهد · وقد جمع علماء اللغة العربية فى كتب اللغة والقواميس ، جميع ما سمعوه على الألسنة فى البلاد التى سمعت فيها العربية ، ولقد حوى هذا الجمع الفاظا غريبة يمكن أن تكون بقايا اللغات البابلية والحميرية والآرامية وسواها ·

والقاموس العربى ليس للمفردات اللغوية فحسب ، بل هو فى الحقيقة يجمع المفردات اللغوية والمعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والعمليه والفنية · ومن أجل ذلك كانت كتب اللغة العربية ، ومعاجم اللغة خاصة ، مصادر مهمة للحياة لعصر ما قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·

وقواميس العرب الكبرى هى :

القاموس المحيط للفيروز أبادى ·

لسان العرب لابى منظور ·

تاج العروس للمرتضى الزبيدى ·

وهناك كتب فى اللغة هى قواميس اختصاص يعنى كل واحد منها بجانب واحد من مفردات اللغة ، أو بمنهج واحد فى دراسة مفردات اللغة · هذه الكتب تساعد على استعمال المفردات فى وجوهها الصحيحة كأنها مجمع الكلمات فى نطاقها المعنوى الصحيح ، بينما القواميس تفرق تلك الكلمات تفريقا آليا بحسب الحروف ·

فمن كتب اللغة :

فقه اللغة للثعالبى ·

الخصائص لابن جنى ·

المخصص لابن سيده ·

شفاء الغليل فى ما فى كلام العرب من الدخيل لشهاب الدين الخفاجى ·

ليس فى كلام العرب لابن خالويه ·

كتاب النبات لابى حنيفة الدينورى ·

كتاب الخيل لابى عبيدة معمر بن المثنى ·

كتاب الاصنام لابن الكلبى ·

كتاب الانواء (للرياح والامطار والنجوم) لابن قتيبة ·

=

٥ ـ ما كتبه المؤرخون (٥) العرب :

٦ ـ ما كتبه الجغرافيون العرب (٦) :

= وهناك كتب فى اللغة يجمع بين مفردات اللغة وسائر المعارف اللغوية ، مع الاستطراد الى الادب والجغرافية والتاريخ والاجتماع ، منها :

الأمالى فى لغة العرب لابى على اسماعيل بن محمد القالى •

الكامل فى اللغة لابى العباس المبرد •

خزانة الادب ولب لسان العرب لعبد القادر البغدادى •

المزهر فى علوم اللغة للسيوطى •

انساب الخيل فى الجاهلية والاسلام لابى المنذر هشام ابن محمد الكلبى ويلحق بكتاب اللغة كتب النحو ، وهى كثيرة جدا يكفى ان نثبت هنا منها :

كتاب سيبوية •

المفصل للزمخشرى •

الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لابى البركات عبد الرحمن بن محمد الانبارى •

(٥) كتب التاريخ عند العرب :

تاريخ الرسل والملوك لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جمع مؤلفه فيه جميع الروايات التى وصلت اليه ، على مثال ما فعل فى التفسير ، الا انه فى التاريخ يورد الروايات من غير أن يرجح احداها على الاخرى الا نادرا ومن كتب التاريخ أيضا :

تاريخ الكامل لابن الاثير •

سيرة ابن هشام •

كتاب الاصنام لابن الكلبى •

المعارف لابن قتيبة •

ثم التنبيه والاشراف ومروج الذهب واخبار الزمان للمسعودى •

الاخبار الطوال لابى حنيفة أحمد بن داود الدينورى •

العقد لابن عبد ربه •

كتاب المعمر لابى حاتم السجستانى •

كتاب العبر لابن خلدون •

وهناك كتب تعالج الناحية الاجتماعية من التاريخ أشهرها :

الجزء الأول من كتاب العبر لابن خلدون وهو المعروف بمقدمة ابن خلدون ، نهاية الارب فى فنون العرب •

(٦) صفة جزيرة العرب للهمذانى =

٧ ـ الأدب العربى (٧) :

٨ ـ مراجع عن الطريقة العلمية للتاريخ والمؤرخين (٨) العرب :

٩ ـ ما ذكره مؤرخو اليونان والرومان (٩) عن جزيرة العرب :

١٠ ـ الآثار (١٠) الأدبية وغير الادبية وما يمكن ان تلقيه من ضوء على تاريخ جزيرة العرب .

= معجم ما ستعجم للبكرى .

معجم البلدان لياقوت الحموى الرومى ، وهو دائرة معـــارف أكثرها جغرافية ولكن فيه استطراد كثير الى التاريخ والادب ، وفيه ملاحظات كثيرة تتعلق بالحضارة والثقافة .

(٧) وهو من مصادر الحياة فى الجاهلية ، وفى كتب الادب مراجع تقوم مقـــام المصادر وتعالج الجانب الادبى من حياة العرب . من هذه الكتب :

عيون الاخبار لابن قتيبة .

كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى وهو اجمع كتب الادب فى تصوير الحياة العربية من الناحية الادبية والاجتماعية .

معجم الشعراء للمرزبانى .

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى .

الشعر والشعراء لابن قتيبة .

البيان والتبيين والحيوان .

ويحسن أن نعلم أن معظم هذه الكتب التى هى مصادر أو مراجع للعصر الجاهلى هى فى الوقت نفســـه مصادر ومراجع للعصر الاسلامى (فى أيام الرسول وأيام الخلفاء الراشدين وفى أيام الدولة الاموية) .

(٨) * جمال الدين القاسمى الدمشقى ، قواعـــد التحديث من فنون مصطلح الحديث .

* فرانتز روزنتال (ترجمة صالح أحمد العلى) علم التاريخ عند العرب .

* د . عبد العزيز الدورى ، بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب .

* حسن نصار ، نشأة التدوين التاريخى عند العرب .

(٩) وهو من المصادر الثانوية جدا ، ومن هؤلاء هيرودوت المتوفى عام ٤٠٦ ق . م وديودور الصقلى المتوفى عام ٨٠ ق . م ، واسترابون المتوفى ٢٤ م (وقد ذكر فى مؤلفه الجغرافى مدن العرب وقبائلهم وشيئا عن أحوالهم التجارية والاجتماعية) ، وبطليموس ، الجغرافى الذى مـــات عـــام ١٤٠ م (وقـــد ذكر فى كتـــابه قبائل بلاد العرب ومدنها وحدد موضعها) .

(١٠) أ . مدنى ، التاريخ العربى ومصادره ، ج ٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ـ ٣٩ .

اهم المراجع (١١) :

* د · جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام · وهذا المؤلف يحوى كل ما قاله العرب قديما وحديثا فى تاريخ العرب قبل رسالة محمد فى اليمن ونجد والحجاز والعراق والشام ، ثم هو يضيف الى ما قاله المستشرقون فى ذلك ·
* محمود شكرى الالوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ·
* محمد عبد الجواد الاصمعى ، العرب وأطوارهم ، طور العرب والعربية فى أحوال الجاهلية ·
* محمد شكرى ، العرب فى الجاهلية والاسلام ·
* محيى الدين بن ابراهيم العطار ، بلوغ الأرب فى مآثر العرب ·
* كارلو نالينو ، تاريخ الفلك عند العرب ·
* ناصر الدين الاسد ، القيان والغناء فى العصر الجاهلى ·
* د · شوكت الشطى تذكرة فى تاريخ الطب قبل الاسلام ·
* محمود سلام زناتى ، اختلاط الجنسين عند العرب ·
* نفس المؤلف ، دراسات حول وضع المرأة الاجتماعى والقانونى فى العصور القديمة ·

ومن مراجع الأدب الحديثة :

* ناصر الدين الاسد ، مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها ·
* مصطفى صادق الرافعى ، تاريخ آداب العرب ·
* كارل بروكلمان (تعريب عبد الحليم النجار) ، تاريخ الأدب العربى ·
* محمد الخضر حسين ، نقد كتاب فى الشعر الجاهلى ·
* محمد فريد وجدى ، نقد · كتاب الشعر الجاهلى ·
* محمد أحمد الغمراوى ، النقد التحليلى للشعر الجاهلى ·

---

(١١) أما المرجع فهو عادة الكتاب الذى كتب فى عصر ما ، ولكن بعد انقضاء ذلك العصر ، والمراجع نوعان :

نوع اعتمد مؤلفها كتبا ضاعت · مثال ذلك كتاب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى فمؤلفه ، يسمى فى ثنايا فصول كتابه كتبا اعتمدها ونقل منها ، ولكن هذه الكتب لم تصل الينا · من أجل ذلك يلحق كتاب الاغانى بالمصادر فهو مرجع بمثابة المصدر عن الحياة فيما قبل رسالة محمد والحياة فى صدر الاسلام ·

وأما النوع الثانى من المراجع فيتناول الكتب التى اعتمد مؤلفوها مصادر ومراجع لا تزال موجودة بين ايدينا · ومن المصدر تؤخذ الحقائق والآراء ، أما من المرجع فتؤخذ الآراء فقط · وتنقسم المصادر من جهة ثانية قسمين : مصادر أساسية ومصادر مساعدة · وهناك كتب هى مصادر ومراجع فى وقت واحد ·

الفصـــل الرابع

اصل تسمية : عربة ، بلاد العرب ، وجزيرة العرب

أورد ياقوت (١) الحموى :

« عربة بالتحريك · وهى فى الاصل اسم **لبلاد العرب** ·· قال أبو منصور «اختلف النـــاس فى العرب لمـا سموا عربا فقال بعضهم أول من انطق اللـه لسانه بلغة العرب يعرب ابن قحطان وهو أبو اليمن وهم العرب العاربة ·· قال نصر وعربة أيضـــا موضع فى أرض فلسطين بهـا أوقع أبو أمـــامة الباهلى بالروم لمـــا بعثـه يزيد بن أبى سفيان ، لا أدرى بفتح الراء أو بسكونها ونشـــأ اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام بين أظهرهم فتكلم بلسانهم فهو وأولاده العرب المستقرين ·· وقال آخرون نشـــأ أولاد اسماعيل بعربة وهى من تهامة فنسبوا الى بلدهم ·· وفى قول النبى صلى اللـه عليه وسلم خمسة من الانبياء من العرب وهم اسماعيل وشعيب وصـالح وهـود ومحمد · وهو دليل على قـــدم العربية لأن فيهم من كان قبـل اسماعيل الا أنهم كلهم كانوا ينزلون بلاد العرب فكان شعيب وقومه بأرض مدين وكان صالح وقومه ينزلون ناحية الحجر وكان هود وقومه ينزلون الاحقاف وهم أهـــل عمـد وكان اسماعيل ومحمد صلى الله عليه وسلم من سكان الحرم · والذى يتبين من هـــذا ان **كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلهـــا فهم العرب** سمو عربا باسم بلدهم العربات ·· وقال أبو تراب اسحاق بن الفرج عربـة باجة العرب وباجة دار أبى الفصاحة اسماعيل بن ابراهيم عليه السلام قال وفيها يقول قائلهم وهو أبو طالب بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم :

وعربة دار لايحل حرامها من الناس الا اللوذعى الحلاحل · يعنى النبى صلى الله عليه وسلم احلت له مكـــة ساعة من نهار ثم هى حرام الى يـــوم القيامة قال واضطر الشاعر الى تسكين الراء من عربة فسكنها كمـــا فعـل الآخر ···

واقامت قريش بعربة فتنتجت بها وانتشر ســـائر العرب وبها كان مقـام اسماعيل عليه السلام ··· وقال هشام بن محمد بن السائب جزيرة العرب

---

(١) معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ·

تدعى عربة ومن هنالك قيل للعرب عربى (٢). لما قيل للهندى هندى وكما قيل للفارسى فارسى لأن بلاده فارس وكما قيل للرومى رومى لأن بلاده الروم. فالالسنة التى تجمع العربية كلها قديمها وحديثها سته ألسنه كلها تنسب الى الارض والارض عربة ولم يسمح لاحد من سكان جزيرة العرب أن يقال له عربى الا لرجل انطقه الله بلسانها فانهم وأولادهم أهل ذلك اللسان دون سائر السنة العرب .

وجزيرة العرب هى اللفظة التى استعملها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم . لتدل على بلاد العرب ، فقد روى فى الحديث : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » (٣) « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (٤) .

ولذلك فان المؤرخين والجغرافيين المسلمين قد حرصوا على استعمال نفس اللفظ « جزيرة العرب » فى حديثهم عن بلاد العرب . مثال ذلك ما رواه (٥) الهمدانى : ((**انما سميت بلاد العرب بالجزيرة**)) لاحاطة البحار والانهار بها من اقطارها وأطرافها ، وصاروا منها فى مثل

---

(٢) كما ورد اللفظ فى الآية القرآنية التالية لنعت شخص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ، أأعجمى وعربى ؟ » ، كما وردت الكلمة أيضا نعتا للغة التى نزل بها القرآن بأنها لغة واضحة بينة ، من قوله تعالى : « انا انزلناه قرآنا عربيا لعنكم تعقلون » .

(٣) رواه البخارى .

(٤) صفة جزيرة العرب ، طبعة السعودية ، ١٣٩٤ هـ ، ص ٤٧ .

(٥) وقد علل الالوسى هذه التسمية فقال « أعلم ان الجزيرة فى أصل اللغة ما ارتفع عنه الماء أخذا من الجذر الذى هو ضد المد ، ثم توسع فيه فأطلق على كل ما دار عليه الماء ، ولما كان هذا القطر يحيط به بحر القلزم من جهة الغرب وبحر الهند من جهة الجنوب ، وبحر فارس من جهة الشرق ، والفرات من جهة الشمال ، أطلق عليه جزيرة وان كان له اتصال بالبر . وذلك على سبيل التشبيه والمجاز المشحون منه كلام الفصحاء لا أن العرب لم يفرقوا بين الجزيرة وشبهها كما زعمه بعض المؤلفين الذين لم يقفوا على أسرار كلامهم وأضيفت الى العرب لنزولهم بها ابتداء وسكناهم فيها (انظر محمود شكرى الالوسى ، بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ، القاهرة ١٣٤٢ ، ص ١٨٧) .

الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات القافل من بلاد الروم يظهر بناحية قنسرين (٦) ثم انحط على الجزيرة وسواد العراق حتى دفع فى البحر من ناحية البصرة والابلة وامتد (الى عبادان وعمان من بحر الهند ، وأخذ) البحر في ذلك الموضع مغربا مطيفا ببلاد العرب منعطفا عليها فأتى منها على سفوان وكاظمة ونفذ الى القطيف وهجر وأسياف (والبحرين) وقطر وعمان والشحر ومـــال منه عنق الى حضرموت وناحية أبين وعدن ودهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن فى تهائم اليمن بـــلاد فرســـان وحكم والاشعريين وعـــك ومضى الى جده ســـاحل مكـــة ــ والجار ساحل المدينة وســاحل الطور ــ وخليج أيلة وساحل داية ــ كورة من كور مصر البحرية ــ حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها واقبل النيل من غربى هـــذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلا معارضا للبحر معـــه حتى دفع فى بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها واتى على صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ الى سواحل حمص وسواحل قنسرين ، حتى خالط الناحية التى اقبل منها الفرات منحطاعلى أطراف قنسرين والجزيرة الى ســواد العراق فصـــارب بـــلاد العرب من هذه الجزيرة التى نزلوا بهـــا ، وتوالدوا فيها على خمسة أقســـام عنـد العرب وفى أشعارها :

١ ــ تهامة وهى الارض الساحلية المنخفضة الممتدة من ينبع الى نجران بمحازاة ساحل البحر الاحمر . وسميت بهـذا الاسم لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شـــدة الحر وركود الريح ، وتسمى الغور أيضـــا لانخفاض أرضها عن أرض نجد . وفى تهامة كان يجرى طريق القوفل الغربى الذى يمتد متاخما لساحل البحر (٧) .

٢ ــ الحجاز وهو اقليم جبلى رملى فى الصقيع الاوسط من المنطقة المعتدلة الشمالية تجاه البحر الاحمر . ويقع شمال اليمن وشرقى تهامة ، ويتكون من

---

(٦) قنسرين بكسر أوله وفتح ثانية وتشديده ، وقد كسره . . قوم ، ثم سين مهملة ، وكان فتحهـــا على يـــد أبى عبيده بن الجراح رضي اللـــه عنـــه فى سنة ١٧ هـ . وكانت حمص وقنسرين شيئا واحدا .
(معجم البلدان ، المجلد السابع ، ص ١٦٨) .

(٧) حسن ابراهيم ، تاريخ الاسلام ، ج ١ ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢ وما بعدها وهو يعتمد على Doughty, Aiabia Deserte ومقدمة معجم ما استعجم لابى عبيد البكرى ، القاهرة ١٩٤٥ ، ص ١ ــ ٩٠ ، عبد الفتاح شحاته ، تاريخ العرب وصدر الاسلام ، وهو يعتمد على الهمدانى ، صـــفة جزيرة العرب ود . جواد على ، العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، ١٣٣ .

عـــدة أودية تتخلل سلسلة جبال السراة ، وقد سمى حجازا لانه يحجز بين تهامة ونجد • وبالحجاز تقع مكـــة والمدينة • وتقع الحجاز على الطريق التجارى بين اليمن والشام •

٣ ــ نجد وسمى نجدا لارتفاع أرضـــه ، وحدوده تمتد بين اليمن جنوبا وبادية السارة شمالا والعروض وأطراف العراق شرقا •

٤ ــ اليمن • ويمتد من نجد الى المحيط الهندى جنوبا والبحر الاحمر غربا ويتصل به من الشرق حضرموت والشحر وعمان •

٥ ــ العروض • يشمل اليمامة وعمان والبحرين ، وسمى عروضـــــا لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق •

سكان جزيرة العرب والعرق الذى ينتمون اليه ؟

اعتاد المؤرخون الغربيون تقسيم الجنس البشرى الى ثلاثة عـــروق : العرق السامى نسبة الى سام بن نوح وهم اصحاب البشرة البيضاء ، والعرق الحامى نسبة الى حام بن نوح وهم اصحاب البشرة الحمراء والسوداء والعرق اليافثى نسبة الى يافث بن نوح وهم أصحاب البشرة الصفراء • ثم جعلـوا جزيرة العرب من العرب الذين ينتمون الى الجنس السامى •

وهذا التقسيم مبنى على ما ورد فى مصدر ثبت تحريفه • وتزييفه بمعرفة اليهود الا وهو العهد القديم (٨) الذى يجعل لليهود الافضلية على غيرهم مـن شعوب الارض مهما اشركوا بالله ومهما اخطأوا وارتكبوا من المساوىء ، والآثام والجرائم فى حق البشرية •

والمنهج الاسلامى لدراسة تاريخ البشرية لا يعرف تقسيما للبشرية على الاساس السالف الذكر ، دليلنا فى ذلك •

قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم مـن نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا اللـه الذى تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » • (٩)

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعطيمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب •

---

(٨) سفر التكوين الاصحاح العاشر •
(٩) سورة النساء : ١

والمنهج الاسلامى ايضا لا يعرف المفاضلة بين البشرية الا على اســـاس واحد ، هو التقوى ، والدليل على ذلك :

قول الله تبارك وتعالى : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » • (١٠)

وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى خطبة الوداع : الناس فى الاسلام سواء ، الناس طف الصالح لآدم وحواء لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى الا بتقوى الله ، الا هل بلغت ، قالوا : نعم ! قال : اللهم اشهد •

كما وان الامة الشهيدة لا تنتمى الى الجنس السامى او الحامى او غيرهما وانما الامة الشهيدة هى الامة المسلمة • والدليل على ذلك قول الله تعالى :

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هــذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » • (١١)

وبهذا يمكن القول ان المنهج الاسلامى لدراسة التاريخ لا يهتم بقضية الجنس أو اللون •• ، انما الذى يهمه هو قصة الايمان والعقيـــدة والدين والتقوى •

طبقات العرب :

تفتيت تاريخ العرب الى طبقات لا يعرفه المنهج الاسلامى لدراسة تاريخ جزيرة العرب •

اعتاد من كتب فى تاريخ جزيرة العرب فى القرن الاخير ، تقسيم سكانها الى ثلاث طبقات :

العرب البائدة والعرب العارية والعرب المستعربة •

واقتصر لآخر على تقسيمهم الى قسمين فقط :

(آ) **عرب بائدة :** وهى التى ــ كما يقول محمد مبروك نافع ــ بـــادت

(١٠) الحجرات : ١٣
(١١) الحج : ٧٨

وطمست معالم أخبارها منذ ما قبل الاسلام (١٢) • وان جمهرة المستشرقين

---

(١٢) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ، القاهرة ١٩٥٢ • لقد غاب عن الكاتب ان هودا وصالحا قد دعوا قومهما الى الاسلام • كما غاب عنه ان انكار اخبار عاد وثمود التى اخبر بهما القرآن الكريم يمس الاعتقاد الصحيح للمسلم ، لأن ذلك يقوم على منهج معاد للاسلام يهدف الى تشكيك الامة المسلمة فى دينها وقرآنها • واشهر قبائل العرب البائدة عاد وثمود والعمالقة والمعينيون وطسم وجديس وجرهم الاولى ، وعبد ضخم ، وعبيل وأميم وحضورا •

ويقال ان العمالقة هم من اولاد لاوتد ابن سام بن نوح ، اخ ارم بن سام الذين تنتسب اليهم عاد وثمود ، ويقول مؤرخو العرب أنهم كانوا ينزلون اليمن فى اول امرهم ، وقد هاجر بعضهم الى الحجاز وتهامة (وهى قبائل بنى ليف وبنى سعد وبنى مطر) • بينما ذهب فريق ثان الى نجد وشمال شبه الجزيرة (قبائل بديل وغفار وبنى مر بن عمليق • وفريق ثالث الى عمان (قبيلة جاسم) وفريق رابع الى فلسطين (وهم الجبابرة) وفريق خامس الى مصر • (ويقال ان منهم الهكسوس وفريق سادس الى العراق (وهم الذين اسسوا دولة بابل) ومن هناك نزح البعض منهم الى اليمن مؤسسا دولة المعينين •

أما طسم وجديس فيقال ان مساكنهم كانت باليمامة ـ شرقى ـ نجد •• وبالنسبة لجرهم الاولى ، فيقال انها كانت تسكن مكة على عهد عاد وثمود والعمالقة اما لجرهم الثانية فهى من القحطانيين التى صاهرت اسماعيل عليه السلام وكان باليمن اولا ثم هاجرت الى مكة ويقال انه قد ولد لقحطان ابن يعرب الذى ملك اليمن ، وولى اخوته على جميع اعمالهم فولى جدهما على الحجاز، وولى عاد الشحر وعمان على عمان • ويقال ان يعرب خلفه ابنه يشجب ثم خلف عبد شمس •• الملقب بسبأ « أباه يشجب وينسب الى عبد شمس ـ فيما قيل ـ بناء مدينة سبأ وسدها المشهور وقصر سبأ ومدينة مأرب •

وقد تناسل من سبأ عدة اولاد : أشهرهم حمير وكهلان ومن ذريتهما تكون القحطانيون •

ومن حمير كان التبابعة (جمع تنبع ومعناه ملك الملوك) •

والاذواء (جمع ذو يمعنى صاحب) والاقيال جمع قيل وهم صغار الملوك • واشهر فروع كهلان ابن سبأ والازد وطىء وانمار وعاملة وهمدان وكندة وجذام ولخم ومذحج •

فالأزد عدة بطون : منها الاوس والخزرج ، وهم الذين استوطنوا يثرب بعد هجرتهم من اليمن ، ومنهم بنو العتيك رهط المهلب بن ابى صفرة وبنو لهب وكانت لهم شهرة فى العيانة •••

ومن بطون الازد الغساسنة آل جفنة أمراء الشام ، وبنودوس وينسب اليهم أبو هريرة والحارث بن الطفيل رضى الله عنهما ، ومنهم خزاعة ، رهط =

يعتقدون ان ما يسمى بالعرب البائدة (منها عاد وثمود) ليس من التاريـــخ الحقيقى فى شىء ، انما هو جزء من الميتولوجيا العربية أو التاريخ الاسطورى الذى يسبق عادة التاريخ الحقيقى لكل امة وهم اذا عالجوا بعض قبائل العرب البائدة فى كتبهم فانما يعالجونها على هذا الاساس فحسب ·

= كثير غيره ودعبل بن على وهما شاعران مشهوران ، وقد نزلت خزاعة بوادى مكة واجلوا سكانها من جرهم الثانية بعد ان أخذوا منهم سدانة الكعبة ·· وما زالت فى ايديهم حتى غلبهم قص بن كلاب العدنانى الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم **واما طىء** ، وقد نزلوا بنجد فى جبل أجا وسلمى (بجبلى شمر) ، بعد رحيلهم عن اليمن بعد سيل العرم · ومن مشاهير طىء حاتم الطائى وزيد الخيل الذى سماه النبى زيد الخير واوس بن حارثة ·

انمـــار : ومن بطونها بجيلة خثعم · وينسب الى بجيلة جرير بن عبدالله البجلى رضى الله عنه · وهو السفير الذى لم يوفق فى محاولته اصـــلاح ذات البين بين على ومعاوية رضى الله عنهما ·

عاملة : نزلت بالقرب من دمشق فى جبل يعرف بجبل عاملة شـــمال الشام ·

همدان :

كندة : وينسب اليها امرؤ القيس ، وكان لهم ملك قديم فى حضرموت ونجد واليمامة ·

جـزام :

لخم : ومنهم قصير بن سعد صاحب جذيمة الأبرش ، وآل نصر ملوك الحيرة وبنو الدار ·

مزحج : وهى عدة بطون منها عنس رهط عمار بن ياسر ·

حمير بن سبأ : وهى عدة بطون منها قفاعة ، وقد استقروا بعد هجرتهم من اليمن فى دومة الجندل وتبوك واطراف الشام ، فمن بطونها :

بنو كلب : واليهم ينسب دحيه بن خليفة الكلبى الذى كان ينزل جبريل فى صورته على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنهم حارثة الكلبى والد زيد بن حارثة وقد نزلوا فى شمال الحجاز وبادية الشام ·

تنوخ : وقد نزلوا البحرين ثم رحلوا الى الحيرة ، والى تنـوخ ينسب ابوالعلاء المعرى ·

بنو جهينة : وقد نزلوا بوادى اضم وادى الحمض على مقربة من المدينة·

بنو جرم : وقد بقيت فى اليمن ·

بنو عذرة : وقد نزلوا بجنوب الحجاز ·

ومن قضاعة بلى وكانوا يسكنون شمال الحجاز ·

ومن سائر حمير غير قضاعة · التبابعة ومنهم ذو الكلاع ، وذو نواس ·

(ب) وعرب باقية ، وتقسم بدورها الى قسمين :

أولا : عرب الجنوب (اليمن وهم العاربة أو العرباء أو القحطانية نسبة الى يعرب بن قحطان بن عابد من سلالة نوح عليه السلام .

ثانيا : عرب الشمال (الحجاز) وتسمى المستعربة او المتعربة او العدنانية نسبة الى معد بن عدنان من سلالة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام . وسلسلة النسب من عدنان الى اسماعيل محل خلاف بين المؤرخين مع الاتفاق على ان عدنان ينتهى نسبه الى اسماعيل ، ويروى ان النبى صلى الله عليه وسلم اذا انتسب لم يتجاوز عدنان (١٣) .

---

(١٣) وقد ولد لعدنان « معد » ولمعد « نزار » ومن نزار : مضر وربيعة واياد وانمار . ومضر بن نزار هو اشهر ابناء نزار وكان اولاده فى الجاهلية اشراف العرب . ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم زادهم شرفا الى شرفهم بانتسابه اليهم . وبنو مضر شعبتان :

(أ) قيس بن مضر (قيس عيلان) ومن أهم بطونه :

باهلة ، وهوزان ومازن ، وسليم ، وغطفان ، وعدوان .

(ب) الياس بن مضر وكانت تحته خنذف وتسمى ليلى فعرف بنوه بها . ومن الياس طابخة ومن طابخة تميم . ومن بنى تميم قبائل فى نجد وينتسب اليهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومن الياس بن مضر « بنو قمعة » و « بنو مدركة » و « هذيل » .

وكانت تسكن جبال الطائف العليا بجوار « ثقيف » ، ومن مدركة « خزيمة » وهى فرعان الهون وأسد . ومن خزيمة كنانة وهى قبيلة معروفة ذات فروع كثيرة . وولد لكنانة النضر . ويروى بعض الرواة ان النضر المذكور هو الملقب بقريش ، والذى رجحه الجمهور ان قريشا هم « بنو فهر بن مالك بن النضر » ، أى ان فهرا حفيد النضر هو الذى لقب بقريش ، قيل : لأنه يشبه دابة قوية فى البحر تسمى القرش ، وقيل : ان « قصى بن كلاب » لما استولى على مفاتيح الكعبة من خزاعة وآلت اليه امارة البيت الحرام جمع اشتات بنى فهر وكانوا متفرقين فى انحاء مكة فسموا قريشا من قرشهم (أى جمعهم) وقيل من « التقريش » وهو التفتيش لانهم كانوا يفتشون عن حاجات الناس فيسدونها ، وقيل : لأنهم اهل تجارة يتقرشون المال (اى يجمعونه) من القرش وهو الجمع ، فكل من كان من ولد النضر او من ولد حفيده فهو قرشى ، ومن عدا ذلك فليس بقرشى .

وولد لقريش : غالب والحارث ، ومن بنى الحارث « ابو عبيده بن الجراح » ومن ولد قريش « بنو محارب » ، وينتسب اليهم الضحاك بن قيس الفهرى ، وقريش منهم الظواهر والبطاح ، فالظواهر : هم بنو الحارث وبنو =

ولنا على ذلك التفتيت المتعمد لتاريخ العرب اعتراض :

ان تاريخ عاد وثمود وغيرهم يتدرج تحت اخبار القرون الاولى :

« **قال تعالى : فما بال القرون الاولى · قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى** » ؟ واخبار عاد وثمود جزء من تاريخ البشرية ، لمجتمعات عاشت ثم قضيت ، ولكن تبقى آثارها وسماتها وصفاتها متمثلة في مجتمعات قائمة او قادمة · ومن أربعة عشر قرنا ، من انزمان انزل الله على رسولنا محمد قرآنا يتردد صداه في جنبات الارض الى يوم الدين فها هي رجل مؤمن من آل فرعون يعطى قومه درسا في تاريخ البشرية لعل القوم يتعظون ويعتبرون بمن سبقهم : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وان يك كاذبا فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب · يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الارض ، فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ، ؟ قال فرعون : ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد · وقال الذى آمن ، يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد (١٤) » ·

= محارب، لأنهم سكنوا بظاهر مكة ولم يدخلوا الابطح مع قصى ، وما سوى هذين البطنين من بطون قريش يقال لهم قريش البطاح لسكناهم ببطحاء مكة ومن غالب « لؤى » وتناسل من هذا عدة اولاد : منهم « كعب » ومنه مرة ، ومن هذا كلاب ، وولد لكلاب قصى ، ولقصى : عبد مناف ، وعبد الدار ، وعبد العزى وولد لعبد مناف ـ وكان ذا شوكة في قريش ـ عبد شمس وهاشم ، والمطلب ونوفل ، وولد لعبد شمس « امية » ـ جد الخلفاء الامويين ـ وولد لهاشم « عبد المطلب » ولعبد المطلب اثنى عشر ولدا هم : عبد الله والد النبى صلى الله عليه وسلم ، وابو طالب ، والزبير ، وعبد الكعبة ، والعباس ، وضرار وحمزه ، وحجل ، وابو لهب ، وقثم ، والعيداق ، والحارث ·

وكان لعبد المطلب من الاناث : صفية ، وأم حكيم ، و عاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبرة ·

وكان العقب من الذكور لستة اشخاص : حمزه والعباس وابو لهب ، وابو طالب والحارث وعبدالله ، فكان من ابى طالب جعفر وعلى وعقيل ومن على كان الخلفاء العلويون ، ومن العباس الخلفاء العباسيون ومن عبدالله سيد ولد عدنان ولا فخر محمد صلى الله عليه وسلم ·

(١٤) غافر : ٢٨ ـ ٣٣

وتاريخ هذه المجتمعات شاهد حى على مدار الزمان يقيم الحجة على البشرية لئلا تقع فيما وقع فيه تلك الاقوام من شرك بالله وعصيان للانبياء وتنحية لشريعة الله من حياتهم واعتداء على الحرمات فكان جزاؤهم العذاب الشديد فى الدنيا والآخرة ٠

اى أن هذا الجزء من تاريخ جزيرة العرب وهو الذى يتصل بسيرة هود وصالح وسليمان وشعيب هو الجدير بالاهتمام والجدير بالدراسة ، لأن الله سبحانه وتعالى انزل فيهم قرآنا يتلى الى يوم الدين وجه فيه نظر النبى محمد صلى الله عليه وسلم ونظر الانبياء من قبله ، ونظر البشرية على مدار تاريخها الطويل الى اخبار عاد وثمود ومدين وسبأ ٠ وما يمكن ان تنشئه فى النفس البشرية من قيم ومبادىء وحب للاسلام وأهله ، ومن مقت للكفر وحزبه ، وعقد العزم على السير فى الطريق الذى سار فيه الأنبياء والدعاة مهما كانت المشقة ومهما كانت التكاليف اذا رام المسلم لنفسه واهله وعشيرته وأوطانه انقاذا من النار وفوزا بالجنة ٠

الفصل الخامس

اخبار القرون الاولى من حياة جزيرة العرب :

تمهيـد : لعل أقدم ما تحكيه المصادر الاسلامية من اخبار القرون الاولى من حياة جزيرة العرب ما رواه القرآن الكريم عن امة عاد التى يمكن القـول بأنها عاشت فى الحقبة التى تلت عصر نوح عليه السلام ، والحقبة التى سبقت رسالة موسى عليه السلام الى شعب مصر وبنى اسرائيل ٠

والدليل على ذلك التحديد :

(أ) ما رواه الله سبحانه وتعالى : « أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ٠ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون(١)» وقد وضع الاثريون تاريخا تقريبيا للطوفان يصل الى القرن الاربعين قبل الميلاد ٠

(ب) قوله تعالى عن مؤمنى آل فرعون : « وقال الذى آمن يا قوم انى أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين مـن بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » (٢) ٠ وقد وضع الدارسون تاريخا لخروج موسى من مصر بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد اى فى عهد الملك مرنبتاح المصرى ٠

وبذلك نصل الى افتراض مضمونه ان قوم عاد يمكن ان يكونوا قد عاشوا بين القرن الاربعين والثالث عشر قبل الميلاد ٠

ولما كانت رسالة هود عليه السلام بالأحقاف هى اقدم ما ذكره القرآن عن تاريخ بلاد اليمن ، فقد كان من الواجب علينا ان نبـدأ تاريخ الجزيرة بدراسة سيرة هود ثم نتبعها بدراسة تاريخ الدول التى تكون قد عاصرت الرسالة أو اعتنقتها ٠٠

---

(١) الاعراف : ٦٩

(٢) غافر : ٣٠ ـ ٣١ ٠

ولكن حرصا على معالجة تاريخ وحضارة جزيرة العرب ، كوحدة متكاملة من خلال القرآن الكريم ، وحديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب التراث الاسلامى ، فى نهاية كتابتنا هذه باذن الله ٠

فاننا سنبدأ تقديمنا لتاريخ الدول التى قامت فى جزيرة العرب ، كما اعتادت الدراسات التاريخية فى القرن الاخير ٠

يبدأ الباحثون ـ دواما ـ تاريخ « جزيرة العرب » بالـدول التى قامت فى الجنوب ، أى دول اليمن ٠

أولا : دول اليمن :

أطلق المؤرخون العرب على جنوب الجزيرة العربية اسم اليمن بالتحريك لتيامنهم اليها ٠٠ أو كما قال الهمدانى : « سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها » ٠ ويحد اليمن من الغرب تهامة والخليج العربى (البحر الاحمر) ، ومن الشمال الحجاز ، ومن الشرق العروض والبحرين ، ومن الجنوب بحر العرب (المحيط الهندى) ٠ وكانت اليمن تتكون من أقسام منها : حضرموت وشمر وعمان ، وقد اتاح لها ذلك الموقع الجغرافى فى الفرصة لكى تلعب دور الوسيط فى التبادل التجارى بين الهند والصين وفارس والحبشة ومصر والعراق وبلاد العرب بما فى ذلك الشام (٣) ٠

وكانت اليمن قبل ـ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ تنقسم الى محافد جمع مخفد ، والمحفد يشمل عدة قصور وكان القصر ان ذاك كالحصن أو القلعة ، يحيط به سور ، ويقيم فيه شيخ أو أمير ٠ ويعرف صاحب المحفد أو القصر بلفظ « ذو » أى صاحب ٠ وكان يضاف هذا اللفظ الى اسم المحفد فيقال « ذو عمدان » أى صاحب عمدان وذو معين أى صاحب معين ومن أشهر المحافد غمدان وناعط وصرواح ، وسلحين بمأرب وظفار وبراقش ومعين ٠

كما يحدث فى بعض الاحيان أن تجتمع عدة محافد ويتولى شئونها أمير واحد يسمى قيل (أى ذو القول الذى اذا قال لم يرد أحد قوله) ويطلق على مجموع المحافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع مخلاف (٤) ٠

(٣) معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ٥٢٢ ـ ٥٢٣ ٠

(٤) د ٠ محمد جمال الدين سرور ، قيام الدولة العربية الاسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

وكان الاقيال يغزو بعضهم بعضـــا ، ويغير أحدهم على جـــاره ، وقد نجح بعضهم فى مـــد سلطانهم على جيرانهم ، وهـــؤلاء عرفوا بالملوك وأصبح محفدهم حاضرة لهم وتوالى الحكم فى أعقابهم ، وبهـــذه الوسيلة قام فى بلاد اليمن قبـــل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عدة دول :

ومن أهم الدول التى قامت فى اليمن :

* دولة بنط ؟
* دولة معين ٠
* دولة سبأ ٠
* دولة حمير (٥) ٠

١ ـ دولة بنط (؟)

ذكر بعض الباحثين (٦) رأيا مفـــاده أن بـــلاد بنط التى وردت فى النصوص المصرية القديمة ما هى الا « بـــلاد اليمن » التى كانت تسميها النصوص أيضـــا تانفر أى « الارض المباركة » ٠٠ واذا صح الامر ، فان دولة بنط قـــد امتـــد نفوذها ليشـــمل المنطقة حول بوغاز باب المنـــدب والصومال وأريتريا وجنوب جزيرة العرب وأنه كان لهـــا نشاط تجـــارى بحرى مع مصر وبـــلاد الشام ، وغرب أفريقيا والهند ٠

وكل ما يعرف عن هـــذه الدولة هو ما ذكرته النصوص المصرية القديمة من ارسال البعثات التجارية الى هنـــاك فى عهـــد الفرعون ساحورع (٧) والملكة حتشبسوت (٨) ، لاحضار منتجات بلاد اليمن من البخور والمر واللادن والكندر وجلود الفهد ٠

---

(٥) يذهب بعض الباحثين الى أن الدول التى قامت فى جنوب الجزيرة كانت معين وســـبأ وقتبان (٤٠٠ ـ ٥٠ ق ٠ م) وحضر مـــوت (٤٥٠ ـ ٢٠٠ ق ٠ م) وذلك يعنى أنهم يسقطون دولة حمير من حسابهم ويعتبرون ذى نواس آخر ملوك ســـبأ ٠ (أنظر موسكاتى تعريب السيد يعقوب بكر ، الحضارات السامية القديمة ، ص ١٩٢ـ ١٩٣ ٠

(٦) أنظر أنور رفاعى ، الانسان العربى وحضارته ، بيروت ، ص ٣٣ ٠

(٧) أحد فراعنة الاسرة الخامسة المصرية (٢٦٠٠ ق٠م) ٠

(٨) الاسرة الثامنة عشرة المصرية (١٥٠٠ ق ٠ م) ٠

٢ ـ دولة معين (٩) :

يقال ان دولة معين قد ازدهرت فى شمال اليمن ووسطه فى الجوف الممتد بين نجران وحضرموت ، وانه كان لها عاصمة سياسية هى قرناواو « القرن » (١٠) • وأخرى دينية • وامتد نفوذ معين السياسى ليشمل شمال جزيرة العرب (١١) وشرقها وجنوبها ، وجنوب فلسطين حيث عثر على نقوش واختام معينية •

ويذهب الباحثون الى احتمال قيام دولة معين بين القرن الثلاثين والقرن الثامن عشر قبل الميلاد ، واحتمال انهيارها بين القرن الثامن والسابع قبل الميلاد ، وربما كانت تعاصر فى بعض فترات حياتها دولة بنط •

وكانت التجارة ونقل البضائع والضرائب التى تفرض على القوافل التى تمر بأرض الجزيرة ، هى من أهم مصادر الدخل للدولة المعينية ، لأنه كما نعلم كان يحد الجزيرة العربية طريقان أساسيان على حافة الصحراء ، تنقل عليهما السلع من المحيط الهندى الى موانى فلسطين وسوريا • فكان أحد هذه الطرق يمتد من اليمن الى جنوب فلسطين ، والثانى يمتد من الخليج العربى ويدخل وادى الرافدين ثم ينحرف الى سوريا قاصدا دمشق وعلى هذين الطريقين قامت حاميات الحدود والطرق العربية وكان استعمالهما واغلاقهما (أى الطرق) يقرر مصير تلك الدول •

وقد كشفت الابحاث الاثرية عن أسماء مالايقل عن عشرين ملكا من ملوك معين حيث كان نظام الحكم ملكيا وراثيا ، وحيث كان المجتمع يتكون من طبقات الاشراف والفلاحين والعبيد وأصحاب الحرف والقبائل الرحل •

وقد أمكن للباحثين أيضا الاستدلال من خلال النفوش التى عثر عليها فى منطقة جوف ارحب بين نجران وحضرموت ، ومما كتبه مؤرخو اليونان والمسيحية بأن دولة معين كانت على جانب كبير من القوة والثروة وأنهم ينتسبون فى الاصل الى عمالقة العراق ، وأنهم (أى المعينيون) قد هاجروا مع غيرهم من القبائل الى اليمن ونزلوا باقليم الجوف وشيدوا القصور ، على

---

(٩) معين بالفتح ثم الكسر ، والمعين الماء الظاهر الجارى ، ومعين اسم حصن باليمن ، وقال الازهرى معين مدينة باليمن تذكر فى براقش • ومعين فى اليمن فى مخلاف سنحان ، قرية يقال لها معين (أنظر معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٠٢) •

(١٠) شمال شرق صنعاء (أنظر معجم البلدان ، المجلد السابع ، ص ٦٥ ـ ٦٦) •

(١١) فيليب متى وآخرون ، تاريخ العرب المطول ، بيروت ١٩٦١ ، ج ١ ، ص ٦٨ •

مثال ما شاهدوه فى بابل ، كما أن نشاطهم التجارى قد امتد الى الخليج الفارسى والى أعالى الحجاز مما يلى البحر الاحمر ، والى الشمال مارين بأواسط الجزيرة حاملين البخور وغيره من منتجات البلاد ٠

ولذلك فان معان (١٢) المجاورة للبتراء كانت مركزا تجاريا ومركزا للسلطة فى أرض مدين شرقى سيناء (شمال غرب الجزيرة) ٠ كما ان العلا كانت معقلا من معاقل المعينين ثم أصبحت فيما بعد للحيانيين ثم للانباط من بعدهم وذلك بعد زوال حكم معين ، وان كان ذلك لم يمنع فيما بعد ـ من ظهور دويلة معينية فى القرن السابع ق٠م على الفرات ٠

سقوط دولة معين :

يقول الباحثون ان سبب السقوط هو الضعف الذى ألم بها ، وظهور قوة أخرى هى قوة السبأيين التى اجهزت عليها بالتحالف مع دولة قتبان التى كانت تغير على املاك الدولة المعينية وقوافلها التجارية من آن لآخر ٠

٣ ـ دولة سبأ (١٣) :

قامت دولة سبأ عام ٩٥٠ وانهارت عام ١١٥ ق ٠ م تقريبا ٠ وقد قسم

---

(١٢) معان ، مدينة فى طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحى البلقاء وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد بعث جيشا الى مؤته فيه زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحه فساروا حتى بلغوا معان فأقاموا بها وارادوا ان يكتبوا الى النبى (صلى الله عليه وسلم) عن تجمع هذه الجيوش وقيل قد اجتمع من الروم والعرب نحو مائتى الف ، فنهاهم عبدالله بن رواحه ويقال انما هى الشهادة أو الطعن ثم قال :

جلبنا الخيل من أجا وفرع ... تغر من الحشيش لها العلوم
غزوناهم من الصوان سبعتا ... أذل كأن صفحته اديم
أقامت ليلتين من معان ... فأعقب بعد فترتها حموم
فرضنا والجياد مسومات ... تنفس فى مناخرها السموم
فلا وأبى مآب لآتينها ... وان كانت بها عرب وروم
فعبأ أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها يريم
بذى لجب كأن البيض منها ... اذا برزت قوامسها النجوم

(معجم البلدان ، جـ ٨ ، ص ٢٣)

(١٣) سبأ بفتح أوله وثانيه وهمز آخره وقصره ارض باليمن مدينتها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام فمن لم يصرف فلأنه اسم مدينة ومن =

الباحثون عصر دولة سبأ التى يقال انها كانت تعاصر وقت نشأتها دولة معين ، ودولة قتبان ودولة حضرموت من قسمين :

(أ) الاول وينتهي عام ٦٥٠ ق٠م : وكانت العاصمة في هذه الحقبة صرواح (١٤) وهو العصر الذى حكمت فيه ملكة سبأ التى عاصرت رسالة سليمان عليه السلام ٠ ويقول الباحثون أن نفوذ سبأ التجاري قد امتد في هذه الحقبة ليشمل غالبية شبه جزيرة العرب ، أو المحيط الهندى ، وكان حاكم سبأ يلقب بلقب « مكرب » ٠

(ب) والثاني وينتهي عام ١١٥ ق٠م ويقول الباحثون أنه من ازهى عصور سبأ وقد انتقلت العاصمة فى هذا العصر الى مدينة مأرب (١٥) ، وأن مؤسس دولة سبأ واول ملوكها هو كرب ال ونتز الذى حرص على توسيع رقعة الدولة

= صرفه فلأنه اسم البلد فيكون مذكرا سمي به مذكرا وسميت هذه الارض بهذا الاسم لأنها كانت منازل ولد سبأين يشجب بن يعرب بن قحطان ٠ ومن قحطان الى نوح اختلاف ٠٠ والعرب تقول تفرقوا كأيدى سبأ وأيادى سبأ نصبا على الحال ٠٠ ولما كان سيل العرم كما تذكره ان شاء الله تعالى فى مأرب تفرق اهل هذه الارض فى البلاد وسار كل طائفة منهم الى جهة فضربت العرب بهم المثل فقيل ذهب القوم أيدى سبأ وأيادى سبأ اى متفرقين شبهوا بأهل سبأ لما مزقهم الله تعالى كل ممزق ٠ فأخذت كل طائفة منهم طريقا واليد الطريق يقال أخذ القوم يد بحر فقيل للقوم اذا ذهبوا فى طرق متفرقة ذهبوا أيدى سبأ أى فرقتهم طرقهم التى سلكوها كما تفرق أهل سبا فى جهات متفرقة والعرب لا تهمز سبأ في هذا الموضع لأنه كثر في كلامهم فاستثقلوا ضغط الهمز وان كان سبأ فى الاصل مهموزا ٠٠ ويقال سبا رجل ولد عشرة بنين فسميت القرية باسم ابيهم والله اعلم والى هنا قول أبى منصور ٠ " وطول سبأ اربع وستون درجة ، وعرضها سبع عشرة درجة وهى فى الإقليم الاول ٠ وسبأ صهيب موضع آخر باليمن وفيه موضع يقال له ابو كندلة (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٣ ـ ٢٤) ٠

(١٤) صرواح بالكسر ثم السكون ثم واو بعدها الف واخره حاء مهملة ٠٠ قال ابو عبيد الصرح كل بناء عال مرتفع وجمعه صروح قال الزجاج الصرح القصر الحسن والحصين وقيل غير ذلك والصرواح حصن باليمن قرب مأرب يقال انه من بناء سليمان بن داود (معجم البلدان ، ج ٥ (ص ٣٥٢) ٠

(١٥) مأرب بهمزة ساكنة وكسر الراء والياء الموحدة اسم المكان من الأرب وهى الحاجة ويجوز ان يكون من قولهم ارب يأرب اربا اذا صار زاد هى او من ارب الرجل اذا احتاج الى الشيء وطلبه وأربت بالشيء كلفت به يجوز أن يكون =

على حساب القبائل والمشيخات وبقايا الدويلات القديمـــة لتأسيس مملكة واحدة ٠

وقد ادى ذلك الى قيام حرب بين سبأ وقتبان انتهت بوقوع الثانية تحت سيطرة سبأ ٠

ولم يستطع الباحثون وضع جدول بأسماء ملوك سبأ الذين حكمـــوا بالترتيب الا انه يمكن القول بأن آخر ملوك ســـبأ كان « فـــرعم ينهب » (١٣٠ ق٠م) ٠

٤ ــ انهيار دولة سبأ :

يذهب بعض الباحثين الى ان انهيار دولة سبأ يرجع الى :

١ ــ عوامل اقتصادية (١٦) : وملخص هذه العوامل هو فقدانها لاهميتهـا التجارية التى تعتمد على ما تحصله من ضرائب على نقل البضـــائع ، وحماية القوافل ، على طول الطرق البرية ، وأن ذلك قد حدث حينمـا تحولت التجارة من طريق البحر ايام حكم البطالمة لمصر (٣٢٣ ــ ٤٠ ق٠م) وقد ترتب على ذلك والكلام للباحثين ــ قلة ايرادات السبأيين فلم تعد الدولة قادرة على العناية بمنشآتها القديمة كسد مأرب مما أدى الى تصدعه فى اواخر القرن الثانى قبل الميلاد مما دفع سكان اليمن الى هجر البلاد والتوجه الى شمال جزيرة العرب ٠

= اسم المكان من هذا كله ٠٠وهى بلاد الازد باليمن ، قال السهيلى مأرب اسم قصر كان لديهم وقيل هو اسم لكل ملك كان يلى سبأ كما أن تبعا اسم لكل من ولى اليمن والشحر وحضرموت ٠٠ قال المسعودى وكان هذا السد من بنـــاء سبأ بن يشجب من يعرب وكان سافله سبعين واديا ومات قبل ان يستتمه فأتمته ملوك حمير بعده ٠٠ قال المسعودى بناه لقمان بن عاد وجعله فرسخا فى فرسخ وجعل له ثلاثين شعبا ٠٠ وفى الحديث اقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم ابيض بن حمال ملح مأرب (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٢٥٤) ٠

(١٦) انظر د ٠ حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ط ٨ ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٧ ٠ ٢٨ ، فيليب حتى وآخرون ، تاريخ العرب ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ٧٤ (وفيه يقول أن تفرق عرب الجنوب حوالى منتصف القرن الخامس ، تعزوه الاخبار والتقاليد الى انفجـار سد مأرب) ٠ ولنا رد على المؤلف فى موضعه ان شاء الله ٠

٢ ـ عوامل سياسية : منها كثرة الحروب التى قامت بين دولة سبأ وجيرانها فى قتبان وهمدان استنفذت جهد سبأ البشرى والمادى ٠

وفى رأينا أن العوامل الاقتصادية والسياسية ليست هى السبب فى انهيار دولة سبأ ، وانما هى نتائج ترتبت على ذلك الانهيار ، والاسباب شئ آخر عرفنا بها القرآن الكريم فى عرضه لاخبار القرون الاولى لدولة سبأ ٠

ومن المحتمل أنه قد ترتب على تمزق شمل سكان اليمن وحضرموت بعد انهيار دولة سبأ ، هجرة البعض منهم الى بلاد الحبشة ، لينضموا الى اخوانهم الذين سبقوهم الى هناك وبدأوا يقيمون صرح مدنية اسلامية (أو عربية) فى أفريقيا ، ومما لا شك فيه أن هجرة أهل الجنوب الى أفريقيا دليل على التقدم فى مجال المدنيات من ناحية بناء السفن وركوب البحر ودراية بأحواله ،ومعرفة بالفلك والا لما تيسر لهم الوصول الى هناك ٠

ومن القبائل التى نزحت أيضا من اليمن بعد انهيار دولة سبأ الى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب ، كان بنو غسان الذين هاجروا الى حوران ، وبنو لخم الذين هاجروا الى أرض الحيرة ٠

٥ ـ دولة حمير (١٧) :

وكانت تعاصر فى نشأتها دولة سبأ (١١٥ ق٠م) ، بل ان بعض الباحثين يقولون بأن الحميريين فرع من السبأيين وأنه قد قام بينهم صراع أسفر عن انهيار دولة سبأ وقيام دولة حمير التى أتخذت عاصمة لها فى ظفار (١٨) (ريدان) ٠ وامتد نفوذ دولة حمير لوقت طويل ، قسمه الباحثون الى قسمين :

---

(١٧) حمير بالكسر ثم السكون وياء مفتوحة وراء قال ابن أبى الدمنة الهمدانى : حمير بن الغوث بن سعد بنى عوف بن عدى بن مالك بن زيد بن سدد بن حمير بن سبأ الاصغر وابن لهيعة بن حمير بن سبأ بن يشجب وهو حمير الاكبر وحمير الغوث هو حمير الأدنى ومنازلهم باليمن ٠ بموضع يقال له حمير غربى صنعاء وهم أهل غنمة ولكنه فى الكلام الحميرى (معجم البلدان، جـ ٣ ، ص ٢٤٥) ٠

(١٨) ظفار وهى مدينة باليمن فى موضعين احدهما قرب صنعاء وهى التى ينسب اليها الجزع الظفارى وبها كان مسكن ملوك حمير ٠ وقد قال بعضهم أن ظفار هى صنعاء نفسها ٠ (معجم البلدان ، المجلد السادس ، ص ٨٥ ـ ٨٦) ٠

(أ) دولة حمير الاولى (١١٥ ق٠م ـ ٣٠٠ م) وقد اتخذ حكامها لقب ملك سبأ وذوريدان ٠

(ب) دولة حمير الثانيه (٣٠٠ ـ ٥٢٥ م) وقد تلقب حكامها بلقب ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنات ٠

وقد اسفرت الابحاث الاثرية عن معرفة أسماء تسعة من ملوك حمير ، ذكرتهم المراجع العربية بلقب « تبع » والمجموع باسم التبايعة ، وكان التبع بمنزلة « ملك الملوك » لما كان له من السيادة على عدة ملوك (الازواء او الاقيال) يستقلون بشئونهم الداخلية ٠

ويذهب الباحثون الى أن أول ملوك التبابعة هو الحارث الرائش وآخرهم كان ذى نواس ٠ وسوف نتناول أخبار الاخير تفصيلا ان شاء الله فى موضعه٠

والجدير بالذكر أنه لما عاد الى جنوب الجزيرة العربية اهميته التجارية كمركز للقوافل البرية بين الهند والحبشة وبلاد الشام ومصر والعراق ، وذلك فى أثر انهيار نفوذ البطالمة ووقوع مصر فريسة للاستعمار الرومانى ، ودفع ذلك الاستعمار الرومانى الى تسيير حملة عسكرية فى عهد اغسطس ـ بقيادة أيلوس جالوس عام ٢٤ ق٠م للاستيلاء على خيرات الجنوب العربى وعلى مركز الثقل التجارى الذى كان خالصا فى ذلك الوقت لدولة حمير ، ولكن الحملة لم تنجح نجاحا كاملا فى تحقيق هدفها لاستماتة الحميرين فى الدفاع عن البلاد ٠

سقوط دولة حمير :

يذهب الباحثون الى أن اسباب انهيار دولة حمير ، هو تدهور نفوذهم التجارى والاقتصادى بسبب منافسة الرومان لهم فى نقل البضائع عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر بين الهند والحبشة وبلاد الشام ومصر مما كان ايذانا بانهيار الرخاء والازدهار فى جنوب جزيرة العرب بعد تحول القوافل التجارية عن الطرق البرية التى كانت تمر عبر الجنوب العربى ٠

وفى رأينا أن تلك نتيجة وليست سببا ، فالأسباب تنشىء النتائج ـ اذا شاء الله ـ والاسباب وهذا محتمل ، أن انهيار نفوذ دولة حمير قد حدث كعقاب من الله فى أعقاب قتل الموحدين فى حادث الاخدود ٠

الاستعمار الرومانى يسعى لنشر المسيحية فى جزيرة العرب للسيطرة عليها باسم الدين ٠

الاستعمار الفارسي يشجع تهود حكام العرب للوقوف في وجه السيطرة الرومانية .

الاحباش يغزون جنوب الجزيرة (٥٢٥ ـ ٥٧٥) انتقاما لاصحاب الاخدود .

لكي يحقق الرومان سيطرة اقتصادية على جنوب الجزيرة ، ارسلوا البعثات التبشرية المسيحية التي نجحت كما يقولون في تكوين قاعدة لها في نجران . فأحس حكام دولة حمير بهذا الخطر الذى يهدد بزوال ملكهم ، مما اضطرهم الى اعتناق اليهودية بتشجيع من الفرس لمواجهة خطر التبشير المسيحى الذى يباشر نشاطه بتشجيع من الاستعمار الرومانى .

ويقال أن أول من تهود من ملوك حمير هو الملك تبان أسعد ابو كرب(١٩) ويقول الباحثون أن اليهودية قد حازت انتصارا كبيرا بتولى ذى نواس الحكم بمعاونة اليهود الذين انتهزوا فرصة موت أمير حمير النصراني المولى من قبل الرومان والاحباش .

ويرتبط بتولى ذى نواس قصة اصحاب الاخدود ، ويقول الباحثون ، أن استغاثة اهل نجران الناجين من النار بقيصر الرومان جستنيان دفعه الى ارسال رسالة الى ملك الحبشة يطلب منه نجدة نصارى نجران ، فأرسلت الحبشة حملة بقيادة ارياط وفيها ابرهة الاشرم لغزو جنوب الجزيرة . وقد نجحت الحملة في تحقيق ما تريد وهزم ذو نواس ومن معه من رجالات حمير وتولى ارياط حكم اليمن . ولكن حكم ارياط لم يستمر طويلا . اذ سرعان ما نشب قتال بينه وبين أحد أفراد جيشه ، أسفر عن مصرعه ، وتولى ابرهة مكانه ملك اليمن باليمن (٢٠) .

وقد أورد ابن هشام الرواية التالية نقلا عن ابن اسحاق في شأن ابتداء ملك الحبشة باليمن وتولى ارياط عليها في اعقاب حريق أصحاب الاخدود (٢١) :

قال ابن اسحاق : وأفلت منهم رجل من سبأ ، يقال له : دوس ذو ثعلبان ، على فرس له ، فسلك الرمل فأعجزهم ، فمضى على وجهه ذلك ، حتى

---

(١٩) ذو ثعلبان .
(٢٠) ٣٤٠ ـ ٣٧٨ م
(٢١) سيرة النبى ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

اتى قيصر ملك الروم ، فاستنصره على ذى نواس وجنوده ، وأخبره بما بلغ منهم ، فقال له : بعدت بلادك منا ، ولكنى سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين ، وهو أقرب الى بلادك ، وكتب اليـــه يأمره بنصره والطلب بثأره .

فقدم دوس على النجاشى بكتاب قيصر ، فبعث معه سبعين الفـــا من الحبشة ، وامر عليهم رجلا منهم يقال له أرياط ، ومعه فى جنده أبرهة الاشرم، فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس (ذو ثعلبان) ، وسار اليه ذو نواس فى حمير ، ومن أطاعه من قبائل اليمن ، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه ، فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه فرسه فى البحر، ثم ضربه فدخل به ، فخاض به ضحصاح البحر ، حتى أفضى به الى غمره ، فادخله فيه ، وكان آخر العهد به ، ودخل ارياط اليمن فملكها .

غلبة ابرهة الاشرم على أمر اليمن وقتل ارياط (٢٢) :

قال ابن اسحاق : فأقام ارياط بأرض اليمن سنين فى سلطانه ذلك ، حتى نازعه فى أمر الحبشة باليمن ابرهة الحبشى — (وكان فى جنده) — حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فانحاز الى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم ســـار احدهما الى الآخر ، فلما تقارب الناس ارسل ابرهة الى أرياط : انك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ؛ فابرز الى وأبرز اليك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف اليه جنده ، فأرسل اليه ارياط : أنصفت ، فخرج اليه أبرهة ، وكان رجلا قصيرا لحيما (حادا) . وكان ذا دين فى النصرانية وخرج اليه ارياط وكان رجلا جميلا عظيما طويلا — وفى يده حربة له ، وخلف ابرهة غلام له — يقال له عتودة يمنع ظهره ، فرفع ارياط الحربة فضرب أبرهة ، يريد يافوخه فوقعت الحربة على جبهة ابرهة فشرمت حاجبه وانفه وعينيـــه وشفته ، فبذلك سمى ابرهة الاشرم ، وحمل أحد جنوده على ارياط من خلف ابرهة فقتله ، وانصرف جند ارياط الى ابرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن وودى ابرهة أرياط . (أى دفع ديته)

الاستعمار الفارسى لليمن (٢٣) :

فلما طال البلاء على اهل اليمن ، خرج سيف بن ذى يزن الحميـرى ، وكان يكنى بأبى مرة ، حتى قـــدم على قيصر ملك الروم فشكا اليه ما هـــم

---

(٢٢) سيرة النبى ، ص ٤٧ — ٤٨

(٢٣) سيرة النبى ، ص ٦٩ — ٧٢

فيه ، وسأل ان يخرجهم عنه ويليهم هو ، ويبعث اليهم من شاء من الروم ، فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه (ولم يجد عنده شيئا مما يريد) .

فخرج حتى اتى النعمان بن المنذر ـ وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من ارض العراق ـ فشكا اليه امر الحبشة ، فقال له النعمان : ان لى على كسرى وفادة فى كل عام فأقم حتى يكون ذلك ، ففعل ، ثم خرج معه فأدخله علـى كسرى ، وكان كسرى يجلس فى ايوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجـه مثل القنقل العظيم ـ فيما يزعمون ـ يضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجـد بالذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب فى رأس طاقة فى مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجه انما يستر بالثياب حتى يجلس فى مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه فى تاجه ، فاذا استوى فى مجلسه كشفت عنه الثياب ، فلا يراه رجل لم يره قبل ذلك الابرك هيبة له ، فلما دخل عليه سيف بن ذى يزن برك .

قال ابن هشام : حدثنى ابو عبيدة ان سيفا لما دخل عليه طأطأ رأسه ، فقال الملك : ان هذا الاحمق يدخل على من هذا الباب الطويل ، ثم يطاطىء رأسه .. فقيل ذلك لسيف ، فقال : انما فعلت هذا لهمى ، لأنه يضـيق عنه كل شىء .

قال ابن اسحاق : ثم قال له ايها الملك ، غلبتنا على بلادنا الاغـربة ، فقال : كسرى : اى الاغربة : الحبشة ، ام السند ؟ فقال : بل الحبشـة . فجئتك لتنصرنى ، ويكون ملك بلادى لك ، قال : بعدت بلادك مع قلة خيرها . فلم اكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب لا حاجة لى بذلك ، ثم اجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة فلما قبـض ذلك (منـه) سيف خرج فجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك ، فقـال : ان لهذا لشأنا ، ثم بعث اليه فقال : عمدت الى حباء الملك تنثره للناس .. فقال : وما أصنع بهذا ؟ ما جبال ارضى التى جئت منها الا ذهب وفضة ، يرغبه فيها . فجمع كسرى مرازبته فقال لهم : ماذا ترون فى أمر هذا الرجل ، وما جاء له ؟ فقال قائل : أيها الملك ، ان فى سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو انك بعثتهم معه ، فان يهلكوا كان ذلك الذى اردت بهم ، وان ظفـروا كان ملكا ازددته . فبعث معه كسرى من كان فى سجونه وكانوا ثمان مئة رجل .

واستعمل عليهم (رجلا منهم) يقال له وهرز ، وكان ذا سن فيهم ، وأفضلهم حسـبا وبيتـا . فخرجوا فى ثمان سفائن ، فغرقت سفينتان ، ووصـل الى سـاحل عـدن ست سفائن فجمع سيف الى وهرز من استطاع من قومه ، وقال له : رجـلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا .

قال له وهرز : انصفت ، وخرج له مسروق بن ابرهـة ملك اليمن ، وجمع اليه جنده فأرسل اليهم وهرز ابنا له ، ليقاتلهم فيختبر قتالهم ، فقتل ابن وهرز ، فزاد ذلك حنقـا عليهم . فلما تواقف النـاس على مصافهم قال وهرز أروني ملكهم ، فقالوا له : أترى رجـلا على الفيل عاقدا تاجـه على رأسه ، بين عينيه ياقوته حمراء ؟ قال : نعم ، قالوا : ذاك ملكهم : فقال : اتركوه ، فوقفوا طويلا ، ثم قال : عـلام هـو ؟ قالوا : قـد تحول على الفرس ، قال : اتركوه ، فوقفوا طويلا ، ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على البغلة قال وهرز : بنت الحمار .. ذل وذل ملكه ، انى سأرميـه ، فان رأيتم أصحابه لم يتحركوا فاثبتوا حتى أوذنكم ، فاني قـد أخطأت الرجل ، وان رأيتم القوم قـد استداروا ولا ثوابه فقـد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم . ثم وتر قوسـه وكانت فيما يزعمون لا يوترها غيره من شـدتها ، وأمر بحاجبيه فعصباله ، ثم رمـاه فصك الياقوته التي بين عينيه ، فتغلغلت النشابه في رأسـه حتى خرجت من قفـاه ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاثت به ، وحملت عليهم الفرس وانهزموا ، فقلوا وهربوا في كل اتجاه واقبـل وهرز ليدخل صـنعاء ، حتى اذا أتي بابها قال : لا تدخـل رايتي منكسة أبدا ، أهدموا الباب فهدم . ثم دخلها ناصبا رايته .

ذكر ما انتهى اليه أمر الفرس باليمن (٢٤) :

يقول ابن هشام : قال ابن اسحاق : فأقام وهرز والفرس باليمن . فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الابنـاء الذين باليمن اليوم . وكان ملك الحبشة باليمن – فيما بين أن دخلها أرياط الى أن قتلت الفرس مسروق بن ابرهة ، وأخرجت الحبشة – اثنتين وسبعين سـنة ، توارث ذلك منهم أربعة أرياط ، ثم أبرهة ، ثم يكسـوم بن أبرهة ، ثم مسروق بن ابرهـة . قال ابن هشام : ثم مـات وهرز فأمر كسرى ابنه المرزبان ابن وهرز على اليمن ، ثم مـات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان بن المرزبان على اليمن . ثم مـات التينجان فأمر كسرى ابن التينجان على اليمن ، ثم عزله وأمـر باذان ، فلم يزل باذان عليها حتى بعث الله محمدا (النبى) صلى اللـه عليـه وسـلم .

ثانيا : دولة الانبـاط :

وكانوا يسكنون المنطقة التي تفصل بين الشـام وبلاد العرب ، وتمتد من نهر الفرات الى البحر الاحمر ، وهي التي أطلق عليهـا اليونان والرومان اسم « بلاد العرب الصخرية » .

---

(٢٤) سيرة النبى ٧٦ .

ويذهب الباحثون الى أن الانبـــاط قـــد هاجروا من وسط الجزيرة الى ذلك المكان حوالى ســـنة ٥٠٠ ق ٠ م ٠ وأنهم اتخذوا البتراء (٢٥) عاصمة لهم ، وتنبع أهمية البتراء من كونها محطـــة تجارية وملتقى طرق القوافل حيث يتم الحصول على بـــدل جديد من الابـــل والحداة ٠ وقـــد يسر لها موقعها الحصين حماية طبيعية مكنتها من الدفاع عن نفســـها ضـــد الهجمات التي كانت تتعرض لها ٠

وأهم ما يذكر عن تاريخ الانبـــاط لا يتجاوز ما وراء عـــام ٣١٢ق٠م ، وقـــد نجح الانباط عـــام ٨٥ ق٠م في مد حدودهم لتشمل حوران ودمشق وما يجاورها من بـــلاد الشام في عهد مليكهم الحارث ٠ وقـــد تعاون الانباط مع الرومان أيضـــا اعتبارا من عام ٤٧ ق٠م في عهـــد يوليوس قيصر أثناء حربه في مصر كما شاركوا في الحملة التي قادها أيلوس جالوس في عهـــد الامبراطور أغسطس لغزو بلاد العرب الجنوبية سنة ٢٤ ق٠م ٠

وفي عهد الحارث الرابع (٩ ق٠م الى ٤٠ م) امتـــد ملك الانباط ليشمل دمشق شمالا ، ومدائن صـــالح جنوبا بمـــا في ذلك ســـواحـــل البحر الاحمر ٠

وفي آخر عهد اربيل الثـــاني ضم الامبراطور تراجان دولة الانبـــاط الى دولة الروم (١٠٦ م) ، وكانت العاصمة بطرة قـــد اصطبغت تمامـــا بالصبغة الرومانية ٠

وفي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي ، بلغت مدينـــة بطرة أقصى حالة من الرخـــاء في ظـــل مركزها التجاري الهام ، ثم يدأ نجمهـــا في الافول عندما بدأت أهمية مدينة تدمر التجارية ٠

ثالثا : تدمر :

وهي مدينة في واحـــة حصينة تقع الى الشمال الشرقي من دمشق ، وقـــد سماها اليونان والرومان بلميرا وبالميرينا ٠

---

(٢٥) اسمها الحديث وادى موسى ، والتبراء (يطرده) يونانية الاصـــل معناها صخر وتقابل في اللغـــة العربية « الرقيم » ، وتقع في منتصف المسافة بين رأس خليج العقبة والبحر الميت ، والى الشرق من وادى عربة ٠ وبموقعها هـــذا كانت تهيمن على طرق القوافل التجارية التي تتفرع منها الى غزة في الغرب والى بصرى ودمشق في الشمال والى ايلة (العقبة) في الجنوب ، وعبر الصحراء الى الخليج الفارسي في الشرق ٠

وترجع أهميتها الى كونها مركزا هاما للتجارة ومحطة لقوافل الدولتين الرومانيه والبارثية • ففي ذلك المكان كانت تتجمع منتجات الصين والهند وبلاد الشـــام وبلاد العرب الجنوبية • وقـــد بدأت أهمية تدمر التجارية عام ١٠٥م عندما بدأت تسيطر على طريق القوافل الممتد من الخليج العربي عبر الصحراء الشـــامية •

وقد بلغت تدمر أقصى ازدهار لهـــا في الفترة من عـــام ١٣٠ ــ ٢٧٠ ميلادية ، ولكن لم يكـــد ينتهى القرن الثانى حتى كانت تدمر ترزح تحت سطوة الاستعمار الرومانى ، ومن أهم حكام تدمر :

أذينـــه : وكان يحكم دولة ــ امتدت لتشـــمل بـلاد الشام وبـــلاد العرب ، عاصمتها تدمر •

وقـد حارب الفرس وتعقب ملكهم سابور على أثر أسره للامبراطور فالريان الرومانى ، حتى أسوار عاصمته طيشفون (المدائن) عـــام ٢٦٥ م مما دفع بالامبراطور جالينوس الى أن يمنح أذينه لقب امبراطور وأعطـــاه الاشراف على كتائب الدولة الرومانية العسكرية فى الشرق • ولـــكن القدر لم يمهله حتى يتمتع بسلطانه اذ أنه قـــد اغتيل وابنه عام ٢٦٧ م •

الزباء (٢٦) :

وهى زوجـــة اذينه ، وتولت الحكم كمـــا يقال نيابة عن ابنها الصغير وهب اللات ، وقـــد اتسعت الدولة فى عهدها لتشمل جزءا كبيرا من آسيا الصغرى الى ماوراء انقره واسكندرية مصر ، وحاولت أن تبســـط نفوذها على ضفاف البسفور عام ٢٧٠ م •

ولا شك أن روما لم تكن لتصبر على فقـــدان مستعمراتها فى الشرق بما تمثله من ثروات كبيرة ، ولذلك نراها توجـــه حملة بقيادة الامبراطور اوزليان تعبر آسيا الصغرى وبلاد الشـــام حيث لاقت جيوش الزبـــاء تحت قيادة زيد عند مدينة انطاكية وحمص فهزمتها ، وأصبح الطريق مفتوحا الى تدمر •

وفقدت الزباء حريتها وابنها حينما سيقا أسيران فى موكب أورليان وهدمت تدمر واستبيحت حينما عـــاد اليها أورليان بعد أن قتلوا الحامية الرومانية التى كانت موجودة بهـــا ، وبهـــذا انطوت صفحة أخرى من صفحات التاريخ القريب •

---

(٢٦) أطلق عليها أيضا زينب وزينوبيا •

رابعا : امارة الحيرة :

يذهب الباحثون الى أن مؤسسى هـذه الامارة هم من قبائل قضاعة والاذد الذين هاجروا من اليمن فى الفترة من ٣٢٣ ق٠م ـ ٢٣٠ م ، وان كان البعض الآخر ينسبهم الى عرب الشمال ٠ ويقولون أيضـا ، بأن الجزء الذى قامت عليه امارة الحيرة ، كان فى الاصـل جزءا من ريف العراق الـذى كان ملكا للدولة الفارسية قبل غزوة الاسـكندر الاكبر لفارس ، فلمـا استعادت فارس قوتها فى عهـد الدولة الساسانية ، حرص مؤسسها ـ بعد أن فكر فى أجلاء عرب الحيرة والانبار ـ على ابقـاء عرب أمـارة الحيرة ليكونوا عونا للدولة الساسانية فى صراعها ضـد الروم ، وليتقى بهـا شر هجمات عرب الجزيرة والشام (الغساسنة) ٠

وينقسم أمراء (٢٧) الحيرة الى قسمين :

أولا ـ من تولى أمر البلاد من التنوخيين (من ١٩٢ ـ ٢٥٨ م) ، بداية بمالك بن فهم الازدى ، وانتهاء بجذيمة الابرش ٠

ثانيا ـ من تولى أمر البلاد من اللخميين (٢٥٨ ـ ٦٢٢ م) ، وهـم بنو نصر الذين يعرفون بالمنـاذرة ، وأولهم عمرو بن عـدى ، وآخرهم المنذر بن النعمان الذى فتحت الحيرة فى أيامه على يـد خالد بن الوليد ٠

وقـد تعاقب على حكم الحيرة خمسـة وعشرون ملكا منهم جذيمة الابرش وقد أورد المؤرخون العرب قصـة عجيبة فيما يتصل بصراع هـذا الملك مع الزباء ملكـة تدمر ومن قبـل مع أبيها عمرو بن ظرف بن حسـان ابن أذيته بن السميدع بن هويد العملقى (٢٨) وكان قـد ملك العرب بأرض الجزيرة ومشارف الشـام ، ولكن المكان لا يتسع هنـا لسردها ٠

---

(٢٧) وقـد أطلقوا على قبائـل الحيرة « العباد » ، وقيـل فى سبب تسميتهم بالعباد ، أنهم اتخذوا شعارا لهم : «يا آل عبـاد اللـه» ، حين حاربهم سابور الاكبر كسرى الفرس ، وقيـل أيضـا أنهم عرفوا بذلك لانهم كانوا يعبدون الله (معجم ما استعجم ، جـ ١ ، ص ٢٥) ٠

(٢٨) ارجع الى تاريخ الطبرى ، جـ ١ ، طبعة دار المعارف ، ١٩٦٠ ، ص ٦١٧ ـ ٦٢٧ ، جـ ٢ ، ص ٦٥ وما بعدها ، تاريخ اليعقوبى ، جـ ١ ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ ٠

* أمرؤ القيس بن عمرو (٢٨٨ ـ ٣٢٨ م) .

* النعمان بن امرىء القيس ، ويلقب بالاعـور وترجع شهرته فى التاريخ الى بنـاء قصر (٢٩) الخورنق فى عهده بمعرفة المهندس البيزنطى « سنمار » وكذلك السدير .

ويحكي اليعقوبي عنه أنه بينما كان جالسا ينظر من الخورنق ما بين يديه من الفرات وما عليه من النخـل والاجنة والاشجار ، اذ ذكر الموت ، فقال : وما ينفع هـذا مع نزول الموت وفراق الدنيا / فتنسك ، واعتزل الملك ، واياه غنى عـدى بن زيد حيث يقول :

وتفـكر رب الخورنق اذ أشـ
ـرف يومـا وللهـدى تفكيـر
ـسره حـاله ، وكثـرة مـا يمـ
ـلك والبحر معرض ، والسـدير
فارعوى قلبـه ، وقـال : وما غبـ
ـطة حى الى الممـات يصـير

وتذكر بعض الروايات أن السبب الـذي دفع النعمان الى الاعتزال والتنسك ، وهـو استيقاظ الفطرة وعودتها الى ربها فى أعقـاب سؤال وجهـه الى وزيره قائلا : هـل رأيت أحسن مما نحن فيه ؟ فأجاب « لو أنه يدوم ، فسـأل النعمان وما يدوم ؟ فرد الوزير : ما عند اللـه ، فسأل وكيف الوصول الى هـذا ؟ فقال الوزير : بالانصراف عن الدنيا وعبادة الله والتماس ما عنده : فكان من أمره ما كان » (٣٠) .

* المنذر بن امرىء القيس الملقب بابن مـاء السماء (٥١٥ ـ ٥٥٤ م) وهو من الملوك المشهورين فى تاريخ الحيرة ، وقـد عاصر فتح الاحباش لليمن بقيادة ابرهة الحبشى .

وقد روى الطبرى (٣١) رواية تشير الى أن المنـذر قـد رفض اعتناق

---

(٢٩) تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ، ص ، ٢٠٢ ، تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣٠) تاريخ الطبرى ، ج ٢
(٣١) تاريخ الطبرى ، ج ٢ ، الكامل فى التاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٥٥

مذهب مزدك الاباحي الشيوعي الذي يدعو الى اباحة النساء والمال بين الخلق أجمعين ، مما دفع قباذ ملك فارس ومعتنق المذهب الى تنحيته المنذر وتوليه الحارث الكندي ملك الحيرة مكانه • الى أن جاء الى عرش فارس كسرى أنوشروان فقتل مزدك ، وطرد الحارث الكندي وأعاد المنذر الى الحكم •

ويقترن بحكم المنذر أيضا الحروب التي قامت بينه وبين الروم في عهد قيصرها جستنيان بتشجيع من الفرس ، وتارة أخرى ضد الحارث ملك كنده ، وقد أدى الصراع في نهايته الى القضاء على المنذر فيما يسمى بيوم حليمه •

❋ النعمان الثالث :

وهو آخر من حكم من أسرة المناذرة • وقد نحاه كسرى أبرويز عن عرش الحيرة وولى مكانه اياس بن قبيصه الطائي عام ٦٠٢ م ومن الايام المشهورة في تاريخ العرب والتي ترتبط بحكم هذا الملك هو يوم « ذي قار » وهو اليوم الذي وقع فيه القتال بين اياس بن قبيصه الطائي قائد الجنود الفرس والعرب ضد هاني بن مسعود الذي رفض أن يعيد الودائع التي تركها عنده النعمان الثالث الى كسرى ابروين •

وقد انتهى القتال بانتصار هانيء بن مسعود على جنود الفرس •

وبعد انتهاء ملك اياس تولى من قبل فارس حاكمان كان آخرهما المنذر الخامس •

خامسا : امارة غسان :

أورد الشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي المتوفي ٦٢٦ (٣٢) :

« .. غسان هو اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الازد بن الغوث وهم الانصار وبنو جفنه وخزاعة فسموا به •• وفي كتاب عبد الملك بن هشام غسان ماء سد مأرب باليمن كان شرابا لبني مازن بن الازد بن الغوث ، ويقال غسان ، ماء بالمشلل قريب من الجحفة ••• وقال نصر غسان ماء باليمن

---

(٣٢) معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ٢٩٢ •

بن رمع وزبيد واليــه تنسب القبائل المشهورة ٠٠ وقيل هو اسم دابة وقعت فى هــذا المــاء فسمي المـاء بها ٠ فأما الانصـــار فهم الاوس والخزرج أبنــا حارثة بنى ثعلبه بن عمرو بن عامر بن حارثه ابن امرىء القيس بن ثعلبه بن مازن بن الازد بن الغوث وأمـا جفته فهو ابن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس وأما خزاعة فهم ولـد عمرو بن ربيعـة هـو لحى بن حارثة بن عامر بن حارثة ابن امرىء القيس وكان عمرو أول من بحر البحيرة وسيب السائبة ووصـل الوصيلة وغير دين اسماعيل عليه السلام ودعـا العرب الى عبادة الاوثان ٠٠٠

قال ابن الكلبي وغسان مـاء باليمن قرب سـد مأرب كان شربا لولد ما٠ن بن الازد ابى الغوث نزلوا عليه فسموا به وهـذا فيـه نظر لأن لولد مازن بن الازد ابى الغوث نزلوا عليه فسموا به وهـذا فيـه نظر لأن من غسان والعتيك من ولـد مازن ولم يقل أنه من غسان ٠ ويقال غسان مــاء بالمشلل قريب من الجحفة والذين شربوا منـه سموا به فسمي بـه قبائل ولد مازن بن الازد وقـد ذكرتهم الشعراء ٠٠٠

ويذهب الباحثون الى أن الغساسنة ينتسبون الى كهلان بن سـبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان اليمنى ٠ ولقـد قامت للغساسنة دولة كمـا يقول المسعودى : « وكانت ديار غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الاردن حتى أرض الشام » ٠ وكان الغساسنة يكونون دولة حاجزة بين الروم وبين أعدائهم من الفرس واليدو ولذلك فان الروم قد اصطفوهم لانفسهم وجعلوهم عمالا لهم على الشام ، مع التعهد بمدهم بأربعين الف من الجنود الروم اذا داهمهم خطر ما ٠

ولهذا فان المؤرخين يجمعون على أن ملوك الغساسنة كانوا بمثابة أمراء تابعين للتاج الرومى ، يجبون له الضرائب ويحكمون الشـام باسمه على أن تتم توليه كل ملك على غسـان من قبـل القسطنطينية ، التى طالما ذهب اليها أمراء غسان ليبنالوا من الاباطرة الخلع والاوسمة والرتب ٠

وكانت عاصمة الغساسنة بصرى فى حوران ، ولا يعرف عـدد الملوك والمدة التى حكموها على وجـه الدقة ، ومن أهم حكام غسان :

الحارث الثانى بن جبله (٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) وقـد تولى حكم غسـان فى الوقت الذى كان فيه المنذر الثالث يحكم الحيرة ، وجستنيان يحكم الروم ٠ كسرى أنو شروان يحكم فارس ٠

وقد حدث فى عهد هـذا الملك واقعة تشير الى مـدى خضوع المناذرة حينما يتلقون أوامر الفرس للتحرش باخوانهم من غسان ، ولا يعدمون الوسيلة لتبرير ذلك فهاهم المناذرة يتهمون الغساسنة بمنازعتهم السلطان على القبائل العربية التى كانت نازلة على الطريق الحربى بين دمشق وتدمر ، فقام القتال وادى بدوره الى صراع بين الفرس والروم أسفر عن هزيمة الروم على يد المناذرة والفرس .

المنذر بن الحارث ، ويقول الباحثون أن الروم قد غضبوا عليه ونفوه الى القسطنطينية ومنها الى صقلية .

جبلة بن الايهم : وهو آخر من حكم من ملوك الغساسنة ، وقد أقره الروم على حكم غسان بعد أن استرد هرقل الشـام من الفرس عام ٦٢٦ م .

والجدير بالذكر ان جبلة وقومه انضموا الى الروم فى مقاتلة المسلمين فى معركة اليرموك . فى عهـد الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنـه . وقد أسلم ثم ارتد وهرب الى القسطنطينية حيث مات هناك عام ٢٠ هـ .

سادسا : امارة كنده (٣٣) :

ويقال أن عرب كندة أصـلا من جنوب الجزيرة أى أنهم كانوا يعيشون فى اليمن ، ثم تفرقوا الى حضر موت ، وساكنوا أهلها فى موضع يعرف بكندة واليه ينسبون ، ولقـد هاجر عرب كنده الى الشمال ـ بعد حروب دامت بينهم وبين الحضرميين وكادت أن تأتى عليهم .

ويذكر الباحثون ان حجر بن عمرو زعيم الكنديين هـو أول من تولى الملك على أهله وقبائل بكر التى كانت تسكن شمال نجد عـام ٤٨٠ م . ومن المحامد التى تذكر له ، استخلاص مواطن كثيرة من نجد وقبائل بكر من تحت سطوة المناذرة الذين كانوا قد ملكوا كثيرا منها .

---

(٣٣) كنده : بالكسره بخلاف كندة باليمن اسم القبيلة (معجم البلدان جـ ٧ ، ص ١٨٤) . وكانت تنتظم معظم بلاد نجد مما يلى الحجاز شرقا وتمتد الى طرف الشـام والعراق من ناحية الشمال ، وتمارس نفوذا على قبـائل عمان فى الجنوب وكانت كنده عبارة عن اتحاد أو تحالف يجمع عدة قبائل ، استمر لمدة ١٥٠ عام تقريبا منذ منتصف القرن الخامس الميلادى وترجع أهمية دولة كندة الى اعتماد التبابعة عليها للهيمنة على الطرق التجارية الشمالية التى كانت ترتادها قوافل اليمن التجارية حماية لها من اعتداء القبائل عليها .

ومن ملوك كندة الحارث بن عمرو : ومما يروى عن هذا الملك العربى هو اعتناقه لمذهب المزدكية الذى كان يتبناه قياذ ملك الفرس ، وقد اعطاه ذلك الحظوة لدى الملك الفارسى فعينه الأخير حاكما على الحيرة بدلا من الحارث ملكها الذى رفض اعتناق المزدكية ٠

وعندما مات قباذ عام ٥٣١ م وتولى مكانه أنو شروان ، أعاد المنذر الثالث الى حكم الحيرة بعد طرد الحارث ٠ ووجد المنذر الفرصة سانحة للانتقام من منافس الامس فطارد الحارث وأهله وماله ، فسبى من سبى وقتل من قتل ، ولم يتبقى فى تلك المعركة الا أبناء الحارث الثالث٠

ونجح المنذر الثالث فى الدس بين الاخوة حتى تحاربوا ، فقتل رجال سلمة الحاكم على تغلب شرحبيل أخيه ملك بكر في معركة تعرف عند العرب بيوم الكلاب (٣٤) ٠

وعندما أدرك سلمة نوايا المنذر السيئة ، لجأ الى بكر بن وائل فملكوه عليهم وأذعنوا له ، مما أثار عليهم حفيظة المنذر الثالث فقاتلهم فى المعركة المعروفة عند العرب بيوم أوارة الاول ، وانتصر عليهم واسال دماءهم وحرق نساءهم ٠

أما حجر آخر أبناء الحارث ، فقد خرج عليه بنو أسد ونبذوا طاعته فحاربهم واخضعهم واباح أموالهم وحبس اشرافهم ، مما أثار حفيظة القوم عليه فقتلوه ٠

وبعد مصرع حجر تولى بعده ابنه امرؤ القيس ، الذى حاول ان يستعين بقبائل العرب والروم عن طريق الغساسنة ، للثأر من قتلة أبيه وهم قبيلة بنى أسد الذين كانوا يستندون الى قوة ملوك الحيرة عمال الفرس ٠ ولكنه مات قبل أن يحقق غايته ٠

ولم يبق بعد موت امرىء القيس من ملوك كندة الا معد يكرب بن على قيس عيلان وبعض امراء صغار لهم شبه سيادة على قبائل العرب الكندية ، وما زال الامر كذلك حتى جاء الاسلام فخضع الجميع لله الواحد القهار فى ظل الدولة الاسلامية ٠

---

(٣٤) ماء بين البصرة والكوفة ٠

سابعا : مدن الحجاز :

يذهب الباحثون الى أن القرون الأولى من حيـــاة الحجاز ، لم تعرف الوحدة السياسية الشاملة ، وانما قام بها مدن لكل منها نظام خاص بهـــا ومن هذه المدن :

مكـــة ويثرب والطائف

(١) مكـــة :

وعن مكة كتب يقوت الحموي (٣٥) .

« مكة بيت الله الحرام ٠٠ أما اشتقاقها ففيه أقوال ٠٠ قال أبو بكر بن الانبارى سميت مكـــة لأنها تمك الجبارين أى تذهب نخوتهم ويقال أنهـــا سميت مـــكة لازدحام الناس بهـــا وسميت بكة أيضا لازدحـــام الناس بهـــا ٠

ويقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت ٠٠ وقال آخرون مكـــة هى بكـــة والميم بدل من البـــاء ٠٠ وقال أبو القاسم هـــذا الذى ذكره أبو بكر فى مكة وفيها أقوال أخرى نذكرها لك قال الشرقى بن القطامى انما سميت مكـــة لان العرب فى الجاهلية كانت تقول لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيـــه أى نصفر صفير المكاء حـــول الكعبة وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم اذا طافوا بها والمكـــاء بتشديد الكاف طائر يأوى الرياض ٠٠ قال اعرابى ورد الحضر فرأى مكـــاء يصيح فحن الى بلاده فقال :

ألا أيهـــا المكـــاء مالك هاهنـــا
ألاء ولا شـــيح فـــأين تبيـــض
فأصعد الى أرض المكاكى واجتنب
قرى الشام لا تصبح وانت مريض

والمكاء بتخفيف الكاف والمـــد الصغير فكأنما كانوا يحكون صوت المكـــاء ولو كان الصفير هو الغرض لم يكن مخففا ٠

---

(٣٥) هـــذا الفصل مأخوذ من معجم البلدان ، المجلد الثامن ، ص ١٣٤ ـ ١٤٣ ٠

وقال قوم سميت مكة لأنها بين جبلين مرتفعين عليها وهي في حيطة بمنزلة المكوك والمكوك عربي أو معرب قد تكلمت به العرب ...

وأما قولهم انما سميت مكة لازدحام الناس فيها من قولهم قد امتك الفصيل مافي ضرع أمة اذا مصه مصا شديدا فغلط في التأويل لايشبه مص الفصيل الناقة بازدحام الناس ، وانما هذا قول أهل اللغة وقال آخرون سميت مكة لانها لا يفجر بأحد الا بكت عنقه فكن يصبح وقد التوت عنقه وقال الشرقي روى أن بكة اسم القرية ومكة مغزى بذى طوى لا يراء أحد ممن مر من أهل الشام والعراق واليمن والبصرة وانما هي أبيات في أسفل ثنية ذى طوى .. وقال آخرون بكة موضع البيت وما حول البيت مكة . وروى عن مغيرة بن ابراهيم قال بكة موضع البيت وموضع القرية مكة وقيل انما سميت بكة لأن الاقدام تبك بعضها بعضا .. وعن يحيى بن أبي أنيسة قال بكة موضع البيت ومكة هو الحرم كله .. وقال زيد بن أسلم بكة الكعبة والمسجد ومكة ذو طوى وهو بطن الوادى الذى ذكره الله تعالى في سورة الفتح ولها اسماء غير ذلك وهي مكة وبكة والنسناسة وأم رحم وأم القرى ومعاد والحاطمة لانها تحطم من استخف بها وسمى البيت العتيق لانه عتق من الجبابرة والرأس الانسان والحرم وصلاح والبلد الامين والعرش والقادس لانها تقدس من الذنوب أى تطهر والمقدسة والناسة والباسه بالباء الموحدة لانها تبس أى تحطم الملحدين وقيل تخرجهم وكونى باسم بقعة كانت منزل بنى عبد الدار والمذهب في قول بشر بن ابى خازم وما ضم جياد المصلى أو مذهب **وسماها الله تعالى** أم القرى فقال (لتنذر أم القرى ومن حولها) وسماها الله تعالى البلد الامين في قوله تعالى (والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الامين) وقال تعالى (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد) وقال تعالى (وليطوفوا بالبيت العتيق) وقال تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) وقال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام (رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام) وقال تعالى أيضا على لسان ابراهيم عليه السلام ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) الآية ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وقف على الجزورة قال **انى لاعلم انك أحب البلاد الى وانك احب أرض الله الى الله ولولا أن المشركين اخرجونى منك ما خرجت ... وقالت عائشة** رضى الله عنها لولا الهجرة لسكنت مكة فانى لم أر السماء بمكان أقرب الى الارض منها بمكة ولم يطمئن قلبى ببلد قط ما اطمأن بمكة ولم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة .. وقال ابن أم مكتوم وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف :

يــا حبــــذا مكـــة من وادي
أرض بهـــا أهــــلي وعــوادي
أرض بهــــا ترســخ أوتــادي
أرض بهـــا أمشي بــلا هــادي

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة هو وأبو بكر وبلال فكان أبو بكر اذا أخذته الحمى يقول :

كل امــرىء مصبح فى أهلــه
والمــوت أدنى من شراك نعلــه

وكان بلال اذا انقشعت عنه رفع عقيرته ٠٠ وقال :

الا ليت شــعرى هل ابيتن ليلة
يفتـح وعنــدى أذخـر وحليــل
وهــل اردن يومــا ميــاه مجنــة
وهــل يبدون لى شــامة وطفيل

اللهم العن شـــيبه بن ربيعه وعتبه بن ربيعه وأميه بن خلف كمـــا أخرجونا من مكة ووقف رسول الله صـــلى الله عليه وسلم عـــام الفتح على جمرة العقبة وقال والله انك لخير أرض الله وانك لاحب أرض الله الى ولو لم أخرج ما خرجت انها لم تحــل لاحد كان قبلى ولا تحل لاحــد كان بعدى وما أحلت لى الا ساعة من نهار ثم هى حرام لا يعضد شجرها ولا يحتش خلاها ولا تلتقط ضالتها الا لمنشد فقال رجل يا رســـول الله الا الا ذخر فانه لبيوتنا وقبورنا فقال صلى الله عليه وسلم من صبر على حر مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة مائة عام وتقربت منه الجنة مائتى عام ٠٠ ووجد على حجر فيها كتاب فيه أنا الله رب بكة الحرام وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لاتزول ما بقى اخشباها مبارك لاهلها فى اللحم والمـــاء ٠ ومن فضائله انه من دخلــه كان آمنا ومن أحــدث فى غيره من البلدان حدثا ثم لجأ اليه فهو آمن اذا دخله فاذا خرج منـــه أقيمت عليه الحدود ومن أحدث فيه حدثا أخــذ بحدثه وقوله تعالى (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا) وقوله (لتنذر أم القرى ومن حولها) دليل على فضلها على ســـائر البلاد ٠٠ ومن شرفها انها كانت لقاحـــا لا تدين لدين الملوك ثم لم يود أهلها اتاوة ولا ملكا ملك قط من سائر البلدان تحج اليها ملوك حمير وكنده وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش ويرون تعظمهم والاقتداء بآثارهم وشرفا عندهم عظيمـــا وكان أهله آمنين يغزون النـــاس ولا يغزون ويسبون ولا يسبون ولم تسب قرشيه قط فتوطأ قهرا ولا تجال عليها السهام ٠٠ وقد ذكر عزهم وفضلهم الشعراء ٠٠٠

ومما زاد فى فضلها وفضل أهلها ومباينتهم العرب انهم كانو حلفاء متالفين ومتمسكين بكثير من شريعة ابراهيم عليه السلام ولم يكونوا كالاعراب الاجلاف ولا كمن لا يوفره دين ولا يزينه أدب وكانوا يختنون أولادهم ويحجون البيت ويقيمون المناسك ويكفنون موتاهم ويغتسلون من الجنابة وتبرأوا من الهربذة وتباعدوا فى المناكح من البنت وبنت البنت والاخت وبنت الاخت غيرة وبعدا من المجوسيه ونزل القرآن بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم وكانوا يتزوجون بالصداق والشهود ويطلقون ثلاثا ولذلك قال عبد الله ابن عباس وقد سأله رجل عن طلاق العرب فقال كان الرجل يطلق امرأته تطليقه ثم هو أحق بها فان طلقها ثنتين فهو أحق بها أيضا فان طلقها ثلاثا فلا سبيل له اليها ...

ومما زاد فى شرفهم انهم كانوا يتزوجون من أى القبائل شاءوا ولا شرط عليهم فى ذلك ولا يزوجون أحدا حتى يشرطوا عليه بأن يكون متحمسا على دينهم يرون أن ذلك لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدين لهم وينتقل اليهم والتحمس التشدد فى الدين ورجل أحمس أى شجاع فحمسوا خزاعه ودانت لهم اذ كانت فى الحرم وحمسوا كنانة وجديله قيس وهم فهم عدوان ابنا عمرو بن عيلان وثقيفا لانهم سكنوا الحرم وعامر بن صعصعه وان لم يكونوا من ساكنى الحرم فان امهم قرشية وبنى مجد بنت تيم بن مرة. وكان من سنة الحمس ان لا يخرجوا أيام الموسم الى عرفات انما يقفون بالمزدلفة وكانوا يشتكون ولا يقطون ولا يرتبطون عنزا ولا بقره ولا يغزلون. صوفا ولا وبرا ولا يدخلون بيتا من الشعر والمدر وانما يكتنون بالقباب الحمر فى الاشهر الحرم ثم فرضوا على العرب قاطبه ان يطرحوا أزواد الحل اذا دخلوا الحرم وان يخلوا ثياب الحل ويستبدلوها بثياب الحرم أما شرى وأما هبه فان وجدوا ذلك والا طافوا بالبيت عرايا وفرضوا على نساء العرب مثل ذلك الا أن المرأة كانت تطوف فى درع مفرج المقاديم والمآخير .. وكلفوا العرب ان تفيض من مزدلفة وقد كانت تفيض من عرفة أيام كان الملك فى جرهم وخزاعه وصدرا من أيام قريش لولا انهم امنع حى من العرب. لما أقر بهم العرب على هذا العز والامارة مع نخوة العرب فى ابائها كما أجلى قصى خزاعة وخزاعة جرهما فلم تكن عيشهم عيشه العرب ويهتبدون الهبيد ويأكلون الحشرات وهم الذين هشموا الثريد. حتى سمى هاشما وهذا عبد الله بن جدعان التيمى يطعم الرغو والعسل والسمن ولب البر وأول من عمل الحريرة ـ والحريرة ـ أن تنصب القدر بلحم يقطع صغارا على ماء كثير فاذا انضج ذر عليه الدقيق فان لم يكن لحم فهو عصيدة وقيل غير ذلك .. وفضائل قريش كثيرة وليس كتابى بصددها ... ولقد بلغ من تعظيم العرب لمكة انهم كانوا يحجون البيت.

ويعتمرون ويطوفون فاذا أرادوا الانصراف أخــذ الرجل منهم حجرا من حجارة الحرم فنحته على صورة أصــنام البيت فتحفا بــه فى طريقه ويجعله قبلـه ويطوفون حوله ويتمسحون بـه ويصلون له تشبيها له بأصـــنام البيت وافضى بهم الأمر بعد طول المــدة انهم كانوا يأخـــذون الحجر من الحـرم فيعبدونه فذلك كان أصـــل عبادة العرب للحجارة فى منازلهم شغفا منهـا بأصنام الحرم ٠

وامـــا رؤسـاء مكة فقــد ذكرناهم فى كتابنـــا المبدأ والمــال وأعيد ذكرهم ههنا لان هــذا الموضع مفتقر الى ذلك ٠٠ قال أهـــل الاتفاق من أهـــل السير أن ابراهيم الخليل لـما حمل ابنه عليهما السلام اسماعيل الى مكـــة كما ذكرنا فى باب الكعبة من هـــذا الكتاب جاءت جرهم وقطوراء وهما قبيلتان من اليمن وهمـا ابنـا عم وهم جرهم بن عامر بن سبابن يقطن ابن عامر ابن شالح بن أرفخشد بن ســـام بن نوح عليه السـلام وقطوراء فرأيا بلد ذا مـــاء وشجر فنزلا ونكح اســماعيل فى جرهم فلمـا توفى ولى البيت بعده نابت بن اسماعيل وهو أكبر ولده ثم ولى بعده مضاض بن عمرو الجرهمى خال ولد اسماعيل ما شـــاء اللـه ان يليه ثم تنافست جرهم وقطوراء فى الملك وتداعوا للحرب فخرجت جرهم من قعبقعان وهى أعـــلا مكة وعليهم مضاض بن عمرو وخرجت قطوراء من أجيـــاد وهى أسفل مكة وعليهم السميدع ــ فالتقوا بفاضح فاقتتلوا قتالا شديدا فقتـــل السميدع وانهزمت قطوراء فسمى الموضع فاضحا لان قطوراء افتضحت فيـــه وسميت اجياد أجيادا لـــا كان معهم من جياد الخيل وسميت قعيقان لقعقعة السلاح ثم تداعوا الى الصلح واجتمعوا فى الشعب وطبخوا القدور فسمى المطابخ قالوا ونشر الله ولـد اسماعيل فكثروا وربلوا ثم انتشروا فى البلاد لا يناوون قوما الا ظهروا عليهم بدينهم ٠٠ ثم ان جرهما بغوا بمكـــة فاستحلوا حراما من الحرمة فظلـــوا من دخلها وأكلوا مـــال الكعبة وكانت مكـــة تسمى النسناسة لا تقر ظلما ولا بغيـــا ولا يبغى فيها أحــد على أحــد الا أخرجتـه فكان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة بن غســـان وخزاعة حلولا حول مكـة فأذنوهم بالقتال فاقتتلوا فجعل الحارث بن عمر بن مضاض الاصغر يقول ٠٠٠

لاهم ان جرهما عبادك　　　الناس طرف وهم تلادك

فغلبهم خزاعة على مكة ونفتهم عنها ٠٠ ففى ذلك يقول عمرو بن الحارث ابن عمر ابن مضاض الاصغر ٠

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
انيس ولم يسمر بمكـــة ســـامر

ولــــم يتربع واســـــطا فجنوبة
الى السر من وادى الاراكة حـــاضر

بـــــلى نحن كنـــا أهلها فأبادنا
صروف الليـــالى والجدود العواثر

وأبدلنـــا ربى بهـــا دار عربـه
بهـــا الجوع باد والعـدو المحاصر

وكنا ولاة البيت من بعـــد نابت
نطوف بباب البيت والخير ظاهر

فأخرجنـــا منها المليـك بقـــدرة
كذلك مــــا بالناس تجرى المقـادر

فصرنا احاديثـــا وكنـــا بغيطـه
كذلك عضـتنا السـنون الغـوابر

وبدلنـــا كعب بهـــا دار غربـه
بها الذئب يعوى والعـــدو المكاثر

فسحت دموع العين تجرى لبـــدة
بهـــا حرم امن وفيهـــا المشـاعر

ثم وليت خزاعة البيت ثلاثمائة سنة يتوارثون ذلك كابرا عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حيشة سلول بن كعب عمرو بن ربيعة وخزاعة بن حارثة بن عمرو مريقياء الخزاعى وقريش اذ ذاك هم صريح ولد اسماعيل حلول وصرم وبيوتات متفرقه حوالى الحرم الى أن ادرك قصى بن كلاب بن مرة وتزوج حى بنت حليل بن حبيشة وولدت بنيه الاربعة وكثر ولده وعظيم شرفه ثم هلك خليل بن حبشيه وأوصى الى ابنه المخترش ان يكون خازنا للبيت واشرك معـــه غيشان الملكانى وكان اذا غـــاب أحجب هـذا حتى هلك الملكانى فيقال ان قصياسقى المحترش الخمر وخدعـــه حتى اشترى البيت منـــــه بدن خمر وأشهد عليه وأخرجه منالبيت وتملك حجابته وصـــار رب الحكم فيـــه فقصى أول من أصاب الملك من قريش بعد ولـــد اسـماعيل وذلك فى أيام المنذر بن النعمان على الحيرة والملك لبهر جور فى الفرس ٠٠ فجعل قصى

مكة ارباعا وبنى بها دار الندوة فلا تزوج امرأة الا فى دار الندوة ولا يعقد لواء ولا يعذر غـلام ولا تدرع جارية الا فيها وسميت الندوة لانهم كانوا ينتدون فيها الخير والشر فكانت قريش تؤدى الرفادة الى قصى وهو خرج يخرجونه من أموالهم يترافدون فيـه فيصنع طعاما وشرابا للحاج أيـام الموسم ٠٠ وكانت قبيلة من جرهم اسمها صوفية بقيت بمكة تـلى الاجازه بالناس من عرفه مـدة ٠

ثم أخذنا منهم خزاعة وأجازوا مـدة ثم غلبهم عليها بنوا عدوان بن عمرو بن قيس عيلان وصارت الى رجـل منهم يقال له أبو سيارة أحـد بنى سعد بن وايش بن زيد بن عدوان ٠٠

وكانت صورة الاجازه ان يتقدمهم أبو سيارة على حماره ثم يخطبهم فيقول اللهم أصلح بين نسائنا وعـاد بين رعائنا واجعل المـال فى سمحائنا أوفوا بعهدكم واكرموا جاركم وأقروا ضيفكم ثم يقول اشرق ثبير كيمـا نغير ثم ينفذ ويتبعـه الناس ٠٠ فلما قوى أمر قصى اتى ابا سيارة وقومه فمنعه من الاجازة وقاتلهم عليها فهزمهم فصـار الى قصى البيت والرفادة والسقاية والندوة واللواء ٠٠٠ فلما كبر قصى ورق عظمـة جعل الامر فى ذلك كله الى ابنه عبد الدار لانه أكبر ولده وهلك قصى وبقيت قريش على ذلك زمانا ثم ان عبد مناف رأى فى نفسـه وولده من النباهه والفضـل ما دلهم على انهم احق من عبد الدار بالامر فاجمعوا على أخـذ ما بيديهم وهموا بالقتال فمشى الاكابر بينهم وتداعوا الى الصلح على أن يكون لعبد مناف السقاية والرفادة وان تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار وتعاقدوا على ذلك حلفـا مؤكدا لا ينقضونه فأخرجت بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش وهم بنو الحارث بن فهر واسـد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة جفنة مملوة طيبا وغمسو فيها ايديهم ومسحوا بهـا الكعبة تأكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين وأخرجت بنو عبد الدار ومن تابعهم وهم مخزوم بن يقظة وجمح وسهم وعـدى بن كعب جفنة مملوة دمـا وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة فسموا الاحلاف ولعقة الدم ولم يلى الخلافة غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه والباقون من المطيبين فلم يزالوا على ذلك حتى جـاء الاسلام وقريش على ذلك حتى فتح النبى صـلى الله عليه وسلم مكة فى سنة ثمان للهجرة فأقر المفتاح فى يـد عثمان بن طلحة بن أبى طلحة ابن عبد العزى ابن عثمان بن عبد الدار وكان النبى صلى الله عليه وسلم أخذ المفاتيح منه عـام الفتح فانزلت (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها) فاستدعاه ورد المفاتيح اليه واقر السقاية فى يد العباس فهى فى ايديهم الى الآن ٠٠٠

فضل مكة وخواصها :

أفرد عقل ابن قيم الجوزيه (٣٦) صفحات للتحدث عن فضل مكة وخواصها فقال :

« الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بالخلق والاختيار من المخلوقات قال الله تعالى : « يخلق ما يشاء ويختار » .

ومن هذا اختاره سبحانه وتعالى من الاماكن والبلاد خيرها وأشرفها وهى البلد الحرام فانه سبحانه اختاره لنبيه وجعله مناسك لعباده وأوجب عليهم الاتيان اليه من القرب ومن البعد من كل فج عميق فلا يدخلونه الا متواضعين متخشعين متذللين كاشفى رؤوسهم متجردين عن لباس أهل الدنيا وجعله حرما آمنا لا يسفك فيه دم ولا تعضد به شجرة ولا ينفر له صيد ولا يختلى خلاه ولا يلتقط لقطته للتمليك بل للتعريف ليس الا وجعل قصده مكفرا لما سلف من الذنوب ما حيا للاوزار حاطا للخطايا كما فى الصحيحين عن أبى هريرة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ولم يرضى لقاصده من الثواب دون الجنة ففى السنن من حديث عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعوا بين الحج والعمرة فانهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد وليس للحج المبرور ثواب دون الجنة وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده وأحبها اليه ومختاره من البلاد لما جعل عرضاتها مناسك لعباده فرض عليهم قصدها وجعل ذلك من آكد فروض الاسلام واقسم به فى كتابه العزيز فى موضعين منه فقال تعالى وهذا البلد الامين وقال تعالى لا أقسم بهذا البلد وليس على وجه الارض بقعة يجب على كل قادر السعى اليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها وليس على وجه الارض موضع يشرع تقبيله واستلامه وتحط الخطايا والاوزار فيه غير الحجر الاسود والركن اليمانى وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ففى النسائى والمسند باسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل

---

(٣٦) الامام ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١ هـ) زاد المعاد فى هدى خير العباد محمد خاتم النبيين وأمام المرسلين ، مصر ، ج ١ ، ص ٧ — ١٠ .

من صلاة فى مسجدى هــذا بمائة صلاة ورواه ابن حبــان فى صحيحه وهــذا صريح فى أن المسجد الحرام أفضــل بقــاع الارض على الاطــلاق ولذلك كان شــد الرحال اليه فرضــا ولغيره مما يستحب ولا يجب وفى المســند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عــدى بن الحمراء انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهــو واقف على راحلته بالحزورة من مكه يقول والله انك لخير أرض الله وأحب أرض الله الى اللــه اخرجت منك لمــا خرجت قال الترمذى هــذا حديث صحيح بــل ومن خصائصها كونها قبلة لاهــل الارض كلهم فليس على وجــه الارض قبلة غيرها ومن خواصها أيضا انه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الارض واصح المذاهب فى هــذه المسألة انه لا فرق فى ذلك من الفضــاء والبنيان لبضعه عشر دليلا ومن خواصها أيضــا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الارض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال ســألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الارض قال المسجد الحرام قلت ثم أى قال المسجد الاقصى قلت كم بينهما قال أربعون عاما وقــد أشكل هــذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال معلوم أن سليمان بن داود الــذى بنى المسجد الاقصى وبينه وبين ابراهيم أكثر من ألف عــام وهــذا من جهــل هــذا القائل فان سليمان انما كان له من المسجد الاقصى تجديده لا تأسيسه والذى أسسه هو يعقوب بن اسحق صلى الله عليهما وسلم بعد بناء ابراهيم الكعبة بهذا المقدار ومما يدل على تفضيلها ان اللــه تعالى أخبر أنها أم القرى فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها وهى أصــل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عديل فهى كما أخبر النبى صلى الــه عليه وسلم عن الفاتحة انها أم القرآن ولهذا لم يكن لها فى الكتب الالهية عــديل ومن خصائصها انها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة الا باحرام وهــذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد وهــذه المسألة تلقاها الناس عن أبى عباس رضى الله عنهما وقد روى عن ابن عبــاس باسناد لا يحتج بــه مرفوعا لا يدخــل أحد مكة الا باحرام من أهلها ومن غير أهلهــا ذكره أبو أحمد بن عــدى ولكن الحجاج بن ارطأة فى الطريق وآخر قبلــه من الضعفاء وللفقهاء فى المسئلة ثلاثة أقوال النفى والاثبــات والفرق بين من هــو داخل المواقيت ومن هو قبلها فمن قبلها لا يجاوزها الا باحرام ومن هو داخلها فحكمه حكم أهــل مكة وهو قول ابى حنيفة والقولان والاولان للشافعى وأحمد ومن خواصــه انه يعاقب فيــه على الهم بالسيئات وان لم يفعلها قال تعــالى ومن يرد فيــه بالحاد بظلم نذقه من عــذاب أليم فتأمل كيف عــدى فعل الارادة ههنا بالبــاء ولا يقال أردت بــكذا الا لمــا ضمنه معنى فعل بهم فانه يقــال هممت بكذا فتوعد من هم بأن يظلم فيــه بأن يذيقه العذاب الاليم ومن هــذا تضاعف مقادير السيئات فيــه لا كمياتها فان السيئة جزاؤها سيئة لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها وصغيرة جزاؤها

مثلها فالسيئة فى حرم الله وبلده وعلى بساطه آكد وأعظم منهـا فى طرف من أطراف الارض ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه فى الموضع البعيد من داره وبساطه فهذا فضل النزاع فى تضعيف السيئات والله أعلم وقد ظهر سر هـذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الافئدة وهـوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهـذا البلد الامين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد ولهـذا أخبر سبحانه انه مثابة للنـاس أى يثوبون اليه على تعـاقب الاعوام من جميع الاقطـار ولا يقضون منـه وطراً بـل كلما ازدادوا نه زيارة ازدادوا له اشتياقا ٠

فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم انفق فى حبها من الاموال والارواح ورضى المحب بمفارقة فلـذ الاكباد والاهل والاحباب والاوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتألفة والمعاطف والمشـاق وهو يستلذ ذلك كلـه ويستطيبه ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المتحلية ترفهم ولذاتهم ٠

وهـذا كله سر اضافته اليه سبحانه وتعالى بقوله وطهر بيتى فاقتضت هـذه الاضافة الخاصـة من هـذا الاجلال والتعظيم والمحبـة ما اقتضته كما اقتضت اضافته لعبـده ورسوله الى نفسـه ما اقتضت من ذلك وكذلك اضافته عبـاده المؤمنين اليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم فكلما اضـافه الرب تعالى الى نفسـه فله من المزية والاختصاص على غيره ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء ثم يكسوه بهـذه الاضافة تفضيلا آخر وتخصيصا وجلاله زيادة على ماله قبـل الاضافة ولم يوفق لفهم هـذا المعنى من سوى بين الاعيان والافعال والازمان والاماكن وزعم انه لا مزية لشىء منها على شىء وانما هـو مجرد الترجيح بلا مرجح وهـذا القول باطـل بأكثر من أربعين وجهـا ويكفى تصور هـذا المذهب الباطل فى فساده فان مذهبا يقتضى أن يكون ذوات الرسل كذوات اعدائهم فى الحقيقة وانمـا التفضيل بأمر لا يرجع الى اختصاص الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات ليس لبقعة على بقعة مزية ألبتة وانما هو لمـا يقع فيها من الاعمال الصالحة فلا مزية لبقعـة البيت والمسجد الحرام ومنى وعرفه والمشاعر على أى بقعة سميتها من الارض وانما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة لا يعود اليها ولا الى وصف قائم بهـا واللـه سبحانه وتعالى قد رد هـذا القول الباطل بقوله تعـالى فاذا جاءتهم آيـة قالوا لن نؤمن مثـل ما أوتى رسـل الله قال الله تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته أى ليس كل أحـد أهلا ولا صالحا لتحمل رسالته بل لها محال مخصوصة لا تليق الا بهـا ولا تصلح الا لها واللـه أعلم بهذه المحـال منكم ولو كانت الذوات متساوية كما قال هـؤلاء لم يكن فى ذلك رد عليهم وكذلك

قوله تعالى وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من اللـــه عليهم من بيننا أليس اللـــه بأعلم بالشاكرين أى هـــو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته فيختصه بفضله ويمن عليـــه ممن لا يشكره فليس كل محل يصلح لشكره واحتمال منته والتخصيص بكرامته فذوات ما أختاره واصطفاه من الاعيـــان والاماكن والاشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمور قائمة بهـــا ليست فى غيرها ولاجلها اصطفاها الله وهو سبحانه الذى فضلها بتلك الصـــفات وخصها بالاختيار فهذا خلقـــه وهـــذا اختياره وربك يخلق ما يشـــاء ويختار وما أبين بطلان رأى يقتضي بأن مكان البيت الحرام مســـاو لسائر الامكنة وذات التفضيل فى ذلك بأمور خارجة عن الذات والصفات القائمـــة بهـــا وهـــذه الاقاويل وأمثالها من الجنايات التى جناها المتكلمون على الشريعة ونسبوها اليها وهى بريئة منهـــا وليس معهم أكثر من اشتراك الذوات فى أمر عـــام وذلك لا يوجب تساويها فى الحقيقة لأن المختلفات قـــد تشترك فى أمر عـــام مع اختلافها فى صفاتها النفســـية وما سوى اللـــه تعالى بين ذات المسك وذات البول أبدا ولا بين ذات المـــاء وذات النار أبـــدا والتفاوت البين بين الامكنة الشريفة واضدادها والذوات الفاضلة واضدادها أعظم من هذا التفاوت بكثير فبين ذات موسى عليه السلام وفرعون من التفاوت أعظم مما بين المسك والرجيع وكذلك التفاوت بين نفس الكعبة وبين بيت السلطان أعظم من هـــذا التفاوت أيضـــا بكثير فكيف يجعل البقعتان ســـواء فى الحقيقة والتفضيل باعتبـــار ما يقع هنـــاك من العبادات والاذكار والدعوات ولم نقصد استيفاء الرد على هـــذا المذهب المردود والمرذول وانما قصدنا تصويره والى اللبيب العادل العاقل التحاكم ولا يعبـــأ الله وعباده بغيره شيئا واللـــه سبحانه لا يخصص شيئا ولا يفضله ويرجحه الا لمعنى يقتضى تخصصـــه وتفضيله نعم هو معطى ذلك المرجح وواهبـــه فهو الذى خلقه ثم اختـــاره بعد خلقه وربك يخلق ما يشاء ويختار .

٢ - يثرب (٣٧) :

وهى فى حرة سبخة الارض ولها نخيل كثيرة وميـــاه ونخيلهم وزروعهم سقى من الآبار وكان عليها العبيد وللمدينة سور والمسجد فى نحو وسطها وقبر النبى صلى الله عليه وسلم فى شرقى المسجد وهو بيت مرتفع وليس بينه وبين سقف المسجد الا فرجـــة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمر والمنبر الذى كان يخطب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غشى بمنبر آخر والروضـــة أمـــام المنبر بينه وبين القبر ومصلى النبى صلى الله عليه وسلم الذى كان يصـــلى

(٣٧) معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٤٢٤ - ٤٢٦ .

فيه الاعيـــاد فى غربى المدينة داخـــل الباب وبقيع الغرقد خارج المدينة من شرقيها وقبـــاء خارج المدينة على نحو ميلين الى ما يلى القبلة وهى شبيهة بالقرية واحـــد جبل فى شمالى المدينة وهو أقرب الجبال اليهـــا مقـدار فرسخين وبقربها مزارع فيها نخيل وضياع لاهـــل المدينة ووادى العقيق فيها بينها وبين الفرع والفرع من المدينة على أربعة أيام فى جنوبيها وبهـــا مسجد جامع غير أن أكثر هـــذه الضياع خراب وكذلك حوالى المدينة ضياع كثيرة أكثرها خراب وأعـــذب ميـــاه تلك الناحية آبار العقيق ٠

ولهذه المدينة تسعة وعشرون اسما وهى المدينة ٠ وطيبة ٠ وطابة ٠ والمسكينة ٠ والعـــذراء ٠ والجابرة ٠ والمحبة ٠ والمحببـــة ٠ والمحبورة ٠ ويثرب ٠ والناحية ٠ والموفية ٠ وأكالة البلـــدان ٠ والمباركة ٠ والمحفوفة والمسلمة والمجنة ٠ والقدســـية ٠ والعاصمة ٠ والمرزوقة ٠ والشـــافية ٠ والخيرة ٠ والمحبوبة والمرحومة ٠ وجابرة ٠ والمختارة ٠ والمحرمة ٠ والقاصمة ٠ وطبايا ٠٠ وروى فى قول النبى صـــلى الله عليه وسلم (رب ادخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) قالوا المدينة ومكة ٠

وروى أبو هريرة قال رسول الله صـــلى الله عليه وسلم من صبر على أوار المدينة وحرها كنت له يوم القيامة شفيعا شهيدا ٠٠٠ وقال صـــلى الله عليه وسلم حين توجـــه الى الهجرة اللهم انك قـــد أخرجتنى من أحب أرضك الى فأنزلنى أحب أرض اليك فأنزله المدينة فلما نزلها قال اللهـــم اجعل لنا بها قرارا ورزقا واســـعا ٠٠ وقال عليه الصلاة والسلام من استطاع منكم أن يموت فى المدينة فليفعل فانه من مات بهـــا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة ٠٠ وعن عبد الله بن الطفيل لمـــا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وثب على أصحابه وبـــاء شديد حتى أهمدتهم الحمى فمـــا كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الا اليسير فدعا لهم وقال اللهم حبب الينـــا المدينة كما حببت الينا مكة واجعل ما كان بهـــا من وباء بخم وفى خبر آخر اللهم حبب الينـــا المدينة كما حببت الينا مكـــة وأشد وصححها وبارك لنـــا فى صاعها ومدها وانقل حماها الى الجحفة وقـــد كان هم صلى الله عليه وسلم أن ينتقل الى الحمى لصحته وقال نعم المنزل الحمى لولا كثرة حياته وذكر العرض وناحيته فهم بـــه وقال هو أصح من المدينة وروى عنـــه صلى الله عليه وسلم انه قال عند بيوت الســـقيا اللهم ان ابراهيم عبـــدك وخليلك ونبيك ورسولك دعـــاك لاهل مكة وان محمدا عبدك ونبيك ورسولك يدعوك لاهـــل المدينة بمثل ما دعـــاك ابراهيم أن تبـــاك فى صاعهم ومدهم وثمارهم اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة واجعل ما بهـــا من وباء بخم اللهم انى قـــد حرمت ما بين لابتيها كما حرم ابراهيم خليلك ٠٠ وحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم شجر

المدينة بريدا فى بريد من كل ناحية ورخص فى الهش وفى متاع الناضح ونهى عن الخبط وان يعضد ويهصر ٠٠ وكان أول من زرع بالمدينة واتخذ بها النخل وعمر بها الدور والاطام واتخذ بها الضياع العماليق (٣٨) وهم بنو عملاق بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام وقيل فى نسبهم غير ذلك ٠

٣ ــ الطائف (٣٩) :

قالوا يعنى الطائف التى بالغور من القرى ٠ والطائف هو وادى وج وهو بلاد ثقيف بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا قرأت فى كتاب

---

(٣٨) يزعم بعض المؤرخين المحدثين أن اليهود جاءوا الى جزيرة العرب مهاجرين من فلسطين عندما ضاقت عليهم سبل الرزق فيها ، (نص ما أورده محمد مبروك نافع فى كتابه العرب قبل الاسلام ص ١٧٠) : « ولما قضى الرومان على دولة اليهود ، واستولوا على فلسطين ، قامت عدة ثورات ضد نفوذ الرومان فيها ، أطفأها الرومان بشدة لم يستطع اليهود صبرا عليها ، فخرج من لم يستطع البقاء منهم الى شبه الجزيرة العربية ، وأشهر المستعمرات التى أقاموا فيها هى يثرب وتيماء وفدك ، وخيبر ٠٠٠ الخ » ٠

ولنا على هذا الزعم رد نسوقه اعتمادا على الله ثم على كتب التراث :

جرت سنة الله على التمكين للمسلمين فى الارض ، كما مكن لقوم نوح المسلمين ، بعد اهلاك الكافرين ، وكما مكن كذلك لمن آمن مع هود وصالح عليهما السلام ٠٠٠ وجاء الوقت الذى سكن يثرب وغيرها العماليق الذين كانوا فى الاصل موحدين ، ثم طغوا وتجبروا ، فكان حريا على الله أن يذلهم ويخرجهم من يثرب على أيدى ذرية المسلمين من أتباع موسى الذين أعقبوا الجيل الجبان الذين قالوا : ان فيها قوما جبارين ولنا لن ندخلها ماداموا فيها ٠ « ٠ وكان ذلك من قدر الله فى التمكين للمسلمين ! وان تقولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ٠٠٠

ودار الزمان دورته ، وانحرف المسلمون من اتباع موسى عليه السلام المقيمين فى يثرب ، بعد أن تركوا دينهم وشريعة ربهم فصاروا بدينهم الى ما يسمى باليهودية ، ولما كانت سنة الله لا تتخلف ولا تتغير ولا تحابى أحد على حساب أحد فكان لابد أن يطردوا من الارض المباركة (يثرب وغيرها من بلاد العرب) على أيدى رسول الله وصحبه الكرام من المسلمين ٠٠

أى أنه لم يكن لليهود وجود طبيعى فى جزيرة العرب منذ أقدم العصور والقول بهذا خطأ فادح وقع فيه الكثير من أبناء المسلمين اعتمادا على كتابات الصليب والصهيانة فى هذا الشأن ٠

(٣٩) معجم البلدان ، ج ٦ ، ص ١١ ــ ١٦

ابن الكلبى بخط أحمد بن عبيد الله محجج النحو قال هشام عن ابن مسكين عن رجل من ثقيف كان عالما بالطائف قال كان رجل من الصدف يقال له الدمون بن عبد الملك قتل ابن عم له يقال له عمرو بحضر موت ثم أقبل هاربا ٠

ثم أتى مسعود بن معتب الثقفى ومعه مال كثير وكان تاجرا فقال أحالفكم لتزوجونى وأزوجكم وأبنى لكم طوفا عليكم مثل الحائط لا يصل اليكم أحد من العرب قالوا فأبن فبنى بذلك المال طوفا عليهم فسميت الطائف وتزوج اليهم فزوجوه ابنة ٠٠ قال هشام وبعض ولد الدمون بالكوفة ولهم بها خطة مع ثقيف وكان قبيعة من الدمون هذا على شرطة المغيرة بن شعبة اذ كان على الكوفة ٠٠ وكانت الطائف تسمى قبل ذلك وجا بوج بن عبد الحى من العماليق وهو أخو أجاء الذى سمى به جبل طىء وهو من الامم الخالية ٠٠ قال عرام والطائف ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وسائر الفواكه وبها مياه جارية وأودية تنصب منها الى تبالة وجل اهل الطائف ثقيف وحمير وقوم من قريش وهى على ظهر جبل غزوان وبغزوان قبائل هذيل ٠٠ وقال ابن عباس سميت الطائف لأن ابراهيم عليه السلام لما أسكن ذريته مكة وسأل الله ان يرزق اهلها من الثمرات أمر الله عز وجل قطعة من الارض أن تسير بشجرها حتى تستقر بمكان الطائف فأقبلت وطافت بالبيت ثم أقرها الله بمكان الطائف فسميت الطائف لطوافها بالبيت وهى مع هذا الاسم المفخم بليدة صغيرة على طرف واد وهى محلتان احداهما عن هذا الجانب يقال لها طائف ثقيف والاخرى على هذا الجانب يقال لها الوخط والوادى بين ذلك تجرى فيه مياه المدابغ التى يدبغ فيها الاديم يصرع الطيور رائحتها اذا مرت بها وبيوتها لاطئة حرجة وفى أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل فيها من العنب العذب مالا يوجد مثله فى بلد من البلدان وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل وهى طيبة الهواء شامية ربما جمد فيها الماء فى الشتاء وفواكه اهل مكة منها والجبل الذى هى عليه يقال له غزوان ٠٠ وروى ابو مالح ذكرت ثقيف عند ابن عباس فقال ان ثقيفا والنخع كانا ابنى خالة فخرجا منتجعين ومعها اعنز لهما وجدى فعرض لهما مصدق لبعض ملوك اليمن فاراد اخذ شاة منهما فقالا خذ ما شئت الا هذه الشاة الحلوب فانا من لبنها نعيش وولدها فقال لا آخذ سواها فرفقا به فلم يفعل فنظر احدهما الى صاحبه وهما بقتله ثم ان احدهما انتزع له سهما فلق به قلبه فخر ميتا فلما نظر الى ذلك قال احدهما لصاحبه انه لن تحملنى واياك الارض ابدا فاما ان تغرب وأنا أشرق واما أن أغرب وتشرق انت فقال ثقيف فانى أغرب وقال النخع فانا أشرق وكان اسم ثقيف قسيا واسم النخع جسرا فمضى النخع حتى نزل بيشة من أرض اليمن ومضى ثقيف حتى أتى وادى القرى فنزل على عجوز لا ولد لها فكان يعمل نهارا ويأوى اليها ليلا فاتخذته ولدا لها واتخذها اما له فلما حضرها الموت قالت له يا هذا انه لا أحد لى غيرك

وقد أردت أن أكرمك لا لطافك اياى انظر اذا انا مت وورايتنى فخذ هـــذه الدنانير فانتفع بها وخذ هذه القضبان فاذا نزلت واديا تقدر فيه على المـــاء فاغرسها فانى أرجو أن تنال من ذلك فلاحا بينا ففعل ما أمرته به فدما ماتت دفنها وأخذ الدنانير والقضبان ومضى سائرا حتى اذا كان قريبا من وج وهى الطائف اذ هو بأمة حبشية ترعى مائة شاة فطمع فيها وهم بقتلها وأخذ الغنم فعرفت ما أراد فقالت انك اسررت فى طمعا لتقتلنى وتأخذ الغنم ولئن فعلت ذلك لتذهبن نفسك ولا تحصل من الغنم شيئا لأن مولاى سيد هذا الوادى وهو عامر بن الظرب العدوانى وانى لأظنك خائفا طريدا قال نعم فقالت فانى أدلك على خير مما اردت فقال وما هو قالت ان مولاى يقبل اذ طفلت الشمس للغروب فيصعد هذا الجبل ثم يشرف على الوادى فاذا لم ير فيه أحدا وضع قوســـه وجفيره وثيابه ثم انحدر رسوله فنادى من أراد اللحم والدرمك وهو دقيق الحوارى والتمر واللبن فليأت دار عامر ابن الظرب فيأتيه قومه فاسبقه انت الى الصخرة وخذ قوسه ونباله وثيابه فاذا رجع وقال من انت فقل رجل غريب فانزلنى وخائف فأجرنى وعزب فزوجنى ففعل ثقيف ما قالت له الامة وفعل عامر صاحب الوادى فعله فلما أن اخذ قوسه ونشابه وصعد عامر قال له من أنت فاخبره وقال أنا قسى بن منبه فقال هات ما معك فقد أجبتك الى ما سألت وانصرف وهو معه الى وج وارسل الى قومه كما كان يفعل فلما اكلوا قال لهم عامر ألست سيدكم قالوا بلى قال وابن سيدكم قالوا بلى قال ألستم تجيرون من أجرت وتزوجون من زوجت قالوا بلى قال هذا قسى بن منبه بن بـكر بن هوازن وقد زوجته ابنتى فلانة وأمنته وأنزلته منزلى فزوجه ابنة له يقال لها زينب فقال قومه قد رضينا بما رضيت فولدت له عوفا وجسما ثم ماتت فزوجه اختها فولدت له سلامة ودارسا فانتسبا فى اليمن فدارس فى الازد والآخر فى بعض قبائل اليمن وغرس قسى تلك القضبان بوادى وج فنبتت فلمـــا اثمرت قالوا قاتله الله كيف ثقف عامرا حتى بلغ منه ما بلغ وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء فسمى ثقيفا من يومئذ فلم يزل ثقيف مـــع عدوان حتى كثر ولده وربلو وقوى جأشهم وجرت بينهم وبين عدوان هنـــات وقعت فى خلالها حرب انتصرت فيها ثقيف فأخرجوا عدوان عن أرض الطائف واستخلصوها لانفسهم ثم صارت ثقيف أعز الناس بلدا وأمنعه جانبا وأفضله مسكنا وأخصبه جنابا مع توسطهم الحجاز واحاطة قبائل مصر واليمن وقضاعة بهم من كل وجه فحمت دارها وكادحت العرب عنها واستخلصتها وغرست فيها كرومها وحفرت بها اطواءها وكظائمها وهى من أزد الشراة وكنانة وعذرة وقريش ونصر بن معاوية وهوازن جمعا والأوس والخزرج وجهينة وغير ذلك من القبائل ذلك كله يجرى والطائف تسمى وجا الى ان كان ما كان مما تقدم ذكره من تحويط الحضرمى عليها وتسميتها حينئذ الطائف .. وقد ذكر بعض النساب فى تسميتها بالطائف امرا آخر وهو انه قال لما هلك عامر بن الظرب

ورثته ابنتاه زينب وعمرة وكان قسى بن منبه خطب اليه فزوجه ابنته زينب فولدت له جشما وعوفا ثم ماتت بعد موت عامر فتزوج اختها وكانت قبله عند صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن فولدت له عامر بن صعصعة فكانت الطائف بين ولد ثقيف وولد عامر بن صعصعة فلما كثر الحيان قالت ثقيف لبنى عامر انكم اخترتم العمد على المدن والوبر على الشجر فلستم تعرفون ما نعرف ولا تلطفون ما نلطف ونحن ندعوكم الى حظ كبير لكم ما فى أيديكم من الماشية والابل والذى فى ايدينا من هذه الحدائق فلكم نصف ثمره فتكونوا بادين حاضرين يأتيكم ريف القرى ولم تتكلفوا مؤنة وتقيمون فى أموالكم وماشيتكم فى بدوكم ولا تتعرضوا للوباء وتشتغلوا عن المسرعى ففعلوا ذلك فكانوا يأتونهم كل عام فيأخذون نصف غلاتهم وقد قيل ان الذى ، وافقوهم عليه كان الربيع ٠٠ فلما اشتدت شوكة ثقيف وكثرت عمارة وج رمتهم العرب بالحسد وطمع فيهم من حولهم وغزوهم فاستغاثوا ببنى عامر فلم يغيثوهم فاجمعوا على بناء حائط يكون حصنا لهم فكانت النساء تلبن اللبن والرجال يبنون الحائط حتى فرغوا منه وسموه الطائف لاطافته بهم وجعلوا لحائطهم بابين احدهما لبنى يسار والآخر لبنى عوف وسموا باب بنى يسار صعبا وباب بنى عوف ساحرا ٠٠ ثم جاءهم بنو عامر ليأخذوا ما تعودوه فمنعوهم عنه وجرت بينهم حرب انتصرت فيها ثقيف وتفردت بملك الطائف فضربتهم العرب مثلا ٠٠ فقال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا ارضنا من كل حى
كما امتنعت بطائفها ثقيف

أتاهم معشر كى يسلبوهم
فحالت دون ذلكم السيوف

٠٠ وقال بعض الانصار

فكونوا دون بيضكم كقوم حموا أعنابهم من كل عادى

٠٠ وذكر المدائنى ان سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى بيادر الزبيب فقال ما هذه الحرار فقالوا ليست حرارا ولكنها بيادر الزبيب فقال لله در قسى بأى ارض وضع سهامه وأى أرض مهد عش فروخه ٠٠

ثم حسدهم طوائف العرب وقصدوهم فصمدوا لهم وجدوا فى حربهم فلما لم يظفروا منهم بطائل ولا طمعوا منهم بغرة تركوهم على حالهم أغبط العرب عيشا الى ان جاء الاسلام فغزاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فافتتحها فى سنة تسع من الهجرة صلحا وكتب لهم كتابا ٠٠ نزل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شوال سنة ثمان عند منصرفه من حنين وتحصنوا

منه واحتاطوا لأنفسهم غاية الاحتياط فلم يكن اليهم سبيل ونزل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم رقيق من رقيق اهل الطائف .. منهم ابو بكرة نفيع ابن مسروح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة كثيرة منهم الازرق الذى تنسب اليه الازارقة والد نافع بن الأزرق الخارجى الشارى فعتقوا بنزولهم اليه ونصب رسول الله صلى الله عليه وسلم منجنيقا ودبابة فاحرقها اهل الطائف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم نؤذن فى فتح الطائف ثم انصرف عنها الى الجعرانة ليقسم سبى أهل حنين وغنائمهم فخافت ثقيف ان يعود اليهم فبعثوا اليه وفدهم وتصالحوا على أن يسلموا ويقروا على ما فى ايديهم من أموالهم وركازهم فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ان يسلموا وعلى ان لا يزنوا ولا يرابو وكانوا أهل زنا وربا وفى وقعة الطائف فقئت عين أبى سفيان بن حرب وقصة ذلك فى كتب المغازى .. وكان معاوية يقول أغبط الناس عيشا عبدى او قال مولاى سعد وكان يلى امواله بالحجاز ويتربع جده ويتقيظ الطائف ويشتو بمكة ولذلك وصف محمد بن عبد الله النميرى زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية فقال .

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

.. وذكر الازرقى أبو الوليد عن الكبى باسناده قال لما دعا ابراهيم عليه السلام « فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات » فاستجاب الله له فجعله مثابة ورزق أهله من الثمرات فنقل اليهم الطائف وكانت قرية بالشام وكانت ملجأ للخائف اذا جاءها أمن .

الفصل السادس

أخبار القرون الاولى من حياة جزيرة العرب
من خـــلال
القرآن الكريم ، وحديث النبى محمد صلى الله عليه وسلم
وكتب التراث الاســـلامى

سيرة هـــود عليه الســـلام

- مولد هود عليه السلام ، ونشأته ٠

- أضواء على النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى لأمة عاد قوم هود ٠
- مدى التقدم العلمى لذلك المجتمع نتيجة انعام الله عليهم ٠
- الجانب الاعتقادى فى حياة القوم والصفات التى كانوا يتصفون بها ٠

- الله سبحانه وتعالى لم يترك هؤلاء القوم يتخبطون فى ظلمات الضلالة ، وشرك الاعتقاد ، بل يرسل اليهم هودا عليه السلام يعرفهم بربهم الحق ، ودينهم الصحيح ٠

- تتبع الجهود التى بذلها هودا وهو يدعو الناس الى عبادة الله الواحد القهار ٠

- هود يدعو الى الاسلام ٠

- موقف القوم من دعوة هود عليه السلام ٠

- مصير المكذبين ، ونجاة المؤمنين الموحدين ٠

- مصارع الغابرين من قوم هود ومخلفاتهم ٠

- الدروس المستفادة من السيرة ٠

ترد سيرة هود (١) عليه السلام فى سياق سورة الأعراف ، وموضوع سورة الاعراف هو العقيدة ، وفى هذا تأخذ طريقا متميزا ، وتعرض موضوع العقيدة فى مجال التاريخ البشرى ‥ فى مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى ، وعائدة الى النقطة التى انطلقت منها ‥ وفى هذا المدى المتطاول تعرض موكب الايمان من لدن آدم ـ عليه السلام ـ الى محمد عليه الصلاة والسلام ـ بما فى ذلك هود وصالح تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضى بها على مدار التاريخ ، يواجه بها البشر جيلا بعد جيل ، وقبيلا بعد قبيل ‥ ويرسم سياق السورة فى تتابعه . كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى ؟ ‥ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى فى طريقه الى الله ، وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين فى الدنيا والآخرة .

انها رحلة طويلة ‥ ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة . وتقف منها عند معظم المعالم البارزة ، فى الطريق المرسوم ، ملامحه واضحة ، ومعالمه قائمة ومبدؤه معلوم ، ونهايته مرسومة ‥ والبشرية تخطو عليه بمجموعها الحاشد ثم تقطعه راجعة ‥ الى حيث بدأت رحلتها فى الملأ الأعلى ‥

لقد انطلقت هذه البشرية من نقطة البدء ، ممثلة فى شخصين اثنين ‥ آدم وزوجه ‥ أبوى البشر ‥ وانطلق معهما الشيطان . مأذونا من الله فى غوايتهما وغواية ذراريهما ومأخوذا عليهما عهد الله وعلى ذراريهما كذلك . ومبتلى كلاهما وذراريهما معهما بقدر من الاختيار ، ليأخذوا عهد الله بقوة أو ليركنوا الى الشيطان عدوهم وعدو أبويهم الذين أخرجهما من الجنة ، وليسمعوا الايات التى يحملها اليهم ذلك الرهط الكريم من الرسل على مدار التاريخ ، أو يسمعوا غواية الشيطان الذى لا ينى يجلب عليهم بخيله ورجله ، ويأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم .

انطلقت البشرية من هناك ‥ من عند ربها سبحانه ‥ انطلقت الى الارض . تعمل وتسعى ، وتكد وتشقى ، وتصلح وتفسد ، وتعمر وتخرب ، وتتنافس وتتقاتل ، وتكدح الكدح الذى لا ينجو منه شقى ولا سعيد‥ثم هاهى ذى تؤوب ! هـا هى ذى راجعة الى ربها الذى أطلقها فى هذا المجال ‥‥ هاهى ذى تحمل ما كسبت طوال الرحلة المرسومة ‥ من ورد وشوك . ومن

---

(١) فى ظلال القرآن ، طبعة دار الشروق ١٣٩٣ ، المجلد ٣ ، ص ١٢٤٤ وما بعدها .

غال ورخيص ، ومن ثمين وزهيد ، ومن خير وشر ، ومن حسنات وسيئات -
ها هى ذى تعود الى أصيل اليوم ·· فقد انطلقت فى مطلعه ! ·· وها نحن أولاء نلمحها من خلال السياق فى السورة موقورة الظهور بالاحمال ـ أيا كانت هذه الاحمال ـ هـا هى ذى عائدة الى ربها بما معها · تظلع فى الطريق ، وقد بلغ منها الجهد وأضناها المسير وحتى اذا عادت الى نقطة المنطلق وضع كل منها حمله أمام الميزان ، ووقف يرتقب فى خشية ووجل ·· ان كل فرد قد عاد بحصيلته فردا ·· وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ! وكل فرد على حده يلاقى حسابه ، ويلقى جزاءه ·· ويظل سياق السورة يتابع أفواج البشرية ، فوجا فوجا · الى جنة أو الى نار · حتى تغلق الأبواب التى فتحت لاستقبال المغتربين العائدين · فقد كانوا هنالك فى هذه الارض مغتربين : « كما بدأكم تعودون · فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ، انهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » ··

· · ·

وبين الغدو والرواح تعرض معارك الحق والباطل · معارك الهدى والضلال · معارك الرهط الكريم من الرسل والموكب الكريم من المؤمنين ، مع الملأ المستكبرين والأتباع المستخفين · ويعرض الصراع المتكرر ، والمصائر المتشابهة · وتتجلى صحائف الايمان فى اشراقها ووضاءتها ، وصحائف الضلال فى انطماسها وعتامتها · وتعرض مصارع المكذبين بين الحين والحين · حيث يقف السياق عليها للتذكير والتحذير ·· وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ فى سياق السورة · فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق عليها للتذكير والتحذير ·· وهذه الوقفات تجيء وفق نظام ملحوظ فى سياق السنورة · فبعد كل مرحلة هامة يبدو كما لو كان السياق يتوقف عندها ليقول كلمة ! كلمة تعقيب · للانذار والتذكير ·· ثم يمضى ·

انها قصة البشرية بجملتها فى رحلتها ذهابا وايابا · تتمثل فيها حركة هـذه العقيدة فى تاريـخ البشرية ، ونتائج هذه الحركة فى مداها المتطاول ·· حتى تنتهى الى غايتها الأخيرة فى نقطة المنطلق الأولى ·

ولعله يحسن هنا أن نستعرض منهج السورة فى معالجة موضوع العقيدة فى صورة حركة لهذه العقيدة فى تيار التاريخ البشرى ··

ان السورة لا تعرض قصة هذه العقيدة فى التاريخ البشرى ، ولا تعرض رحلة البشرية منذ نشأتها الاولى الى عودتها الاخيرة ·· مجرد عرض فى أسلوب قصصى ·· انما هى تعرضها فى صورة معركة مع الجاهلية ·· ومن ثم فانها تعرضها فى مشاهد ومواقف ، وتواجه بهذه المشاهد والمواقف ناسا أحياء

كانوا يواجهون هذا القرآن ، فيواجههم هذا القرآن بتلك القصـــة الطويلة ، ويخاطبهم بما فيها من عبر ، مذكرا ومنذرا ، ويخوض معهم معركة حقيقيـة حية ·· ومن ثم تجيء التعقيبات فى السياق عقب كل مرحلة أساسية ، موجهة لأولئك الأحياء الذين كان القرآن يخوض معهم المعركة ، وموجهة كذلك الى أمثالهم ممن يتخذون موقفهم على مدار التاريخ ·

ان القرآن لا يقص قصة الا ليواجه بها حالة · ولا يقرر حقيقة الا ليغير بها باطلا ·· انه يتحرك حركة واقعية حية فى وسط واقعى حى · انه لا يقرر حقائقه للنظر المجرد ، ولا يقص قصصه لمجرد المتاع الفنى !

ويركز السياق على التذكير والانذار فى وقفاته للتعقيب · كما يركز على نقطة الانطلاق ، وعلى نقطة المآب · وبينهما يمر بقصص قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب · ثم يركز تركيزا شـــديدا على قصة قوم موسى ·

وفي هذه التقدمة للسورة لا نملك الا آن نعرض نماذج مجملة لمواضع التركيز فى السورة :

« المص · كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه ، لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين · اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء · قليلا ما تذكرون » ··

فهى منذ اللحظة الاولى خطاب لرسول الله ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ وخطاب لقومه الذين يجاهدهم بهذا القرآن ·· وكل ما يجيء في السورة بعـد ذلك من قصص ، ومن وصف لرحلة البشرية الطويلة ، وعودتها من الرحـلة المرسومة ، وكل ما يعرض من مشاهد فى صفحة الكون وفى يوم القيامة ·· انما هو خطاب غير مباشر ــ وأحيانا مباشر ــ للنبى صلى الله عليه وسلم وقومه للانذار والتذكير كما يشير هذا المطلع القصير ·

وقول الله ــ سبحانه ــ لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » ··

يصور حالة واقعية لا يمكن ان يدركها اليوم الا الذى يعيش فى الجاهلية وهو يدعو الى الاسلام ، ويعلم أنه انما يستهدف أمرا هائلا ثقيلا ، دونه صعاب جسام ·· يستهدف انشاء عقيدة وتصور ، وقيم وموازين ، وأوضاع وأحوال

مغايرة تمام المغايرة لما هو كائن فى دنيا الناس · ويجد من رواسب الجاهلية فى النفوس ، ومن تصورات الجاهلية فى العقول ، ومن قيم الجاهلية فى الحياة ، ومن ضغوطها فى الاوضاع والاعصاب ، وما يحس معه أن كلمة الحقيقة التى يحملها غريبة على البيئة ، ثقيلة على النفوس ، مستنكرة فى القلوب ·· كلمة ذات تكاليف بقدر ما تعنيه من الانقلاب الكامل لكل ما يعهده الناس فى جاهليتهم من التصورات والافكار ، والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين ، والعادات والتقاليد والاوضاع والارتباطات ·· ومن ثم يجد فى صدره هذا الحرج من مواجهة الناس بذلك الحق الثقيل ، الحرج الذى يدعو الله ـ سبحانه ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يكون فى صدره من هذا الكتاب شىء منه ، وأن يمضى به ينذر ويذكر ، ولا يحفل ما تواجهه كلمة الحق من دهشة واستنكار ، ومن مقاومة كذلك وحرب وعناء ··

ولأن الامر كذلك من الثقل ومن الغرابة ومن النفرة ومن المقاومة لهذا التغيير الكامل الشامل الذى تستهدفه هذه العقيدة فى حياة الناس وتصوراتهم، فان السياق يباكر القوم بالتهديد القاصم ، ويذكرهم بمصائر المكذبين ، ويعرض عليهم مصارع الغابرين ·· جملة قبل ان يأخذ فى القصص المفصل عنهم فى مواضعه من السياق :

« وكم من قرية أهلكناها ، فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون · فما كان دعواهم اذ جاءهم بأسنا الا أن قالوا : انا كنا ظالمين · فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين · فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين · والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون · ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » ··

وبعد هذه المقدمة تبدأ القصة ·· تبدأ بالحديث عن التمكين للجنس البشرى فى الأرض ·· وذلك بما أودع الله هذا الكون من خصائص وموافقات تسمح بحياة هذا الجنس وتمكينه فى الارض · وبما أودع الله هذا الجنس من خصائص وموافقات متوافقة مع الكون ، ومن قدرة على التعرف الى نواميسه واستخدامها ، والانتفاع بطاقاته ومدخراته وأقواته :

« ولقد مكناكم فى الارض ، وجعلنا لكم فيها معايش · قليلا ما تشكرون »

وليس هذا الا التمهيد لعرض قصة النشأة الاولى ، وتصوير نقطة الانطلاق التى بدأت منها البشرية رحلتها المرسومة · والسياق يركز فى هذه السورة على هذه النقطة ، ويعرض قصة النشأة ، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للانذار والتذكير ، المستمدين مما فى مشاهدها وأحداثها من عظات موحية ، ومؤثرات عميقة ·

وبهذا المشهد فى نقطة الانطلاق يتحدد مصير الرحلة كلها ، ومصائر المرتحلين جميعا .. وتلوح طلائع المعركة الكبرى التى لا تهدأ لحظة طوال الرحلة ، بين هذا العدو الجاهر بالعداوة ، وبنى آدم جميعا . كما تلوح نقط الضعف فى الكائن الانسانى جملة ، ومنافذ الشيطان اليه منها .

ومن ثم يتخذ السياق من المشهد مناسبة للتعقيب الطويل ، بالانذار والتحذير .. تحذير بنى آدم مما جرى لأبويهم من هذا العدو العنيد .. وفى ظل هذا المشهد الذى يقف فيه الشيطان وجها لوجه مع آدم وزوجه أبوى البشر . وفى ظل النتيجة التى انتهى اليها الشوط الأول فى المعركة يتوجه السياق بالخطاب الى بنى آدم ، يذكرهم وينذرهم ، ويحذرهم مصيرا كهذا المصير .

ولا بد أن نلحظ أن مشهد العرى بعد ارتكاب المحظور ، والخصف من ورق الجنة ، ثم هذا التعقيب بتذكير بنى آدم بنعمة الله فى انزال اللباس الذى يوارى سوآتهم والرياش التى يتزينون به ، وتحذيرهم من فتنة الشيطان لهم لينزع عنهم لباسهم وريشهم كما نزعه عن أبويهم .. لا بد أن نلحظ أن ذكر هذه الحلقة من القصة والتعقيب عليها على هذا النحو انما يواجه حالة واقعة فى المجتمع الجاهلى العربى المشرك . حيث كانوا تحت أساطير وتقاليد معينة يطوفون بالبيت عرايا ، ويحرمون أنواعا من الثياب ، وأنواعا من الطعام فى فترة الحج . ويزعمون أن هذا من شرع الله ، وأن الله قد حرم عليهم هذا الذى يحرمونه على أنفسهم .. ومن ثم يجىء فى استعراض قصة البشرية ، وفى التعقيب عليها ما يناسب ويواجه هذه الحالة الواقعية فى الجاهلية .. وفى كل جاهلية فى الحقيقة .. أليست سمة كل جاهلية هى التعرى والكشف وقلة الحياء من الله وقلة التقوى ؟.

وهذا يدلنا على سمة من سمات المنهج القرآنى جديرة بالتأمل .. انه حتى القصص فى القرآن لا يسرد الا لمواجهة حالة واقعة بالفعل . ولأنه يواجه - فى كل مرة - حالة معينة ، فان الحقيقة التى تذكر منه والحلقة التى تعرض فى موضع من المواضع ، تعرض بقدر الحالة الواقعة التى يواجهها النص حينذاك وفى جوها .

أن المنهج القرآنى لا يعرض شيئا لا تستدعيه حالة واقعة .. انه لايعرف اختزان المعلومات والاحكام - ولا حتى القصص - الى أن يجىء وقت الحاجة الواقعة اليها ..

والآن - وقبل ان تنطلق القافلة فى طريقها ، وقبل ان يواجهها الرسل بالهدى ، وقبل ان يفصل السياق كيف تحركت العقيدة مع التاريخ البشرى

بعد آدم وزوجه وتجربتهما الاولى ‥ الآن يبادر بتصوير مشهد النهاية ، نهاية المرحلة الكبرى ، وذلك على طريقة القرآن الغالبة فى عرض الرحلة بشطريها فى دار الابتلاء وفى دار الجزاء ، كأنما هى رحله متصلة ممدودة ٠

وهنا نجد أطول مشهد من مشاهد القيامة ، وأكثرها تفصيلا ، وأحفلها بالمناظر المتتابعة والحوار المتنوع ‥ وموقعه فى السورة تعقيبا على قصة آدم وخروجه من الجنة باغواء ابليس له ولزوجه ، وتحذير الله لأبنائه أن يفتنهم الشيطان كما أخرج أبويهم من الجنة ، واخبارهم بأنه سيرسل اليهم رسلا يقصون عليهم آياته ‥ موقعه كذلك يجعله مصداقا لما ينبىء به أولئك الرسل ٠ فاذا الذين أطاعوا الشيطان قد حرموا العودة الى الجنة ، وفتنوا عنها كما أخرج الشيطان أبويهم منها ، واذا الذين خالفوا الشيطان وأطاعوا الله قد ردوا الى الجنة ، ونودوا : ((أن لكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)) ‥ فعاد المغتربون الى دار النعيم !!

والسياق يتخذ من هذا المشهد مناسبة للتعقيب بالانذار والتذكير ، وتحذير الذين يواجهون القرآن بالتكذيب ، ويطلبون الخوارق لتصديقه ، من سوء المصير :

((ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ، هدى ورحمة لقوم يؤمنون ٠ هل ينظرون الى تأويله ؟ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ٠ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ؟ قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون)) ٠

وبعد تلك الرحلة الواسعة الآماد ، من المنشأ الى المعاد ، يقف السياق ليعقب عليها ، مقررا « حقيقة الألوهية » و ((حقيقة الربوبية)) فى مشاهد كونية ، تشهد بهذه الحقيقة ، على طريقة القرآن فى جعل هذا الكون كله مجالا تتجلى فيه هذه الحقيقة بآثارها المبدعة ، العميقة الايحاء للقلب البشرى حين يستقبلها بالحس المفتوح والبصيرة المستنيرة ٠ وهدف هذه الرحلة الاساسى فى مشاهد الكون وأسراره هو تجلية الحقيقة الاعتقادية الاساسية : وهى أن هذا الكون بجملته يدين بالعبودية لله وحده ، فالله هو ربه وحاكمه ٠ فأولى بالانسان ان لا يكون نشازا فى لحن الوجود المؤمن ، وألا يشذ عن العبودية لرب هذا الكون الذى له الخلق والامر ‥ وهو رب العالمين ٠

((ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ٠ ألا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين ٠ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ‥ انه لا يحب المعتدين ٠ ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها ،

وادعوه خوفا وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين ٠ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت . فانزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ٠ كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ٠ والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا٠ كذلك نصرف الايات لقوم يشكرون)) ٠

والآن تمضى الرحلة ، وتجرى القصة ، ويبرز الموكب الايمانى الجليل ، يهتف بالبشرية الضالة ، يذكرها وينذرها ، ويحذرها سوء المصير ٠ والبشرية الضالة تلوى وتعاند ، وتواجه الدعوة الخيرة بالعناد والتمرد ، ثم بالطغيان والبطش ٠٠ ويتولى الله سبحانه المعركة بعد أن يؤدى الرسل واجبهم من التذكير والانذار ، فيقابلوا من قومهم بالتكذيب والاعراض ، ثم بالبطش والايذاء ٠ وبعد ان يفاصلوا قومهم على العقيدة ، ويختاروا الله وحده ويدعوا له الأمر كله ٠

ويعرض السياق قصة نوح ، وقصة هود ، وقصة صالح ، وقصة لوط ، وقصة شعيب ٠٠ مع أقوامهم ، وهم يعرضون عليهم حقيقة واحدة لا تتبدل : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ٠٠ ويجادلهم قومهم فى افراد الله سبحانه بالألوهية ، ويستنكرون أن تكون لله وحده الربوبية ٠ كما يجادلونهم فى ارسال الله بشرا من الناس بالرسالة ! ويجادل بعضهم فى أن يتعرض الدين لشؤون الحياة الدنيا ، ويتحكم فى التعاملات المالية والتجارية ! ــ وذلك كما يحاول اليوم ناس من الجاهلية الحاضرة فى هذه القضية بعينها بعد عشرات القرون ، ويسمون هذا الجدل الجاهلى القديم تحررا ((وتقدمية)) !ــ ويعرض السياق مصارع المكذبين فى نهاية كل قصة ٠

ويلحظ المتتبع لسياق القصص كله فى السورة أن كل رسول يقول لقومه قولة واحدة : ((يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره)) ٠ ويتقدم لهم بالحقيقة التى استحفظه عليها ربه تقدم الناصح المخلص ، المشفق على قومه مما يراه من العاقبة التى تتربص بهم وهم عنها غافلون ٠ ولكنهم لا يقدرون نصح رسولهم لهم ، ولا يتدبرون عاقبة أمرهم ، ولا يستشعرون عمق الاخلاص الذى يحمله قلب الرسول ، وعمق التجرد من كل مصلحة ، وعمق الاحساس بضخامة التبعة ٠٠

ويكفى أن نثبت هنا ما ورد عن قصة نوح ــ أول القصص ــ وما ورد عن قصة هود ٠

* « لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ٠ قال الملأ من قومه انا لنراك فى

ضلال مبين • قال : يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين • أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون • أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟ فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا قوما عمين)) •

* « وان عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة فاذكروا « آلاء » الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد أباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا انى معكم من المنتظرين ، فأنجيناه والذين معه رحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » •

نحن مع موكب الايمان •• وهذه علائمه •• وهذه هى معالم طريقه •• وهو يواجه البشرية فى رحلتها الطويلة على هذا الكوكب الأرضى •• يواجهها كلما التوت بها الطريق ، وكلما انحرفت عن صراط الله المستقيم ، وكلما تفرقت بها السبل • تحت ضغط الشهوات ، التى يقودها الشيطان من خطامها ، محاولا أن يرضى حقده ، وأن ينفذ وعيده ، وأن يمضى ببنى آدم من خطاه هذه الشهوات الى جهنم ، فاذا الموكب الكريم يواجه البشرية بالهدى ، ويلوح لها بالنور ، ويستروح بها ريح الجنة ، ويحذرها لفحات السموم ، ونزعات الشيطان الرجيم ، عدوها القديم ••

•• انه مشهد رائع •• مشهد الصراع العميق ، فى خضم الحياة على طول الطريق ••

ان التاريخ البشرى يمضى فى تشابك معقد كل التعقيد •• ان هذا الكائن المزدوج الطبيعة ، المعقد التركيب •• الذى يتألف كيانه من أبعد عنصرين يؤلف بينهما قدرة الله وقدره •• عنصر الطين الذى نشأ منه ، وعنصر النفخة من روح الله ، التى جعلت من هذا الطين انسانا •• ان هذا الكائن ليمضى فى تاريخه مع عوامل متشابكة كل التشابك ، معقدة كل التعقيد •• يمضى بطبيعته هذه يتعامل مع تلك الآفاق والعوالم التى أسلفنا فى قصة آدم الحديث عنها •• يتعامل مع الحقيقة الالهية : مشيئتها وقدرها ، وقدرتها وجبروتها ، ورحمتها

وفضلها •• الخ ••• ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته •• ويتعامل مع ابليس وقبيله •• ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه وسنن الله فيه •• ويتعامل مع الأحياء في هذه الارض •• ويتعامل مع بعضه البعض •• يتعامل مع هذه الآفاق وهذه العوالم بطبيعته تلك ، وباستعداداته المتوافقة والمتعارضة مع هذه الآفاق والعوالم ••

وفي هذا الخضم المتشابك من العلاقات والروابط ، يجرى تاريخه •• ومن القوة في كيانه والضعف • ومن التقوى والهدى • ومن الالتقاء بعالم الغيب وعالم الشهود • ومن التعامل مع العناصر المادية في الكون والقوى الروحية ، ومن التعامل مع قدر الله في النهاية •• من هذا كله يتكون تاريخه •• وفي ضوء هذا التعقيد الشديد يفسر تاريخه •

والذين يفسرون التاريخ الانساني تفسيرا « اقتصاديا » أو « سياسيا » • والذين يفسرونه تفسيرا « بيولوجيا » • والذين يفسرونه تفسيرا « روحيا » أو ((نفيا)) • والذين يفسرونه تفسيرا ((عقليا » ••• كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة الى جانب واحد من جوانب العوامل المتشابكة ، والعوالم المتباعدة ، التي يتعامل معها الانسان ، ويتألف من تعامله معها تاريخه •• والتفسير الاسلامي للتاريخ هو وحده الذي يلم بهذا الخضم الواسع ، ويحيط به ، وينظر الى التاريخ الانساني من خلاله •

ونحن هنا أمام مشاهد صادقة من هذا الخضم •• لقد شهدنا مشهد النشأة البشرية ، وقد تجمعت في المشهد كل العوالم والآفاق والعناصر — الظاهرة والخفية — التي يتعامل معها هذا الكائن منذ اللحظة الاولى •• ولقد شهدنا هذا الكائن باستعداداته الاساسية •• شهدنا تكريمه في الملأ الأعلى واسجاد الملائكة له ، والبارىء العظيم يعلن ميلاده •• وشهدنا ضعفه بعد ذلك وكيف قاده منه عدوه •• وشهدنا مهبطه الى الارض •• وانطلاقه في التعامل مع عناصرها ونواميسها الكونية ••

ولقد شهدناه يهبط الى هذه الارض مؤمنا بربه ، مستغفرا لذنبه ، مأخوذا عليه عهد الخلافة : أن يتبع ما يأتيه من ربه ولا يتبع الشيطان ولا الهوى مزودا بتلك التجربة الأولى في حياته •

ثم مضى به الزمن ، وتقاذفته الامواج في الخضم ، وتفاعلت تلك العوامل المعقدة المتشابكة في كيانه ذاته وفي الوجود من حوله • تفاعلت في واقعه وفي ضميره • ثم ها نحن أولاء في هذا الدرس نشهد كيف صارت به هذه العوامل المعقدة المتشابكة الى الجاهلية !!!

انه ينسى ·· وقد نسى ·· انه يضعف ·· وقد ضعف ·· ان الشيطان يغلبه ·· وقد غلبه ·· ولا بد من الانقاذ مرة أخرى !!!

لقد هبط الى هذه الارض مهتديا تائبا موحدا ·· ولكن ها نحن أولا نلتقى به ضالا مفتريا مشركا ·!·!

لقد تقاذفته الامواج فى الخضم ·· ولكن هنالك معلما فى طريقه ·· هنالك الرسالة ترده الى ربه · فمن رحمة ربه به أن لا يتركه وحده ·

وها نحن أولاء فى هذه السورة نلتقى بموكب الايمان ، يرفع أعـــلامه رسل الله الكرام : نوح · وهود · وصالح · ولوط · وشعيب · وموسى · ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ·· ونشهد كيف يحاول هذا الرهط الكريم ـ بتوجيه الله وتعليمه ـ انقاذ الركب البشرى من الهاوية التى يقوده اليها الشيطان وأعوانه من شياطين الانس المستكبرين عن الحق فى كل زمان · كما نشهد مواقف الصراع بين الهدى والضلال · وبين الحق والباطل ، وبين الرسل الكرام وشياطين الجن والانس ·· ثم نشهد مصارع المكذبين فى نهاية كل مرحلة ، ونجاة المؤمنين ، بعد الانذار والتذكير ··

والقصص فى القرآن لا يتبع دائما ذلك الخط التاريخى · ولكنه فى هذه السورة يتبع هذا الخط · ذلك أنه يعرض سير الركب البشرى منذ النشـأة الأولى ، ويعرض موكب الايمان وهو يحاول هداية هذا الركب واستنقاذه كلما ضل تماما عن معالم الطريق ، وقاده الشـــيطان كلية الى المهلكة ليسلمه فى نهايتها الى الجحيم !

وفى وقفتنا أمام المشهد الكلى الرائع نلمح جملة معالم نلخصها هنا قبل مواجهة النصوص :

« ان البشرية تبدأ طريقها مهتدية مؤمنة موحدة ·· ثم تنحـــرف الى جاهلية ضالة مشركة ·· وهنا يأتيها رسول بذات الحقيقة التى كانت عليها قبل أن تضل وتشرك · فيهلك من يهلك · ويحيا من يحيا · والذين يحبون هم الذين آبوا الى الحقيقة الايمانية الواحدة · هم الذين علموا ان لهم الهـــا واحدا ، واستسلموا بكليتهم الى هذا الاله الواحد ·· هم الذين سمعوا قـــول رسولهم لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ·· فهى حقيقة واحدة يقوم عليها دين الله كله ، ويتعاقب بها الرسل جميعا على مدار التاريخ ·· فكل رسول يجىء انما يقول هذه الكلمة لقومه الذين اجتالهم الشيطان عنها ، فنسوها وضلوا عنها ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى ـ على اختلاف هذه الآلهة

فى الجاهليات المختلفة ـ وعلى أساسها تدور المعركة بين الحق والباطل ٠٠ وعلى أساسها يأخذ الله المكذبين بها وينجى المؤمنين ٠٠ والسياق القرآنى يوحـد الالفاظ التى عبر بها جميع الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ مع اختلاف لغاتهم ٠٠ يوحد حكاية ما قالوه ، ويوحد ترجمته فى نص واحد : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره » ٠٠ وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السماوية ـ على مدار التاريخ ـ حتى فى صورتها اللفظية ٠ لأن هذه العبـارة دقيقة فى التعبير عن حقيقة العقيدة ، ولأن عرضها فى السياق بذاتها يصور وحـدة العقيدة تصويرا حسيا ٠٠ ولهذا كله دلالته فى تقرير المنهج القرآنى عن تاريخ العقيدة ٠

وفى ضوء هذا التقرير يتبين مدى مفارقة منهج « الأديان المقارنة » مـع المنهج القرآنى ٠٠ يتبين أنه لم يكن هناك تدرج ولا ((تطور)) فى مفهـوم العقيدة الاساسى ، الذى جاءت به الرسل كلها من عنـد الله ، وأن الذين يتحدثون عن «تطور» المعتقدات وتدرجها ، ويدمجون العقيدة الربانية فى هـذا التدرج ((والتطور)) يقولون غير ما يقوله الله سبحانه ! فهذه العقيدة ـ كما نرى فى القرآن الكريم ـ جاءت دائما بحقيقة واحدة ٠ وحكيت العبارة عنهـا فى ألفاظ بعينها : « يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره » وهذا الاله الذى دعا الرسل كلهم اليه هو « رب العالمين » ٠٠ الذى يحاسب الناس فى يـوم عظيم ٠٠ فلم يكن هنالك رسول من عند الله دعا الى رب قبيلة ، أو رب أمة ، أو رب جنس ٠٠ كما أنه لم يكن هناك رسول من عند الله دعا الى الهين اثنين أو آلهة متعددة ٠٠ وكذلك لم يكن هناك رسول من عند الله دعا الى عبـادة طوطمية ، أو نجمية ، أو « أرواحية » أو صنمية ٠٠ ولم يكن هناك دين مـن عند الله ليس فيه عالم آخر ٠٠ كما يزعم من يسمونهم « علماء الأديان » وهم يستعرضون الجاهليات المختلفة ، ثم يزعمون أن معتقداتها كانت هى الديانات التى عرفتها البشرية فى هذه الأزمان ، دون غيرها !

لقد جاءت الرسل ـ رسولا بعد رسول ـ بالتوحيد الخالص ، وبربوبية رب العالمين ! وبالحساب فى يوم الدين ٠٠ ولكن الانحرافات فى خط الاعتقاد ، مع الجاهليات ! الطارئة بعد كل رسالة ، بفعل العوامل المعقدة المتشابكة فى تكوين الانسان ذاته وفى العوالم التى يتعامل معها ٠٠ هذه الانحرافات تمثلت فى صور شتى من المعتقدات الجاهلية ٠٠ هى هذه التى يدرسها « علمـاء الأديان ! » ثم يزعمون أنها الخط الصاعد فى تدرج الديانات وتطورها !

وعلى أية حال فهذا هو قول الله ـ سبحانه ـ وهو أحق أن يتبـع ، وبخاصة ممن يكتبون عن هذا الموضوع فى صدد عرض العقيدة الاسلامية ، أو صدد الدفاع عنها ! أما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، فهم وما هم فيه ٠٠

والله يقص الحق وهو خير الفاصلين ..

* ان كل رسول من الرسل ـ صلوات الله عليهم جميعا ـ قد جاء الى قومه ، بعد انحرافهم عن التوحيد الذى تركهم عليه رسولهم الذى سبقه .. فبنو آدم الأوائل نشأوا موحدين لرب العالمين ـ كما كانت عقيدة آدم وزوجه ـ ثم انحرفوا بفعل العوامل التى أسلفنا ـ حتى اذا جاء نوح ـ عليه السلام ـ دعاهم الى توحيد رب العالمين مرة أخرى . ثم جاء الطوفان فهلك المكذبون ونجا المؤمنون . وعمرت الارض بهؤلاء الموحدين لرب العالمين ـ كما علمهم نوح ـ وبذراريهم . حتى اذا طال عليهم الأمد انحرفوا الى الجاهلية كما انحرف من كان قبلهم .. حتى اذا جاء هود أهلك المكذبون بالريح العقيم .. ثم تكررت القصة .. وهكذا .

ولقد أرسل كل رسول من هؤلاء الى قومه . فقال : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » .. وقال كل رسول لقومه : « انى لكم ناصح أمين » ، معبرا عن ثقل التبعة ، وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية فى الدنيا والآخرة ، ورغبته فى هداية قومه ، وهو منهم وهم منه .. وفى كل مرة وقف « الملأ » من علية القوم وكبرائهم فى وجه كلمة الحق هذه ، ورفضوا الاستسلام لله رب العالمين . وأبوا أن تكون العبودية والدينونة لله وحده ـ وهى القضية التى قامت عليها الرسالات كلها وقام عليها دين الله كله ـ وهنا يصدع كل رسول بالحق فى وجه الطاغوت .. ثم ينقسم قومه الى أمتين متفاصلتين على أساس العقيدة . وتنبت وشيجة القومية ووشيجة القرابة العائلية ، لتقوم وشيجة العقيدة وحدها . واذا « القوم » الواحد ، أمتان متفاصلتان لا قربى بينهما ولا علاقة !.. وعندئذ يجىء الفتح .. ويفصل الله بين الأمة المهتدية والأمة الضالة ، ويأخذ المكذبين المستكبرين ، وينجى الطائعين المستسلمين .. وما جرت سنة الله قط بفتح ولا فصل قبل أن ينقسم القوم الواحد الى أمتين على أساس العقيدة ، وقبل أن يجهر أصحاب العقيدة بعبوديتهم لله وحده .. وقبل أن يثبتوا فى وجه الطاغوت بايمانهم . وقبل أن يعلنوا مفاصلتهم لقومهم .. وهذا ما يشهد به تاريخ دعوة الله على مدار التاريخ .

* ان التركيز فى كل رسالة كان على أمر واحد : هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ـ رب العالمين ـ ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ، ونزع السلطان كله من الطواغيت التى تدعيه ، هو القاعدة التى لا يقوم شىء صالح بدونها فى حياة البشر . ولم يذكر القرآن الا قليلا من التفصيلات بعد هذه القاعدة الاساسية المشتركة فى الرسالات جميعا . ذلك أن كل تفصيل ـ بعد قاعدة العقيدة ـ فى الدين انما يرجع الى هذه القاعدة ولا يخرج عنها . وأهمية هذه القاعدة فى ميزان الله هى التى جعلت المنهج القرآنى يبرزها هكذا ،

ويفردها بالذكر فى استعراض موكب الايمان ، بل فى القرآن كله ٠٠ ولنذكر — كما قلنا فى التعريف بسورة الأنعام ، أن هذا كان هو موضوع القرآن المكى كله ، كما كان هو موضوع القرآن المدنى كلما عرضت مناسبة لتشريح أو توجيه ٠

ان لهذا الدين « حقيقة » ، و « منهجا » لعرض هذه الحقيقة ٠ و « المنهج » فى هذا الدين لا يقل أصالة ولا ضرورة عن ((الحقيقة)) فيه ٠٠ وعلينا أن نعرف الحقيقة الاساسية التى جاء بها هذا الدين ٠ كما أن علينا ان نلتزم المنهج الذى عرض به هذه الحقيقة ٠٠ وفى هذا المنهج ابراز وافراد وتكرار وتوكيد لحقيقة التوحيد للألوهية ٠٠ ومن هنا ذلك التوكيد والتكرار والابراز والافراد لهذه القاعدة فى قصص هذه السورة ٠٠

* ان هذا القصص يصور طبيعة الايمان وطبيعة الكفر فى نفوس البشر ، ويعرض نموذجا مكررا للقلوب المستعدة للايمان ، ونموذجا مكررا للقلوب المستعدة للكفر أيضا ٠٠ ان الذين آمنوا بكل رسول لم يكن فى قلوبهم الاستكبار عن الاستسلام لله والطاعة لرسوله ، ولم يعجبوا أن يختار الله واحدا منهم ليبلغهم وينذرهم ٠ فأما الذين كفروا بكل رسول فقد كانوا هم الذين أخذتهم العزة بالاثم ، فاستكبروا أن ينزلوا عن السلطان المغتصب فى أيديهم لله صاحب الخلق فى قومهم ٠٠ ومن هنا نعرف عقدة هذا الدين ٠٠ انها عقدة الحاكمية والسلطان ٠٠ فالملأ كانوا يحسون دائما ما فى قول رسولهم لهم : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ٠٠ « ولكنى رسول من رب العالمين » ٠٠ كانوا يحسون أن الألوهية الواحدة والربوبية الشاملة تعنى — أول ما تعنى — نزع السلطان المغتصب من أيديهم ، ورده الى صاحبه الشرعى ٠٠ الى الله رب العالمين ٠٠ وهذا ما كانوا يقاومون فى سبيله حتى يكونوا من الهالكين ٠ وقد بلغ من عقدة السلطان فى نفوسهم الا ينتفع اللاحق منهم بالغابر ، وأن يسلك طريقه الى الهلاك ، كما يسلك طريقه الى جهنم كذلك !٠٠ ان مصارع المكذبين — كما يعرضها هذا القصص — تجرى على سنة لا تتبدل : نسيان لآيات الله وانحراف عن طريقه ٠ انذار من الله للغافلين على يد رسول ٠ استكبار عن العبودية لله وحده والخضوع لرب العالمين ٠ اغترار بالرخاء واستهزاء بالانذار واستعجال للعذاب ٠ طغيان وتهديد وايذاء للمؤمنين ٠ ثبات من المؤمنين ومفاصلة على العقيدة ٠٠ ثم المصرع الذى يأتى وفق سنة الله على مدار التاريخ ٠

* وأخيرا فان طاغوت الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق ٠٠ وحتى حين يريد الحق أن يعيش فى عزلة عن الباطل — تاركا مصيرهما لفتح الله وقضائه — فان الباطل لا يقبل منه هذا الموقف ٠ بل يتابع الحق وينازله ويطارده ٠٠ ولقد قال شعيب لقومه : « وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى

أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .. ولكنهم لم يقبلوا منه هذه الخطة ، ولم يطيقوا رؤية الحق يعيش ، ولا رؤية جماعة تدين لله وحده وتخرج من سلطان الطواغيت : « قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » .. وهنا صدع شعيب بالحق رافضا هذا الذى يعرضه عليهم الطواغيت : « قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها » ..

ذلك ليعلم أصحاب الدعوة الى الله أن المعركة مع الطواغيت مفروضة عليهم فرضا ، وأنه لا يجديهم فتيلا أن يتقوها ويتجنبوها . فالطواغيت لن تتركهم الا أن يتركوا دينهم كلية ، ويعودوا الى ملة الطواغيت بعد اذ نجاهم الله منها . وقد نجاهم الله منها بمجرد أن خلعت قلوبهم عنها العبودية للطواغيت ودانت بالعبودية لله وحده .. فلا مفر من خوض المعركة ، والصبر عليها ، وانتظار فتح الله بعد المفاصلة فيها ، وأن يقولوا مع شعيب : « على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .. ثم تجرى سنة الله بما جرت به كل مرة على مدار التاريخ .

ان موكب الايمان الذى يسير فى مقدمته رسل الله الكرام ، مسبوق فى السياق بموكب الايمان فى الكون كله . فى الفقرة السابقة مباشرة : « ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ..

وان الدينونة لهذا الاله ، الذى خلق السماوات والارض ، والذى استوى على العرش ، والذى يحرك الليل ليطلب النهار ، والذى تجرى الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، والذى له الخلق والامر . ان الدينونة لهذا الاله وحده هى التى يدعو اليها الرسل كافة . هى التى يدعون اليها البشرية كلها ، كلما قعد لها الشيطان على صراط الله فأضلها عنه ، وردها الى الجاهلية التى تتبدى فى صور شتى ، ولكنها كلها تتسم باشراك غير الله معه فى الربوبية .

والمنهج القرآنى يكثر من الربط بين عبودية هذا الكون لله ، ودعوة البشر الى الاتساق مع الكون الذى يعيشون فيه ، والاسلام لله الذى أسلم له الكون كله ، والذى يتحرك مسخرا بأمره . ذلك أن هذا الايقاع بهذه الحقيقة الكونية كفيل بأن يهز القلب البشرى هزا ، وأن يستحثه من داخله على أن ينخرط فى سلك العبادة المستسلمة ، فلا يكون هو وحده نشازا فى نظام الوجود كله .

ان الرسل الكرام لا يدعون البشرية لأمر شاذ ، انما يدعونها الى الأصل الذى يقوم عليه الوجود كله ، والى الحقيقة المركوزة فى ضمير هذا الوجود ·· وهى ذاتها الحقيقة المركوزة فى فطرة البشر ، والتى تهتف بها فطرتهم حين لاتلوى بها الشهوات ، ولا يقودها الشيطان بعيدا عن حقيقتها الاصيلة ··

وهذه هي اللمسة المستفادة من تتابع السياق القرآنى فى السورة على النحو الذى تتابع به ·

« لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم · قال الملأ من قومه : انا لنراك فى ضلال مبين · قال : يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين · أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون · أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون · فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا قوما عمين » ··

تعرض القصة هنا باختصار ، ليست فيها التفصيلات التى ترد فى مواضع أخرى من القرآن فى سياق يتطلب تلك التفصيلات ، كالذى جاء فى سورة هود ، وفى سورة نوح ·· ان الهدف هنا هو تصوير تلك المعالم التى تحدثنا عنها آنفا ·· طبيعة العقيدة ·· طريقة التبليغ · طبيعة استقبال القوم لها · حقيقة مشاعر الرسول · تحقق النذير ·· لذلك نذكر من القصة فحسب تلك الحلقات المحققة لتلك المعالم ، على منهج القصص القرآنى ·

« لقد أرسلنا نوحا الى قومه » ··

على سنة الله فى ارسال كل رسول من قومه ، وبلسانهم ، تأليفا لقلوب الذين لم تفسد فطرتهم ، وتيسيرا على البشر فى التفاهم والتعارف · وان كان الذين فسدت فطرتهم يعجبون من هذه السنة ، ولا يستجيبون ، ويستكبرون ان يؤمنوا لبشر مثلهم ، ويطلبون أن تبلغهم الملائكة ! وان هى الا تعلة · وما كانوا ليستجيبوا الى الهدى ، مهما جاءهم من أى طريق ·

لقد أرسلنا نوحا الى قومه ، فخاطبهم بتلك الكلمة الواحدة التى جاء بها كل رسول : « فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » ·

فهى الكلمة التى لا تتبدل ، وهى قاعدة هذه العقيدة التى لا توجد الا بها ، وهى عماد الحياة الانسانية الذى لا تقوم على غيره ، وهى ضمان وحدة

الوجهة ووحدة الهدف ووحدة الرباط . وهى الكفيل بتحرر البشر من العبودية للهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد .

ان دين الله منهج للحياة ، قاعدته أن يكون السلطان كله فى حياة الناس كلها لله . وهذا هو معنى عبادة الله وحده ، ومعنى ألا يكون للناس اله غيره .. والسلطان يتمثل فى الاعتقاد بربوبيته لهذا الوجود وانشائه وتدبيره بقدرة الله وقدره . كما يتمثل فى الاعتقاد بربوبيته للانسان وانشائه وتدبير أمره بقدرة الله وقدره . وعلى نفس المستوى يتمثل فى الاعتقاد بربوبية الله لهذا الانسان فى حياته العملية الواقعية ، وقيامها على شريعته وأمره ، تمثله فى التقدم بشعائر العبادة له وحده .. كلها حزمة واحدة .. غير قابلة للتجزئة . والا فهو الشرك ، وهو عبادة غير الله معه ، أو من دونه .

ولقد قال نوح لقومه هذه القولة الواحدة ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بها فى اشفاق الأخ الناصح لاخوانه ، وفى صدق الرائد الناصح لأهله :

« انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

وهنا نرى أن ديانة نوح .. أقدم الديانات .. كانت فيها عقيدة الآخرة .عقيدة الحساب والجزاء فى يوم عظيم ، يخاف نوح على قومه ما ينتظرهم فيه من عذاب .. وهكذا تتبين مفارقة منهج الله وتقريره فى شأن العقيدة ، ومناهج الخابطين فى الظلام من « علماء الأديان » وأتباعهم الغافلين عن منهج القرآن .

فكيف كان استقبال المنحرفين الضالين من قوم نوح لهذه الدعوة الخالصة الواضحة المستقيمة ؟

« قال الملأ من قومه : انا لنراك فى ضلال مبين » !

كما قال مشركو العرب لمحمد — صلى الله عليه وسلم — انه صبأ ، ورجع عن دين ابراهيم !

وهكذا يبلغ الضال من الضلال أن يحسب من يدعوه الى الهدى هو الضال !

بل هكذا يبلغ التبجح الوقح بعد ما يبلغ المسخ فى الفطر ! .. هكذا تنقلب الموازين ، وتبطل الضوابط ، ويحكم الهوى ، ما دام أن الميزان ليس هو ميزان الله الذى لا ينحرف ولا يميل .

وماذا تقول الجاهلية اليوم عن المهتدين بهدى الله ؟ انها تسميهم الضالين، وتعد من يهتدى منهم ويرجع بالرضى والقبول ٠٠ أجل من يهتدى الى المستنقع الكريه ، والى الوحل الذى تتمرغ الجاهلية فيه !

وماذا تقول الجاهلية اليوم للفتاة التى لا تكشف عن لحمها ؟ وماذا تقول للفتى الذى يستقذر اللحم الرخيص ؟ انها تسمى ترفعهما هذا ونظافتهما وتطهرهما ((رجعية)) وتخلفا وجمودا وريفية ! وتحاول الجاهلية بكل ماتملكه من وسائل التوجيه والاعلام أن تغرق ترفعهما ونظافتهما وتطهرهما فى الوحل الذى تتمرغ فيه فى المستنقع الكريه ٠

وماذا تقول الجاهلية لمن ترتفع اهتماماته عن جنون مباريات الكرة ، وجنون الافلام والسينما والتليفزيون وما اليه ، وجنون الرقص والحفلات الفارغة والملاهى ؟ انها تقول عنه : انه ((جامد)) ٠ ومغلق على نفسه ، وتنقصه المرونة والثقافة ! وتحاول ان تجره الى تفاهة من هذه ينفق فيها حياته ٠٠

ان الجاهلية هى الجاهلية ٠٠ فلا تتغير الا الاشكال والظروف !

وينفى نوح عن نفسه الضلال ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومنبعها ، فهو لم يبتدعها من أوهامه وأهوائه ٠ انما هو رسول من رب العالمين ٠ يحمل لهم الرسالة ٠ ومعها النصح والأمانة ٠ ويعلم من الله ما لا يعلمون فهو يجده فى نفسه ، وهو موصول به ، وهم عنه محجوبون :

« قال : يا قوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين ٠ أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ٠٠

ونلمح هنا فجوة فى السياق ٠٠ فكأنما عجبوا أن يختار الله رسولا من البشر من بينهم ، يحمله رسالة الى قومه ، وأن يجد هذا الرسول فى نفسه علما عن ربه لا يجده الآخرون ، الذين لم يختاروا هذا الاختيار ٠٠ هذه الفجوة فى السياق يدل عليها ما بعدها :

((أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون ؟)) ٠٠

وما من عجب فى هذا الاختيار ٠ فهذا الكائن الانسانى شأنه كله عجيب ٠٠ انه يتعامل مع العوالم كلها ، ويتصل بربه بما ركب فى طبيعته من نفخة الله فيه من روحه ٠٠ فاذا اختار الله من بينه رسوله ـ والله أعلم حيث

يجعل رسالته ـ فانما يتلقى هذا المختار عنه ، بما أودع فى كيانه من امكانية الاتصال به والتلقى عنه ، بذلك السر اللطيف الذى به معنى الانسان ، والذى هو مناط التكريم العلوى لهذا الكائن العجيب التكوين ٠

ويكشف لهم نوح عن هدف الرسالة :
((لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون)) ٠٠٠

فهو الانذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا فى النهايه برحمة الله ٠٠ ولا شيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ، ولا هدف ، الا هذا الهدف السامى النبيل ٠٠

ولكن الفطرة حين تبلغ حدا معينا من الفساد ، لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر ، ولا ينفع معها الانذار ولا التذكير :

((فكذبوه ، فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، واغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، انهم كانوا قوما عمين)) ٠٠

ولقد رأينا من عماهم عن الهدى والنصح المخلص والنذير ٠٠ فبعماهم هذا كذبوا ٠٠ وبعماهم لاقوا هذا المصير ٠

***

وتمضى عجلة التاريخ ، ويمضى معها السياق ، فاذا نحن أمام عاد قوم هود.

« والى عاد أخاهم هودا ٠ قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنك من الكاذبين ٠ قال : يا قوم ليس فى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ٠ أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين ٠ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ٠ قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ٠ قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ٠ انى معكم من المنتظرين ٠ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين » ٠

انها نفس الرسالة ، ونفس الحوار ، ونفس العاقبة ٠٠ انها السنة الماضية ، والناموس الجارى ، والقانون الواحد ٠٠

ان قوم عاد هؤلاء من ذرارى نوح والذين نجوا معه فى السفينة ، وقيل : كان عددهم ثلاثة عشر ٠٠ وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين فى السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام ـ وهو الاسلام ـ كانوا يعبدون الله وحده ، ما لهم من اله غيره ، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين ، فهكذا قال لهم نوح : « ولكنى رسول من رب العالمين » ٠٠ فلما طال عليهم الأمد ، وتفرقوا فى الأرض ، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية ، وقادهم من شهواتهم ـ وفى أولها شهوة الملك وشهوات المتاع ـ وفق الهوى لا وفق شريعة الله ، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم نبيهم الى عبادة الله وحده من جديد :

((والى عاد أخاهم هودا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ٠ أفلا تتقون ؟)) ٠٠

القولة التى قالها نوح من قبله ، والتى كـذب بها قومه ، فأصـابهم ما أصابهم واستخلف الله عادا من بعدهم ـ ولا يذكر هنا أين كان موطنهم ، وفى سورة أخرى نعلم أنهم كانوا بالأحقاف ، وهى الكثبان المرتفعة على حدود اليمن ما بين اليمامة وحضرموت ـ وقد ساروا فى الطريق الذى سار فيه من قبل قوم نوح ، فلم يتذكروا ولم يتدبروا ما حل بمن ساروا فى هذا الطريق ، لذلك يضيف هود فى خطابه لهم قوله : ((أفلا تتقون ؟)) ٠٠ استنكارا لقلة خوفهم من الله ومن ذلك المصير المرهوب ٠

وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه ان يدعوهم واحـد من قومهم الى الهدى ، وأن يستنكر منهم قلة التقوى ، ورأوا فيه سفاهة وحماقة ، وتجاوزا للحد ، وسوء تقدير للمقام ! فانطلقوا يتهمون نبيهم بالسفاهة وبالكذب جميعا فى غير تحرج ولا حياء :

((قال الملأ الذين كفروا من قومه : انا لنراك فى سفاهة ، وانا لنظنـك من الكاذبين)) ٠٠

هكذا جزافا بلا ترو ولا تدبر ولا دليل !

((قال : يا قوم ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ٠ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين)) ٠٠

لقد نفى عن نفسه السفاهة فى بساطة وصدق ـ كما نفى عن نفسـه الضلالة ـ وقد كشف لهم ـ كما كشف نوح من قبل ـ عن مصدر رسالته وهدفها ، وعن نصحه لهم فيها وأمانته فى تبليغها ٠ وقال لهم ذلك كله فى مودة الناصح وفى صدق الأمين ٠

ولا بد أن يكون القوم قد عجبوا – كما عجب قوم نوح من قبل – من هذا الاختيار ، ومن تلك الرسالة ، فاذا هود يكرر لهم ما قاله نوح من قبل ، كأنما كلاهما روح واحدة فى شخصين :

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ » ..

ثم يزيد عليه ما يمليه واقعهم .. واقع استخلافهم فى الارض من بعد قوم نوح ، واعطائهم قوة فى الأجسام وضخامة بحكم نشأتهم الجبلية ، واعطائهم كذلك السلطان والسيطرة :

((واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة . فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون)) ..

فلقد كان من حق هذا الاستخلاف ، وهذه القوة والبسطة ، أن تستوجب شكر النعمة ، والحذر من البطر ، واتقاء مصير الغابرين . وهم لم يأخذوا على الله عهدا : أن تتوقف سنته التى لا تتبدل ، والتى تجرى وفق الناموس المرسوم ، بقدر معلوم . وذكر النعم يوحى بشكرها ، وشكر النعمة تتبعه المحافظة على أسبابها ، ومن ثم يكون الفلاح فى الدنيا والآخرة .

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر .. وهكذا أخذت الملأ العزة بالاثم ، واختصروا الجدل ، واستعجلوا العذاب استعجال من يستثقل النصح ، ويهزأ بالانذار :

((قالوا : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)) ..

لكأنما كان يدعوهم الى أمر منكر لا يطيقون الاستماع اليه ، ولا يصبرون على النظر فيه :

« أجئتنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ » ..

انه مشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول . هذا الاستعباد الذى يسلب الانسان خصائص الانسان الاصيلة : حرية التدبر والنظر ، وحرية التفكير والاعتقاد . ويدعه عبدا للعادة والتقليد ، وعبدا للعرف والمألوف ، وعبدا لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور ..

وهكذا استعجل القوم العذاب فرارا من مواجهة الحق ، بل فرارا من تدبر تفاهة الباطل الذى هم له عبيد ، وقالوا لنبيهم الناصح الأمين :

((فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)) !

ومن ثم كان الجواب حاسما وسريعا فى رد الرسول :
((قال : قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب • أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟ فانتظروا ، انى معكم من المنتظرين)) •

لقد أبلغهم العاقبة التى أنبأه بها ربه ، والتى قد حقت عليهم فلم يعد عنها محيص •• انه العذاب الذى لا دافع له ، وغضب الله المصاحب له •• ثم جعل بعد هذا التعجيل لهم بالعذاب الذى استعجلوه ، يكشف لهم عن سخافة معتقداتهم وتصوراتهم :

((أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ؟)) ••

ان ما تعبدون مع الله ليس شيئا ذا حقيقة •• انها مجرد أسماء أطلقتموها أنتم وآباؤكم ، من عند أنفسكم ، لم يشرعها الله ولم يأذن بها ، فما لها اذن من سلطان ولا لكم عليها من برهان •

والتعبير المتكرر فى القرآن : ((وما نزل الله بها من سلطان)) •• هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة •• ان كل كلمة أو شرع او عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال •• ان الفطرة تتلقى هذا كله فى استخفاف ، فاذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت الى الاعماق ، بما فيها من سلطان الله الذى يودعها اياه •

وكم من كلمات براقة ، وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مزوقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين •• ولكنها تتذاوب أمام كلمة من الله ، فيها من سلطانه ــ سبحانه ــ سلطان !

وفى ثقة المطمئن ، وقوة المتمكن ، يواجه هود قومه بالتحدى :

((فانتظروا ، انى معكم من المنتظرين)) ••

ان هذه الثقة هى مناط القوة التى يستشعرها صاحب الدعوة الى الله •• انه على يقين من هزال الباطل وضعفه وخفة وزنه مهما انتفش ومهما استطال • كما أنه على يقين من سلطان الحق الذى معه وقوته بما فيه من سلطان الله •

ولا يطول الانتظار فى السياق :

((فأنجيناه والذين معه برحمة منا ، وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا ، وما كانوا مؤمنين)) ..

فهو المحق الكامل الذى لا يتخلف منه أحد . وهــو ما عبر عنه بقطع الدابر . والدابر هو آخر واحد فى الركب يتبع أدبار القوم !

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين . وتحقق النذير مرة أخرى بعد اذ لم ينفع التذكير ..

***

ويمثل هذان النموذجان بقية القصص بينهما . سواء فى تصوير حقيقة العقيدة الواحدة التى أرسل الله بها رسله جميعا لأبناء آدم ــ كل فى قومه ــ أو فى تلقى الملأ المستكبرين والاتباع المستضعفين لهذه الحقيقة . أو فى وضوح هذه العقيدة وحسمها فى نفوس الرسل وأتباعهم . أو فى روح النصح والرغبة فى هداية قومهم .. ثم فى مفاصلتهم لأقوامهم عندما يتبــين لهم عنــادهم واصرارهم الأخير ثم فى ادارة الله ــ سبحانه ــ للمعركة ، وأخذ المكذبين بعد مفاصلة رسلهم لهم ، والانتهــاء من انذارهم وتذكيرهم . وعتــو المكذبين واصرارهم على ما هم فيه .

وهنا يقف السياق وقفة للتعقيب . يبين فيها سنة الله فى تعامل قدر الله مع الناس حين تجيئهم الرسالة فيكذبون . اذ يأخــذهم أولا بالضراء والبأساء ، لعل هذا يهز قلوبهم الغافية فتستيقظ وتستجيب . فاذا لم تهزهم يد البأس وكلهم الى الرخاء ــ وهو أشد فتنة من البأس ــ حتى تلتبس عليهم سنة الله ، ولا ينتبهوا لها . ثم يأخذهم بعد ذلك بغتة وهم لا يشعرون !..

وبعد بيان هذه السنة يهز قلوبهم بالخطر الذى يتهددهم فى غفلاتهم . فمن يدريهم أن قدر الله يتربص بهم ، ليجرى فيهم سنته تلك ؟ أفلا تهديهم مصارع الغابرين ، وهم فى ديارهم يسكنون ؟

((وما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ، وقالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ! فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون . أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟ أو أمن

أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ؟ أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون • أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون •• تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين • وما وجدنا لاكثرهم من عهد ، وان وجدنا أكثرهم لفاسقين)) ••

***

ثم يمضي السياق يتحدث عن مسائل العقيدة حديثا مباشرا • ويعرض مع الحديث بعض المؤثرات من المشاهد الكونية ومن التحذير من بأس اللـــه وأخذه ، ومن لمس قلوبهم ليتفكروا ويتدبروا فى شأن الرسول ورسالته ••

((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون • وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون • والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملى لهم ، ان كيدى متين ، أو لم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنـــة ، ان هو الا نذير مبين • أو لـــم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض ، وما خلق الله من شيء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ؟ فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون)) ••

ثم يأمر الله رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يعلمهم طبيعة الرسالة وحدود الرسول فيها • وذلك بمناسبة سؤالهم له عن تحديد موعد القيامة التى يخوفهم بها •

((يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟! قل : انما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت فى السماوات والارض ، لا تأتيكم الا بغتة • يسألونك كأنك حفى عنها ! قل : انما علمها عند الله ، ولكن أكثر النــــاس لا يعلمون • قل : لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا ــ الا ما شاء الله ــ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء • ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون)) ••

ثم يصور لهم كيف تنحرف النفس ــ التى أخـــذ اللـــه عليها العهـد الذى أسلفنا ــ عن التوحيد الذى أقرت بـــه فطرتها ، ويســـتنكر تصورات الشرك ومعبوداته ، ويوجــــه رسوله صلى الله عليه وسلم فى نهـــــاية هـــذه الفقرة الى تحديهم وتحـدى آلهتهم العاجزة :

« قل : ادعوا شركاءكم ثم كيــدون فلا تنظرون . ان وليي اللـــه الذى نزل الكتاب وهـــو يتـولى الصـالحين . والذين تدعـــون من دونـه لا يستطيعون نصركم ولا أنفســـهم ينصرون . وان تدعوهم الى الهـــدي لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » ..

ومن هنـــا الى ختام السورة يتجه السياق الى خطـــاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان افتتاحها خطـــابا له ـ كيف يعامل الناس ؟ كيف يمضى بهذه الدعوة ؟ كيف يستعين على متاعب الطريق ؟ كيف يكظـــم غضـــبه وهـو يعانى من نفوس الناس وكيـــدهم ؟ كيف يستمع هـــو والمؤمنون معـــه لهـذا القرآن ؟ كيف يذكر ربـــه ويبقى موصولا بـــه ؟ كما يذكره من عنده فى المـــلأ الأعلى ـ سبحانه ـ .

« خـذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين . وأمـــا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ باللـــه ، انه سميع عليم ، ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون . واذا لم تأتهم بآية قالوا : لولا اجتبيتها ! قـــل : انما أتبع ما يوحى الى من ربى . هـــذا بصائر من ربكم ، وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون. واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصـــتوا لعلكم ترحمون . واذكر ربـك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغـدو والاتصـــال ولا تكن من الغافلين .. ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبـــادته ، ويسبحونه ، وله يسجدون » ..

سور أخرى من القرآن يرد فيها ذكر عـاد ..

١ ـ هـــود (٢) :

« والى عـــاد أخاهم هودا .قال يا قوم اعبدوا اللـــه مالكم من اله غيره

---

(٢) ٥٠ ـ ٦٠ . لقد وردت هذه الآيات فى سياق السورة التى تستعرض حركة العقيدة الاسلامية فى التاريخ البشرى كله ، من لدن نوح ـ عليـــه السـلام ـ الى عهد محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتقرير أنهـــا قامت على حقائق اساسية : وهى الدينونة للـــه وحده بلا شريك ، والعبودية لـه وحده بلا منازع ، والتلقى فى هـــذه الدينونة والعبودية عن رســـل الله وحدهم على مـــدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيـا انمـــا هى دار ابتلاء لا دار جزاء ، وأن الجزاء انما يكون فى الآخرة ، وأن حرية الاختيـــار التى أعطاها الله للانسان ليختار الهدى أو الضلال هى مناط هذا الابتلاء . ولقد جـــاء محمد عليه الصلاة والسلام ، ومعه « كتاب أحكمت آياته =

ان أنتم الا مفترون • يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ، ان أجرى الا على الـــذى فطرنى أفلا تعقلون • ويا قوم استغفروا ربكـم ثـم توبوا اليـــه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قـــوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين • قالوا يا هـــود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومـــا نحن لك بمؤمنين • ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بســـوء قال انى أشهد اللـــه واشهدوا أنى برىء مما تشركون ، من دونه فكيدونى جميعـا ثم لا تنظرون ، انى توكلت على اللـــه ربى وربكم مـا من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم ، فان تولوا فقـــد أبلغتكم ما أرسلت بـه اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شـــيئا ان ربى على كل شىء حفيظ ، ولمـــا جـــاء أمرنا نجينا هـــودا والذين آمنوا معـه برحمة منـا ونجيناهم من عـــذاب غليظ ، وتلك عـاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رســـله واتبعوا أمر كل جبـار عنيد ، وأتبعوا فى هـــذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا أن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هو (٣) •

٢ ـ المؤمنون (٤) :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ، فأرسلنا فيهم رســـولا منهم أن أعبـــدوا اللـه مالكم من اله غيره أفلا تتقون ، وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقـــاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هـــذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منـــه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون ، أيعدكم انكم اذا متـــم وكنتم ترابا وعظـــاما أنكـــم مخرجون • هيهات هيهات لمـــا توعدون ، ان هى الا حياتنا الدنيـــا نموت

= ثم فصلت من لدن حكيم خبير » •• أما مضمون هـــذا الكتاب الاساسى فهو : « ألا تعبدوا الا اللـــه ، اننى لكم منـه نذير وبشير •• وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليـــه يمتعكم متاعا حســـنا الى أجـل مسمى ، ويؤت كل ذى فضـــل فضله ، وان تولوا فانى أخـاف عليكم عـذاب يوم كبير • الى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » •• ولكن تلك لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق •• لقد قالها من قبل نوح وهـــود وصالح وغيرهم من رسل الله الكرام •

(٣) وهنا يعرض لنا القرآن مواقف الرسل ، صلوات اللـــه وسلامـه عليهم أجمعين ، وهم يتلقون الاعـــراض والتكذيب والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والايذاء بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفى نصر اللـــه لهم الذى لا شك آت •• ثم تصديق العواقب فى الدنيـــا ــ وفى الآخرة كذلك ــ بثقة الرسل الكرام بوليهم القـــادر العظيم بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين •

(٤) ٣١ ــ ٤٤

ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ان هو الا رجل افترى على اللـه كذبا وما نحن له بمؤمنين ، قال رب انصرنى بما كذبون ، قال عما قليل ليصبحن نادمين ، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ، ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ، ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ، ثم أرسلنا رسلنا تتراكل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » .

٣ ـ الشعراء (٥) :

« كذبت عاد المرسلين ، اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون ، انى لكم رسول أمين ، فاتقوا اللـه وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين ، أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الأولين ، وما نحن بمعذبين ، فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وان ربك لهو العزيز الرحيم » .

٤ ـ فصلت (٦) :

« فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن اللـه الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » .

٥ ـ الأحقاف (٧) :

« واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا اللـه انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون ، فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتهم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما ان

---

(٥) ١٢٣ ـ ١٤٠
(٦) ١٥ ـ ١٦
(٧) ٢١ ـ ٢٦

مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » .

٦ ـ **الذاريات (٨) :**

« وفى عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم » .

٧ ـ **القمر (٩) :**

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر » .

الخلاصة :

* الله سبحانه وتعالى يستخلف قوم عاد ـ باليمن فيما بين عمان وحضرموت ـ من بعد قوم نوح عليه السلام .. الله ينعم على عاد بالانعام والبنين والجنات والعيون ، كما يزدهم بسطة فى الجسم .

* عاد يبنون الابنية الشامخة بكل مكان : « ارم ذات العماد (١٠) ـ التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

* عاد يستكبرون فى الارض بغير الحق ويعبثون فى الارض فسادا ، ويبطشون بمن هو دونهم فى القوة « فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون » .

* عاد اشركوا بالله واتخذوا من دونه آلهة شتي ، فعبدوا هواهم ، وعبدوا أصناما مثل صمد وصمود والهباء ، وسموها بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

---

(٨) ٤١ ـ ٤٢ .
(٩) ١٧ ـ ٢١ .
(١٠) لها وصف أورده المسعود فى « مروج الذهب » .

* هود عليه السلام يدعو قومه الى عبادة الله وحده ، دون شريك ، وأن يعلنوا اسلامهم لله رب العالمين ، وأن يقلعوا عن المعاص وارتكاب المعاصى والآثام .

* عاد يرفضون دعوة هود ونصائحه ، ويتهمونه بالسفاهة والكذب ، ويصرون على عدم ترك ما كان عليه الآباء (كما يدعون) . الله سبحانه وتعالى ينجي المؤمنين ، ويهلك المكذبين : .. « فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » .

الوثائق الدالة على أن رسالة هود كانت الى قومه الذين كانوا باليمن ، بالاحقاف أو انه عليه السلام قد دعا الى دين الاسلام (١١) :

أورد محمد بن جرير الطبري الروايات التالية عن عاد :

١ ـ « وعاد » ، هؤلاء القوم الذين وصف الله صفتهم ، وبعث اليهم هودا يدعوهم الى توحيد الله ، واتباع ما أتاهم به من عنده .

٢ ـ « حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمه ، عن ابن اسحاق . ولد عاد ابن أرم بن عوص بن سالم بن نوح .

وكانت مساكنهم الشحر ، من أرض اليمن وعاد الى بلاد حضرموت الى عمان (١٤٨٠١) » .

٣ ـ « حدثنى محمد بن الحسين قال ، حدثنا أحمد بن المفضل ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى : أن عادا قوم كانوا باليمن ، بالاحقاف (١٤٨٠٢) » .

٤ ـ « حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن اسحاق ، عن محمد بن عبد الله بن أبىسعيد الخزاعى ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة قال : سمعت على بن أبى طالب عليه السلام يقول لرجل من حضرموت . هل رأيت كثيبا أحمرا تخالطه مدرة حمراء . ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله انك لتنعته نعت رجل قد رآه ! قال : لا ، ولكنى قد

(١١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ) تفسير الطبرى، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مصر ١٩٥٧ ، ج ١٢ ، ص ٥٠٣ وما بعدها .

حدثت عنـه ، فقال الحضرمى : وما شـأنه يا أمير المؤمنين ؟ قال : فيـه قبر هود صلوات الله عليه (١٤٨٠٣) ٠

٥ ـ (١٤٨٠٤) ـ حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن اسحاق قال كانت منـازل عـاد وجماعتهم ، حين بعث اللـه فيهم هودا ، **الأحقاف** ٠ قال : والأحقاف الرمل ، فيما بين عمان الى حضرموت ، فاليمن كله وكانوا مع ذلك قـد **فشوا فى الارض كلهـا ، وقهروا أهلها بفضـل قوتهم التى آتاهم اللـه** ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له « صداء » وصنم يقـال له صمود ، وصنم يقال له الهباء ٠ فبعث الله اليهم هودا ، وهو من أوسطهم ٠ نسبا ، وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الاله ولا يجعلوا معـه الها غيره ، وأن يكفوا عن ظلم الناس ٠ لم يأمرهم فيما يذكر ، واللـه أعلم ، بغير ذلك ، فأبوا : « وقالوا من أشد منـا قوة » ! ٠٠ واتبعه منهم ناس ، وهم يسـير مكتتمون وكان ممن آمن به وصـدقه رجل من عـاد يقال له : مرثد بن سعد بن عقير وكان يكتم ايمانه ، فلما عتوا على الله تبـارك وتعالى وكذبوا نبيهم ، وأكثروا فى الارض الفسـاد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثـا بغير نفع ، كلمهم هـود فقال : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصـانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ٠ فاتقوا اللـه وأطيعون) (سورة الشعراء : ١٢٨ ـ ١٣١) ٠

(قالوا يا هود ما جئتنا ببينة ، ومـا نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ومـا نحن لك بمؤمنين ٠ ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) ٠ (قال انى أشهد اللـه وأشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) ٠٠ الى قوله : صراط مستقيم (سورة هود ٥٣ ـ ٥٦) ٠

وقد أورد بن كثير (١٢) رواية عن الطبرى عن محمد بن اسحاق ، قال فلما أبوا الا الكفر باللـه أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس اذا جهدهم أمر فى ذلك الزمـان وطلبوا من اللـه الفرج فيـه انما يطلبونه بحرمة ومكان بيته وكان معروفا عنـد أهـل ذلك الزمان وبـه العماليق مقيمون وهم من سـلالة عمليق بن لاوذ ابن سـام بن نوح وكان سيدهم اذ ذاك رجـلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عـاد واسمها جلهذه ابنة الخبيرى قال فبعثت عـاد وفدا قريبـا من سبعين رجـلا الى الحرم ليستسقوا لهم عنـد الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكـة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان (قينتان لمعاوية) وكانوا قـد وصلوا اليه فى شهر فلمـا

(١٢) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٩

طـــال مقامهم عنده وأخـــــذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهـــم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم بـــه فقـــال :

ألا يا قيـــل ويحك قـــم فهينم
لعـــل اللـــه يســـقينا غمـــامـــا
فيسقى أرض عـــاد ان عـــادا
قـــد امســـوا لا يبينون الكـــلاما
من العطش الشـــديد ليس نرجـــو
بـــه الشيخ الكبير ولا الغـــــلاما
وقـــــد كانت نســـاؤهم بخيـــر
فقـــــد أمست نســـاؤهم أيـــامى
وان الـــوحش تـــأتيهم جهـــــارا
ولا تخشى لعـــــادي ســـــــهاما
وأنتـــم هـــا ههنا فيمـــا اشـــتهيتم
نهـــــاركم وليلـــــكم التمـــــاما
فقبـــح وفـــدكم من وفـــد قـــوم
ولا لقـــوا التحيـــة والســـــلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لمـــا جاءوا له فنهضـــــوا الى الحرم ودعـــوا لقومهم فدعا داعيهم وهـــو قيل بن عنز فأنشأه اللـــه سحابات ثلاثا بيضـــاء وسوداء وحمراء ثم ناداه منـــاد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هـــذا السحاب فقال : اخترت هذه السحابة السوداء فانها أكثر السحاب مـــــاء فناداه منـــاد اخترت رمادا رمددا ، لا تبقى من عـــاد أحدا لا والدا تترك ولا ولدا ، الا جعلته همدا ، الا بني الوذية المهندا ، قال وبنو الوذية بطن من عـــاد يقيمون بمكـــة فلم يصبهم مـــا أصاب قومهم قال وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عـــاد الآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيمـا يذكرون التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة الى عـــاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هـــذا عارض ممطرنا يقول (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عـــذاب اليم ، تدمر كل شيء) أى تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيمـــا يذكرون امرأة من عـــاد يقال لها مميد ، فلما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا ما رأيت يا مميد ؟ قالت ريحـــا فيها شـــــبه النار أمامهـــا رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حســـوما كمـــا قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عـــاد أحدا الا هلك ، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكر لى ومن معـــه من المؤمنين فى حظيرة ما يصيبه ومن معـــه الا ما تلين عليه الجلود وتلذ الانفس وانها لتمر على عـــاد بالطعن

ما بين السماء والارض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة يطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى (ولما جاء آمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ) ٠

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد ابن اسحاق بن يسار رحمه الله ، وقال الامام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبو المنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة فاذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى يا عبد الله ان لى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة هل أنت مبلغى اليه قال فحملتها فأتيت المدينة فاذا المجلس غاص بأهله واذا راية سوداء تخفق واذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت ما شأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال رحلة فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ٠

ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها اليك وها هى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله ان رأيت ان تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فالى أين يضطر مضطرك قال قلت : ان مثلى مثل ما قال الاول : معزى حملت حتفها ، حملت هذه ولا أشعر انها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى « **وما وافد عاد ؟** » **وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت** ان عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج الى جبال مهرة فقال اللهم انك تعلم أنى لم أجيء الى مريض فأداويه ، ولا الى أسير فأفاديه ٠ اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه ، فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأومأ الى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا قال فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح الا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا قال أبو وائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل اذا بعثوا وافدا لهم قالوا لا تكن كوافد عاد ٠ (١٣)

(١٣) هكذا رواه أحمد فى السند ٠ ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه ، ورواه النسائى من حديث سلام بن أبى المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجة أيضا عن أبى وائل عن الحارث ابن حسان البكرى به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكرى فذكره ورواه أيضا عن أبى كريب عن أبى بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكرى ٠

سيرة صالح عليه السلام

- نشأة صالح عليه السلام ٠
- أضواء على النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى لأمـــة ثمود قوم صـــالح ٠
- مدى التقدم العلمى لهؤلاء القوم نتيجة لانعام الله عليهم ٠
- الجانب الاعتقادى فى حياة القوم والصفات التى كانوا يتصفون بها ٠
- الله سبحانه وتعالى يرسل صالحا الى ثمـود ليعرفهم بربهم الحـــق ويدعوهم الى الاسلام ٠
- الجهود التى بذلها صالح عليه السلام ليبلغ ما أنزل اليه من ربه ٠
- موقف ثمود من دعوة صالح عليه السلام ٠
- مصير المتآمرين من قوم صالح ، ونجاة المسلمين الموحدين ٠
- مصارع الغابرين من قوم صالح ومخلفاتهم ٠
- الدروس المستفادة من السيرة ٠

والآن نعيش مع رســول آخر من بين رســل الله الكرام ، وهــو صالح عليه السلام ، يبلغ رسالة ربه الى قومه بجزيرة العرب ؟ وفى هــذا يقول الله تعالى : ـ

« والى ثمود أخاهم صالحا ، قال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من الــه غيره • قــد جاءتكم بينة من ربكم ، هــذه ناقة الله لكم آية ، فذروهــا تأكل فى أرض اللــه ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عــذاب أليم • واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عــاد ، وبوأكم فى الارض ، تتخذون من سهولهــا قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ، ولا تعثــوا فى الارض مفسدين • قال الملأ الذين استكبروا من قومــه للذين استضــعفوا ـ لمن آمن منهم ـ : أتعلمون أن صــالحا مرسل من ربه ؟ قالوا : انا بما أرسـل بــه مؤمنون ، قال الذين استكبروا : انا بالذى آمنتم بــه كافرون • فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صــالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين • فأخذتهم الرجفــة فأصبحوا فى دارهم جاثمين • فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رســالة ربى ، ونصحت لكم ، ولــكن لا تحبون الناصحين » •

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ، وهى تمضى فى خضم التاريخ •• وها هى ذى نكســة أخرى الى الجاهلية ، ومشهد من مشاهــد اللقاء بين الحق والباطل ، ومصرع جديد من مصارع المكذبين •

« والى ثمود أخاهم صالحا • قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره » •

ذات الكلمة الواحدة التى بهــا بدأ هــذا الخلق واليها يعود • وذات المنهج الواحد فى الاعتقاد والاتجاه والمواجهة والتبليغ •

ويزيد هنــا تلك المعجزة التى صاحبت دعوة صالح ، حين طلبها قومــه للتصديق :

« وقــد جئتكم ببينة من ربكم ، هــذه ناقة الله لكم آية » ••

والسياق هنــا ، لأنه يستهدف الاستعراض السريع للدعوة الواحدة ، ولعاقبة الايمان بها وعاقبة التــكذيب ، لا يذكر تفصيل طلبهم للخـارقة ، بل يعلن وجودها عقب الدعوة • وكذلك لا يذكر تفصيلا عن الناقة أكثر من أنهــا بينة من ربهم ، وأنها ناقة اللــه وفيها آية منه • ومن هــذا الاسناد نستلهم أنها كانت ناقة غير عادية ، أو أنهــا أخرجت لهم اخراجــا غير عادى ، مما يجعلها بينة من ربهم ، ومما يجعل نسبتها الى اللــه ذات معنى ،

ويجعلها آية على صــدق نبوته ·· ولا نزيد على هـذا شيئا مما لم يرد ذكره من أمرها فى هــذا المصدر المستيقن ـ وفيما جــاء فى هــذه الاشارة كفاية عن كل تفصيل آخر ـ فنمضى نحن مع النصوص ونعيش فى ظلالها :

« فذروها تأكل فى أرض اللــه ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عـذاب أليم » ···

انها ناقة الله ، فذروها تأكل فى أرض اللــه ، والا فهو النذير بسوء المصير ·

وبعد عرض الآية والانذار بالعاقبة ، يأخذ صالح فى النصح لقومــه بالتدبر والتذكر ، والنظر فى مصائر الغابرين ، والشــكر على نعمه الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين :

« واذكروا اذ جعلكم خلفــاء من بعد عـاد ، وبوأكم فى الارض ، تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا · فاذكروا آلاء اللــه ، ولا تعثوا فى الارض مفسدين » ·

ولا يذكر السياق هنــا **أين كان موطن ثمود** ، ولكنه يذكر فى سورة أخرى **أنهم كانوا فى الحجر ـ وهى بين الحجاز والشام** ·· ونلمح من تذكير صالح لهم ، أثر النعمة والتمكين فى الارض لثمود ، كمــا نلمح طبيعة المكان الذى كانوا يعيشون فيه · فهو سهل وجبل ، وقــد كانوا يتخذون فى السهل القصــور ، وينحتــون فى الجبــال البيــوت ··· فهى حضــارة عمرانية واضحة المعالم فى هــذا النص القصير ·· وصالح يذكرهم استخلاف اللــه لهم من بعد عــاد ، وان لم يكونوا فى أرضهم ذاتها ، **ولكن يبدو أنهم كانوا أصحاب الحضارة العمرانية التالية فى التاريخ لحضارة عــاد ، وأن سلطانهم امتد خارج الحجر أيضــا** · وبذلك صاروا خلفــاء ممكنين فى الارض ، محكمين فيها · وهــو ينهاهم عن الانطلاق فى الارض بالفســاد ، اغترارا بالقوة والتمكين ، وأمامهم العبرة ماثلة فى عــاد الغابرين !

وهنا كذلك نلمح فجوة فى السياق على ســبيل الايجاز والاختصار · فقــد آمنت طائفة من قوم صالح ، واستكبرت طائفة · والملأ هم آخــر من يؤمن بدعوة تجردهم من السلطان فى الارض · وترده الى اله واحــد هو رب العالمين ·· ولا بد أن يحاولوا فتنة المؤمنين الذين خلعوا ربقة الطاغوت من أعناقهم بعبوديتهم لله وحــده ، وتحرروا بذلك من العبودية للعبيد :

وهكذا نرى المـلأ المستكبرين من قوم صالح يتجهون الى من آمن من الضعفاء بالفتنة والتهديد :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا ـ لمن آمن منهم ـ : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ » ..

وواضح أنه سؤال للتهديد والتخويف ، ولاستنكار ايمانهم به ، وللسخرية من تصديقهم له فى دعواه الرسالة من ربه .

ولكن الضعاف لم يعودوا ضعافا ! لقد سكب الايمان بالله القوة فى قلوبهم ، والثقة فى نفوسهم ، والاطمئنان فى منطقهم .. انهم على يقين من أمرهم ، فماذا يجدى التهديد والتخويف ؟ وماذا تجدى السخرية والاستنكار.. من الملأ المستكبرين ؟ :

« قالوا : انا بما أرسل به مؤمنون » .

ومن ثم يعلن الملأ عن موقفهم فى صراحة تحمل طابع التهديد :

« قالوا : انا بالذى آمنتم به كافرون » ..

على الرغم من البينة التى جاءهم بها صالح ، والتى لاتدع ريبة لستريب .. انه ليست البينة هى التى تنقص الملأ للتصديق .. انه السلطان المهدد بالدينونة للرب الواحد .. انها عقدة الحاكمية والسلطان ، انها شهوة الملك العميقة فى الانسان .. انه الشيطان الذى يقود الضالين من هذا الخطام !

وأتبعوا القول بالعمل ، فاعتدوا على ناقة الله التى جاءتهم آية من عنده على صدق نبيه فى دعواه ، والتى حذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم :

« فعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين » ..

انه التبجح الذى يصاحب المعصية . ويعبر عن عصيانهم بقوله : « عتوا » لابراز سمة التبجح فيها ، وليصور الشعور النفسى المصاحب لها . والذى يعبر عنه كذلك ذلك التحدى باستعجال العذاب والاستهتار بالنذير :

ولا يستأنى السياق فى اعلان الخاتمة ، ولا يفصل كذلك :

« فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ..

والرجفة والجثوم ، جزاء مقابل للعتو والتبجح . فالرجفة يصاحبها الفزع ، والجثوم مشهد للعجز عن الحرك . وما أجدر العاتي أن يرتجف ، وما أجدر المعتدى أن يعجز ، جزاء وفاقا فى المصير . وفى التعبير عن هذا المصير بالتصوير .

ويدعهم السياق على هيئتهم .. « جاثمين » .. ليرسم لنا مشهد صالح الذى كذبوه وتحدوه :

« فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين » . انه الاشهاد على أمانة التبليغ والنصح ، والبراءة من المصير الذى جلبوه لانفسهم بالعتو والتكذيب .

.. وهكذا تطوى صفحة أخرى من صحائف المكذبين . ويحق النذير بعد التذكير على المستهزئين ..

سور أخرى من القرآن ، يرد فيها ذكر ثمود

١ ــ هود (١٤) :

« والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره هو أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب . قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله ان عصيته فما تزيدوننى غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة

---

(١٤) ٦١ ــ ٦٨ .. ولقد سبق لنا ان قلنا ان سيرة صالح عليه السلام ترد فى سياق سورة هود عليه السلام التى تحتوى على ثلاث قطاعات رئيسية : القطاع الاول يتضمن حقائق العقيدة ، والثانى يتضمن حركة العقيدة فى التاريخ ، والثالث ويتضمن التعقيب على هذه الحركة . ومن الواضح أن قطاعات السورة تتعاون وتتناسق فى تقرير الحقائق الاعتقادية الاساسية التى يستهدفها سياق السورة كله ، وهى أن ما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم . وما جاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله سبحانه وتعالى وهى تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك والتلقى فى هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك ، وللفاصلة بين الناس على أساس من الحقيقة ...

الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض اللــه ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب • فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعــد غير مكذوب • فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منــا ومن خزى يومئذ ان ربك هــو القوى العزيز • وأخــذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين • كأن لم يغنوا فيها الا ان ثمودا كفروا ربهم ألا بعد الثمود » •

٢ ـ الحجر (١٥) :

« ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين • وآتيناهم آياتنــا فكانوا عنها معرضين • وكانوا ينحتون من الجبــال بيوتا آمنين • فأخذتهم الصيحــة مصبحين • فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون »

٣ ـ الشعراء (١٦) :

« كذبت ثمود المرسلين • اذ قال لهم أخوهم صــالح ألا تتقون • انى لكم رسول أمين • فاتقوا الله وأطيعون • وما أسألكم عليــه من أجــر ان أجرى الا على رب العالمين • أتتركون فى ما هاهنــا آمنين • فى جنــات وعيون • وزروع ونخــل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبــال بيوتا فارهين • فاتقوا الله وأطيعون • ولا تطيعوا أمر المسرفين • الذين يفســدون فى الارض ولا يصلحون • قالوا انما أنت من المسحرين • ما أنت الا بشر مثلنا فآت بآية ان كنت من الصادقين • قال هــذه ناقة لها شرب ولكم شرب يــوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عــذاب يوم عظيم • فعقروها فأصبحوا نادمين • فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين • وان ربك لهو العزيز الرحيم » •

٤ ـ النمل (١٧) :

« ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقــان يختصمون • قال يــا قوم لم تستعجلون بالســيئة قبـل الحسنة لــولا تستغفرون اللــه لعلكم ترحمون • قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بــل أنتم قوم تفتنون • وكان فى المدينــة تســعة رهط يفسدون

---

(١٥) ٨٠ ـ ٨٤ •

(١٦) ١٤١ ـ ١٥٩ فها هو جزء من موكب الايمــان بقيادة صــالح عليه السلام ، يواجــه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمــة : فى صراحة وثقة وطمأنينة ويقين •

(١٧) ٤٥ ـ ٥٣ •

فى الارض ولا يصلحون • قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك وانا لصادقون • ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون • فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين • فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون • وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون •

٥ ـ فصلت (١٨) :

« وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون • ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون •

٦ ـ الذاريات (١٩) :

« وفى ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين • فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون • فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » •

٧ ـ القمر (٢٠) :

« كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشر منا واحدا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر ، أءلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر • سيعلمون غدا من الكذاب الأشر • انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر • فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر • انا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر • ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » •

٨ ـ الشمس (٢١) :

« كذبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث أشقاها • فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها » •

٩ ـ الحاقة (٢٢) :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة • فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية • وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية • سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام

---

(١٨) ١٧ ـ ١٨ •
(١٩) ٤٣ ـ ٤٥ •
(٢٠) ٢٣ ـ ٣٢ •
(٢١) ١١ ـ ١٥ •
(٢٢) ٤ ـ ٨ •

حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية • فهل ترى لهم من باقية » •

١٠ ـ الفجر (٢٣) :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الاوتاد • الذين طغوا فى البلاد • فأكثروا فيها الفساد • فصب عليهم ربك سوط عذاب • ان ربك لبالمرصاد » •

١١ ـ العنكبوت (٢٤) :

« وعادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين » •

١٢ ـ ص (٢٥) :

« جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب لأيكة أولئك الأحزاب ، ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب • وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق • وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ، أصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب » •

الخلاصة :

* الله سبحانه وتعالى يستخلف ثمودا من بعد عاد « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » •

* « الله ينعم على ثمود بالجنات والعيون والزروع والنخل ذات الطلع الهضيم » •

* « ثمود ينحتون من الجبال بيوتا فارهين ، ويتخذون من السهول قصورا » •

* ثمود يشركون بالله فيعبدون ما كان يعبد الآباء •

* صالح عليه السلام يدعو قومه الى عبادة الله وحده دون شريك •

---

(٢٣) ٦ ـ ١٤ •
(٢٤) ٣٨ •
(٢٥) ١١ ـ ١٧ •

* ثمود ينقسمون الى فريقين متخاصمين ، حزب الرحمن فى جانب ، والرهط المفسد ومن تبعهم على الجانب الآخر ٠

* الرهط المفسد يرفضون الاقدار بالعبودية لله الواحد القهار ، ويصرون على الشرك والبقاء على عبادة الآباء ، ويشككون فى دعوة صالح عليه السلام ويتهمونه بالسحر ، والكذب ، وبأنه فأل سيء ٠

* حزب الشيطان ـ وهم الرهط المفسد ـ يتآمرون على قتل الناقة وهى الآية التى أيد الله بها صالح ـ وقتل صالح ٠ حزب الشيطان يقتل الناقة ٠

* الله سبحانه وتعالى ينجى صالح ومن معه من المؤمنين ويهلك التسعة رهط المشركين ومن تبعهم من الكافرين ٠

* مساكن ثمود بالحجر باقية على مدار التاريخ « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون » ٠

الوثائق الدالة على أن رسالة صالح عليه السلام كانت الى ثمود الذين كانوا يسكنون الحجر فيما بين الحجاز والشام الى وادى القرى ٠

أورد محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره الروايات التالية التى تشمل أحاديث لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، عن قوم ثمود :

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن ارم بن سام بن نوح وهو أخو جد يس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء العرب العاربة قبل ابراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام الى وادى القرى وما حوله وقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب الى تبوك فى سنة تسع قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجبوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الابل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال « انى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم . وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجر » لا تدخلوا على

هؤلاء المعذبين الا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثـل ما أصابهم ، وأصـــل هـذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجـــه .

وقال الامـام أحمد أيضا : حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن اسماعيل ابن واسط عن محمد بن أبى كبشـــة الانمارى عن أبيه قال لمـــا كان فى غزوة تبوك تسارع الناس الى أهـــل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادى فى الناس « الصلاة جامعة » قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة وهو « يقول مـــا تدخلون على قوم غضب الله عليم » فناداه رجـــل منهم نعجب منهم يا رســـول الله ؟ قال « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك . رجـــل من أنفسكم ينبئكم بمـــا كان قبلكم وبما هـــو كائن بعدكم فاستقيموا وســـددوا فان الله لا يعبأ بعذابكم شيئا وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفســـهم شيئا » لم يخرجـــه أحـــد من أصحاب السنن وأبو كبشـــة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم ، وقال الامـــام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد اللـــه ابن عثمـان بن خثيم عن أبى الزبير عن جابر قال لمـــا مر رسول اللـه صلى الله عليه وسلم بالحجر قـال « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صـــالح فكانت ــ يعنى الناقة ــ ترد من هـــذا الفج وتصـــدر من هـــذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد اللـــه من تحت أديم الســـماء منهم الا رجـلا واحـدا كان فى حرم اللـــه » فقالوا من هو يا رسول الله قال « أبو رغـــال فلمـا خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » وهـذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم .

قال علماء التفسير : ولم يبق من ذرية ثمود أحـــد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى اللـــه عنهم ، الا أن رجـــلا يقال له أبو رغـــال كان لمـــا وقعت النقمة بقومه مقيما اذ ذاك فى الحرم فلم يصـــبه شىء فلما خرج فى بعض الايام الى الحل جـــاءه حجر من السماء فقتله ، وقـــد تقدم فى أول القصـــة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك وذكروا أن أبا رغـال هـــذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، قال عبد الرزاق عن معمر : اخبرنى اسماعيل بن أميـــة أن النبى عليه الصلاة والسلام مـــر بقبر أبى رغال فقال « أتدرون من هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعـــلم ، قال ((هذا قبر أبى رغال رجل من ثمود كان فى حرم اللـــه فمنعه حرم الله عذاب اللـــه ، فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معـــه غصن من ذهب ، فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنـــه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق ، قال معمر ، قال الزهرى : أبو رغـــال أبو ثقيف هـــذا مرسل من هـــذا الوجه .

سيرة شعيب عليه السلام

- نشأة شعيب عليه السلام .
- جانب الاعتقاد ، وجانب المعاملات فى حياة مدين .
- الله سبحانه وتعالى يصطفى شعيب عليه السلام ، ليدعوا مدين الى عبادة الله الواحد القهار ، والتزام شرعه ونظامه .
- موقف القوم من دعوة شعيب برغم البينة التى تؤكد رسالته .
- رب العالمين يهلك الكافرين وينجى شعيبا ومن معه من المؤمنين .
- الدروس المستفادة من السيرة .

ومن الصفحات التى تعرضها سورة الاعراف التى سبق التعريف بها والتقديم لها ، صفحة شعيب ومدين (٢٦) .

« والى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم أعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » ..

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها ،

---

(٢٦) مدين بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الياء المثناة من تحت وآخره نون . قال أبوزيد : مدين على بحر القرم محاذية لتبوك على نحو ست مراحل وهى أكبر من تبوك وبها البئر التى استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب (معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٤١٧ — ٤١٨) ، انظر فى ظلال القرآن ، ج ٣ ، ص ١٣١٦ — ١٣٢٢ .

كما أورد ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ١٩٦ أنهم من سلالة مدين بن ابراهيم ، ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان حتى طريق الحجاز : قال تعالى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، وهم أصحاب الأيكة » ، انظر أيضا تفسير الطبرى ، ج ١٢ ، ص ٥٥٤ .

وما يكون لنـــا أن نعود فيها ـ الا أن يشـــاء الله ربنا ، وسع ربنـــا كل شيء علما ـ على الله توكلنا ، ربنـــا افتح بيننا وبين قومنـــا بالحق ، وأنت خير الفاتحين • وقال المـــلأ الذين كفروا من قومه : لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون • فأخذتهم الرجفـــة فأصبحوا فى دارهم جاثمين • الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال : يا قوم لقـــد أبلغتكم رســـالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » •••

اننا نجد شيئا من الاطالة فى هـــذه القصة ، بالقياس الى نظائرها فى هـــذا الموضع ، ذلك أنها تتضمن غير قضية العقيدة شيئا عن المعـاملات . وان كانت القصـــــة سائرة على منهج الاستعراض الاجمالى فى هـــــذا السياق •

« والى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا اللـــه مالكم من اله غيره » •

فهى قاعدة الدعوة التى لا تغيير فيها ولا تبديل •• ثم تبدأ بعـــدها بعض التفصيلات فى رسالة النبى الجديد :

« قد جاءتكم بينة من ربكم » •

ولا يذكر السياق نوع هـــذه البينة ـ كما ذكرها فى قصة صالح ـ ولا نعرف لها تحديدا من مواضع القصـــة فى السور الاخرى • ولـــكن النص يشير الى أنه كانت هنـــاك بينة جاءهم بهـــا ، تثبت دعواه انه مرسل من عند الله • ويرتب على هذه البينة ما يأمرهم به نبيهم من توفية الكيـــل والميزان ، والنهى عن الافساد فى الارض ، والكف عن قطع الطريق على الناس، وعن فتنة المؤمنين عن دينهم الذى ارتضوه :

« فأوفوا الكيل والميزان ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الارض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين • ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ، وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجـــا ، واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » ••

وندرك من هـــذا النهى أن قوم شعيب ، كانوا قوما مشركين لا يعبدون اللهـــه وحده ، انما يشركون معـه عبـادة فى سلطانه ، وأنهم ما كانوا يرجعون فى معاملاتهم الى شرع الله العادل ، انما كانوا يتخذون لانفسهم من عنـــد أنفسهم قواعد للتعامل ـ ولعل شركهم انما كان فى هـــذه الخصلة ـ وأنهم ـ لذلك ـ كانوا سيئى المعاملة فى البيع والشراء ، كما كانوا مفسدين فى الارض،

يقطعون الطريق على سواهم • ظلمة يفتنون الـــذين يهتدون ويؤمنون عن دينهم ، ويصدونهم عن ســـبيل الله المستقيم ، ويكرهون الاستقامة التى فى سبيل الله ، ويريدون أن تكون الطريق عوجـــاء منحرفة ، لا تمضى على استقامتها كما هى فى منهج الله •

ويبدأ شعيب ـ عليه السلام ـ بدعوتهم الى عبـــادة الله وحــده وافراده سبحانه بالالوهية ، والى الدينونة له وحـــده وافراده من ثم بالسلطان فى أمر الحياة كله •

يبدأ شعيب ـ عليه السلام ـ فى دعوتهم من هـــذه القـــاعدة ، التى يعلم أنه منها تنبثق كل مناهج الحياة وكل أوضاعها ، كما أن منها تنبثق قواعد السلوك والخلق والتعامل • ولا تستقيم كلها الا اذا استقامت هـــذه القاعدة •

ويستصحب فى دعوتهم الى الدينونة لله وحده ، واقامة حياتهم على منهجه المستقيم ، وترك الافســـاد فى الارض بالهوى بعد ما أصلحهـــا الله بالشريعة •• ويستصحب فى دعوتهم الى هـــذا كله بعض المؤثرات الموحية •• يذكرهم نعمة الله عليهم :

« واذكروا اذ كنتم قليلا فكثركم » •

ويخوفهم عاقبة المفسدين من قبلهم :

« وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » ••

كذلك يريد منهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء من العدل وســـعة الصدر ، فلا يفتنوا المؤمنين الذين هداهم الله اليـــه عن دينهم ، ولا يقعدوا لهم بكـل صراط ، ولا يأخذوا عليهم كل سبيل ، مهددين لهم موعدين • وأن ينتظروا حكم اللـــه بين الفريقين • ان كانوا هم لا يريدون أن يكونوا مؤمنين :

« وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفـــة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين » •

لقد دعاهم الى أعدل خطة • ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك ان يتراجع وراءها خطوة •• نقطـــة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كل ما اعتنق من دين ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين •

ولكن الطواغيت لا يرضيهم أن يكون للايمـــان فى الارض وجـــود ممثل

فى جماعة من الناس لا تدين للطاغوت ٠٠ ان وجـــود جماعة مسلمة فى الارض ، لا تدين الا لله ، ولا تعترف بسلطان الا سلطانه ، ولا تحكم فى حياتها شرعا الا شرعـــه ، ولاتتبع فى حياتها منهجا الا منهجه ٠٠ ان وجـــود جماعة مسلمة كهذه يهدد سلطان الطواغيت ــ حتى لو انعزلت هـــذه الجماعة فى نفسها ، وتركت الطواغيت لحكم الله حين يأتى موعده ٠

ان الطاغوت يفرض المعركة فرضـــا على الجماعة المسلمة ــ حتى لـو آثرت هى ألا تخوض معـــه المعركة ــ ان وجود الحق فى ذاته يزعج الباطل٠ وهـــذا الوجود ذاته هو الذى يفرض عليه المعركة مع البـــاطل ٠٠ انهـــا سنة الله لابد أن تجرى ٠

« وقال المـــلأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتعودن فى ملتنا » ٠

هـــكذا فى تبجح سافر ، وفى اصرار على المعركة لا يقبـــل المهادنة والتعايش ٠

الا أن قوة العقيدة لا تتلعثم ولا تتزعزع أمـــام التهديد والوعيد ٠٠ لقد وقف شعيب عليه السلام عند النقطـــة التى لا يملك أن يتزحزح وراءها خطوة ٠٠ نقطة المسالمة والتعايش ــ على أن يترك لمن شـــاء أن يدخـــل فى العقيدة التى يشاء ، وأن يدين للسلطان الذى يشـــاء : فى انتظار فتح الله وحكمه بين الفريقين ــ ومـــا يملك صاحب دعوة أن يتراجع خطوة واحـــدة وراء هـــذه النقطة ، تحت أى ضغط أو أى تهديد من الطواغيت ٠٠ والا تنازل كليه عن الحـــق الذى يمثله وخانه ٠٠ فلما أن تلقى المـــلأ المستكبرون عرضـــه هـــذا بالتهديد بالاخراج من قريتهم أو العودة فى ملتهم ، صـــدع شعيب بالحق ، مستمسكا بملته ، كارها أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها ، واتجـــه الى ربه وملجئه ومولاه يدعـــوه ويستنصره ويسأله وعـــده بنصرة الحق وأهله :

« قال : أو لو كنا كارهين ؟ قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا اللـــه منها ٠ وما يكون لنـــا أن نعود فيها ــ الا أن يشـــاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ــ على اللـــه توكلنا ٠ ربنـــا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » ٠٠

وفى هـــذه الكلمات القلائل تتجلى طبيعة الايمان ، ومذاقه فى نفوس أهله ، كما تتجلى طبيعة الجاهلية ومذاقها الكريه ٠ كذلك نشـــهد فى قلب الرسول ذلك المشهد الرائع ٠ مشهد الحقيقة الالهية فى ذلك القلب وكيف تتجلى فيه ٠

« قال : أو لو كنا كارهين ؟ » ..

يستنكر تلك القولة الفاجرة : « لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا » .. يقول لهم : أتجبروننا على ما نكره من ملتكم التى نجانا الله منها ؟ !

« قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا الله منها » .

ان الذى يعود الى ملة الطاغوت والجاهلية ، التى لا يخلص فيها الناس الدينونة والطاعة لله وحده ، والتى يتخذ الناس فيها اربابا من دون الله يقرون لهم بسلطان الله .. ان الذى يعود الى هذه الملة ـ بعد اذ قسم الله له الخير وكشف له الطريق ، وهداه الى الحق ، وأنقذه من العبودية للعبيد ـ انما يؤدى شهادة كاذبة على الله ودينه . شهادة مؤداها أنه لم يجد فى ملة الله خيرا فتركها وعاد الى ملة الطاغوت ! أو مؤداها ـ على الاقل ـ أن لملة الطاغوت حقا فى الوجود ، وشرعية فى السلطان ، وأن وجودها لا يتنافى مع الايمان بالله . فهو يعود اليها ويعترف بها بعد أن آمن بالله .. وهى شهادة خطيرة أخطر من شهادة من لم يعرف الهدى ، ولم يرفع راية الاسلام . شهادة الاعتراف براية الطغيان . ولا طغيان وراء اغتصاب سلطان الله فى الحياة .

كذلك يستنكر شعيب ـ عليه السلام ـ ما يتهدده به الطغاة من اعادته هو والذين آمنوا معه الى الملة التى أنجاهم الله منها :

« وما يكون لنا أن نعود فيها » ..

وما من شأننا أصلا ، وما ينبغى لنا قطعا أن نعود فيها ... يقولها وأمامه التهديد الذى يزاوله الطاغوت فى كل أرض مع الجماعة المسلمة ، التى تعلن خروجها عن سلطانه ، ودينونتها لله وحده بلا شريك معه أو من دونه .

ان تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده ـ مهما عظمت وشقت ـ أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت . ان تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاح فيها من السلامة والامن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ـ انها تكاليف بطيئة طويلة مديدة . تكاليف فى انسانية الانسان ذاته فهذه « الانسانية » لا توجد ، والانسان عبد للانسان ـ وأى عبودية شر من خضوع الانسان لما يشرعه له انسان ؟ .. وأى عبودية شر من تعلق قلب انسان بارادة انسان آخر به ، ورضاه أو غضبه عليه ؟..

وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر انســان بهوى انسان مثلـه ورغباته وشهواته ؟ .. وأى عبودية شر من أن يكون للانسان خطــام أو لجام يقوده منه كيفما شاء انسان ؟ .

على أن الامر لا يقف عند حــد هـذه المعـانى الرفيعة .. انـه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس ـ فى حكم الطواغيت ـ أموالهم التى لا يحميهـــا شرع ولا يحوطها سياج . كمـا يكلفهم أولادهم اذ ينشئهم الطاغوت كمـا شـاء على ما شـاء من التصورات والافكار والمفهومات والاخلاق والتقاليد والعادات . فوق ما يتحكم فى أرواحهم وفى حياتهم ذاتها ، فيذبحهم عـــلى مذبح هــواه ، ويقيم من جماجمهم وأشلائهم أعــلام المجد لذاته والجاه . ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية .. حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، ســواء فى صورة الغصب المباشر ـ كما يقـع على نطاق واسع على مـدار التاريخ ـ أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومفاهيم تجعلهن نهبـا مباحـا للشهوات تحت أى شـعار . وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أى سـتار .. والذى يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحيـاة أبنائه وبناته فى حكم الطواغيت من دون الله . انما يعيش فى وهم ، أو يفقد الاحساس بالواقع .

ان عبادة الطاغوت عظيمة التكاليف فى النفس والعرض والمـال .. ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهى أربح وأقوم حتى بميزان هـــذه الحياة . فضـلا على وزنها فى ميزان الله .

لذلك قالها شعيب عليه السلام مدوية حاسمة :

« قد افترينا على الله كذبا ان عدنا فى ملتكم بعد اذ نجانا اللـه منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها ... » .

ولكن شعيبا بقدر ما يرفع رأسـه ، وبقدر ما يرفع صوته ، فى مواجهة طواغيت البشر من المـلأ الذين استكبروا من قومـه .. بقـدر ما يخفض هامته ، ويسـلم وجهه فى مواجهـة ربه الجليـل ، الذى وسـع كل شىء علما . فهو فى مواجهـة ربه ، لا يتألى عليـه ولا يجزم بشىء أمـام قدره ، ويدع له قياده وزمامه ، ويعلن خضوعه واستسلامه :

« الا أن يشاء اللـه ربنـا ، وسع ربنـا كل شىء علما » ..

انه يفوض الامر للـه ربـه ، فى مستقبل ما يكون من أمره وأمـر المؤمنين معه .. انه يملك رفض ما يفرضـه عليه الطواغيت ، من العودة فى

ملتهم ، ويعلن تصميمه والمؤمنين معـــه على عدم العودة ، ويعلن الاستنكار المطلق للمبدأ ذاته •• ولكنه لا يجـــزم بشىء عن مشيئة الله به وبهم •• فالأمر موكول الى هــــذه المشيئة ، وهو والذين آمنوا معـــه لا يعلمون . وربهم وسع كل شىء علما • فالى علمـــه ومشيئته تفويضهم واستسلامهم •

انه أدب ولى الله مع الله • الأدب الذى يلتزم بـــه أمره ، ثم لا يتألى بعد ذلك على مشيئته وقدره • ولا يتأبى على شىء يريده به ويقدره عليه •

وهنـــا يدع شعيب طواغيت قومه وتهـديدهم ووعيدهم ، ويتجـــه الى وليه بالتوكيل الواثق ، يدعوه أن يفصـــــل بينه وبين قومه بالحق :

« على الله توكلنا • ربنـــا افتح بيننا وبين قومنا بالحق • وأنت خير الفاتحين » •• وهنـــا نشهد ذلك المشهد الباهر : مشهد تجـــلى حقيقـــة « الألوهية » فى نفس ولى الله ونبيه ••

انه يعرف مصــــدر القوة ، وملجأ الامان •ويعلم أن ربـــه هـو الـذى يفصل بالحق بين الايمان والطغيان ، ويتوكل على ربـــه وحـــده فى خوض المعركة المفروضة عليـــه وعلى المؤمنين معـــه ، والتى ليس منها مفر • الا بفتح من ربه ونصر •

عندئذ يتوجـــه المـــلأ الكفار من قومـــه الى المؤمنين بـــه يخوفونهم ويهددونهم ليفتنوهم عن دينهم : « وقال المـــلأ الذين كفروا من قومـــــه : لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » •

انها ملامح المعركة التى تتكرر ولا تتغير •• ان الطواغيت يتوجهون أولا الى الداعية ليكف عن الدعـــوة • فاذا استعصم بايمانه وثقته بربه ، واستمسك بأمانة التبليغ وتبعتـــه ، ولم يرهبـــه التخويف بالـــذى يملكـــه الطغـــاه من الوسائل •• تحولوا الى الذين اتبعوه يفتنونهم عن دينهم بالوعيد والتهديد ، ثم بالبطش والعذاب •• انهم لا يملكون حجة على باطلهم ، ولـــكن يملكون أدوات البطش والارهاب ولا يستطيعون اقناع القلوب بجاهليتهم ـ وبخاصـــة تلك التى عرفت الحق فما عادت تستخف بالباطل ـ ولكنهم يستطيعون البطش بالمصرين على الايمان ، الذى أخلصوا الدينونه للـــــه فأخلصوا له السلطان •

ولكنه من سنة اللـــه الجارية أنه عندما يتمحض الحق والباطـــل . ويقفان وجهـــا لوجـــه فى مفاصلة كاملة تجرى سنة اللـــه التى لا تتخلف•• وهكذا كان •• « فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين » ••

الرجفة والجثوم ، جزاء التهديد والاستطالة ، وبسط الايـــدى بالاذى والفتنة ..

ويرو السياق على قولتهم : « لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون » .. وهى التى قالوها مهددين متوعدين للمؤمنين بالخسارة ! فيقرر — فى تهكم واضح — أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا ، انما كان من نصيب قوم آخرين :

« الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » ...

ففى ومضة ها نحن أولاء نراهم فى دارهم جاثمين . لا حياة ولا حراك . كأن لم يعمروا هـــذه الدار ، وكأن لم يكن لهم فيها آثار !

ويطوى صفحتهم مشيعة بالتبكيت والاهمال ، والمفارقة والانفصال . من رسولهم الذى كان أخاهم ، ثم افترق طريقه عن طريقهم ، فافترق مصيره عن مصيرهم ، حتى لم يعد يأسى على مصيرهم الاليم ، وعلى ضـــيعتهم فى الغابرين :

« فتولى عنهم ، وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رســالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين ؟ » ..

انه من ملـــة وهم من ملـــة . فهو أمـة وهم أمـة . أما صلة الانساب والاقوام ، فلا اعتبار لهـا فى هـذا الدين ، ولا وزن لها فى ميزان الله .. فالوشيجة الباقية هى وشيجة هـــذا الدين ، والارتباط بين الناس انما يكون فى حبل الله المتين ..

سور أخرى من القرآن الكريم يرد فيها ذكر مدين :

١ — هــود (٢٧) :

« والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم أعبدوا الله (٢٨) ما لكم من الـه

---

(٢٧) ٨٤ — ٩٥ .

(٢٨) أنها الدينونة لله وحـــده ، قاعدة العقيـــدة الأولى ، وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الاولى . وقاعدة المعاملات الأولى .. القاعدة التى لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة .

غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٢٩) ولا تعثوا فى الارض مفسدين ، بقيت الله خير لكم ان كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب اصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ، ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم

(١٦) القضية هنا قضية الامانة والعدالة — بعد قضية العقيدة والدينونة — أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة ٠ فقد كان أهل مدين وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز الى الشام — ينقصون المكيال — ، وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف كما كان بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة والآيبة بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها ويتحكموا فى طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى سورة هود ٠ ومن ثم تبدو علاقة التوحيد والدينونة لله بالامانة والنظافه وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الافراد أم قامت بها الدول ٠ فهى بذلك ضمانة لحياة انسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الارض بين الناس ٠ وهى الضمانة الوحيدة التى تستند الى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند الى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والاهواء ٠٠

ان المعاملات والاخلاق لابد أن تستند الى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة ٠٠ هذه هى نظرة الاسلام ٠ وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والاخلاقية التى ترتكن الى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم ٠

وهى تستند الى ذلك الاصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ، كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها ٠ فلا يكون المتحكم فى أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الاخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعى أو يعيشون على الصناعة ٠ ان هذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها فى التصور الاخلاقى وفى قواعد المعاملات الاخلاقية ٠ حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ، وحيث تصبح قاعدة الاخلاق هى ارضاء الله وانتظار ثوابه وتوقى عقابه ، وكل ما يهدف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الاخلاق للعلاقات الاقتصادية وللتطور الاجتماعى للامة يصبح لغوا فى أن النظرة الاخلاقية الاسلامية ٠٠

مثــل ما أصاب قوم نوح أو قوم هــود أو قوم صــالح وما قوم لوط منكم ببعيد ، واستغفروا ربكم ثم توبوا اليــه ان ربى رحيم ودود ، قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينــا ضعيفا ولولا رهطك لرجمنك وما أنت علينــا بعزيز ، قال يا قوم أرهطى اعز عليكم من اللــه واتخذتموه وراءكم ظهريا ان ربى بما تعلمون محيط ، ويا قوم اعملوا عــلى مكانتكم انى عامل ســوف تعلمون من يأتيه عــذاب يخزيه ومن هــو كاذب وارتقبوا انى معكم رقيب ، ولمــا جــاء آمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه

= وهو رد واضح التهكم ، فهم لا يدركون أو لا يريدون ان يدركوا ـ آن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صــور العبوديه والدينونه ، وان العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم الا بتنفيذ شرائع اللــه فى التجارة وفي تداول الأموال وفى كل شــأن من شئون الحياة والتعامل • فهى لحمــة واحــدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة من شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة •

وقبل تسفيه هــذا التصور من أهل مدين قبل ألوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم ـ الا من رحم ربى ـ لا يفترقون فى تصورهم ولا فى أفكارهم لمثــل هــذه الدعوة عن قوم شعيب • وأن الجاهلية التى تعيشها البشرية اليوم ليست أفضــل ولا أكثر ادراكا من الجاهلية الاولى • وأن الشرك الذى كان يزاوله قوم شعيب هــو ذاته الشرك الذى تزاوله البشرية بما فيها أولئك الذين يقولون أنهم يهود أو نصــارى •• الخ فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر ، والشريعة والتعامل ، فيجعل العقيدة والشعائر للــه ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله • ووفق أمر غيره •• وهذا هو الشرك فى حقيقته وأصله •

ان بيننا اليوم ـ ممن يقولون ، أنهم مسلمون من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والاخلاق ، وبخاصة أخــلاق المعاملات المادية • وحاصــلون على الشهادات العليا من جامعات العالم يتساءلون أولا فى إستنكار وما للإسلام وسلوكنا الشخصى ؟ ما للاسلام والعرى فى الشواطىء ما للإسلام وزى المرأة فى الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأى سبيل ؟ وما للاســلام وتناول كأس من الخمر لاصــلاح المزاج ؟ ما للاسلام وهــذا الذي يفعله المتحضرون ؟ •• فأى فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » •

وهم يتساءلون ثانيا • بل ينكرون بشدة وعنف أن يتدخل الدين فى الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالاخلاق من غير اعتقاد : فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة فى الغش والسرقة ما لم يقعــا تحت طائلة القانون الوضعى ؟ لا بــل انهم يتبجحون بأن الاخلاق اذا تدخلت فى الاقتصاد تفســده وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية ـ النظرية الاخلاقية مثلا ـ ويعدونها تخليطا من أيــام زمــان •

=

برحمة منـــا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها الا بعد المدين كما بعدن ثمود » ٠

٢ ـ الحج (٣٠) :

وأن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيـــم وقوم لوط ، وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخـذتهم فكيف كان نكير ٠

٣ ـ الشعراء (٣١) :

« كذب أصحاب الأيكـــة المرسلين ، اذ قال لهم شعيب ألا تتقون ، انى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسئلكم عليـــه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفســـدين ، واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين ، قالوا انما أنت من المسحرين ، ومـــا أنت الا بشر مثلنـــا وان نظنك لمن الكاذبين ، فاسقط علينا كســـفا من السماء ان كنت من الصادقين ، قال ربى أعلم بما تعلمون ، فكذبوه فأخذهـم عـذاب يوم الظلة انه كان عـذاب يوم عظيم ٠ ان فى ذلك لآيـــــة ومـــا كان أكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم » ٠

= فـــلا يذهبن بنـــا الترفع كثيرا عن أهـل مدين فى تلـك الجاهليـة الاولى ٠ والبشرية اليوم فى جاهلية أشـــد جهالة ، ولكنها تدعى العلم والمعرفة والحضارة ، وتتهم الذين يربطون بين العقيدة فى الله ، والسلوك الشخصى فى الحياة ، والمعاملات المادية فى السوق ٠٠ تتهمهم بالرجعيـــة والتعصب والجمود ٠

وما تستقيم عقيدة توحيد الله فى القلب ، ثم تترك شريعـــة اللـــه المتعلقة بالسلوك والمعاملة الى غيرها من قوانين الارض ، فما يمكن أن تجمع التوحيد والشرك فى قلب واحد ٠

(٣٠) ٤٢ ـ ٤٤ ٠ فهى سنة مطردة فى الرســالات ، قبل الرســـالة الاخيرة ، أن يجىء الرسل بالآيات فيكذب بهـــا المكذبون ، فليس الرسول صلى الله عليه وسلم ـ بدعا من الرســـل حين يكذبه المشركون ٠ والعاقبة معروفة ، والســـنة مطردة ٠٠ وفى جميع تلك الحالات أمـــلى الله للكافرين حينا من الزمان ـ كما يملى لقريش ؟ ـ ثم أخذهم أخذا شديدا ٠٠ وهنـــا سؤال للتهويل والتعجب : فكيف كان نكير ؟ ٠٠ والنكير هـــو الانكار العنيف المصحوب بالتغيير ٠ والجواب معروف ، فهو نـــكير مخيف ؟ نكير العنيف والخسف والتدمير والهلاك والزلازل والعواصف والترويع ٠

(٣١) ١٧٦ ـ ١٩١ ٠

٤ ـ القصص (٣٢) :

« ولمـــا توجـه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى ســـواء السبيل ، ولمـــا ورد مـــاء مدين وجد عليه أمـة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصـــدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظـــل فقال رب انى لمـــا أنزلت الى من خير فقير ، فجاءته احداهما تمشى على استحياء قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت مـــن القوم الظالمين ، قالت احداهما يا أبت استئجره ان خير من استئجرت القوى الأمين ، قال انى أريد أن أنكحك احـــدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشـــق عليك ستجدنى ان شـــاء اللــه من الصالحين ، قال ذلك بينى وبينك أيمـــا الأجلين قضيت فلا عدوان على واللـــه على ما نقول وكيل ، فلما قضى موسى الأجـــل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعـــلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » ٠

الخلاصـــة :

٠ شعيب يظهر فى أرض مدين من جزيرة العرب ٠

أهـــل مدين يشركون باللـــه ، ويرفضون اخضاع حياتهم لشرعـــه ومنهاجه ، وينقصون الكيل والميزان ويخسرون النـــاس أشياءهم ويعثون فى الارض مفسدين ٠

الله سبحانه وتعالى يرسل شعيبا الى مدين ليدعوهم الى عبـــادة اللـــه الواحد القهار ٠

أهل مدين يرفضون دعـــوة شعيب ، ويتوعدونه بالاخراج من القرية ومن تبعه من المؤمنين ، اذ لم يشرك بالله ويفسد مثلهم ٠

شعيب يرفض تهديدهم ويصبر بعد الاستعانة باللـــه الواحد القهار ٠

الله يهلك مدين وينجى شعيبا ومن معه من المؤمنين ٠

---

(٣٢) ٢٢ ـ ٢٩ : ويرفع الستار هنـــا عن مصارع القوم ، وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التى أخـــذت قوم صالح ٠ فكان مصيرهم كمصيرهم خلت منهم الدور ، كأن لم يكن فيها دور ، وكأن لم يعمروهـــا حينا من الدهر ٠ مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحتهم فى الوجود وصفحتهم فى القلوب ٠

الدروس المستفادة من سيرة هود وسيرة صـالح وسيرة شعيب عليهم السـلام

يقول الله تعالى :

« تلك من أنباء القرى نقصـه عليك منها قائم وحصيد • وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون اللـه من شيء لمـا جـاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب • وكذلك أخـذ ربك اذ أخذ القرى وهى ظالمة ان أخذه أليم شديد » •

« ان فى ذلك لآية لمن خـاف عـذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود • وما نؤخره الا لأجـل معدود • يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد • فأما الذين شـقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك ان ربك فعال لمـا يريد • وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السـموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » •

« فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم من قبل وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص • ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيـه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب • وان كلا لمـا ليوفينهم ربك أعمالهم انه بما تعلمون خبير » •

« فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا انه بما تعملون بصير • ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أوليـاء ثم لا تنصرون • وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين • واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين » •

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفسـاد فى الارض الا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين • وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون • ولو شـاء ربك لجعل الناس أمـة واحدة ولا يزالون مختلفين • الا من رحـم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » •

وكلا نقص عليك من أنباء الرسـل ما نثبت بـه فؤادك وجـاءك فى هذه الحق وموعظـة وذكرى للمؤمنين ، وقـل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون •

وللـه غيب السماوات والارض واليه يرجع الامر كلـه فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون •

الفصل التاسع

« أصحاب الرس (١) »

« ورد ذكر أصحاب الرس فى سورة الفرقان ، والفرقان مكيـــة ، وتبدو كأنهـــا ايناس لرسول الله صـــلى الله عليه وسلم ـ وتسرية ، وتطمين له وتقوية وهـــو يواجه مشركى قريش ، وعنادهم له ، وتطاولهم عليـــه ، وتعنتهم معـــه ، وجدالهم بالباطل ووقوفهم فى وجه الهدى وصدهم عنه .

وهى فى اللمحة الأخرى تصـــور المعركة العنيفة مع البشرية الضـــالة الجاحـــدة المشاقة للـــه ورسوله ، وهى تجادل فى عنف وتشرد فى جموح ، وتتطاول فى قحـــة ، وتتعنت فى عناد ، وتجنح عن الهـــدى الواضح الناطق المبين .

انها البشرية التى تقول عن هـــذا القرآن العظيم : « ان هـــذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم آخرون » .. ، وتقول : « أســـاطير الاولين اكتتبهافهى تملى عليه بكرة واصيلا » . والتى تقول عن محمد رسول اللـــه الكريم . « ان تتبعون الا رجـــلا مسحورا » .. أو تقول فى استهزاء : « أهـــذا الذى بعث الله رسولا ؟ » .. والتى لاتكتف بهـــا الضلال ، فاذا هى تتـــطاول فى فجور على ربها الكبير : « واذا قيل لهم : اسجدوا للرحمن قالو : ومـــا الرحمن ؟ أنسجد لمـــا تأمرنا ؟ وزادهم نفورا . أو تتعنت فتقول : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ؟ » .

---

(١) الرس : بفتح أوله ، والتشديد ، البئر ، والرس : المعدن .. قـــال أبو اسحاق الرس فى القرآن بئر يروى انهم قوم كذبوا نبيهم ورســـوه فى بئر أى دسوه فيها قال ويروى ان الرس قرية باليمامة يقـــال لهـــا فلج ، وروى أن الرس ديار لطائفة من ثمود ، وكل بئر رس . وقال آخرون فى قوله عز وجل : وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، ؟ قال : الرس وادى اذربيجان وحـــد اذربيجان مـــا وراء الرس ، ويقال انه كان بأران على الرس ألف مدينة فبعث اللـــه لديهم نبيا يقال له موسى وليس بموسى بن عمران .

وهي هي من قديم كما يرسمها سياق السورة من عهد نوح الى موقفها هذا الاخير مع رسولها الاخير .. لقد اعترض القوم على بشرية الرسول : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ؟ لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا ! » .

واعترضوا على حظه من المال . فقالوا : « أو يلقى اليه كنزا وتكون له جنة يأكل منها » . واعترضوا على طريقة تنزيل القرآن فقال : « لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة ! » . وذلك فوق التكذيب والاستهزاء .. والقحة .

ووقف الرسول يواجه هذا كله ، وهو وحيد ، ملتزم حده مع ربه لا يقترح عليه شيئا .. ولا يزيد على أن يتوجه اليه مبتغيا رضاه ، ولا يحفل بشيء سواه : « رب الا يكن بك علي غضب فلا أبالي . لك العتبى حتى ترضى » ..

فهنا في هذه السورة يؤدبه ربه الى كنفه ويمسح على الآمه ومتاعبه . ويهون عليه مشقة ما يلقى من عنف القوم وسوء أدبهم وتطاولهم عليه .

ويعزيه عن استهزائهم به بتصوير المستوى الهابط الذي يتمرغون فيه : « أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليهم وكيلا ؟ أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ! ان هم الا كالانعام ، بل هم أضل سبيلا ! » ويعده العون والمساعدة في قوله الجدل والمحاجة : « ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

وفي نهاية المعركة كلها يعرض عليه مصارع المكذبين من قبل : « ولقد أتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذابا أليما . وعادا وثمودا **وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا .. وكلا ضربنا له** الامثال وكلا تبرنا تتبيرا . ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا » (٢) .

---

(٢) الفرقان : ٣٥ ـ ٤٠ . وقد ورد ذكر أصحاب الرس أيضا في سورة ق : ١٤ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود .. وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد) .

ثم يعرض الله سبحانه وتعالى على رسوله نهايتهم التعيسة في سلسلة من مشاهد القيامة : « الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » · ويسليه بأن مثله مثل الرسل كلهم قبله ·· وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ، وكفى بربك هاديا ونصيرا » ·

ويكلفه أن يصبر ويصابر ، ويجاهد الكافرين بما معه من قرآن واضح الحجة قوى البرهان عميق الأثر في الوجدان : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » ·

ويقويه على مشاق الجهاد بالتوكل على مولاه : « وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا » ··

وهكذا تمضى السورة ، ثم تختتم بتصوير هوان البشرية على الله ، لولا تلك القلوب المؤمنة التى تلتجىء اليه وتدعوه : « قل : ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ·

قوم تبع

ترد أخبار قوم « تبع » (٣) فى سياق سورة الدخان ·

وتبدأ السورة بالحديث عن القرآن وتنزيله فى ليلة مباركة فيها يفرق كل أمر حكيم ، رحمة من الله بالعباد وانذارا لهم وتحذيرا · ثم تعريف للناس بربهم : « رب السموات والارض وما بينهما ، واثبات لوحدانيته وهو المحيى المميت ورب الاولين والآخرين · ثم يضرب عن هذا الحديث ليتناول شأن القوم ·· » « بل هم فى شك يلعبون » ؟ ويعاجلهم بالتهديد المرعب جزاء الشك واللعب : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم » ·· ودعاءهم يكشف العذاب عنهم وهو يوم يأتى لا يكشف · وتذكيرهم بأن العذاب لم يأتى بعد ، وهو الآن عنهم مكشوف ، فلينتهزوا الفرصة ، قبل أن يعودوا الى ربهم ، فيكون ذلك العذاب المخوف : « يوم تبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » ·

ومن هذا الايقاع العنيف بمشهد العذاب ومشهد البطشة الكبرى والانتقام ، ينتقل بهم الى مصرع فرعون وملئه يوم جاءهم رسول كريم ،

---

(٣) والتبايعة من ملوك حمير فى الجزيرة العربية ·

ولابد ان القصة التى يشير اليها القرآن هنا كانت معروفة للسامعين ومن ثم يشير اليها اشارة سريعة للمس قلوبهم بعنف ·

وناداهم : ان أدوا الى عبـــاد اللـــه انى لكم رسول أمين ، والا تعلـــوا على الله • « فأبوا ان يسمعوا حتى يئس منهم الرسول • ثم كان مصرعهم فى هوان بعد الاستعلاء والاستكبار : « كم تركوا من جنـــات وعيون وزروع ومقـــام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين • كذلك وأورثناها قوما آخرين • فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين » •

وفى غمرة هـــذا المشهد الموحى يعود الى الحديث عن تكذيبهم بالآخرة ، رقولهم : « ان هى الا موتتنـــا الاولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنـــا ان كنتم صادقين « ليذكرهم بمصرع قوم تبع ، وماهم بخير منهم ليذهبوا ناجين من مثـــل مصيرهم الاليم : « أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم أنهم كانوا مجرمين » (٤) •

وفى ظـــل هـــذه الذكرى ، وارتجاف القلوب من تصورها ، يقودهم الى النظر فى تصميم السماوات والارض وتنسيق هـــذا الكون ، وما يبدو وراء هـــذا التنسيق من قصد وصدق وتدبير •

ثم يحدثهم اللـــه عن يوم الفصل : « ميقاتهم أجمعين » • وهنـــا يعرض مشهدا عنيفا للعذاب بشجرة للزقوم ، وعتل الأثيم ، وأخـــذه الى ســـواء الجحيم ، يصـــب من فوق رأســـه الحميـــم • مـــع التبكيت والترذيـــل : « ذق انك أنت العزيز الكريم • ان هـــذا ما كنتم به تمترون » •

والى جواره مشهد النعيم عميقا فى النعمة عمق مشـــهد العذاب فى الشدة تمشيا مع ظلال السورة العميقة وايقاعها الشديد •

وتختم السورة بالاشارة الى القرآن كما بدأت : « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » ، وبالتهديد الملفوف العنيف : « فارتقب انهم مرتقبون » •

وقد أورد ابن هشام (٥) رواية فحواها :

« أن تبع وقومـــه كانوا أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجـــه الى مكـــة وهى طريقه الى اليمن ، حتى اذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هـــذيل ابن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد ، فقالوا له أيهـــا الملك ، الا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك ، فيـــه اللؤلؤ والزبرجـــد والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى ، قالوا : بيت بمكة يعبـــده أهله ،

---

(٤) الدخان : ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧

(٥) سيرة النبى ص ٢٧ ـ ٢٨ •

ويصلون عنده • وانما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لمـا عرفوا من هـلاك من أراده من الملوك وبغى عنده • فلما اجمع لمـا قالوا أرسل الى الحبرين ، فسألهما عن ذلك ، فقالا له : ما أراد القوم الا هلاكك وهلاك جندك ، مانـعلم بيتـا للـه اتخذه في الارض لنفسه غيره ولئن فعلت ما دعوك اليـه لتهلكن ولتهلكن من معك جميعـا قال فماذا تأمرانني أن أصنع اذا (أنا) قدمت عليه ؟ قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده ، قال : فما يمنعكما انتما من ذلك ؟ قالا : اما واللـه انه لبيت أبينا ابراهيم ، وانه لكما أخبرناك ولكن أهله حالوا بيننا وبينـه بالاوثان التى نصبوها حوله ، وبالـدماء التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهـل شرك ـ أو كما قالا له ـ فعرف نصحهما وصدق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل ، فقطع أيديهم وأرجلهم ، ثم مضي حتى قـدم مكـة ، فطاف بالبيت ، ونحر عنده ، وحلق رأسـه ، وأقـام بمكة ستة أيام ـ فيما يذكرون ـ ينحر بهـا للناس ، ويطعم أهلها ، ويسقيهم العسـل ، وأرى فى المنـام أن يكسو البيت ، فكسـاه الخصف ، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكسـاه المعافر ، ثم أرى أن يكسوه أحسن من ذلك ، فكسـاه المـلأ والوصائل ، فكان تبع ـ فيما يزعمون ـ أول من كسا البيت ، وأوصى به ولاته من جرهم ، ومرهم بتطهيره ، والا يقربوه دمـا ولا ميتة ولا مثلاة ، وهى المحائض ، وجعل له بابا ومفتاحا •

الفصل العاشر

ترد أول اشارة الى سبأ فى القرآن الكريم ، في سورة النمل (١) :

يقول الله تعالى :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين • وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين • وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون • حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون • فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وان أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين • وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين • لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين • انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم • وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون • ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون • الله لا اله الا هو رب العرش العظيم • قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين • اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون • قالت يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم ، انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم • ألا تعلوا على وأتونى مسلمين • قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون • قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين • قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون • وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون • فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما أتان الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون • ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون • قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين • قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين • قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا

---

(١) ١٥ ـ ٤٤

عنده قال هـــذا من فضـــل ربى ليبلونى ، ءأشكر أم أكفر ومن شــــكر فانما يشكر لنفســـه ومن كفر فان ربى غنى كريم • قال نكروا لهـــا عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون • فلما جـــاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنـــا مسلمين • وصدها ما كانت تعبد من دون اللـــه انها كانت من قوم كافرين • قيـــل لها ادخلى الصرح فلما رأته حســـبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان للـــه رب العالمين » •

وقصة سليمان عليه السلام فى سورة النمـــل مبســـوطة بتوســـع ، وان كانت تختص بحلقة واحـــدة من حلقات حياته ، حلقة قصته مع الهدهد وملكة ســـبأ •

يمهد سياق السورة لهـــذه القصة بما يعلنه سليمان على النـــــاس من تعليم اللـــه له منطق الطير واعطائه من كل شىء ، وشكره للـــه على فضله المبين • ثم مشهد موكبه من الجن والانس والطير ، وتحذير نملة لقومها من هـــذا الموكب ، وادراك سليمان لمـــا قالته النملة وشكره لربه على فضله ، وادراكه ان النعمة ابتلاء ، وطلبـــه من ربه أن يعينه على الشـــكر والنجاح فى هذا الابتلاء •

ونلاحظ الذكر فى جو السورة وظلالها على العلم ، والاشارة الاولى فى قصة داود وسليمان هى :

« ولقد آتينا داود وسليمان علما » واعلان سليمان لنعمـــة اللـــه يبدأ بالاشارة الى تعليمه منطق الطير : « وقـــال : يا أيها الناس علمنـــا منطق الطير • « وعـــذر الهدهد عن غيبتـــه فى ثنايا القصـــــة يبـــدأ بقوله :

« أحطت بما لم تحط بـــه وجئتك من ســـبأ بنبأ يقين » • والذى عنـــده « علم » من الكتاب هـــو الذى يأتى بعرش الملكة فى غمضة عين ••• وافتتاح السورة عن القرآن كتاب اللـــه المبين الى المشركين • وهـــم يتلقونه بالتكذيب• وفى القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة ســـبأ ، فما تلبث طويلا حتى تأتى هى وقومها مسلمين • لمـــا رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والانس الطير • » وعـــذر الهدهد عن غيبتـــه فى ثنايا القصـــة يبـــدأ بقوله : عباده ، وهو رب العرش العظيم • وفى السورة استعراض لنعم اللـــه على العباد ، وآياته فى الكون ، واستخلافه للنـــاس وهم يجحدون بآيات الله ، ولا يشكرونه • وفى القصـــة نموذج للعبد الشـــاكر ، الـــذى يســـأل ربـــه أن يوفقه الى شكر نعمته عليه ، المتدبر لآيات اللـــه الذى لا يغفل عنها ،

ولا تبطره النعمة ، ولا تطغيه القوة · فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة واشارات القصة ومواقفها ·

« ولقد آتينا داود وسليمان علما · وقالا : الحمد لله الـــذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » ·

هـــذه هي اشارة البدء في القصـــة · واعلان الافتتاح · خبر تقريرى عن أبرز النعم التى أنعم اللـــه بها على داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نعمة العلم · فأما عن داود فقد ورد تفضيل ما آتاه اللـــه من العلم فى سورة أخرى · منها تعليمه الترتيـــل بمقاطع الزبور ، ترتيلا يتجاوب بـــه الكون من حوله ، فتؤوب الجبال معـــه والطير ، لحلاوة صوته ، وحرارة نبراته ، واستغراقه فى مناجاة ربه ، وتجرده من العوائق والحواجز التى تفصـــل بينه وبين ذرات هـــذا الوجود · ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب ، وتطويع الحديد له ، ليصوغ منـــه من هـــذا ما يشـــاء ، ومنها تعليمه القضاء بين الناس ، مما شاركه فيه سليمان ·

وأما سليمان ففى هـــذه السورة تفصيل ما علمه اللـــه من منطق الطير وما اليه ، بالاضافة الى ما ذكر فى ســـور أخرى من تعليمه القضاء ، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله ·

تبدأ القصة بتلك الاشارة ، « ولقد آتينا داود وسليمان علمـــا » وقبل أن تنتهى الآية يجىء شكر داود وسليمان على هـــذه النعمة ، واعلان قيمتها وقدرها العظيم ، والحمد للـــه الذى فضلهما بهـــا على كثير من عبـــاده المؤمنين · فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة بـــه من اللـــه على العباد ، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عبـــاد الله المؤمنين ·

ولا يذكر هنـــا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هـــو المقصـــود بالابراز والاظهـــار وللايحاء بأن العلم كله هبـــة من الله ، وبأن اللائق بكل ذى علم أن يعرف مصدره ، وأن يتوجـــه الى الله بالحمد عليه ، وان ينفقه فيما يرضى الله الذى أنعم بـــه وأعطاه · فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله ، ولا منسيا له اياه · وهو بعض مننه وعطاياه ·

والعلم الذى يبعد القلب عن ربه علم فاســـد ، زائغ عن مصدره وعن هدفه ، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس ، انما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار ، لأنه انقطع عن مصدره ، وانحرف عن وجهته ، وضـــل طريقه الى اللـــه ···

ولقد انتهت البشرية اليوم الى مرحلة جيدة من مراحل العلم ، بتحطيم الذرة واستخدامها • ولكن ماذا جنت البشرية حتى اليوم من مثل هذا العلم الذى لا يذكر أصحابه الله ، ولا يخشونه ، ولا يحمدون له ، ولايتوجهون بعلمهم اليه ؟ ماذا جنت غير الضحايا الوحشية فى قنبلتى « هيروشيما » و « ناجازاكى » وغير الخوف والقلق الذى يؤرق جفون الشرق والغرب ويتهددها بالتحطيم والدمار والفناء (٢) ؟

وبعد تلك الاشارة الى الانعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث :

« وورث سليمان وداود • وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء • ان هذا لهو الفضل المبين » ••

وداود أوتى الملك مع النبوة والعلم • ولكن الملك لا يذكر فى صدد الحديث عن نعمة الله علية وعلى سليمان ، انما يذكر العلم ، لأن الملك أصغر من أن يذكر فى هذا المجال !

« وورث سليمان داود » والمفهوم أنها وراثة العلم ، لانه هو القيمة العليا التى تستأهل الذكر • ويؤكد هذا اعلان سليمان فى الناس : « قال : يا أيها الناس علمتنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء » ••• فيظهر ما علمه من منطق الطير ويجمل بقية النعم مع اسنادها الى المصدر الذى علمه منطق الطير • وليس هو داود • فهو لم يرث هذا عن أبيه • وكذلك ما أوتيه من كل شيء انما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم •

---

(٢) قال البروفسور « م • ى • أولى فنيت » الاستاذ بجامعة برمنجهام وعضو الهيئة الصناعية فى اعداد القنبلة الذرية • بعد حادثى هيروشيما وناجازاكى :

« وأنا على يقين أنه سيظهر فى مدة قصيرة على مسرح العالم قنابل تفوق القنابل الاولى بعشرة آلاف طن فى قوة الانفجار • وستليها قنابل قوتها مليون ، ولا ينفع فى التوقى منها دفاع أو احتياط • وان ست قنابل من هذا القبيل تكفى لتدمير انجلترا على بكرة أبيها » •

وقد صحت نبوءته وانتجت القنابل الهيدروجينية التى تعد قنبلتا هيروشيما وناجازاكى بالقياس اليها لعبة أطفال !

وبهذه المناسبة نذكر أن قنبلة هيروشيما قد قتلت لفورها من اليابانيين من يتراوح بين عشرة ومائتى ألف وأربعين ومائتى ألف • وذلك غير المشوهين والمعوقين الذين ماتوا بعد ذلك • وهم يعدون بعشرات الالوف ! !

« يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء » ٠٠ يذيعهـــا سليمان ــ عليه السلام ــ في الناس تحدثا بنعمة الله ، واظهارا لفضله ، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس ٠ ويعقب عليها « ان هـــذا لهو الفضل المبين » فضل الله الكاشف عن مصدره ، الدال على صاحبه ٠ فما يملك تعليم منطق الطير لبشر الا الله ٠ وكذلك لا يؤتى أحـدا من كل شيء ــ بهـــذا التعميـم الا اللـــــه ٠

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم ــ هي لغاتها ومنطقهـــا ــ فيما بينها ٠ واللـــه سبحانه خالق هـــذه العوالم يقول : « ومـــا من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم » ولا تكون أممـــا حتى تكون لهـــا روابط معينة تحيـا بها ، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها ٠ وذلك ملحوظ في حيـــاة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات ٠ ويجتهد علمـاء هـــذه الانواع في ادراك شيء من لغاتها ووسائل التفـــاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين ٠ فأمـــا ما وهبـــه الله لسليمان ــ عليه السلام ــ فكان شأنا خاصـــا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر ٠ لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وســـائل الطير وغيره في التفاهم ، على طريق الظن والحدس ، كما هـــو حال العلماء اليوم ٠٠

أحب أن يتأكد هـــذا المعنى ويتضح لأن بعض المفسرين المحدثين ممن تبهرهم انتصارات العلـــم الحديث يحاولون تفسير ما قصـــه القرآن عن سليمان ــ عليه السلام ــ في هـــذا الشأن بأنه نوع من ادراك لغـــات الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة ٠ وهـــذا اخراج للخارقة عن طبيعتها ، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل ٠٠ وانه لايسر شيء وأهون شيء على اللـــه ، أن يعلم عبدا من عبـــاده لغـــات الطير والحيوان والحشرات ، هبـــه لدنيـــه منه ، بلا محاولة ولا اجتهاد ٠ وان هي الا ازاحة لحواجز النوع التي أقامها اللـــه بين الانواع وهـو خالق هذه الأنواع !

على أن هـــذا كله لم يكن الا شقا واحدا للخارقة التي أتاحهـــا اللـــه لعبده سليمان ٠ أما الشق الآخر فكان تسخير طائفة من الجن والطير لتكون تحت امرته ، وطوع امره ، كجنوده من الانس سواء بســـواء ، والطائفـة التي سخرها له من الطير وهبها ادراكا خاصـــا أعلى من ادراك نظـــائرها في أمة الطير ٠

يبدو ذلك في قصـــة الهدهد الذي أدرك من أحوال ملكة ســـبأ

وقومها ما يدركه أعقل الناس وأذكاهم وأتقاهم • وكان ذلك كذلك على طريق الخارقة والاعجاز •

حقيقة أن سـنة الله فى الخلق جرت على أن يكون للطير ادراك خاص يتفاوت فيما بينـه ، ولكنه لا يصل الى مستوى ادراك الانسان ، وأن خلقـه الطير على هـذا النحو حلقة فى سلسلة التناسق الكونى العام • وأنهـا خاضعة ـ كحلقة مفردة ـ للناموس العام ، الذى يقتضى وجودها على النحـو الذى وجدت به •

وحقيقة ان الهدهد الـذى يولد اليوم ، هو نسـخة من الهدهد الذى وجـد منذ ألوف أو ملايين من السـنين ، منـذ أن وجدت الهداهد • وان هنـاك عوامل وراثة خاصـة تجعل منـه نسخة تكاد تكون طبق الاصـل من الهدهد الاول • ومهما بلغ التحوير فيـه ، فهو لا يخرج من نوعـه ، ليرتقى الى نوع آخر ، •• وان هـذا ـ كما يبدو ـ طرف من سنة الله فى الخلق ، ومن الناموس العام المنسق للكون •

ولكن هاتين الحقيقتين الثابتتين لا تمنعان أن تقع الخارقة عندما يريدها الله خالق السنن والنواميس • وقـد تكون الخارقة ذاتها جزءا من الناموس العام ، الـذى لا نعرف أطرافه • جزءا يظهر فى موعده الذى لا يعلمه الا الله ، يخرق المألوف المعهود للبشر ، ويكمل ناموس اللـه فى الخلق والتناسق العام • وهـكذا وجد هـدهـد سليمان ، وربما كل الطائفة من الطير التى سخرت له فى ذلك الزمان •

ونعود من هـذا الاستطراد الى تفصيل قصـة سليمان بعد وراثته لداود واعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وافضـال « وحشر لسـليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » ••

فهذا هو موكب سليمان محشود محشـور ، يتألف من الجن والانس والطير • والانس معروفون ، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم الا ما قصـه الله علينا من أمرهم فى القرآن • وهـو أنه خلقهم من مارج من نار • أى من لهيب متموج من النار • وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم « انه يراكم هـو وقبيله من حيث لا ترونهم » (الكلام عن ابليس أو الشيطان وابليس من الجن) وانهم قادرون على الوسوسة فى صدور الناس بالشر عـادة والايحاء لهم بالمعصية ـ ولا ندرى كيف ـ وأن منهم طائفـة آمنت برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يرهم هـو أو يعرف منهم ايمانهم ولـكن أخبره الله بذلك اخبارا : « وقل : أوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا : انا

سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا » .. ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحاريب والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام ، ويغوصون له فى البحر ، ويأتمرون بأمره باذن الله . ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا فى موكبه مع اخوانهم من الانس والطير .

ونقول : ان الله سخر لسليمان طائفة من الجن وطائفة من الطير كما سخر له طائفة من الانس . وكما أنه لم يكن كل أهل الارض من الانس جندا لسليمان — اذ أن ملكه لم يتجاوز ما يعرف الآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق الى ضفة الفرات — فكذلك لم يكن جميع الجن ولا جميع الطير مسخرين له ، انما كانت طائفه من كل أمة على السواء .

ونستند فى مسألة الجن الى أن ابليس وذريته من الجن كما قال القرآن .. « ان ابليس كان من الجن » .. وقال فى سورة « الناس » : « الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس » . وهؤلاء كانوا يزاولون الاغواء والشر والوسوسة للبشر فى عهد سليمان . وما كانوا ليزاولوا هذا وهم مسخرون له مقيدون بأمره . وهو نبى يدعو الى الهدى . فالمفهوم اذن أن طائفة من الجن هى التى كانت مسخرة له .

ونستند فى مسألة الطير الى أن سليمان حين تفقد الطير علم بغيبة الهدهد ولو كانت جميع الطيور مسخرة له ، محشورة فى موكبه ، ومنها جميع الهداهد ، ما استطاع أن يتبين غيبة هدهد واحد من ملايين الهداهد فضلا على بلايين الطير . مالى لا أرى الهدهد ؟ فهو اذن هدهد خاص بشخصه وذاته ، وقد يكون هو الذى سخر لسليمان من أمة الهداهد ، أو يكون صاحب النوبة فى ذلك الموكب من المجموعة المحدودة العدد من جنسه . ويعين على هذا ما ظهر من أن ذلك الهدهد موهوب ادراكا خاصا ليس من نوع ادراك الهداهد ولا الطير بصفة عامة . ولابد أن هذه الهبة كانت للطائفة الخاصة التى سخرت لسليمان ، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور . فان نوع الادراك الذى ظهر من الهداهد الخاص فى مستوى يعادل مستوى العقلاء الاذكياء الاتقياء من الناس !

حشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، وهو موكب عظيم ، وحشد كبير ، يجمع أوله على آخره « فهم يوزعون » حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى . فهو حشد عسكرى منظم . يطلق عليه اصطلاح الجنود ، اشارة الى الحشد والتنظيم .

« حتى اذا أتوا على وادى النمل · قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون · فتبسم ضاحكا من قولها ، وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ··

لقد سار الموكب · موكب سليمان من الجن والانس والطير · فى ترتيب ونظام ، يجمع آخره على أوله ، وتضم صفوفه ، وتتلاءم خطاه · حتى اذا أتوا على واذ كثير النمل ، حتى لقد أضافه التعبير الى النمل فسماه « وادى النمل » قالت نملة · لها صفة الاشراف والتنظيم على النمل السارح فى الوادى ــ ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم ، تتنوع فيها الوظائف وتؤدى كلها بنظام عجيب ، يعجز البشر غالبا من اتباع مثله ، على ما أوتوا من عقل راق وادراك عال ــ قالت هذه النملة للنمل ، بالوسيلة التى تتفاهم بها أمة النمل ، وباللغة المتعارفة بينها · قالت للنمل : ادخلوا مساكنكم ــ كى لا يحطمنكم سليمان وجنوده · وهم لا يشعرون بكم ·

فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بادراك ما قالت ، وبمضمون ما قالت · هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذى يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضمر اذاه · وانشرح صدره لادراكه · فهى نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز · وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الادراك ، وأن يفهم عنها النمل فيطيع !

أدرك سليمان هذا « فتبسم ضاحكا من قولها » ·· وسرعان ما هزته هذه المشاهدة ، وردت قلبه الى ربه الذى أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه ، واتجه الى ربه فى انابة يتوسل اليه :

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » ··

بهذا النداء القريب المباشر المتصل ·· « أوزعنى » اجمعنى كلى · اجمع جوارحى ومشاعرى ولسانى وجنانى وخواطرى وخلجاتى ، وكلماتى وعباراتى ، وأعمالى وتوجهاتى · اجمعنى كلى · اجمع طاقاتى كلها · أولها على آخرها على أولها (وهو المدلول اللغوى لكلمة أوزعنى) لتكون كلها فى شكر نعمتك على وعلى والدى ··

وهذا التعبير يشى بنعمة الله التى مست قلب سليمان ــ عليه

السلام ـ فى تلك اللحظة ويصور نوع تأثره ، وقوة توجهه ، وارتعاشة وجدانه ، وهو يستشعر فضل الله الجزيل ، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه ، ويحس مس النعمة والرحمة فى ارتياح وابتهال ٠

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى » ٠٠ « وأن أعمل صالحا ترضاه » ٠٠ والعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق اليه من يشكر نعمته ، وسليمان الشاكر الذى يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته ، يستعين به كذلك ليوفقه الى عمل صالح يرضاه ٠ وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله ٠

« وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » ٠٠

أدخلنى برحمتك ٠٠ فهو يعلم أن الدخول فى عبادة الله الصالحين ، رحمة من الله ، تتدارك العبد فتوفقه الى العمل الصالح ، فيسلك فى عداد الصالحين ٠ يعلم هذا فيضرع الى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين فى هذا الرعيل ٠ يضرع الى ربه وهو النبى الذى أنعم الله عليه وسخر له الجن والانس والطير ٠ غير آمن مكر الله ـ حتى بعد أن اصطفاه ، خائفا أن يقصر به عمله ، وأن يقصر به سره ٠٠ و ر لك تكون الحساسية المرهفة بتقوى الله وحشيته والتشوق الى رضاه ورحمته فى اللحظة التى تتجلى فيها نعمته كما تجلت والنملة تقول وسليمان يدرك عنها ما تقول بتعليم الله له وفضله عليه ٠

ونقف هنا أمام خارقتين لاخارقة واحدة ٠ خارقة ادراك سليمان لتحذير النملة لقومها ٠ وخارقة ادراك النملة أن هذا سليمان وجنوده ٠ فأما الأولى فهى مما علمه الله لسليمان ٠ وسليمان انسان ونبى ، فالامر بالقياس اليه أقرب من الخارقة الاخرى البادية فى مقالة النملة ٠ فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر ، وأنهم يحطمون النمل اذا داسوه ٠ وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما اودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة ٠ أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هى سليمان وجنوده فتلك هى الخارقة الخاصة التى تخرج على المألوف ٠ وتحسب فى عداد الخوارق فى مثل هذه الحال ٠

قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ :

والآن نأتى الى قصة سليمان مع الهدهد وملكة سبأ وهى مقطعة الى ستة مشاهد ، بينها فجوات فنية ، تدرك من المشاهد المعروضة ، وتكمل جمال العرض الفنى فى القصة ، وتتخللها تعقيبات على بعض المشاهد

تحمل التوجيه الوجدانى المقصود بعرضها فى السورة ، وتحقق العبرة التى من اجلها يساق القصص فى القران الكريم • وتتناسق التعقيبات مع المشاهدة والفجوات تنسيقا بديعا ، من الناحيتين : الفنية الجماليه ، والدينيه الوجدانية •

ولما كان افتتاح الحديث عن سليمان قد تضمن الاشارة الى الجن والانس والطير ، كما تضمن الاشارة الى نعمة العلم ، فان القصه تحتوى دورا لكل من الجن والانس والطير • فيها دور العلم كذلك • وكأنما كانت تلك المقدمه اشارة الى أصحاب الادوار الرئيسية فى القصة •• وهذه سمة فنية دقيقة فى القصص القرآنى •

كذلك تتضح السمات الشخصية والمعالم المميزة لشخصيات القصة : شخصية سليمان ، وشخصية الملكة (ملكة سبأ) وشخصية الهدهد ، وشخصية حاشية الملكة • كما تعرض الانفعالات النفسية لهذه الشخصيات فى شتى مشاهد القصة ومواقفها •



يبدأ المشهد الاول فى مشهد العرض العسكرى العام لسليمان وجنوده ، بعد ما أتوا على وادى النمل ، وبعد مقالة النملة ، وتوجه سليمان الى ربه بالشكر والدعاء والانابة :

« وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين » ••

فها هو ذا الملك النبى • سليمان • فى موكبه الفخم الضخم • ها هو ذا يتفقد الطير فلا يجد الهدهد • ونفهم من هذا أنه هدهد خاص ، معين فى نوبته فى هذا العرض • وليس هدهد ما من تلك الالوف أو الملايين التى تحويها الارض من أمة الهداهد • كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته : سمة اليقظة والدقة والحزم • فهو لم يغفل عن غيبة جندى من هذا الحشد الضخم من الجن والانس والطير ، الذى يجمع آخره على أوله كى لا يتفرق وينتكث •

وهو يسأل عنه فى صيغة مترفعة مرنة جامعة : « مالى لا أرى الهدهد ؟ أم كان من الغائبين ؟ »

ويتضح أنه غائب ، ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير اذن ! •• وحينئذ يتعين أن يؤخذ الامر بالحزم ، كى لا تكون فوضى • فالامر

بعد سؤال الملك هـذا السؤال لم يعـد سرا • واذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهـدد الجندي الغائب المخالف : « لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه » •• ولـكن سليمان ليس ملكا جبارا فى الارض ، انما هو نبى ، وهـو لم يسمع بعد حجـة الهدهد الغائب ، فلا ينبغى ان يقضى فى شـأنه قضـاء نهائيـا قبـل أن يسمع منه ، ويتبين عـذره •• ومن ثم تبرز سمة النبى العادل : «أوليأتينى بسلطان مبين » • أى حجة قوية توضح عذره ، وتنفى المؤاخذة عنه •

ويسدل الستار على هـذا المشهد الاول فى القصـة (أو لعله كان ما يزال قائما) ويحضر الهدهد • ومعـه نبأ عظيم ، بـل مفاجأة ضخمة لسليمان ، ولنـا نحن الذين نشهد أحداث الرواية الآن !

« فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سـبأ بنبأ يقين • انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون اللـه ، وزين لهم الشـيطان أعمالهم ، فصدهم عن السبيل ، فهم لا يهتدون الا يسجدوا للـه الذى يخرج الخبء فى السماوات والارض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون « الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » ••

انه يعرف حزم الملك وشدته • فهو يبدأ حديثـه بمفاجأة تطغى على موضوع غيبته ، وتضمن اصغاء الملك له • « أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبـأ بنبأ يقين » •• فأى ملك لا يستمع وأحـد رعاياه يقول له : « أحطت بما لم تحط به » ؟ !

فاذا ضمن اصـغاء الملك بعد هـذه المفاجأة أخـذ فى تفصيل النبأ اليقين الذى جـاء به من سبأ ـ ومملكة سـبأ تقع فى جنوب الجزيرة باليمن ـ فذكر انه وجدهم تحكمهم امرأة ، « أوتيت من كل شىء » وهى كناية عن عظمة ملكها وثرائها وتوافر أسباب الحضـارة والمتاع • « ولهـا عرش عظيم » • أى سرير ملك فخم ضخم ، يـدل على الغنى والترف وارتقـاء الصناعة • وذكر أنه وجـد الملكة وقومها « يسجدون للشمس من دون الله » وهنـا يعلل ضـلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمـالهم ، فأضلهم ، فهم لا يهتدون الى عبادة الله العليم الخبير « الذى يخرج الخبء فى السماوات والأرض • والخبء : المخبوء اجمالا سواء أكان هـو مطر السماء ونبـات الارض ، أم كان هـو أسرار السماوات والارض • وهى كناية عن كل مخبوء دراء ستار الغيب فى الكون العريض « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » وهى

مقابلة للخبء فى السماوات والارض بالخبء فى أطواء النفس ٠ ما ظهر منه وما بطن ٠

والهدهد الى هـــذه اللحظة يقف موقف المذنب ، الذى لم يقض الملك فىأمره بعد ، فهو يلمح فى ختام النبـــأ الذى يقصـــه ، الى اللـــه الملك القهار ، رب الجميع ، صاحب العرش العظيم ، الذى لا تقاس اليـــه عروش البشر ٠ ذلك كى يطامن الملك من عظمته الانسانية أمـــام هـذه العظمة الالهية :

« الله لا اله الا هو رب العرش العظيم » ٠٠

فيلمس قلب سليمان ــ فى ســـياق التعقيب على صنع الملكة وقومها ــ بهذه الاشارة الخفية !

ونجد أنفسنا أمام هدهد عجيب ٠ صاحب ادراك وذكاء وايمان ، وبراعة فى عرض النبـــأ ، ويقظة الى طبيعة موقفه ، وتلميح وايماء أريب ٠٠ فهو يدرك ان هـــذه ملكة وأن هؤلاء رعيـــة ٠ ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله ٠ ويدرك أن السجود لا يكون الا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والارض ، وانه هـــو رب العرش العظيم ٠٠ وما هـكذا تدرك الهداهد ٠ انما هـــو هدهد خاص أوتى هـــذا الادراك الخاص ، على سبيل الخارقة التى تخالف المألوف ٠

ولا يتسرع سليمان فى تصديقه أو تكذيبـــه ، ولا يستخفـــه النبـــأ العظيم الـــذى جاءه بـــه ٠ انما يأخذ فى تجربتـــه ، للتأكد من صحته ٠ شـــأن النبى العادل والملك الحازم :

« وقال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ٠ اذهب بكتابى هـــذا فألقه اليهم ، ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون » ٠

ولا يعلن فى هـــذا الموقف فحوى الكتاب ، فيظل ما فيـــه مغلقا كالكتاب نفسـه ، حتى يفتح ويعلن هنـــاك وتعرض المفاجأة الغنية فى موعدها المناسب !

ويسدل الستار على هـــذا المشهد ليرفع فاذا الملكة وقـــد وصل اليها الكتاب وهى تستشير الملأ من قومها فى هذا الأمر الخطير :

« قالت : يا أيها المـــلأ انى ألقى الى كتـــاب كريم ٠ انه من سليمان ، وانه باسم الله الرحمن الرحيم ٠ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين » ٠٠

فهى تخبرهم أنه ألقى اليها كتـــاب • ومن هـــذا نرجح أنهـــا لم تعلم من ألقى اليها الكتاب ، ولا كيف ألقـــاه • ولو كانت تعرف أن الهدهـــد هـــو الذى جاء بـــه كما تقول التفاسير ـ لأعلنت هـــذه العجيبة التى لا تقع كل يوم • ولكنها قالت بصيغة المجهول • مما يجعلنـــا نرجح أنهـــا لم تعلم كيف ألقى اليها ولا من ألقاه •

وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » • وهـــذا الوصف ربما خطر لهـــا من خاتمة أو شكله • أو من محتوياته التى أعلنت عنهـــا للمـــلأ : « انـــه من سليمان ، وانه باسم اللـــه الرحمن الرحيم • ألا تعلـــوا علىّ وأتونى مسلمين » •• وهى كانت لا تعبد الله • ولـــكن صيت سليمان كان ذائعـــا فى هـــذه الرقعة ، ولغـــة الكتاب التى يحكيها القرآن فيها استعلاء وحـــزم وجزم • مما قد يوحى اليها بهذا الوصف الذى أعلنته •

وفحوى الكتاب فى غاية البســـاطة والقوة • فهو مبدوء باسم اللـــه الرحمن الرحيم • ومطلوب فيه أمر واحد :

ألا يستكبروا على مرسله ويستعصوا ، وأن يأتوا اليـــه مستسلمين لله الذى يخاطبهم باسمه •

ألقت الملكة الى المـــلأ من قومها بفحوى الكتاب ، ثم استأنفت الحديث تطلب مشورتهم ، وتعلن اليهم أنها لن تقطع فى الامر الا بعـــد هـــذه المشورة ، برضاهم وموافقتهم :

« قالت : يا أيها المـــلأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمـــرا حتى تشهدون » ••

وفى هـــذا تبدو سمة الملكة أريبة ، فواضح منـــذ اللحظة الاولى أنهـــا أخذت بهـــذا الكتاب الذى ألقى اليها من حيث لا تعلم ، والذى يبدو فيـــه الحزم والاستعلاء • وقـــد نقلت هـــذا الاثر الى نفوس المـــلأ من قومها وهى تصف الكتاب بأنه « كريم » وواضح انهـــا لا تريد المقاومة والخصومة ، ولكنها لا تقول هـــذا صراحة ، انما تمهد له بذلك الوصف • ثم تطلب الرأى بعد ذلك والمشورة !

وعلى عـــادة رجال الحاشية أبدوا استعدادهم للعمل • ولكنهم فوضوا للملكة الرأى :

« قالوا : نحن أولوا قوة وأولوا بأس شـــديد • والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين » •

وهنـــا تظهر شخصية « المرأة » من وراء شخصية الملكـــة • المرأة التى تكره الحروب والتدمير ، والتى تنضى ســـلاح الحيلة والملاينة قبـــل أن تنضى سلاح القوة والمخاشنة :

« قالت : ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلهـــا أذلة وكذلك يفعلون • وانى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » •

فهى تعرف أن من طبيعة الملوك أنهم اذا دخلوا قرية (والقرية تطلق على المدينة الكبيرة) أشاعوا فيها الفســـاد • وأباحوا دمارها ، وانتهكوا حرماتها ، وحطموا القوة المدافعة عنها ، وعلى رأسها رؤساؤها ، وجعلوهم أذله لانهم عنصر المقاومة • وأن هـــذا هو دأبهم الذى يفعلونه •

والهدية تلين القلب ، وتعلن الود ، وقـــد تفلح فى دفع القتـــال • وهى تجربة فان قبلها سليمان فهو اذن أمر الدنيـــا ، ووسائل الدنيا اذن تجدى • وان لم يقبلها فهو اذن أمر العقيدة ، الذى لا يصرفه عنـــه مـــال ، ولا عرض من أعراض هذه الارض •

ويسدل الستار على المشهد ، ليرفع ، فاذا مشهد رســـل الملكة وهديتهم أمـــام سليمان • واذا سليمان ينكر عليهم اتجاههم الى شرائه بالمـــال ، أو تحويله عن دعوتهم الى الاســـلام • ويعلن فى قوة واصرار تهديده ووعيده الأخير •

« فلما جـــاء سليمان قال : أتمدونن بمـــال ؟ فما آتانى اللـــه خير مما آتاكم • بـــل أنتم بهديتكم تفرحون • ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بهـــا ، لنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » ••

وفى الرد استهزاء بالمـــال ، واستنكار للاتجاه اليـــه فى مجال غير مجاله • مجال العقيدة والدعوة : « أتمدونن بالمـــال ؟ » أتقدمون لى هـــذا العرض التافه الرخيص ؟ « فما آتانى اللـــه خير مما آتاكم » لقـــد آتانى من المـــال خيرا مما لديكم ولقـــد آتانى ما هـــو خير من المـــال على الاطلاق ، العلم والنبوة • وتسخير الجن والطير ، فما عـــاد شىء من عرض الأرض يفرحنى « بل أنتم بهديتكم تفرحون » وتهشون لهـــذا النوع من القيم الرخيصة التى تعنى أهـــل الارض ، الذين لا يتصلون بالله ، ولا يتلقون هداياه ! •

ثم يتبع هــذا الاستنكار بالتهديد : « ارجع اليهم » بالهدية وانتظروا المصير المرهوب « فلنأتينهم بجنود لا قبــل لهم بها » جنود لم تسخر للبشر فى أى مكان ، ولا طاقة للملكة وقومها بهم فى نضـــال : « ولنخرجنهم منهـــا أذلة وهم صاغرون » مدحورون مهزومون ٠

ويسدل الستار على هــذا المشهد العنيف وينصرف الرســل ، ويدعهم السياق لا يشير اليهم بكلمة كأنما قضى الامر ، وانتهى الكلام فى هــذا الشــأن ٠

ثم اذا سليمان ــ عليه السلام ــ يدرك أن هــذا الرد سينهى الامر مع ملكة لا تريد العــداء ــ كما يبدو من طريقتها فى مقابلة رسالته القوية بهدية ! ويرجع انها ستجيب دعوته ، أو يؤكد ٠ وقد كان ٠

ولكن السياق لا يذكر كيف عــاد رسلها اليها ، ولا ماذا قالوا لها ، ولا مــاذا اعتزمت بعد ٠ انما يترك فجوة نعلم مما بعدها أنهـــا قادمة ٠ وأن سليمان يعرف هــذا ، وأنه يتذاكر مع جنوده فى استحضار عرشـــها ، الذى خلفته فى بلادها محروسا مصونا :

« قال : يا أيها المــلأ أيكم يأتينى بعرشها قبل ان يأتونى مسلمين ؟ قال عفريت من الجن : أنا آتيك بــه قبل أن تقوم من مقامك ٠ وانى عليــه لقوى أمين ٠ قــال الذى عنده علم من الكتاب : « أنا آتيك بــه قبل أن يرتد اليك طرفك » ٠٠

ترى ما الذى قصــد اليه سليمان ــ عليه السلام ــ من استحضار عرشها قبل مجيئها مسلمة مع قومهـــا ؟ نرجح أن هــذه كانت وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التى تؤيده ، لتؤثر فى قلب الملكة وتقودها الى الايمان بالله ، والاذعان لدعوته ٠

وقد عرض عفريت من الجن أن يأتيه به قبل انقضاء جلسته هــذه ٠٠ وكان يجلس للحكم والقضاء من الصبح الى الظهر فيما يروى ٠ فاستطول سليمان هــذه الفترة واستبطأها ــ فيما يبدو ــ فاذا الــذى عنده علم من الكتــاب « يعرض أن يأتى بــه فى غمضــة عــين قبل أن يرتد اليــه طرفه ، ولا يذكر اسمه ، ولا الكتاب الذى عنده علم منــه ٠ انما نفهم أنــه رجــل مؤمن على اتصـــال بالله ، موهوب سرا من الله يستمد بــه من القوة الكبرى التى لا تقف لها الحواجز والأبعـــاد ٠ وهو أمر يشاهد أحيانا على أيدى بعض المتصلين ٠ ولم يكشف سره ولا تعليله ، لأنه خارج عن مألوف

البشر فى حياتهم العادية • وهـــذا أقصى ما يقـــال فى الدائرة المأمونة التى لا تخرج الى عالم الاساطير والخرافات آ

ولقد جرى بعض المفسرين وراء قوله : « عنده علـم من الكتـــاب » فقال بعضهم : انه التوراة • وقال بعضهم : انه كان يعرف اسم الله الأعظم • وقال بعضهم غير هـــذا وذاك • وليس فيما قيل تفسير ولا تعليل مستيقن • والأمر أيسر من هـــذا كله حين ننظر اليـــه بمنظار الواقع ، فكم فى هـــذا الكون من أسرار لا نعلمها ، وكم فيـــه من قوى لا نستخدمها وكم فى النفس البشرية من أسرار كذلك وقوى لا نهتدى اليها • فحيثما أراد اللـــه هـدى من يريد الى أحـــد هذه الأسرار والى واحدة من هـــذه القوى فجاءت الخارقة التى لا تقع فى مألوف الحيـــاة ، وجرت باذن اللـــه وتدبيره وتسخيره ، حيث لا يملك من لم يرد الله ان يجريها على يديه ان يجريها •

وهذا الذى عنده علم من الكتاب ، كانت نفســـه مهيأة بسبب ما عنده من العلم ، أن تتصل ببعض الاسرار والقوى الكونية التى تتم بهـــا تلك الخارقة التى تمت على يـــده لأن ما عنده من علم الكتـــاب وصـــل قلبه بربه على نحو يهيئه للتلقى ، ولاستخدام ما وهبـــه الله من قوى وأسرار •

وقد ذكر بعض المفسرين أنه هو سليمان نفســـه ـ عليه السلام ـ ونحن نرجح أنه غيره • فلو كان هـــو لاظهره الســـياق باسمه ، ولمـــا أخفاه • والقصة عنـــه ، ولا داعى لاخفـــاء اسمه فيها عنـــد هـــذا الموقف الباهر • وبعضهم قال : « فلما رآه مستقرا عنده قال : هـــذا من فضـــل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ؟ ومن شـــكر فانما يشكر لنفســـه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم » •

ولقد لمست هـــذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ـ عليه السلام ـ وراعـــه أن يحقق الله له مطلبه على هـــذا النحو المعجز واستشـــعر أن النعمة ـ على هـــذا النحو ـ ابتـــلاء ضخم مخيف ، يحتاج الى يقظة منـــه ليجتازه ، ويحتـــاج الى عون من اللـــه ليتقوى عليه ، ويحتاج الى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ، ليعرف اللـــه منه هـــذا الشعور فيتولاه ، والله غنى عن شكر الشاكرين ، ومن شـــكر فانما يشكر لنفسه ، فينـــال من الله زيادة النعمة ، وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء • ومن كفر فان الله « غنى » عن الشكر « كريم » يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء •

وبعد هذه الانتفاضة أمـــام النعمة والشعور بما وراءها من الابتلاء يمضى سليمان ـ عليه السلام ـ فى تهيئة المفاجآت للملكة القادمة عما قليل :

« قال : نكروا لها عرشها . ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون » غيروا معالمه المميزة له ، لنعرف ان كانت فراستها وفطنتها تهتدى اليه بعد هذا التنكير . أم يلبس عليها الامر فلا تنفذ الى معرفته من وراء هذا التغيير .

ولعل هذا كان اختبارا من سليمان لذكائها وتصرفها ، فى أثناء مفاجأتها بعرشها . ثم اذا مشهد الملكة ساعة الحضور :

« فلما جاء قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو » ..

انها مفاجأة ضخمة لا تخطر للملكة على بال . فأين عرشها فى مملكتها ، وعليها أقفالها وحراسها .. أين هو من بيت المقدس مقر ملك سليمان ؟ وكيف جيء به ؟ ومن ذا الذى جاء به ؟

ولكن العرش عرشها من وراء هذا التغيير والتنكير !

ترى تنفى أنه هو بناء على تلك الملابسات ؟ أم تراها تقول : انه هو بناء على ما تراه فيه من أمارات وقد انتهت الى جواب ذكى أريب : « قالت : كأنه هو » لا تنفى ولا تثبت ، وتدل على فراسة وبديهة فى مواجهة المفاجأة العجيبة .

وهنا فجوة فى السياق . فكأنما أخبرت بسر المفاجأة . فقالت : انها استعدت للتسليم والاسلام من قبل . أى منذ اعتزمت القدوم على سليمان بعد رد الهدية .

« وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » ..

ثم يتدخل السياق القرآنى لبيان ما كان قد منعها قبل ذلك من الايمان بالله وصدها عن الاسلام عندما جاءها كتاب سليمان ، فقد نشأت فى قوم كافرين ، فصدها عن عبادة الله عبادتها من دونه من خلقه ، وهى الشمس كما جاء فى أول القصة :

« وصدها ما كانت تعبد من دون الله . انها كانت من قوم كافرين » ..

وكان سليمان ــ عليه السلام ــ قد أعد للملكة مفاجأة أخرى ، لم يكشف السياق عنها بعد ، كما كشف عن المفاجأة الأولى قبل ذكر حضورها ــ وهذه طريقة أخرى فى الاداء القرآنى فى القصة غير الطريقة الأولى :

« قيل لها : ادخلى الصرح • فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ! قال : انه صرح ممرد من قوارير ! قالت : رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ••

لقد كانت المفاجأة قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق المـــــاء ، وظهر كأنه لجـــة • فلما قيل لها . ادخلى الصرح ، حسبت أنها ستخوض في تلك اللجة ، فكشفت عن ساقيها ؟ فلما تمت المفاجأة كشف لها سليمان عن سرها : « قال : انه صرح ممرد من قوارير » !

ووقفت الملكة مفجوءة مدهوشـــة أمـــام هـــذه العجائب التى تعجز البشر ، وتدل على أن سليمان مسخر له قوى أكبر من طاقة البشر • فرجعت الى الله ، وناجته معترفـــة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبـــادة غيره • معلنة اسلامها ومع سليمان « لا لسليمان •• ولكن الله رب العالمين » •

لقد اهتدى قلبها واستنار • فعرفت أن الاسلام لله ليس استسلاما لأحد من خلقه ، ولو كان هو سليمان النبى الملك صاحب هـــذه المعجزات • انمـا الاسلام اسلام للـــه رب العالمين • ومصاحبة للمؤمنين به والداعين الى طريقه على سنة المساواة •• « وأسلمت مع سليمان للـــه رب العالمين » •

وسجل السياق القرآنى هـــذه اللفتة وأبرزها ، للكشف عن طبيعة الايمان باللـــه ، والاسلام له • فهى العزة التى ترفع المغلوبين الى صف الغالبين • بل التى يصبح فيها الغالب والمغلوب أخوين فى اللـــه • لا غالب منهما ولا مغلوب وهما أخوان فى الله •• رب العالمين •• على قدم المساواة •

ولقد كان كبراء قريش يستعصون على دعـــوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واياهم الى الاسلام ، وفى نفوسهم الكبر أن ينقادوا الى محمـــد بن عبد الله ، فتكون له الرياسة عليهم والاستعلاء • فها هى ذى امرأة فىالتاريخ تعلمهم أن الاســـلام للـــه يسوى بين الداعى والمدعوين • بين القائـــد والتابعين • فانما يسلمون مع رسول الله لله رب العالمين !

وترد الاشارة الثانية الى سبأ فى القرآن الكريم فى سورة سبأ (٣) :

تمهيد : ترد قصـــة سبأ فى سياق سورتين تحمل هـــذا الاسم ، وموضوعات السورة هى موضوعات العقيدة الرئيسية : توحيد الله ، والايمان

---

(٣) ١٠ ـ ٢١

بالوحى • والاعتقاد بالبعث • والى جوارها تصحيح بعض القيم الاساسية المتعلقه بالعقيدة الرئيسية وبيان الايمان والعمل الصـــالح لا الاموال ولا الاولاد ـ هما قوام الحكم والخبراء عند الله • وانه ما من قوة تعصم من بطش الله ، وما من شفاعة عنده الا باذنه :

« وما ارسلنا فى قرية من نذير قال منـــرفوها : انا بما أرســـلتم به كافرون • وقالوا : نحن اكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين •• قل : ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون • وما أمـــوالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا • فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرقات آمنون • والذين يسعون فى آياتنـا معاجزين أولئك فى العذاب محضرون » •

ويضرب على هذا أمثلة عن الواقع التاريخى فى هذه الارض : قصة آل داود الشاكرين على نعمة الله ، وقصة سبأ المتبطرين الذين لا يشـــكرون • وما وقع لهؤلاء وهؤلاء وفيه مصداق مشهود للوعد والوعيد •

« ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألناله الحديد أن عمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا انى بما تعملون بصير » •

ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه رمن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عـــذاب السعير • يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجـواب وقدور راسيات اعملوا ءال داود شكرا وقليل من عبادى الشكور • فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الا دابة الارض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين •

لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العـرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليـــل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور•وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين • فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور •

ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين • وما كان

له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شيء حفيظ » ٠

وفى قصة آل داود تعرض صفحة الايمان بالله والشكر على أفضاله وحسن التصرف فى نعمائه ٠ والصفحة المقابلة هى صفحة سبأ ٠ وقد مضى فى سورة النمل ما كان بين سليمان وبين ملكتهم من قصص ٠ وهنا يجيء نبؤهم بعد قصة سليمان ٠ مما يوحى بأن الأحداث التى تتضمنها وقعت بعد ما كان بينها وبين سليمان من خبر ٠

يرجح هذا الفرض أن القصة هنا تتحدث عن بطر سبأ بالنعمة وزوالها عنهم وتفرقهم بعد ذلك وتمزقهم كل ممزق ٠ وهم كانوا على عهد الملكة التى جاء نبؤها فى سورة النمل مع سليمان فى ملك عظيم ، وفى خير عميم ٠ ذلك اذ يقص الهدهد على سليمان : ((انى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)) ٠٠ وقد أعقب ذلك اسلام الملكة مع سليمان لله رب العالمين ٠ فالقصة هنا تقع أحداثها بعد اسلام الملكة لله ، وتحكى ما حل بهم بعد اعراضهم عن شكره على ما كانوا فيه من نعيم ٠

وتبدأ القصة بوصف ما كانوا فيه من رزق ورغد ونعيم ، وما طلب اليهم من شكر المنعم بقدر ما يطيقون :

((لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ٠ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ٠ بلدة طيبة ورب غفور)) ٠٠

وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون جنوبى اليمن ، وكانوا فى أرض مخصبة ما تزال منها بقية الى اليوم ٠ وقد ارتقوا فى سلم الحضارة حتى تحكموا فى مياه الامطار الغزيرة التى تأتيهم من البحر فى الجنوب والشرق ، فأقاموا خزانا طبيعيا يتألف جانباه من جبلين ، وجعلوا على فم الوادى بينهما سدا به عيون تفتح وتغلق ، وخزنوا الماء بكميات عظيمة وراء السد ٠ وتحكموا فيها وفق حاجتهم ٠ فكان لهم من هذا مورد مائى عظيم ٠ وقد عرف باسم : ((سد مأرب)) ٠

وهذه الجنان عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والوفرة والرخاء والمتاع الجميل ، ومن ثم كانت آية تذكر بالمنعم الوهاب ٠ وقد أمروا أن يستمتعوا برزق الله شاكرين :

((كلوا من رزق ربكم واشكروا له)) ٠٠

وذكروا بالنعمة نعمة البلد الطيب وفوقها نعمة الغفران على القصور من الشكر والتجاوز عن السيئات • ((بلدة طيبة ورب غفور)) ••

سماحة فى الارض بالنعمة والرخاء • وسماحـــة فى السماء بالعفـــو والغفران • فماذا يقعدهم عن الحمد والشكران ؟ ولكنهم لم يشـــكروا ولم يذكروا :

((فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط واثل وشيء من سدر قليل)) ••

أعرضوا عن شكر الله ، وعن العمل الصالح ، والتصرف الحميد فيمـا أنعم الله عليهم ، فسلبهم سبب هذا الرخاء الجميل الذى يعيشـــون فيه ، وأرسل السيل الجارف الذى يحمل العرم فى طريقه وهى الحجارة لشـــدة تدفقه ، فحطم السد وانساحت المياه فطفت وأغرقت ، ثم لم يعد الماء يخـزن بعد ذلك فجفت واحترقت • وتبدلت تلك الجنان الفيح صحراء تتناثر فيهـا الاشجار البرية الخشنة :

« وبدلنـاهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل : خمط وأثل وشيء ســـدر قليـــل » ••

والخمط شجر الاراك أو كل شجر ذى شـــوك • والأثل شجر يشـــبه الطرفاء • والســـدر النبق • وهو أجود ما صار لهم ولم يعد لهم منـــه الا قليـــل !

« ذلك جزيناهم بما كفروا » ••

والأرجح انه كفران النعمة ••

« وهل نجازى الا الكفور »

وكانوا الى هذا الوقت ما يزالون فى قراهم وبيوتهم • ضيق اللـــه عليهم فى الرزق ، وبدلهم من الرفاهية والنعماء خشـــونه وشـــدة ، ولكنه لم يمزقهم ولم يفرقهم • وكان العمران ما يزال متصـــلا بينهم وبين القـــرى المباركة : مكـــة فى الجزيرة ، وبيت المقدس فى الشـــام • فقد كانت اليمن ما تزال عامرة فى شـــمال بلاد ســـبأ ومتصـــلة بالقرى المباركة والطريق بينهما عامر مطروق مسلوك مأمون :

« وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير • سيروا فيها ليالى وأياما آمنين » •

وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل الاخرى قبل دخول الظلام · فكان السفر فيها محدود المسافات ، مأمونا على المسافرين · كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل وتقارب المحطات فى الطريق ·

وغلبت الشقوة على سبأ ، فلم ينفعهم النذير الاول ، ولم يوجههم الى التضرع الى الله ، لعله يرد عليهم ما ذهب من الرخاء · بل دعوا دعوة الحمق والجهل :

« فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا » ··

تطلبوا الاسفار البعيدة المدى ، التى لاتقع الا مرات متباعدة على مدار العام · لا تلك السفرات القصيرة المتداخلة المنازل ، والتى لاتشبع لذةالرحلات، وكان هذا من بطر القلب وظلم النفس :

« وظلموا أنفسهم » ··

واستجيبت دعوتهم ، ولكن كما ينبغى أن تستجاب دعوة البطر :

« فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق » ··

شردوا ومزقوا ، وتفرقوا فى أنحاء الجزيرة مبددى الشمل ، وعادوا أحاديث يرويها الرواة ، وقصة على الالسنة والافواه · بعد أن كانوا أمة ذات وجود فى الحياة ·

« ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » ··

يذكر الصبر الى جوار الشكر ·· الصبر فى البأساء · والشكر فى النعماء · وفى قصة سبأ آيات لهؤلاء وهؤلاء ·

هذا فهم فى الآية · وهناك فهم آخر : فقد يكون المقصود بقوله : « وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة » ·· أى قرى غالية ذات سلطان · بينما تحول سبأ الى قوم فقراء ، حياتهم صحراوية جافة · وكثرت أسفارهم وانتقالاتهم وراء المراعى ومواضع الماء · فلم يصبروا على الابتلاء · وقالوا : « ربنا باعد بين أسفارنا » ·· أى قلل من أسفارنا فقد تعبنا · ولم يصحبوا هذا الدعاء باستجابة وانابة لله تستحق استجابته لدعائهم · وكانوا قد بطروا النعمة ، ولم يصبروا للمحنة · ففعل الله بهم ما فعل ، ومزقهم كل ممزق ، فأصبحوا اثرا بعد عين ، وحديثا يروى وقصة تحكى ·· ويكون التعقيب : « ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » ·· مناسبا لقلة شكرهم على النعمة ، وقلة صبرهم على المحنة ··

وفى ختـــام القصة يخرج النص من اطـــار القصه المحدود ، الى اطار التدبير الالهى العـــام ، والتقدير المحكم الشامل ، وللسنة الالهية العـامة ، ويكشف عن الحكمة المستخلصة من القصـــة كلها ، وما يكمن فيها وخلفهـا من تقدير وتدبير :

« ولقـد صــــدق عليهم ابليس ظنــه فاتبعوه • الا فريقــا من المؤمنين • ومـــا كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هــو منها فى شك • وربك على كل شيء حفيظ » ••

لقد سلك القوم هـــذا المسلك ، الذى انتهى الى تلك النهاية ، لأن ابليس صــــدق عليهم ظنــه فى قدرته على غوايتهم ، فأغواهم ، « فاتبعوه الا فريقــا من المؤمنين » •• كما يقع عـــادة فى الجماعات فلا تخلوا من قلة مؤمنـة تستعصى على الغواية ، وتثبت : ان هنالك حقــا ثابتا يعرفه من يطلبه ، ويمكن لكل من أراد أن يجـده وان يستمسك بـه ، حتى فى أحلك الظروف • ومـا كان لابليس من ســـلطان قاهر عليهم لا يملكون رفعه • فليس هنالك قهر لهم منــه ولا سيطرة عليهم له • انما هو تســليطه عليهم ليثبت على الحق من يثبت ، وليزيح منهم من لا يبتغى الحق ويتحراه • وليظهر فى عالم الواقع « من يؤمن بالآخرة » فيعصمه ايمـانه من الانحراف « ممن هو منها فى شـــك » •• فهو يتأرجح أو يستجيب للغواية • بلا عاصم من رقابة الله ولا تطلع لليوم الآخر •

« واللـــه يعلم ما يقع قبـل ظهوره للناس • ولكنـــه سبحانه يرتب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلا فى دنيــا الناس •

وفى هـذا المجال الواسع المفتوح • مجال تقدير الله وتدبيره للامور والاحداث • ومجال غواية ابليس للناس ، بلا سلطان قاهر عليهم ، الا تسليط ليظهر المكنون فى علم اللـه من المصائر والنتائج •• فى هذا المجال الواسع تتصـــل قصـــة سبأ بقصة كل قوم ، فى كل مكان وفى كل زمـــان • ويتسع مجال النص القرآنى ومجال هـــذا التعقيب ، فلا يعود قاصرا على قصـــة سبأ ، انما يصلح تقريرا لحال البشر أجمعين • فهى قصـــة الغواية والهداية وملابساتهما وأسبابهما وغاياتهما ونتائجهما فى كل حال •

« وربك على كل شيء حفيظ » ••

فلا يند شيء ولا يغيب ، ولا يهمل شيء ولا يضيع ••

الفصل الحادى عشر

سيرة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وما تلقيه من ضوء على :

* رفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين ،
* حقيقة الدين الواحد الذى دعى اليه الرسل جميعا وهو الاسلام ،
* حقيقة ما يسمى بالمسيحية واليهودية اللتين سادتا انحاء جزيرة العرب ،

من خلال القرآن الكريم :

شاهدنا على صفحات سابقة ابراهيم عليه السلام فى أور الكلدانية وقد تفتحت عينيه على صفحات هذا الكون المشهود : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا · قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين · فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين · فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون » ·

وشاهدنا ابراهيم يحاول أن يستنقذ أباه وقومه من الجاهلية التى يعيشون فيها بعد أن عرض لهم الدليل والبرهان على أن لهذا الكون خالق عليم خبير مدبر ، وأن تلك الطواغيت والاصنام التى يعبدونها ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ولا عن غيرها :

« قال : أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ؟ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » ·

وشاهدنا ابراهيم عليه السلام يتعرض للابتلاء ، فكان الصبر ، وكان الاحتساب وكانت النجاة : « قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين · قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين » ·

وعشنا لحظات مباركة ونحن نتسم تلك السيرة الندية ، سيرة ابراهيم ويد الله تنقل خطاه ومن معه من المؤمنين الى الارض التى باركها رب العالمين :

« ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين » ·

وهناك في فلسطين أيد له الله أرضا خيرا من أرضه التي نما وترعرع عليها ، وأيد له وطنا خيرا من وطنه ، وذرية مباركة تقر بها نفسه وعينه. « ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » .

ومكث ابراهيم ما شاء الله له المكوث بتلك الارض المباركة ، ثم كانت رحلته التالية الى مصر (١) ؟ .

وشاءت ارادة الله ان تتجه خطى ابراهيم وزوجه وابنه اسماعيل عليه السلام الى بيته المحرم .. فى أم القرى .

وهنا نفسح المجال لكتاب الله يسرد علينا تكملة لتلك السيرة العطرة سيرة النبى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وذريته من الصالحين فى أحب بقاع أرض الله الى الله .

يطالعنا القرآن الكريم (٢) فى أول سورة منه بأنباء عن ابراهيم عليه السلام ، بصورة تؤدى دورا هاما فيما شجر بين اليهود والجماعة المسلمة فى يثرب من نزاع حاد متشعب الاطراف .

ان أهل الكتاب يدعون بأنهم يرجعون بأصولهم الى ابراهيم عن طريق اسحاق — عليهما السلام — ويعتزون بنسبتهم اليه وبوعد الله له ولذريته

---

(١) ولا ندرى ما هى الظروف التى أحاطته برحلته عليه السلام الى مصر ؟ وان كنا لا نملك عليها من دليل سوى ما روته كتب التراث (سيرة النبى ، ج ١ ، ص ١٢ — ١٣) ، فقد روى ابن هشام رواية لابن لهيعة : « أم اسماعيل هاجر ، أم العرب من قرية كانت أمام الفرما من مصر وأم ابراهيم بن ... النبى محمد — عليه الصلاة والسلام) مارية سرية النبى التى أهداها له المقوقس . « وقال ابن اسحاق حدثنى محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى أن عبد الرحمن بن مالك الانصارى ثم السلمى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . فقلت لمحمد بنى مسلم الزهرى : ما الرحم التى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ؟ فقال : كانت هاجر أم اسماعيل منهم » .

(٢) فى ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ١١٠ — ١١٩

بالنمو والبركة ، وعهده معـــه ومع ذريته من بعــــده ٠ ومن ثم يحتكرون لانفسهم الهـــدى والقوامة على الدين ، كما يحتكرون لانفسهم الجنة ايا كان ما يعملون ٠

وان قريشا لترجع بأصولها كذلك الى ابراهيم عن طريق اسماعيل ـ عليهما السلام ـ وتعتز بنسبتها اليه ، وتســـتمد منها القوامة على البيت ، وعمـــارة المسجد الحرام ، وتستمد كذلك سلطانها الدينى على العرب ، وفضلها وشرفها ومكانتها ٠

والآن يجيء الحديث عن ابراهيم واسماعيل واسحاق ، والحديث عن البيت الحرام وبنائه عمارته وشعائره ٠٠ فى جوه المناسب ، لتقرير الحقائق الخالصة فى ادعاءات اليهود والنصارى والمشركين جميعا حول هـــذه النسب وهذه الصلات ٠ ولتقرير قضية القبلة التى ينبغى أن يتجه اليها المسلمون ٠٠ كذلك تجيء المناسبة لتقرير حقيقة دين ابراهيم ـ وهى التوحيد الخالص ـ وبعد ما بينها وبين العقائد المشوهة المنحرفة التى عليها أهـــل الكتـــاب والمشركون سواء ، وقرب ما بين عقيدة ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ـ وهو اسرائيل الذى ينتسبون اليه ـ وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين ٠ ولتقرير وحـــدة دين الله ، واطراده على ايدى رسله جميعا ، ونفى فـــكرة احتكاره فى ايدى أمة أو جنس ، وبيان أن العقيدة تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء ٠ وان وراثة هـــذا التراث لا تقـــوم على قرابة الـــدم والجنس ولكن على قرابة الايمان والعقيدة ٠ فمن آمن بهذه العقيدة ورعاها فى أى جيـــل ومن أى قبيل فهو أحق بهـــا من أبناء الصلب واقربـــاء العصب ! فالدين دين اللـــه ٠ وليس بين اللـــه وبين احـــد من عبـــاده نسب ولا صهر ! ! !

هذه الحقائق التى تمثل شطرا من الخطوط الاســـاسية فى التصور الاسلامى يجلوها القرآن الكريم هنـــا فى نسق من الأداء عجيب ، وفى عرض من الترتيب والتعبير بديع ٠٠ يسير بنـــا خطوة خطوة من لدن ابراهيم ـ عليه السلام ـ منـــذ أن ابتلاه ربـــه واختبره فاستحق اختياره واصطفاه ، وتنصيبه للناس اماما ٠٠ الى أن نشـــأت الأمة المسلمة المؤمنة برســـالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ استجابة من الله لدعوة ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام ، فاستحقت وراثة هـــذه الامانة دون ذرية ابراهيم جميعا ، بذلك السبب الوحيد الذى تقوم عليـــه وراثة العقيدة ٠ سبب الايمان بالرسالة ، وحسن القيـــام عليها ، والاستقامة على تصورها الصحيح ٠

وفي ثنايا هـــذا العرض التاريخي يبرز الســياق ، أن الاســلام بمعنى اسـلام الوجـه لله وحده ـ كان هو الرسالة الاولى ، وكان هـــو الرسالة الاخيرة .. هكذا اعتقد ابراهيم ، وهكذا اعتقد من بعـــده اسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط حتى اسلموا هـــذه العقيدة ذاتها الى موسى وعيسى ... ثم آلت أخيرا الى ورثة ابراهيم من المسلمين .. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة ابراهيم ، فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقـــد وراثته لهذا العهد وبشاراته .

عندئذ تسقط كل دعاوى اليهود والنصارى فى اصطفائهم واجتبائهم ، لمجرد أنهم أبنـــاء ابراهيم وحفدته ، وهم ورثته وخلفـاؤه ! لقـــد سقطت عنهم الوراثة منذ ما انحرفوا عن هـــذه العقيدة .. وعندئذ تسقط كذلك كل دعاوى قريش في الاستئثار بالبيت الحرام وشرف القيـــام عليه وعمارته ، لأنهم قـــد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هـــذا البيت ورافع قواعده بانحرافهم عن عقيدته .. ثم تسقط كل دعـــاوى اليهود فيما يختص بالقبلة التى ينبغى أن يتجه اليها المسلمون . فالكعبة هى قبلتهم وقبلة ابيهم ابراهيم ..

كل ذلك فى نسق من العرض والاداء والتعبير عجيب ، حافل بالاشارات الموحية والوقفـــات العميقة الدلالة ، والايضاح القوى التأثير . فلنأخذ فى استعراض هـــذا النسق العالى فى ظـــل هذا البيان المنير .

« واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن . قال : انى جاعلك للنـــاس اماما . قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين » ..

« قال : انى جاعلك للناس اماما » ..

« قال : ومن ذريتى ؟ » ..

وجاءه الرد من ربه الذى ابتلاه واصطفاه ، يقرر القاعدة الكبرى التى أسلفنا .. أن الامامـــة لمن يستحقونها بالعمل وبالشعور ، وبالصـــلاح والايمان ، وليست وراثة أصلاب وأنساب . فالقربى ليست وشيجة لحم ودم ، انما هى وشيجة دين وعقيدة .. ودعوى القرابة والدم والجنس والقوم ان هى الا دعـــوى الجاهلية ، التى تصطدم اصطداما أســـاسيا بالتصور الايمانى الصحيح .

« قال : لا ينال عهدى الظالمين » ..

والظلم أنواع وألوان : ظلم النفس بالشرك ، وظلم النـــاس بالبغي ٠ والامامة الممنوعة على الظالمين تشـــمل كل معاني الامامة : امامـــة الرسالة ، وامامة الخلافة ، وامامة الصلاة ٠٠ وكل معنى من معـــاني الامامـــة والقيادة ٠ فالعدل بكل معانيه هـــو أســاس استحقاق هـــذه الامامة في أية صورة من صورها ٠ ومن ظلم ـ أي لون من الظلم ـ فقـــد جرد نفســـه من حق الامامة وأسقط حقـــه فيها ، بكل معنى من معانيها ٠

وهـــذا الذي قيل لابراهيم ـ عليه السلام ـ وهـــذا العهد بصيغته التي لا التواء فيها ولا غموض قاطع في تنحية اليهود عن القيادة والامامة ، بما ظلموا ، وبما فسقوا ، وبما عتوا عن أمر الله ، وبما انحرفوا عن عقيدة جدهم ابراهيم ٠

وهذا الذي قيل لابراهيم ـ عليـــه السلام ـ وهـــذا العهد بصيغته التي لا التواء ولا غموض قاطع كذلك في تنحية من يسمون أنفسهم المسلمين اليوم ٠ بما ظلموا ، وبما فسقوا وبما بعدوا عن طريق الله ، وبما نبذوا من شريعته وراء ظهورهم ٠٠ ودعواهم الاســـلام ، وهم ينحون شريعة اللـــه ومنهجه عن الحياة ، دعوى كاذبة لا تقوم على أساس من عهد الله ٠

ان التصور الاسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل ٠ ولا يعترف بقربى ولا رحم اذا انبتت وشيجة العقيدة والعمل ويسقط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصـــل بعروة العقيدة والعمل ٠٠ وهـــو يفصل بين جيـــل من الامة الواحدة وجيـــل اذا خالف أحـــد الجيلين الآخر في عقيدته ، بل يفصل بين الوالد والولد ، والزوج والزوج اذا انقطع بينهما حبـــل العقيدة ٠ فعرب الشرك شيء وعرب الاســـلام شيء آخر ٠ ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة ٠ والذين آمنوا من أهـــل الكتاب شيء والذين انحرفوا عن دين ابراهيم وموسى وعيسى شيء آخر ، ولا صـــلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة ٠٠ ان الاسرة ليست آباء وابنـــاء واحفادا ٠٠ انما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحـــدة ٠ وأن الامـــة ليست مجموعة أجيـــال متتابعة من جنس معين ٠٠ انما هي مجموعة من المؤمنين مهمـــا اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم ٠٠ وهـــذا هو التصور الايماني ، الذي ينبثق من خلال هـــذا البيان الرباني ، في كتـــاب الله الكريم ٠٠

« واذا جعلنـــا البيت مثابة للناس وأمنـــا ، واتخذوا من مقـــام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطـــائفين والعاكفين والركع والسجود » ٠٠

هـــذا البيت الحرام الذي قام سدنته من قريش فروعوا المؤمنين وآذوهم

وفتنوهم عن دينهم حتى هاجروا من جواره ٠٠ لقد أراده الله مثابة يثوب اليها الناس جميعا ، فلا يروعهم أحد ، بل يأمنون فيه على أرواحهم وأموالهم ٠ فهو ذاته أمن وطمأنينة وسلام ٠

ولقد أمروا ان يتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ـ ومقام ابراهيم يشير هنا الى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره ـ فاتخاذ البيت قبلة للمسلمين هو الامر الطبيعي ، الذي لا يثير اعتراضا ٠ وهو أولى قبلة يتوجه اليها المسلمون ، ورثة ابراهيم بالايمان والتوحيد الصحيح ، بما انه بيت الله لا بيت أحد من الناس ٠ وقد عهد الله ـ صاحب البيت ـ الى عبدين من عباده الصالحين ان يقوما بتطهيره واعداده للطائفين والعاكفين والركع والسجود ـ أي للحجاج الوافدين عليه ، وأهله العاكفين فيه ، والذين يصلون فيه ويركعون ويسجدون فحتى ابراهيم واسماعيل لم يكن البيت ملكا لهما ، فيورث بالنسب عنهما ، انما كانا سادنين له بأمر ربهما ، لاعداده لقصاده من المؤمنين ٠

« واذ قال ابراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق أهله من الثمرات ٠٠ من آمن منهم بالله واليوم الآخر ٠٠ قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم اضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » ٠٠

ومرة أخرى يؤكد دعاء ابراهيم صفة الأمن للبيت ٠ ومرة أخرى يؤكد معنى الوراثة للفضل والخير ٠٠ ان ابراهيم قد أفاد من عظة ربه له في الاولى ٠ لقد وعى منذ أن قال له ربه : « لا ينال عهدى الظالمين » ٠٠ وعى هذا الدرس ٠٠ فهو هنا ، في دعائه أن يرزق الله أهل هذا البلد من الثمرات ، يحترس ويستثنى ويحدد من يعني :

« من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ٠

انه ابراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم ، ويتأدب بالأدب الذي علمه ربه ، فيراعيه في طلبه ودعائه ٠٠ وعندئذ يجيئه رد ربه مكملا ومبينا عن الشطر الآخر الذي سكت عنه ٠ شطر الذين لا يؤمنون ، ومصيرهم الاليم :

« قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ، ثم أضطره الى عذاب النار ، وبئس المصير » ٠٠

ثم يرسم مشهد تنفيذ ابراهيم واسماعيل للأمر الذى تلقياه من ربهما

باعداد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود ٠٠ يرسمه مشهودا كما لو كانت الاعين تراهما اللحظة وتسمعهما فى آن :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل : ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ٠ ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، انك أنت التواب الرحيم ٠ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم » ٠٠

ان التعبير يبدأ بصيغة الخبر ٠٠ حكاية تحكى :

« واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » ٠٠

وبينما نحن فى انتظار بقية الخبر ، اذ بالسياق يكشف لنا عنهما ، ويرينا اياهما ، كما لو كانت رؤية العين لا رؤيا الخيال ٠ انهما امامنا حاضران ، نكاد نسمع صوتيهما يبتهلان :

« ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ٠ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ٠٠

فنغمة الدعاء ، وموسيقى الدعاء ، وجو الدعاء ٠٠ كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة ٠٠ وتلك احدى خصائص التعبير القرآنى الجميل ٠ رد المشهد الغائب الذاهب ، حاضرا يسمع ويرى ، ويتحرك ويشخص ، وتفيض منه الحياة ٠٠ انها خصيصة « التصوير الفنى » بمعناه الصادق ، اللائق بالكتاب الخالد ٠

وماذا فى ثنايا الدعاء ؟ انه أدب النبوة ، وايمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود ٠ وهو الأدب والايمان والشعور الذى يريد القرآن ان يعلمه لورثة الانبياء ، وان يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم بهذا الايحاء :

« ربنا تقبل منا ٠ انك أنت السميع العليم » ٠٠

أنه طلب القبول ٠٠ هذه هى الغاية ٠٠ فهو عمل خالص لله ٠ الاتجاه به فى قنوت وخشوع الى الله ٠ والغاية المرتجاه من ورائه هى الرضى والقبول ٠٠ والرجاء فى قبوله متعلق بأن الله سميع للدعاء ٠ عليم بما وراءه من النية والشعور ٠

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك .. وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم » .

انه رجاء العون من ربهما فى الهداية الى الاسلام ، والشعور بأن قلبيهما بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وان الهدى هداه ، وانه لا حول لهما ولا قوة الا بالله ، فهما يتجهان ويرغبان ، والله المستعان .

ثم هو طابع الامة المسلمة .. التضامن .. تضامن الاجيال فى العقيدة : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .. وهى دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن . ان أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الاول . وشعور ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - بقيمة النعمة التى أسبغها الله عليهما .. نعمة الايمان .. تدفعهما الى الحرص عليها فى عقبهما ، والى دعاء الله ربهما الا يحرم ذريتهما هذا الانعام الذى لا يكافئه انعام .. لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ولم ينسيا ان يدعواه ليرزقهم من الايمان ، وان يريهم جميعا مناسكهم ، ويبين لهم عباداتهم، وان يتوب عليهم . بما أنه هو التواب الرحيم .

ثم ألا يتركهم بلا هداية فى أجيالهم البعيدة :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . انك انت العزيز الحكيم » ..

وكانت الاستجابة لدعوة ابراهيم واسماعيل هى بعثة هذا الرسول الكريم بعد قرون وقرون . بعثة رسول من ذرية ابراهيم واسماعيل ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم من الارجاس والادناس . ان الدعوة المستجابة تستجاب ولكنها تتحقق فى أوانها الذى يقدره الله بحكمته . غير أن الناس يستعجلون ! وغير الواصلين يملون ويقنطون !

وبعد فان لهذا الدعاء دلالته ووزنه فيما كان يشجر بين اليهود والجماعة المسلمة من نزاع عنيف متعدد الاطراف ان ابراهيم واسماعيل اللذين عهد الله اليهما برفع قواعد البيت وتطهيره للطائفين والعاكفين والمصلين ، وهما أصل سادنى البيت من قريش .. انهما يقولان باللسان الصريح : « ربنا واجعلنا مسلمين لك » .. (من ذريتنا أمة مسلمة لك) .. كما يقولان باللسان الصريح : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .. وهما بهذا يقرران وراثة

الامة المسلمة لامامة ابراهيم ، ووراثتها للبيت الحرام سواء . واذن فهو بيتها الذى تتجه اليه ، وهى أولى به من المشركين ، وهو أولى بها من قبله اليهود والمسيحيين !

واذن فمن كان يربط ديانته بابراهيم من اليهود والنصارى ، ويدعم دعاواه العريضة فى الهدى والجنة بسبب تلك الوراثة ، ومن كان يربط نسبه باسماعيل من قريش . فليسمع أن ابراهيم حين طلب الوراثة لبنيه والامامة ، قال له ربه : « لا ينال عهدى الظالمين » .. ولما ان دعا هو لأهل البلد بالرزق والبركة خص بدعوته : « من آمن بالله واليوم الآخر » .. وحين قام هو واسماعيل بأمر ربهما فى بناء البيت وتطهيره كانت دعوتهما : أن يكونا مسلمين لله ، وان يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم .. فاستجاب الله لهما ، وأرسل من أهل البيت محمد بن عبد الله ، وحقق على يديه الامة المسلمة القائمة بأمر الله . الوارثة لدين الله .

وعند هذا المقطع من قصة ابراهيم ، يلتقط السياق دلالته وايحاءه ، ليواجه بهما الذين ينازعون الامة المسلمة الامامة ، وينازعون الرسول — صلى الله عليه وسلم — النبوة والرسالة ، ويجادلون فى حقيقة دين الله الاصيلة الصحيحة :

« ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه ؟ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين . ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » ..

هذه هى ملة ابراهيم .. الاسلام الخالص الصريح .. لا يرغب عنها وينصرف الا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها .. ابراهيم اصطفاه ربه فى الدنيا اماما ، وشهد له فى الآخرة بالصلاح .. اصطفاه « اذ قال له ربه أسلم » .. فلم يتلكأ ، ولم يرتب ولم ينحرف ، واستجاب فور تلقى الامر .

« قال : أسلمت لرب العالمين » ..

هذه هى ملة ابراهيم .. الاسلام الخالص الصريح .. ولم يكتف ابراهيم بنفسه انما تركها فى عقبه ، وجعلها وصيته فى ذريته ، ووصى بها ابراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه . ويعقوب هو اسرائيل الذى ينتسبون اليه ، ثم لا يلبون وصيته ، ووصية جده وجدهم ابراهيم !

ولقد ذكر كل من ابراهيم ويعقوب بنيــــه بنعمة الله عليهم في اختياره الدين لهم : « يا بني ان الله اصطفى لكم الدين » ..

فهو من اختيار الله . فلا اختيار لهم بعده ولا اتجاه . وأقـــل ما توجبه رعاية الله لهم ، وفضل الله عليهم ، هو الشكر على نعمة اختياره واصطفائه ، والحرص على ما اختاره لهم ، والاجتهاد في الا يتركوا هذه الارض الا وهــــذه الامانة محفوظة فيهم :

« فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » ..

وهاهي ذي الفرصة سانحة ، فقـــد جاءهم الرسول الذي يدعوهم الى الاســـلام ، وهو ثمرة الدعوة التي دعاها أبوهم ابراهيم ..

***

تلك كانت وصية ابراهيم لبنيه ووصية يعقوب لبنيه .. الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظـــة من لحظات حياته ، والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنـــه الموت وسكراته فليسمعها بنو اسرائيل :

« أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت . اذ قال لبنيـــه : ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق والهـــا واحداً ونحن له مسلمون » ..

ان هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الايحاء ، عميق التأثير .. ميت يحتضر . فمـــا هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار ؟ ما هـــو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الامر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه ؟ ماهي التركة التي يريد أن يخلفها لابنائه ويحرص على سلامة وصولها اليهم فيسلمها لهم في محضر ، يسجل فيه كل التفصيلات ؟ .. انها العقيدة..هي التركة.وهي الذخر.وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل، وهي الامر الجلل ، الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته :

« ما تعبدون من بعدي ؟ » ..

هذا هو الامر الذي جمعتكم من أجله . وهـــذه هي القضية التي أردت الاطمئنان عليها . وهذه هي الامانة والذخر والتراث ..

« قالوا : نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق ، الهـــا واحداً . ونحن له مسلمون » .

انهم يعرفون دينهم ويذكرونه . انهم يتسلمون التراث ويصونونه . انهم يطمئنون الوالد المحتضر ويريحونه . وكذلك ظلت وصية ابراهيم لبنيه مرعية في أبناء يعقوب . وكذلك هم ينصون نصا صريحا على أنهم « مسلمون » . والقرآن يسأل بني اسرائيل : « أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت ؟ » .. فهذا هو الذي كان ، يشهد به الله ، ويقرره ، ويقطع به كل حجة لهم في التمويه والتضليل ، ويقطع به كل صلة حقيقية بينهم وبين أبيهم اسرائيل !

وفي ضوء هذا التقرير يظهر الفارق الحاسم بين تلك الامة التي خلت ، والجيل الذي كانت تواجهه الدعوة .. حيث لا مجال لصلة ، ولا مجال لوراثة ، ولا مجال لنسب بين السابقين واللاحقين :

« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ..

فلكل حساب ، ولكل طريق ، ولكل عنوان ، ولكل صفة .. أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين . ان هذه الاعقاب ليست امتداد لتلك الاسلاف هؤلاء حزب وأولئك حزب . لهؤلاء راية ولاولئك راية .. والتصور الايماني في هذا غير التصور الجاهلي .. فالتصور الجاهلي لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأن الصلة هي صلة الجنس والنسب . أما التصور الايماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ، فليسا أمة واحدة ، وليس بينهما صلة ولا قرابة .. انهما امتان مختلفتان في ميزان الله ، فهما مختلفتان في ميزان المؤمنين . ان الامة في التصور الايماني هي الجماعة التي تنتسب الى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ، وليست هي الجماعة التي تنتسب الى جنس واحد أو أرض واحدة . وهذا هو التصور اللائق بالانسان ، الذي يستمد انسانيته من نفخة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الارضية !

في ظل هذا البيان التاريخي الحاسم ، لقصة العهد مع ابراهيم وقصة البيت الحرام كعبة المسلمين ، ولحقيقة الوراثة وحقيقة الدين ، يناقش ادعاءات أهل الكتاب المعاصرين ، ويعرض لحججهم وجدلهم ومحالهم. فيبدو هذا كله ضعيفا شاحبا كما يبدو فيه العنت والادعاء بلا دليل : كذلك تبدو العقيدة الاسلامية عقيدة طبيعية شاملة لا ينحرف عنها المتعنتون .

« قولوا : آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ..

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعا ، وبين الرســـل جميعا ، هي قاعدة التصور الاسلامي وهي التي تجعل من الأمـــة المسلمة ، الامـــة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الارض ، الموصولة بهذا الاصل العريق ، السائرة في الدرب على هـــدى ونور . والتي تجعل من النظـــام الاسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظلـــه دون تعصب ولا اضطهاد . والتي تجعل من المجتمع الاسلامي مجتمعا مفتوحا للنـــاس جميعا في مودة وسلام .

ومن ثم يقرر السياق الحقيقة الكبيرة ، ويثبت عليها المؤمنين بهـــذه العقيدة . حقيقة ان هـــذه العقيدة هي الهدى . ومن اتبعها فقـــد اهتدى . ومن أعرض عنها فلن يستقر على أصـــل ثابت ، ومن ثم يظـــل في شقاق مع الشيع المختلفة التي لا تلتقى على قرار :

« فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتـــدوا ، وان تولوا فانما هم في شـــقاق » ..

وهـــذه الكلمة من اللـــه ، وهـــذه الشهادة منه سبحانه ، تسـكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليـــه . فهو وحده المهتدى . ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشـــاق للحق المعادي للهدى . ولا على المؤمن من شـــقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ، ولا عليه من كيدة ومكره ، ولا عليه من جـــداله ومعارضته . فالله سيتولاهم عنـــه ، وهو كافيه وحسبه :

« فسيكفيكهم الله . وهو السميع العليم » ..

انه ليس على المؤمن الا أن يستقيم على طريقته ، وان يعتز بالحق المستمد مباشرة من ربه ، والعلامة التي يضعها اللـــه على أوليائه ، فيعرفون بهـــا في الارض :

« صبغة الله . ومن أحسن من الله صبغة ؟ ونحن له عابدون » ..

صبغة الله التي شـــاء لها ان تكون آخر رسالاته الى البشر . لتقوم عليها وحدة انسانية واسعة الآفاق ، لا تعصب فيها ولا حقـــد ، ولا أجناس فيها ولا ألوان .

ونقف هنـــا عند سمة من سمات التعبير القرآني ذات الـــدلالة العميقة .. ان صـــدر هـــذه الآية من كلام الله التقريري : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » .. أمـــا باقيها فهو من كلام المؤمنين . يلحقـــه

السياق - بلا فاصل - بكلام البارىء سبحانه فى السياق وكله قرآن منزل • ولكن الشطر الاول حكاية عن قول الله ، والشطر الثانى حكاية عن قول المؤمنين • وهو تشريف عظيم أن يلحق كلام المؤمنين بكلام الله فى سياق واحد ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين ربهم ، وبحكم الاستقامة الواصلة بينه وبينهم • وأمثال هذا فى القرآن كثير • وهو ذوى مغزى كبير •

ثم تمضى الحجة الدامغة الى نهايتها الحاسمة :

« قل : أتحاجوننا فى الله ، وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون ؟ » ••

ولا مجال للجدل فى وحدانية الله وربوبيته • فهو ربنا وربكم ، ونحن محاسبون بأعمالنا ، وعليكم وزر أعمالكم • ونحن متجردون له مخلصون لا نشرك به شيئا ، ولا نرجو معه واحدا • وهذا الكلام تقرير لموقف المسلمين واعتقادهم ، وهو غير قابل للجدل والمحاجة واللجاج ••

ومن ثم يضرب السياق عنه ، وينتقل الى مجال آخر من مجالات الجدل • يظهر انه هو الآخر غير قابل للجاجة والمجال :

« أم تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ » وهم كانوا أسبق من موسى ، وأسبق من اليهودية والنصرانية • والله يشهد بحقيقة دينهم - وهو الاسلام كما سبق البيان:

« قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ » ••

وهو سؤال لا جواب عليه ! وفيه من الاستنكار ما يقطع الالسنة دون الجواب عليه !

ثم انكم لتعلمون انهم كانوا قبل أن تكون اليهودية والنصرانية • وكانوا على الحنيفية الاولى التى لا تشرك بالله شيئا • ولديكم كذلك شهادة فى كتبكم أن سيبعث نبى فى آخر الزمان دينه الحنيفية ، دين ابراهيم • ولكنكم تكتمون هذه الشهادة :

« ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ » ••

والله مطلع على ماتخفون من الشهادة التي ائتمنتم عليها ، وما تفومن به من الجدال فيها لتعميتها وتلبيسها :

« وما الله بغافل عما تعملون » ..

وحين يصل السياق الى هذه القمة في الافحام ، والى هذا الفصل في القضية والى بيان ما بين ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة فى كل اتجاه ... عندئذ يعيد الفاصلة التى ختم بها الحديث من قبل عن ابراهيم وذريته المسلمين :

« تلك أمة قد خلت . لها ما كسبت ولكم ما كسبتم . ولا تسألون عما كانوا يعملون » ..

وفيها فصل الخطاب ، ونهاية الجدل ، والكلمة الاخيرة فى تلك الدعاوى الطويلة العريضة .

آيات أخرى من القرآن الكريم فيها ذكر ابراهيم عليه السلام وشعائر الحج :

١ ـ سورة البقرة (٣) :

---

(٣) ١٥٨ . فى هذه الآية بيان عن موضوع الصفا والمروة بسبب ما كان يلابس هذا الموضوع من تقاليد الجاهلية :

وهناك عدة روايات عن سبب نزول هذه الآية ، أقربها الى المنطق النفسى المستفاد من التصور الذى انشأه الاسلام فى نفوس المجموعة السابقة الى الاسلام من المهاجرين والانصار .. الرواية التى تقول : ان بعض المسلمين تحرجوا من الطواف بالصفا والمروة في الحج والعمرة ، بسبب انهم كانوا يسعون بين هذين الجبلين فى الجاهلية ، وانه كان فوقهما صنمان هما اسعاف ونائلة . فكره المسلمون أن يطوفوا كما كانوا يطوفون فى الجاهلية .

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ابن سليمان : قال سألت انسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الاسلام امسكنا عنهما . فانزل الله عز وجل: « ان الصفا والمروة من شعائر الله .. وقال الشعبى : كان أساف على الصفا ، وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية . =

.. ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فان الله شاكر عليم ٠

٢ ـ آل عمران (٤) :

ان الله اصطفى آدم نوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ٠ ذرية بعضها من بعض وان الله سميع عليم ٠

« يا أهل الكتاب لما تحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون » (٥) ٠

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ٠ ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين (٦) ٠

« قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ٠ ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ٠ فيه آيات

= ولم يرد تحديد لتاريخ نزول هذه الآية ٠ والارجح انها نزلت متأخرة عن الآيات الخاصة بتحويل القبلة ٠ ومع أن مكة قد أصبحت دار حرب بالنسبة للمسلمين ، فانه لا يبعد أن بعض المسلمين كانوا يتمكنون أفرادا من الحج ومن العمرة ٠ وهؤلاء هم الذين تحرجوا من الطواف بين الصفا والمروة ٠٠٠ وكان هذا التحرج ثمرة التعليم الطويل ، ووضوح التصور الايمانى فى نفوسهم ، هذا الوضوح الذى يجعلهم يتحرزون ويتوجسون من كل أمر كانوا يزاولونه في الجاهلية ٠ اذ أصبحت نفوسهم من الحساسية فى هذه الناحية بحيث تفزع من كل ما كان في الجاهلية ، وتتوجس أن يكون منهيا عنه فى الاسلام ، الأمر الذى ظهر بوضوح فى مناسبات كثيرة ٠٠

كانت الدعوة الجديدة قد هزت أرواحهم هزا وتغلغلت فيها الى الاعماق ، فأحدثت فيها انقلابا نفسيا وشعوريا كاملا ، حتى لينظرون بجفوة وتحرز الى ماضيهم فى الجاهلية ، ويحسون أن هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصالا كاملا ، فلم يعد منهم ، ولم يعودوا منه ، وعاد دنسا ورجسا يتحرزون فى الالمام به !

وان المتابع لسيرة هذه الفترة الاخيرة فى حياة القوم ليحس بقوة أثر هذه العقيدة العقيدة العجيب فى تلك النفوس ٠

(٤) ٣٣ ـ ٣٤ (٥) ٦٥ ٠

(٦) ٦٧ ـ ٦٨

بينات مقـــام ابراهيم ومن دخلـه كان آمنـــا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين (٧) ٠

٣ ـ **الانعام (٨) :**

واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضـــلال مبين ٠ وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ٠ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هـــذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ٠ فلما رأى القمر بازغـــا قال هـذا ربى فلما أفـــل قال لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين ٠ فلما رأى الشمس بازغـــة قال هـــذا ربى هـــذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون ٠ انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين ٠ وحاجة قومه قال أتحاجونى فى اللـه وقـد هـدانى ولا أخاف مـــا تشركون بـــه الا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون ٠ وكيف أخـــاف ما أشركتم ولا تخافون انكم اشركتم باللـــه ما لم ينزل بـه عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ٠ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون ٠ وتلك حجتنا أتيناها ابراهيم على قومـــه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم ٠

٤ ـ **ابراهيم (٩) :**

« واذ قال ابراهيم رب اجعـــل هـــذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن تعبد الاصنام ٠ رب انهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فانه منى ومن

---

(٧) ٩٥ ـ ٩٧ ٠ يقرر الله سبحانه وتعالى هنـــا أن الاتجاه للكعبة هو الاصل ، فهى أول بيت وضع فى الارض للعبادة وخصص لها منـــذ أمر الله ابراهيم أن يرفع قواعده ٠

(٨) ٧٤ ـ ٨٣

(٩) والنموذج الكامل للانسان الذاكر الشاكر هو أبو الانبياء ٠ ابراهيم الذى يظلل سمته هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران ٠ ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيـــه الدعاء ، فى نغمة رخية متموجة ، ذاهبة فى السماء ٠

« واذ قال ابراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن تعبد الاصنام ٠ رب انهن اضللن كثيرا من النـــاس ، فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم ٠ ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس =

عصانى فانك غفور رحيم • ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من النـــاس تهوى اليهـــم

= تهوى اليهم ، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون • ربنا تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على اللـــه من شىء فى الارض ولا فى الســـماء • الحمد للـــه الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعــاء ربنـــا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ••

« ان السياق يصور ابراهيم – عليه السلام – الى جوار بيت اللـــه الذى بنـــاه فى البلد الذى آل الى قريش ، فاذا بها تكفر فيـــه بالله ، مرتكنة الى البيت الـذى بنـــاه بانيه لعبـــاد اللـــه • فيصوره فى هـــذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر ، ليرد الجاحدين الى الاعتراف ، ويرد الكافرين الى الشكر ويرد الغافلين الى الذكر ويرد الشاردين من ابنائه الى سيرة أبيهم يقتدون بها ويهتدون » •

ويبدأ ابراهيم دعاءه :

« رب اجعل هذا البلد آمنا » ••

فنعمة الامن نعمة ماسة بالانسان ، عظيمة الوقع فى حســـه ، متعلقة بحرصة على نفسه ، والســـياق يذكرها هنـــا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها وقـــد استجاب اللـــه دعـــاء ابيهم ابراهيم فجعل البلد آمنـــا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق ابراهيم ، فكفروا النعمة ، وجعلوا للـــه اندادا ، وصـــدوا عن سبيل الله • ولقـــد كانت دعوة ابيهم التالية لدعوة الامن :

« واجنبنى وبنى أن نعبد الاصنام » ••

ويبدو فى دعوة ابراهيم الثانية تسليم ابراهيم المطلق الى ربـه ، والتجاؤه اليه فى أخص مشاعر قلبـــه • فهو يدعوه أن يجنبه عبـــادة الاصنام هـــو وبنيه ، يستعينه بهـــذا الدعاء ويستهديه ، ثم ليبرز أن هـــذه نعمة أخرى من نعـــم اللـــه • وانهـــا لنعمـــــة أن يخرج القلب من ظلمـــــات الشرك وجهالاته الى نور الايمان بالله وتوحيده • فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود ، الى المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء • ويخرج من الدينونة المذلة لشتى الارباب ، الى الدينونة الكريمة العزيزة لرب العباد •• انهـــا لنعمة يدعو ابراهيم ربـــه ليحفظها عليه ، فيجنبه هـــو وبنيه أن يعبد الاصنام •

يدعو ابراهيم دعوته هـــذه لمـــا شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الاصنام من الناس فى جيلة وفى الاجيال التى قبله ، ومن فتنوا بهـــا ومن افتتنوا وهم خلق كثير :

« رب انهن أضللن كثيرا من الناس » ••

وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون · ربنـا انك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الارض ولا فى السماء · الحمد للـه الذى وهب

= ثم يتـابع الدعاء ·· فأمـا من تبع طريقى فلـم يفتتن بهـا منى ، ينتسب الى ويلتقى معى فى الآصرة الكبرى ، آصرة العقيدة :

« فمن تبعنى فانه منى » ··

وأما من عصانى منهم فأفوض أمره اليك :

« ومن عصانى فانك غفور رحيم » ··

وفى هـذا تبدو سمة ابراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم ، فهو لا يطلب الهلاك لمن يعصيه من نسـله ويحيد عن طريقه ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بـل لا يذكر العذاب ، انما يكلهم الى غفران الله ورحمته · ويلقى على الجو ظـلال المغفرة والرحمة ، وتحت هـذا الظل يتوارى ظـل المعصية ، فلا يكشف عنـه ابراهيم الرحيم الحليم !

ويمضى ابراهيم فى دعائه يذكر اسكانه لبعض ابنائه بهـذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها :

« ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك الحرام » ·· لـمـاذا ؟

« ربنا ليقيموا الصلاة » ··

فهـذا هو الذى من أجله اسكنهم هناك ، وهـذا هو الذى من أجلـه يحتملون الجدب والحرمان ·

« فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم » ··

وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهـوى الى ذلك البيت وأهله فى ذلك الوادى الجديب ، انه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب ··

« وارزقهم من الثمرات » ··

عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج ·· لـمـاذا ؟ ليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ! ولـكن لينشأ عن ذلك مـا يرجوه ابراهيم الشكور :

« لعلهم يشكرون » ··

وهكذا يبرز السـياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام ·· انه اقامة الصلاة على أصولها كاملة للـه · ويبرز هـدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها الى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الارض ·· انه شـكر للـه المنعم الوهاب ·

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جيرة =

لى على الكبر اسماعيل واسحاق ان ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنـــا وتقبل دعـــاء . ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

= البيت المحرم فلا صلاة قائمة للـــه ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهوى القلوب والثمرات !

ويعقب ابراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله .. يعقب على الدعـــاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على مـــا فى قلوبهم من توجـه وشكر ودعـاء . فليس القصد هو المظاهرات والادعية والتصدية والمكاء . انما هو توجه القلب الى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شيء فى الارض ولا فى السماء :

« ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن : وما يخفى على الله من شيء فى الارض ولا فى السماء » ..

ويذكر ابراهيم نعمة الله عليه من قبل ، فيلهج لسانه بالحمد والشكر شـأن العبد الصالح يذكر فيشكر :

« الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، ان ربى لسميع الدعاء » ..

وهبـه الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتـــداد .. وما أجل الانعام بـه عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفســـية الفطرية الى الامتداد . وان ابراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته :

« ان ربى لسميع الدعاء » ..

« ويعقب على الشكر بدعاء الله ان يجعله مديما للشـــكر . الشكر بالعبادة والطاعة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنهــــا عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على انفاذ عزيمته وقبول دعائه :

« رب اجعلنى مقيم الصلاة ، ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء » ..

وفى ظل هـــذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهـــذا ابراهيم يجعل عون اللـــه له على اقامة الصلاة رجـــاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه اليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان ابراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيـه من بعده !

ويختم ابراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا ، يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع انسانا الا عمله ، ثم مغفرة الله فى تقصيرة :

« ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ..

وينتهى المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع . ومشهد =

٥ ـ النحل (١٠) :

ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين · شـــاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم · وأتيناه فى الدنيا حسـنة وانـه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك أن اتبع ملـة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ·

٦ ـ مريم (١١) :

واذكر فى الكتاب اسماعيل ، انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا · وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا ·

= تعداد النعم والشكر عليها ·· فى ايقاع موسيقى متموج رخى ·· ينتهى بعد ان يخلع على الموقف كلـه ظـلا وديعـا لطيفا ، تهفو القلوب معـه الى جوار الله ، وتذكر القلوب فيـه نعم الله · ويرتسم ابراهيم أبو الانبياء نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عبـاد الله ، الذين وجه اليهم قبيل هذا الدعاء ··

ولا يفوتنا ان نلمح تكرار ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى كل فقرة من فقرات دعائه الخاشع المنيب لكلمة : « ربنا » أو « رب » · فان لهجان لسانه بذكر ربوبية الله له ولبنيه من بعده ذات مغزى ·· انه لا يذكر الله ـ سبحانه ـ بصـفة الالوهية ، انما يذكره بصـفة الربوبية · فالالوهيـة قلما كانت موضع جدال فى معظم الجاهليات ـ وبخاصـة فى الجاهليـة العربية ـ انما الذى كان دائما موضع جدل هو قضية الربوبية · قضـية الدينونة فى واقع الحياة الارضية · وهى القضية العملية الواقعية المؤثرة فى حياة الانسان · والتى هى مفرق الطريق بين الاسـلام والجاهلية وبين التوحيد والشرك فى عالم الواقع ·· فاما ان يدين النـاس للـه فيكون ربهم واما أن يدينو لغير الله فيكون غيره ربهم ·· وهـذا هـو مفرق الطريق بين التوحيد والشرك وبين الاسـلام والجاهلية فى واقع الحياة · والقرآن وهو يعرض على مشركى العرب دعـاء أبيهم ابراهيم والتركيز فيـه على قضـيةالربوبية كان يلفتهم الى مـا هم فيـه من مخالفة فيه من مخالفة واضحة لمدلول هـذا الدعاء ·

(١٠) ١٢٠ ـ ١٢٣ · كما ورد ذكر ابراهيم فى سورة الشعراء (٦٩ ـ ٨٦)، والذاريات (٢٤ ـ ٣٦) والممتحنة ، والانبياء (٦٩ ـ ٧٣) ، ص (٤٥ ـ ٤٨) ·

(١١) ٥٤ ـ ٥٥ · وهنا يذكر القرآن الكريم اسماعيل ابا العرب ، وينوه عن صفات اسماعيل بأنه كان صادق الوعد وصدق الوعد صفة كل نبى وكل =

٧ ـ الصافات (١٢) :

وان من شيعته لابراهيم · اذ جاء ربه بقلب سليم · اذ قال لأبيه وقومه

= صالح » ، فلا بد أن هذه الصفة كانت بارزة فى اسماعيل بدرجة تستدعى ابرازها والتنويه بها بشكل خاص · وهو رسول فلا بد أنه كانت له دعـــوة فى العرب الاوائل وهو جدهم الكبير وقد كان فى العرب موحدون افراد قبيل الرسالة المحمدية ، فالأرجح انهم بقية الموحدين من اتباع اسماعيل · ويذكر القرآن من اركان العقيدة التى جاء بها الصلاة والزكاة وكان يأمر بهما اهله ·· ثم يثبت له انه كان عند ربه مرضيا » ·

وقد ورد ذكر اسماعيل عليه السلام فى سورة الانبياء (٨٥ـ٨٦) ·

(١٢) ٨٣ ـ ١١٣·الهجرةواسماعيل الذبيح : تجىء هنا الحلقةالثانية من قصة ابراهيم ·· لقد انتهى أمره مع أبيه وقومه · لقد ارادوا به الهلاك فى النار التى اسموها الجحيم ، وأراد الله أن يكونوا هم الاسلفين ، ونجاة من كيدهم أجمعين ·

عندئذ استدبر ابراهيم مرحلة من حياته ليستقبل مرحلة ، وطوى صفحة لينشر صفحة :

« وقال : انى ذاهب الى ربى سيهدين » ··

هكذا ·· انى ذاهب الى ربى ·· انها الهجرة · وهى هجرة نفسية قبل أن تكون هجرة مكانية · هجرة يترك وراءه فيها كل شىء من ماضى حياته ·· يترك أباه وقومه وأهله وبيته ووطنه وكل ما يربطه بهذه الارض ، وبهـؤلاء الناس · ويدع وراء كذلك كل عائق وكل شاغل · ويهاجر الى ربه متخففا من كل شىء طارحا وراءه كل شىء مسلما نفسه لربه لا يستبقى منها شيئا · موقن أن ربه سيهديه ، وسيرعى خطاه ، وينقلها فى الطريق المستقيم ·

انها الهجرة الكاملة من حال الى حال ، ومن موضع الى وضع ، ومن أواصر شتى الى آصرة واحدة لا يزحمها فى النفس شىء · انه التعبير عن التجـــرد والخلوص والاستسلام والطمأنينة واليقين ·

وكان ابراهيم حتى هذه اللحظة وحيدا لا عقب له ، وهـــو يترك وراءه أواصر الأهل والقربى ، والصحبة والمعرفة · وكل مألوف له فى ماضى حياته ، وكل ما يشده الى الأرض التى نشأ فيها ، والتى انحسم ما بينه وبين أهلها الذين ألقوه فى الجحيم ! فاتجه الى ربه الذى أعلن انه ذاهب اليه · اتجه اليه يسأله الذرية المؤمنة والخلف الصالح :

((رب هب لى من الصالحين)) ··

واستجاب الله دعاء عبده الصالح المتجرد ، الذى ترك وراءه كل شىء ، وجاء اليه بقلب سليم ··

« فبشرناه بغلام حليم » ·· =

ماذا تعبدون • أئفكا آلهة دون الله تريدون • فما ظنكم برب العالمين • فنظر نظرة في النجوم • فقال اني سقيم • فتولوا عنه مدبرين • فراغ الى آلهتهم فقال ألا تأكلون • مالكم لا تنطقون • فراغ عليهم ضربا باليمين • فأقبلوا اليه يزفون • قال أتعبدون ما تنحتون • والله خلقكم وما تعملون • قالوا ابنوا له

= هو اسماعيل ـ كما يرجح سياق السيرة والسورة ـ وسنرى آثار حلمه الذى وصفه ربه به وهو غلام • ولنا أن نتصور فرحة ابراهيم الوحيد المفرد المهاجر المقطوع من اهله وقرابته • لنا أن نتصور فرحته بهذا الغلام ، الذى يصفه ربه بأنه حليم •

والآن آن أن نطلع على الموقف العظيم الكريم الفريد فى حياة ابراهيم • بل فى حياة البشر اجمعين • وآن أن نقف من سياق القصة فى القرآن امام المثل الموحى الذى يعرضه الله للامة المسلمة من حياة ابيها ابراهيم ••

((فلما بلغ معه السعى • قال . يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى • قال : يا أبت افعل ما تؤمر : ستجدنى ان شاء الله من الصابرين)) ••

يا لله ! ويالروعة الايمان والطاعة التسليم ••

هذا ابراهيم الشيخ • المقطوع من الأهل والقرابة • المهاجر من الارض والوطن ها هو ذا يرزق فى كبرته وهرمه بغلام • طالما تطلع اليه • فلما جاءه جاءه غلاما ممتازا يشهد له ربه بأنه حليم • وها هو ذا يكاد يأنس بـه ، وصباه يتفتح ، ويبلغ معه السعى ويرافقه فى الحياة •• ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى فى منامه أنه يذبحه • ويدرك أنها اشارة من ربه بالتضحية • فماذا ؟ انه لا يتردد ، ولا يخالجه الا شعور الطاعة ، ولا يخطر له الا خاطر التسليم •• نعم انها اشارة • مجرد اشارة • • وليست وحيا صريحا ، ولا أمرا مباشرا • ولكنها اشارة من ربه •• وهذا يكفى •• هذا يكفى ليلبى ويستجيب • ودون أن يتعرض ودون أن يسأل ربه •• لماذا ياربى أذبح ابنى الوحيد ؟!

ولكنه لا يلبى فى انزعاج ، ولا يستسلم فى جزع ، ولا يطيع فى اضطراب •• كلا ، انما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء • يبدو ذلك فى كلماته لابنه وهو يعرض عليه الامر الهائل فى هدوء وفى اطمئنان عجيب :

((قال : يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك • فانظر ماذا ترى)) ••

فهى كلمات المالك لاعصابه ، المطمئن للامر الذى يواجهه ، الواثق بأنه يؤدى واجبه • وهى فى الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذى لا يهوله الامر فيؤديه ، فى الدفاع وعجلة ليخلص منه وينتهى ، ويستريح من ثقله على اعصابه !

والامر شاق ـ ما فى ذلك شك ـ فهو لا يطلب اليه أن يرسل بابنه =

بنيانا فألقوه في الجحيم • فارادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين • وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين • رب هب لى من الصالحين • فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من

= الوحيد الى معركة • ولايطلب اليه ان يكلفه أمرا تنتهى به حياته •• انما يطلب اليه ان يتولى هو بيده • يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه •• وهو – مع هذا – يتلقى الامر هذا التلقى ، ويعرض على ابنه هذا العرض ، ويطلب اليه ان يتروى فى امره ، وأن يرى فيه رأيه !

انه لا يأخذ ابنه على غرة لينفذ اشارة ربه • وينتهى • انما يعرض الامر عليه كالذى يعرض المألوف من الامر • فالأمر فى حسه هكذا • ربه يريد • فليكن ما يريد على العين والرأس • وابنه ينبغى أن يعرف ، وان يأخذ الامر طاعة واسلاما ، لا قهرا واضطرارا • لينال هو الآخر اجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم ! انه يحب لابنه ان يتذوق لذة التطوع التى ذاقها ، وان ينال الخير الذى يراه هو ابقى من الحياة وأقنى ••

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذى يعرض عليه الذبح ، تصديقا لرؤيا رآها ابوه ؟

انه يرتقى الى الأفق الذى ارتقى اليه من قبل ابوه .

« قال : يا أبت افعل ما تؤمر • ستجدنى – ان شاء الله – من الصابرين »

•• انه يتلقى الامر لا فى طاعة واستسلام فحسب • ولكن فى رضى كذلك وفى يقين ••

((يا أبت)) •• فى مودة وقربى • فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده • بل لا يفقده أدبه ومودته •

« افعل ما تؤمر » •• فهو يحس ما أحسه من قبل قلب ابيه • يحس أن الرؤيا إشارة • وان الاشارة امر • وأنها تكفى لكى يلبى وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب •

ثم هو الادب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته فى الاحتمال ، والاستعانة بربه على ضعفه ونسبه الفضل اليه فى اعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

((ستجدنى ان شاء الله من الصابرين)) ••

ولم يأخذها بطولة • ولم يأخذها شجاعة • ولم يأخذها اندفاعا الى الخطر دون مبالاة • ولم يظهر لشخصه ظلا ولا حجما ولا وزنا •• انما أرجع الفضل كله لله ان هو اعانه على ما يطلب اليه ، وأصبره على ما يراد به :

((ستجدنى – ان شاء الله – من الصابرين)) ••

يا للأدب مع الله ! ويالروعة الايمان • ويا لنبل الطاعة • ويالعظمة =

الصابرين • فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين • انهذا لهو البلاء المبين • وفد يناه بذبح

= التسليم ! ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام •• يخطو الى التنفيذ : ((فلما أسلما وتله للجبين)) ••

ومرة اخرى يرتفع نبل الطاعه • وعظمة الايمان • وطمأنينه الرضي وراء كل ما تعارف عليه بنو الانسان •• ان الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعدادا • وان الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعا • وقد وصل الامر الى ان يكون عيانا •

لقد أسلما •• فهذا هو الاسلام • هذا هو الاسلام في حقيقته • ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم •• وتنفيذ •• وكلاهما لا يجد فى نفسه الا هذه المشاعر التى لا يصنعها غير الايمان العظيم •

انها ليست الشجاعة والجرأة • وليس الاندفاع والحماسه • لقد يندفع المجاهد فى الميدان يقتل ويقتل • ولقد يندفع الفدائى وهو يعلم أنه قد لا يعود • ولكن هذا كله شيء والذى يصنعه ابراهيم واسماعيل هنا شيء اخر •• ليس هنا دم فائر ، ولا حماسه دافعة ولا اندفاع في عجله تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! انما هو الاستسلام الواعى المتعقل القاصد المريد ، العارف بما يفعل المطمئن لما يكون • لا بل هنا الرضى الهادىء المستبشر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

هنا كان ابراهيم واسماعيل قد أديا • كانا قد أسلما • كانا قد حققا الامر والتكليف • ولم يكن باقيا الا أن يذبح اسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه •• وهذا امر لا يعنى شيئا فى ميزان الله ، بعد ما وضع ابراهيم واسماعيل فى هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما •

كان الابتلاء قد تم ، والامتحان قد وقع • ونتائجه قد ظهرت • وغاياته قد تحققت • ولم يعد الا الألم البدنى • والا الدم المسفوح • والجسد الذبيح • والله لا يريد أن يعذب عبده بالابتلاء • ولا يريد دماءهم واجسادهم فى شيء • ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جازوا الامتحان بنجاح •

وعرف الله من ابراهيم واسماعيل صدقهما فاعتبرهما قد أديا وحققا وصدقا :

((وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا • انا كذلك نجزى المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم)) ••

قد صدقت الرؤيا وحققتها فعلا • فالله لا يريد الا الاسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره أو تحتفظ به =

عظيم • وتركنا عليه فى الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزى المحسنين • انه من عبادنا المؤمنين • وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين • وباركنا عليه وعلى اسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين •

= دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد • ولو كانت هى النفس والحياة • وأنت - يا ابراهيم - قد فعلت • جدت بكل شىء • وبأعز شىء • وجدت به فى رضى وفى هدوء وفى طمأنينة وفى يقين • فلم يبق الا اللحم والدم • وهذا ينوب عنه ذبح • أى ذبح من دم ولحم ! ويفدى الله هذه النفس التى اسلمت وأدت • يفديها بذبح عظيم • قيل : انه كبش وجده ابراهيم مهيأ بفعل ربه وارادته ليذبحه بدلا من اسماعيل !

وقيل له : ((انا كذلك نجزى المحسنين)) •• نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء • ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها الى مستوى الوفاء • ونجزيهم باقدارهم واصبارهم على الاداء • ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء !

ومضت بذلك سنة النحر فى الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذى يرتفع منارة لحقيقة الايمان • وجمال الطاعة • وعظمة التسليم • والذى ترجع اليه الامة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها ابراهيم ، الذى تتبع ملته ، والذى ترث نسبه وعقيدته • ولتدرك طبيعة العقيدة التى تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف انها الاستسلام لقدر الله فى طاعة راضية واثقة طيبة لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج فى تحقيق ارادته عند اول اشارة منه وأول توجيه • ولا تستبقى لنفسها فى نفسها شيئا ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه الا كما يطلب هو اليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ، ولا ان يؤذيها بالبلاء ، انما يريد ان تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدية • مستسلمة لا تقدم بين يديه ولا تتألى عليه ،فاذا عرف منها الصدق فى هذا أعفاها من التضحيات والآلام • واحتسبها لها وفاء وأداء • وقبل منها وفداها • وأكرمها كما اكرم أباها •

((وتركنا عليه فى الآخرين)) ••

فهو مذكور على توالى الاجيال والقرون • وهو أمة • وهو ابو الأنبياء • وهو ابو هذه الامة المسلمة • وهى وارثة ملته • وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة ابراهيم • فجعلها الله له عقبا ونسبا الى يوم الدين •

((سلام على ابراهيم)) ••

سلام عليه من ربه • سلام يسجل فى كتابه الباقى • ويرقم فى طوايا الوجود الكبير •

((وكذلك نجزى المحسنين)) ••

كذلك نجزيهم بالبلاء •• والوفاء • والذكر • والاسلام • والتكريم •

((انه من عبادنا المؤمنين)) ••

وهذا جزاء الايمان • وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين • =

٨ ــ العنكبوت (١٣) :

وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون. انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون. وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقبلون . وما انتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم . فما كان جواب قومه الا قالوا اقتلوه أو احرقوه فأنجاه الله من النار فى ذلك لايات لقوم يؤمنون . وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين . آمن له لوط ، وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم. ووهبنا له اسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وأتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة من الصالحين (العنكبوت ١٦ ــ ٢٧) .

٩ ــ الحج (١٤) :

ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم.

= ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له اسحاق فى شيخوخته ، ويباركه ويبارك اسحاق . ويجعل اسحاق نبيا من الصالحين .

((وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى اسحاق)).

وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهمــا ليست وراثة الدم والنسب انما هى وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

((ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين)) ..

(١٣) ١٦ ــ ٢٧ .

(١٤) ٢٥ ــ ٣٧ ــ : الاساس الذى اقيم عليه المسجد الحرام يوم فوض الله ابراهيم ــ عليه السلام ــ فى بنائه ، والاذان فى الناس بالحج اليه : ــ ولقد كلف ابراهيم أن يقيم هذا البيت على التوحيد ، وأن ينفى عنه الشرك ، وأن يجعله للناس جميعا سواء المقيم فيه والطارىء عليه ، لا يمنع عنه احد ، ولا يملكه أحد .. ويستطرد الى بعض شعائر الحج وما وراءها من استجاشة القلوب للتقوى وذكر الله والاتصال به .. وينتهى الى ضرورة حماية المسجد الحرام =

واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر

= من عدوان المعتدين الذين يصدون عنه ويغيرون الاساس الذى قام عليه ، وبوعد الله للمدافعين بالنصر متى نهضوا بالتكاليف التى تفرصها حمـــاية العقيدة ٠

((ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس ، سواء العاكف فيه والباد ٠ ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم)) ٠٠

وكان ذلك فعل المشركين من قريش : أن يصدوا الناس عن دين الله ـ وهو سبيله الواصل اليه ، وهو طريقه الذى شرعه للناس ، وهو نهجه الذى اختاره للعباد ـ وأن يمنعوا المسلمين من الحج والعمرة الى المسجد الحرام ـ كما فعلوا عام الحديبية ـ وهو الذى جعله الله للناس منطقة امان ودار سلام وواحة اطمئنان ٠ يستوى فيه المقيم بمكة والطارىء عليها ٠ فهو بيت اللــــه الذى يتساوى فيه عباد الله ، فلا يملكه أحد منهم ، ولا يمتاز فيه أحد منهم : ((سواء العاكف فيه والباد)) ٠

ولقد كان هذا النهج الذى شرعه الله فى بيته الحرام سابقا لكل محاولات البشر فى ايجاد منطقة حرام ٠ يلقى فيها السلام ، ويأمن فيها المتخاصمون ، وتحقن فيها الدماء ، ويجد كل أحد فيها مأواه ٠ لا تفضلا من احد ، ولكن حقا يتساوى فيه الجميع ٠

ولقد اختلفت اقوال الفقهاء فى جواز الملكية الفردية لبيوت مكة غير المسكونة بأهلها ٠ وفى جواز كراء هذه البيوت عند من أجاز ملكيتها ٠٠ فذهب الشافعى رحمه الله ـ الى أنها تملك وتورث وتؤجر محتجا بما ثبت من أن عمـــر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجنا ٠ وذهب اسحاق بن راهويه ـ رحمه الله ـ الى أنهـــا لا تورث ولا تؤجر ، وقال : توفى رسول الله ـ صـــلى الله عليه وســـلم ـ وأبو بكر وعمر ، وما تدعى رباع مكة (جمع ربع) الا السوائب ، ومن احتاج سكن ، ومن استغنى أسكن ٠ وقال عبد الرزاق عن مجاهد عن أبيه عن عبدالله ابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ انه قال : لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها ٠ وقال ايضا عن ابن جريج : كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم ٠ وأخبرنى أن عمر ابن الخطاب كان ينهى عن تبويب دور مكة لأن ينزل الحاج فى عرصاتها ، فكان أول من بوب سهيل بن عمرو ، فأرسل اليه عمر بن الخطاب فى ذلك ، فقال : أنظرنى يا أمير المؤمنين انى كنت امرأ تاجرا ، فأردت أن اتخذ لى بابين يحبسان لى ظهرى (أى ركائبى) قال : فلك ذلك اذن ٠ وقال عبد الرزاق عن معمر عن منصور عن مجاهد ان عمر بن الخطاب قال : يا أهل مكة لا تتخذوا لدوركم =

يأتين من كل فج عميق • ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسـم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فـكلوا منهـا وأطعموا البـائس

=أبوابا لينزل البادى حيث يشاء •• وتوسط الامام أحمد ـ رحمه‌الله ـ فقال: تملك وتورث ولا تؤجر • جمعا بين الأدلة •

وهكذا سبق الاسلام سبقا بعيدا بانشاء واحة السلام ، ومنطقة الامان ودار الانسان المفتوحة لكل انسان ! والقرآن الكريم يهدد من يريد اعوجاجا فى هذا النهج المستقيم بالعذاب الاليم : ((ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب اليم)) •• فما بال من يريد ويفعل ؟ ان التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الارادة زيادة فى التحذير ، ومبالغة فى التوكيد • وذلك من دقائق التعبير •

ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر أن فى الجملة : ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام •• فلا يذكرهم مالهم ؟ ما شأنهم ؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغنى عن كل شىء آخر فى شأنهم ، ويقرر امرهم ومصيرهم !

ثم يرجع الى نشأة هذا البيت الحرام ، الذى يسـتبد به المشركون ، يعبدون فيه الاصنام ، ويمنعون منه الموحدين بالله ، المتطهرين من الشرك •• يرجع الى نشأته على يد ابراهيم ـ عليه السلام ـ بتوجيه ربه وارشـاده • ويرجع الى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد • والى الغرض من اقامته وهو عبادة الله الواحد وتخصيصه للطائفين به والقائمين لله فيه :

((واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شـيئا ، وطهر بيتى للطائفين والقائمين الركع السجود • وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام ، فكلوا منها وأطعموا البـائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)) ••

فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة • عرف الله مكانه لابراهيم ـ عليه السلام ـ وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس : ((ألا تشرك بى شيئا)) فهو بيت الله وحده دون سواه • وليطهره به من الحجيج ، والقائمين فيـه للصلاة : ((وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود)) فهؤلاء هـم الذين انشىء البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله ، ويتـوجهون بالعبـادة الى سـواه •

ثم أمر الله ابراهيم عليه السلام ـ بانى البيت ـ اذا فرغ من اقامته على الاساس الذى كلف به أن يؤذن فى الناس بالحج ، وأن يدعوهم الى بيت الله الحرام ووعده أن يلبى الناس دعوته ، فيتقاطرون على البيت من كل فج ، رجالا يسعون على أقدامهم ، وركوبا ((على كل ضامر)) جهده السير فضـمر من الجهد والجوع : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق)) •• =

الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق • ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور • حنفاء لله غير

= وما يزال وعد الله يتحقق منذ ابراهيم ـ عليه السلام ـ الى اليوم والغد • وما تزال أفئدة من الناس تهوى الى البيت الحرام ، وترف الى رؤيته والطواف به •• الغنى القادر الذى يجد الظهر يركبه ووسيلة الركوب المختلفة تنقله ، والفقير المعدم الذى لا يجد الا قدميه • وعشرات الالوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الارض البعيدة تلبية لدعوة الله التى أذن بها ابراهيم ـ عليه السلام ـ منذ آلاف الاعوام ••

ويقف السياق عند بعض معالم الحج وغاياته :

((وليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق)) ••

والمنافع التى يشهدها الحجيج كثير • فالحج موسم ومؤتمر • الحج موسم تجارة وموسم عبادة • والحج مؤتمر اجتماع وتعارف ، ومؤتمر تنسيق وتعاون • وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة •• اصحاب السلع والتجارة يجدون فى موسم الحج سوقا رائجة ، حيث تجبى الى البلد الحرام ثمرات كل شيء •• من اطراف الارض ، ويقدم الحجيج من كل فج ومن كل قطر ، ومعهم من خيرات بلادهم ما تفرق فى ارجاء الارض في شتى المواسم • يتجمع كله فى البلد الحرام فى موسم واحد • فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام •

وهو موسم عبادة تصفو فيه الارواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام • وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف كالأطياف من قريب ومن بعيد ••

طيف ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ وهو يودع البيت فلذة كبده اسماعيل وامه ويتوجه بقلبه الخافق الواجف الى ربه : ((ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم • ربنا ليقيموا الصلاة • فأجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون)) ••

وطيف هاجر ، وهى تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع فى تلك الحرة الملتهبة حول البيت ، وهى تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش ، وهدها الجهد وأضناها الاشفاق على الطفل •• ثم ترجع فى الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدى الرضيع الوضيء • واذا هى زمزم • ينبوع الرحمة فى صحراء اليأس والجدب • =

مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق • ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب •• لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم

= وطيف ابراهيم – عليه السلام – وهو يرى الرؤيا ، فلا يتردد فى التضحية بفلذة كبده ، ويمضى فى الطاعة المؤمنة الى ذلك الأفق البعيد : ((قال : يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك ماذا ترى ؟)) فتجيبه الطاعة الراضية فى اسماعيل – عليه السلام –: ((قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين)) •• واذا رحمة الله تتجلى فى الفداء : ((وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين • وفديناه بذبح عظيم)) ••

وطيف ابراهيم واسماعيل – عليهما السلام – يرفعان القواعد من البيت ، فى انابة وخشوع : « ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم • ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا ، انك انت التواب الرحيم » ••

وتظل هذه الأطياف وتلك الذكريات ترف وتتابع ، حتى يلوح طيف عبد المطلب وهو ينذر دم ابنه العاشر ان رزقه الله عشرة أبناء • واذا هو عبد الله • واذا عبد المطلب حريصا على الوفاء بالنذر • واذا قومه من حوله يعرضون عليه فكرة الفداء واذا هو يدير القداح حول الكعبة ويضاعف الفداء ، والقدح يخرج فى كل مرة على عبد الله ، حتى يبلغ الفداء مائة ناقة بعد عشر هى الدية المعروفة فيقبل منه الفداء ، فينحر مائة وينجو عبد الله • ينجو ليودع رحم آمنة أطهر نطفة وأكرم خلق الله على الله – محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – ثم يموت ! فكأنما فداه الله من الذبح لهذا القصد الوحيد الكريم الكبير !

ثم تتواكب الاطياف والذكريات • من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم – وهو يدرج فى طفولته وصباه فوق هذا الثرى ، حول هذا البيت •• وهو يرفع الحجر الاسود بيديه الكريمتين فيضعه موضعه ليطفىء الفتنة التي كادت تنشب بين القبائل •• وهو يصلى •• وهو يطوف •• وهو يخطب •• وهو يعتكف •• وان خطواته – عليه الصلاة والسلام – لتنبض حية فى الخاطر ، وتتمثل شاخصة فى الضمير يكاد الحاج هناك يلمحها وهو مستغرق فى تلك الذكريات •• وخطوات الحشد من صحابته الكرام وأطيافهم ترف وتدف فوق هذا الثرى ، حول ذلك البيت ، تكاد تسمعها الاذن وتكاد تراها الابصار !

والحج بعد ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة • مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب فى أعماق الزمن منذ أبيهم ابراهيم الخليل : « ملة =

محلها الى البيت العتيق • ولـــكل أمـــة جعلنا منسكا ليذكروا اسم اللـــه على مارزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحـــد فله أسلموا وبشر المخبتين •

= ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هـــذا » •• ويجدون محورهم الذى يشدهم جميعا اليـــه : هـــذه القبلة التى يتوجهون اليها جميعا ويلتقون عليها جميعا •• ويجدون رايتهم التى يفيئون اليهـــا • راية العقيدة الواحدة التى تتوارى فى ظلهـــا فوارق الاجنـــاس والالوان والاوطان •• ويجدون قوتهم التى قـــد ينسونها حينا • قـــوة التجمع والتوحيد والترابط الذى يضم الملايين • الملايين التى لا يقف لهـــا أحـــد لوفاءت الى رأيتهـــا الواحدة التى لا تتعدد •• راية العقيدة والتوحيد •

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى• وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب • وتنظيم ذلك العالم الاسلامى الواحـــد الكامل المتكامل مرة فى كل عـــام • فى ظـــل اللـــه • بالقرب من بيت الله • وفى ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة • فى أنسب مكان ، وأنسب جـــو ، وأنسب زمان ••

فذلك اذ يقول الله سبحانه : « ليشهدوا منافع لهم » •• كل جيل بحسب ظروفه وحاجاته وتجاربه ومقتضياته ، وذلك بعض ما أراده اللـــه بالحج يوم أن فرضه على المسلمين ، وأمر ابراهيم ــ عليه السلام ــ أن يؤذن به فى الناس •

ويمضى السياق يشير الى بعض مناسك الحج وشعائره وأهدافها :

« ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام »••

وهذه كناية عن نحر الذبائح فى أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده • والقرآن يقدم ذكر اسم الله المصاحب لنحر الذبائح ، لأن الجـــو جو عبـــادة ولأن المقصود من النحر هو التقرب الى اللـــه • ومن ثم فان أظهر ما يبرز فى عملية النحر هو ذكر اسم الله على الذبيحة • وكأنما هـــو الهدف المقصود من النحر لا النحر ذاته ••

والنحر ذكرى لفداء اسماعيل ــ عليه السلام ــ فهـــو ذكرى لآية من آيات اللـــه وطاعة من طاعات عبديه ابراهيم واسماعيل ــ عليهما السلام ــ فوق ما هـــو صدقة وقربى لله باطعام الفقراء • وبهيمة الانعام هى الابل والبقر والغنم والمعز •

« فكلوا منها واطعموا البائس الفقير » ••

والامر بالاكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للاباحة أو الاستحباب • أمـــا الأمر باطعام البائس والفقير منها فهو أمـــر للوجوب ، ولعـــل المقصود من أكل صاحبها منهـــا أن يشعر الفقراء انها طيبة كريمة •

وبالنحر ينتهى الاحرام فيحل الحـــاج حلق شعره أو تقصيره ، ونتف شعر الابط ، وقص الاظافر والاستحمام • مما كان ممنوعا عليـــه فى فترة الاحرام • وهـــو الذى يقول عنه : « ثم ليقضوا تفثهم ، وليوفوا نذورهم » =

الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها

= التى نذروها من الذبائح غير الهدى الذى هو من أركان الحج • « وليطوفوا بالبيت العتيق » •• طواف الافاضة بعد الوقوف بعرفات ، وبه تنتهى شعائر الحج • وهو غير طواف الوداع •

والبيت العتيق هو المسجد الحرام اعفاه الله فلم يغلب عليه جبار • وأعفاه الله من البلى والدثور ، فما يزال معمورا منذ ابراهيم عليه السلام ولن يزال •

تلك قصة بناء البيت الحرام ، وذلك أساسه الذى قام عليه ••• بيت أمر الله خليله ابراهيم — عليه السلام — باقامته على التوحيد ، وتطهيره من الشرك ، وأمره أن يؤذن فى الناس بالحج اليه • ليذكروا اسم الله — لا أسماء الآلهة المدعاة — على ما رزقهم من بهيمة الانعام • ويأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير على اسم الله دون سواه •• فهو بيت حرام حرمات الله فيه مصونة — وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود — الى جانب حرمة الدماء ، وحرمة العهود والمواثيق ، وحرمة الهدنة والسلام •

« ذلك • ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه • وأحلت لكم الانعام — الا ما يتلى عليكم — فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به • ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ••

وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها • وذلك خير عند الله • خير فى عالم الضمير والمشاعر ، وخير فى عالم الحياة والواقع • فالضمير الذى يتحرج هو الضمير الذى يتطهر .والحياة التى ترعى فيها حرمات الله هى الحياة التى يأمن فيها البشر من البغى والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان •

ولما كان المشركون يحرمون بعض الانعام — كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى — فيجعلون لها حرمة ، وهى ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله — فان النص يتحدث عن حل الانعام الا ما حرم الله منها — كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : « وأحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم » • وذلك كى لا تكون هنالك حرمات الا لله ، وألا يشرع أحد الا باذن الله ، ولايحكم الا بشريعة الله •

وبمناسبة حل الانعام يأمر باجتناب الرجس من الاوثان • وقد كان المشركون يذبحون عليها وهى رجس — والرجس دنس النفس — والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ، ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان •
=

خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منهـــا وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ـ لن ينال الله لحومها ولا

= ولان الشرك افتراء على الله وزور ، فانه يحذر من قول الزور كافة : « فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » ••

ويغلظ النص من جريمة قول الزور اذ يقرنها الى الشرك •• وهـــكذا روى الامام أحمد ـ باسناده عن فاتك الاسدى قال : صـــلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصبح فلما انصرف قام قائما فقال : « عدلت شهادة الزور الاشراك بالله عز وجل » ثم تلا هذه الآية •••

انمــــا يريد اللـــــه من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وان يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص « حنفاء للـــــه غير مشركين به » •• ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى الى درك الشرك فاذا هـــو ضائع ذاهب بـددا كأن لم يكن من قبل أبدا :

« ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى بـــه الريح فى مكان سحيق » ••

انه مشهد الهوى من شاهق « فكأنما خر من السماء » وفى مثـــل لمـــح البصر يتمزق « فتخطفه الطير » أو تقذف بـــه الريح بعيدا عن الانظار : « أو تهوى بـــه الريح فى مكان سحيق » فى هوة ليس قرارا •

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتهـــــا فى اللفظ « بالفاء » وفى المنظر بسرعة الاختفاء •• على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير •

وهى صورة صادقة لحال من يشرك باللـــــه ، فيهوى من أفق الايمـــان السامق الى حيث الفناء والانطواء • اذ يفقد القاعدة الثابتة التى يطمئن اليها • قاعدة التوحيد • ويفقد المستقر الآمن الذى يثوب اليه ، فتتخطفه الاهـــواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الاوهــــام تقاذف الرياح • وهـــو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التى تربطه بهـــذا الوجود الذى يعيش فيه •

ثم يعود السياق من تعظيم حرمات اللـــه باتقائها والتحرك من المساس بهـــا الى تعظيم شعائر الله ـ وهى ذبائح الحج ـ باستسمانها وغـــلاء اثمانها

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب • لكم فيها منافع الى أجل مسمى ، ثم محلها الى البيت العتيق » •

ويربط بين الهدى الذى ينحره الحاج وتقوى القلوب ، اذ أن التقوى هى الغاية من مناسك الحج وشعائره • وهـــذه المناسك والشعائر ان هى الا رموز تعبيرية عن التوجـــه الى رب البيت وطاعته • وقد تحمل فى طياتها ذكريات =

دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا اللــه على ما هداكم وبشر المحسنين ٠

= قديمة من عهد ابراهيم ـ عليه السلام ـ وما تلاه ٠ وهى ذكريات الطاعة والانابة ، والتوجه الى الله منذ نشــأة هـذه الامة المسلمة ٠ فهى والدعاء والصلاة سواء ٠

وهذه الانعام التى تتخذ هديا ينحر فى نهــاية أيام الاحرام يجــوز لصاحبها الانتفاع بها ٠ ان كان فى حاجــة اليها يركبها ، أو فى حاجــة الى ألبانها يشربها ، حتى تبلغ محلها ـ أى مكان حلها ـ وهــو البيت العتيق ٠ ثم تنحر هنــاك ليأكل منها ٠ ويطعم البائس الفقير ٠

« وقــد كان المسلمون على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغالون فى الهدى ، يختارونه سمينا غالى الثمن ، يعلنون بهــا عن تعظيمهم لشعائر اللــه ، ومدفوعين بتقوى اللــه ٠ روى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما قال : أهدى عمر نجيبا فأعطى بهــا ثلاث مائة دينار ، فأتى النبى ـ صــلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رســول اللــه انى أهديت نجيبا ، فأعطيت بهــا ثلاث مائة دينار ٠ أفأبيعها واشترى بثمنها بدنا ؟ قال : « لا ٠ انحرها اياها » ٠

والناقة النجيب التى جاءت هدية لعمر ـ رضى اللــه عنه ـ وقومت بثلاث مائة دينــار لم يكن عمر ـ رضى الله عنه ـ يريد أن يضن بقيمتها ، بل كان يريد أن يبيعها فيشترى بها نوقا أو بقر للذبح ٠ فشــاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يضحى بالنجيب ذاتها لنفاستها وعظم قيمتهــا ، ولا يستبدل بهــا نوقا كثيرة ، وقــد تعطى لحما أكثر ، ولكنهــا من ناحية القيمة الشعورية أقل ٠ والقيمة الشعورية مقصودة « فانها من تقــوى القلوب » ٠ وهــذا هــو المعنى الذى لحظــه رسول الله ـ صلى الله عليــه وسلم ـ وهو يقول لعمــر ـ رضى الله عنــه « انحرها اياها » هى بذاتهــا لا سواها !

هذه الذبائح يذكر القرآن الكريم انها شعيرة معروفة من شتى الامم ، انما يوجهها الاسلام وجهتها الصحيحة حين يتوجه بها الى الله وحده دون سواه :

« ولكل أمــة جعلنا منسكا ليذكروا اسم اللــه على مارزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد ٠ فله اسلموا وبشر المخبتين ، الذين اذا ذكروا اللــه وجلت قلوبهم ، والصابرين على ماأصابهم ، والمقيمى الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون » ٠٠

والاسلام يوحد المشاعر والاتجاهات ، ويتوجــه بها كلها الى الله ٠ ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمــل ، والنشاط والعبادة ، والحركة والعادة ، الى تلك الوجهة الواحدة ٠ وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة ٠

وعلى هــذا الاساس حرم من الذبائح ما أهــل لغير الله بــه ، وحتم ذكر اسم الله عليها ، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز ، وكأنما =

. . . .
. . . .

= تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله ٠ « ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام » ٠٠

ويعقب بتقرير الوحدانية : « فالهكم اله واحد » ٠٠ وبالامر بالاسلام له وحده : « فله اسلموا » ٠٠ وليس هو إسلام الاجبار والاضطرار ٠ انما هو اسلام التسليم والإطمئنان : « وبشر المخبتين ، الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فبمجرد ذكر اسم الله يحرك الوجل فى ضمائرهم ومشاعرهم ٠ « والصابرين على ما أصابهم » ٠ فلا اعتراض لهم على قضاء الله فيهم ٠ « والمقيمى الصلاة » ٠ فهم يعبدون الله حق عبادته « ومما رزقناهم ينفقون » فهم لا يضنون على الله بما فى أيديهم ٠٠

وهكذا يربط بين العقيدة والشعائر ٠ فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها ٠ والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة ، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه ، ولا تتمزق النفس الانسانية فى شتى الاتجاهات ٠

ويستطرد السياق فى تقرير هذا المعنى وتوكيده وهو يبين شعائر الحج بنحر البدن ٠

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ٠ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ٠ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ٠٠ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ، وبشر المحسنين » ٠٠

ويخص البدن بالذكر لانها أعظم الهدى ، فيقرر أن الله أراد بها الخير لهم فجعل فيها خيرا وهى حية تركب وتحلب ، وهى ذبيحة تهدى وتطعم فجزاء ما جعلها الله خيرا لهم ان يذكروا اسم الله عليها ويتوجهوا بها اليه وهى تهيأ للنحر بصف اقدامها : « فاذكروا اسم الله عليها صواف » والابل تنحر قائمة على ثلاث معقولة الرجل الرابعة — « فاذا وجبت جنوبها » واطمأنت على الارض بموتها أكل منها أصحابها استحبابا ، وأطعموا منها الفقير القانع الذى لا يسأل والفقير المعتر الذى يتعرض للسؤال ٠ فلهذا سخرها الله للناس ليشكروه على ما قدر لهم فيها من الخير حية وذبيحة : « وكذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » ٠ ٠

وهم حين يؤمرون بنحرها باسم الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها » قال اللحوم والدماء لا تصل الى الله سبحانه ٠ انما تصل اليه تقوى القلوب وتوجهاتها — لا كما كان مشركوا قريش يلطخون أوثانهم وآلهتهم بدماء الأضحيات على طريقة الشرك المنحرفة الغليظة ! =

١٠ ــ النمل (١٥) :

« انما أمرت أن أعبـد رب هــذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين • وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضـم فقل : انما أنا من المنذرين • وقـل الحمد لله ، سيريكم آياته فتعرفونها ، وما ربك بغافل عما تعملون » •

١١ ــ العنكبوت (١٦) :

« أو لم يروا انا جعلنا جرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون » •

١٢ ــ الفتح (١٧) :

« وهو الذى كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكـــة من بعد أن

= « وكذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم » •• فقد هداكم الى توحيده والاتجاه اليه وادراك حقيقة الصلة بين الرب والعباد ، وحقيقة الصــلة بين العمل والاتجاه •

« وبشر المحسنين » •• الذين يحسنون التصور ، ويحسنون الشعور ، ويحسنون العبادة ، ويحسنون الصلة بالله في كل نشاط الحياة •

وهكذا لا يخطو المسلم فى حيــاته خطوة ، ولا يتحرك فى ليله أو نهاره حركة ، الا وهو ينظر فيها الى الله • ويجيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيهـا الى وجهــه ورضاه • فاذا الحياة كلها عبادة تتحقق بهــا ارادة الله من خلق العباد ، وتصلح بها الحياة فى الارض وهى موصولة السبب بالسماء •

(١٥) ٩١ ــ ٩٣ أهل مكة قبل رسالة محمد يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت : وذلك يعنى أن أهــل مكة كانوا يدينون بحرمة البلدة الحرام والبيت الحرام ، وكانوا يستمدون سيادتهم على العرب من عقيدة تحريم البيت ، ثم لا يوحدون اللــه الذى حرمه وأقام حياتهم كلها عليه •

(١٦ ــ ٦٧ ولقد كان أهل الحرم المكى وأقام حياتهم كلها عليه • الناس من أجــل بيت الله ، ومن حولهم القبــائل تتناحر ، ويفزع بعضهم بعضــا ، فلا يجدون الامان الا فى ظــل البيت الذى آمنهم الله به وفيــه • فكان عجيبا أن يجعلوا من بيت اللــه مسرحا للاصنام ، ولعبادة غير اللـــه ايما كان ! « افبالباطل يؤمنون ؟ وبنعمة الله يكفرون ؟ » •

(١٧ ٢٤ ــ ٢٥ (فهم فى ميزان الله الذين كفروا ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه : « هم الذين كفروا » •• يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون فى النســبة اليه ، فهم أكره شيء الى اللــه الذى يـكره الكفر =

أظفركم عليهم وكان اللـه بما تعملون بصيرا . هـم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهـدى معكوفا آن يبلغ محله ولولا رجـال مؤمنـون ونســاء مؤمنات لم تعلموهم . أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علـم ليدخل اللـه فى رحمته من يشـاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » .

= والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صدهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدى وتركه محبوسا عن الوصول الى محل ذبحـه المشروع :

« وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله » ..

وهى كبيرة فى الجاهلية وفى الاسلام . كريهة فى عرفهم وفى عقيدتهم وفى عقيدة المؤمنين .. فلم يكن اذن كف اللـه للمؤمنين عنهم بقيـا عليهم لأن جرمهم صغير . كلا ! انما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف اللـه سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

« ولولا رجـال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطـأوهم ، فتصيبكم منهم معرة بغير علم » ..

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين فى مكـة لم يهـاجروا ، ولم يعلنوا اسلامهم تقية فى وسط المشركين . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم فيقال : ان المسلمين يقتلون المسلمين ! ويلزمون بدياتهم حين يتبين انهم قتلوا خطأ وهم مسلمون ... ثم هنالك حكمة أخرى وهى أن اللـه يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول فى رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ، ولـو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين فى القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

« ليدخل الله فى رحمته من يشـاء . لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما » ..

وهكذا يكشف اللـه للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره .

ويمضى فى وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعـد تسجيل صفتهم وعملهم الظاهر :

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » ..

حمية لا العقيدة ولا لمنهج . انما هى حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت الحمية التى جعلتهم يقفون فى وجـه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معـه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهـدى الذى ساقوه أن يبلغ محله الذى ينحر فيـه ، مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كـل =

ب ـ الحديث الشريف :

* ابراهيم عليه السلام فى مصر ؟
* جبار مصر يخدم ابراهيم هاجر
* اسماعيل يتربى بجوار بيت الله الحرام ٠
* ابراهيم (عليه السلام) يعود ليرى ابنه شابا متزوجا ٠
* ابراهيم واسماعيل عليهما السلام يرفعان القواعد من البيت ٠

١ ـ « عن أبى هريرة (١٨) رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ قال بينما هو (أى ابراهيم عليه السلام) ذات يوم وسارة اذ اتى على جبار من الجبابرة فقيل له ان ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل اليه تسأله عنها ٠ فقال من هذه قال أختى ، فأتى سارة قال : يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وغيرك ، وان هذا سألنى فأخبرته انك أختى فلا تكذبينني ، فأرسل اليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك فدعت الله فأطلقه ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته ، فقال انكم لم تأتونى بانسان انما اتيتمونى بشيطان فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده مهيا ، قالت رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى ثمره وأخدم هاجر ، قال أبو هريرة ، تلك أمكم يا بنى ماء السماء » ٠

٢ ـ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : قال : ابراهيم لامرأته هذه أختى وذلك فى الله (١٩) ٠

= عقيدة ٠ كى لا تقول العرب ، أنه دخلها عليهم عنوة ٠ ففى سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريهة فى كل عرف ودين ، وينتهكون حرمة البيت الحرام الذى يعيشون على حساب قداسته وينتهكون حرمة الاشهر الحرم التى لم تنتهك فى جاهلية ولا اسلام ! وهى الحمية التى بدت فى تجبيههم لكل من أشار عليهم ـ أول الامر ـ بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صد محمد ومن معه عن بيت الله الحرام ٠ وهى كذلك التى تبدت فى رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ، ولصفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أثناء الكتابة ٠ وهى كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق ٠

وقد جعل الله الحمية فى نفوسهم على هذا النحو الجاهلى ، لما يعلمه فى نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له ٠

(١٨) رواه البخارى ، ج ٤ ، ١٧٠ ، ج ٩ ، ٢٨

(١٩) رواه البخارى ، ج ٩ ، ٢٨

❋ ابراهيم وهاجر ينزلون بجوار بيت الله الحرام .
❋ اسماعيل يصل مع أبويه طفلا رضيعا .
❋ رحيل ابراهيم عليه السلام وتركه زوجه هاجر وابنه اسماعيل .
❋ هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثا عن الماء لطفلها الرضيع :
❋ الله سبحانه وتعالى يرسل ملكا يفجر ماء زمزم ، لتشرب الأم ويرضع الطفل .

❋ جرهم ينزلون بجوار البيت بعد اذن أم اسماعيل .

عن سعيد بن جبير (٢٠) قال ماهكذا حدثنى ابن عباس قال : اقبل ابراهيم باسماعيل وأمه عليهم السلام وهى ترضعه معهما شنبة لم يرفعه ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل .

قال ابن عباس أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل ، وهى ترضعه ، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قضى ابراهيم منطلقا ، فتبعته أم اسماعيل ، فقالت يا ابرهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى ، الذى ليس فيه انس ، ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت اليها فقالت له آلله الذى أمرك بهذا قال نعم قالت اذن لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه قال : رب انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع حتى بلغ يشكرون ، وجعلت أم اسماعيل ترضع اسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى اذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر اليه يتلوى أو قال يتلمظ فانطلقت كراهية أن تنظر اليه . فوجدت الصفا أقرب جبل فى الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت من الصفا حتى اذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الانسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم ترى أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلم فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت ، فسمعت أيضا ، فقالتقد أسمعت ان كان عندك غواث ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه او قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه

---

(٢٠) رواه البخارى ، ج ٤ ، ١٧٢ ـ ١٧٥

وسلم يرحم الله أم اسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء ، لكانت زمزم عينا معينا قال فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة ، فان هاهنا بيت الله يبنى هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أمله ، وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقه من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا ان هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ، فقالت نعم ولكن لاحق لكم فى الماء ، قالوا نعم ، قال ابن عباس : قال النبى صلى الله عليه وسلمفألفى ذلك أم اسماعيل وهى تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى أهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم اسماعيل ، فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته فلم يجد اسماعيل فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم ، فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة ، فشكت اليه وقال فاذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه انس شيئا ٠٠ فقال هل جاءكم من أحد ، قالت نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته انا في جهد وشدة ، قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول غير عتبة بابك ، قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك فطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ، فقالت خرج يبتغى لنا قال ٠ كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ٠ فقال : ما طعامكم ؟ قالت اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء ٠ قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء ٠ قال النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعاء لهم فيه ، قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه ، قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت ، عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا فأخبرته انا بخير قال فأوصاك بشىء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك قال ذاك أبى وأنت العتبة أمرنى أن أمسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك واسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال يا اسماعيل ان الله أمرنى بأمر قال فأصنع ما أمرك ربك ، قال وتعيننى ؟ قال وأعينك ، قال

ان الله أمرني أن ابني هاهنا بيتا ، وأشار الى أكمة مرتفعة على ما حولها قال فعند ذلك رفعا ، القواعد من البيت ، فجعل اسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبنى حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى واسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ٠

أصحاب الأخدود

أصحاب الاخدود كانوا مسلمين موحدين ٠

أصحاب الاخدود كانوا بنجران ٠

ذو نواس الحميرى هو قاتل الموحدين ٠

أولا : القرآن الكريم :

بسم الله الرحمن الرحيم قتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذهم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والارض والله على كل شيء شهيد ٠ ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ٠

تبدأ سورة البروج بقسم : « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ٠٠ » فتربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التى تشهده والاحداث المشهودة فيه ٠٠ تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة ٠

ثم تعرض المشهد المفجع فى لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل ٠٠ مع التلميح الى عظمة العقيدة التى تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت الى الأوج الذى يشرف الانسان فى أجياله جميعا ٠ والتلميح الى بشاعة الفعلة ، وما يكمن فيها من بغى وشر وتسفل ، الى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : « النار ذات الوقود ٠ اذ هم عليها قعود ـ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » ٠٠

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الامور العظيمة فى شـأن الدعوة والعقيدة والتصور الايمانى الاصيل :

اشارة الى ملك الله فى السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعـالى لكل مـا يقع فى السماوات والارض : الله « الذى لـه ملك السماوات والارض . والله على كل شيء شهيد » ..

واشارة الى عذاب جنهم وعذاب الحريق الذى ينتظر الطغاة الفجرة السفلة . والى نعيم الجنة ... ذلك الفوز الكبير .. الذى ينتظر المؤمنين الذين اختـاروا عقيدتهم على الحيـاة ، وارتفعوا على فتنة النـار والحريق : « ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عـذاب جهنم ولهم عـذاب الحريق . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنـات تجرى من تحتها الانهـار . ذلك الفوز الكبير » .

وتلويح ببطش اللـه الشـديد ، الذى يبدىء ويعيد : « ان بطش ربك لشديد . انه هو يبدىء ويعيد » .. وهى حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التى أزهقت فى الحادث ، وتلقى وراء الحادث اشعاعات بعيدة ..

وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعنى أمرا ..

« وهـو الغفور الودود » الغفور للتائبين من الاثم مهمـا عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنـا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح !

« ذو العرش المجيد . فعـال لما يريد » .. وهى صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والارادة المطلقة .. وكلهـا ذات اتصال بالحادث .. كما أنها تطلق وراءه اشعاعات بعيدة الآماد .

ثم أشارة سريعة الى سوابق من أخذه للطغاة وهم مدججون بالسلاح .. « هل آتاك حديث الجنود فرعون وثمود ؟ » وهما مصرعان متنوعان فى طبيعتهما وآثارهما ووراءهما ـ مع حادث الاخدود ـ اشعاعات كثيرة .

وفى الختام يقرر شـأن الذين كفروا واحاطة الله بهم وهم لا يشعرون . « بل الذين كفروا فى تكذيب . والله من ورائهم محيط » ..

ويقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : « بل هـو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » .. مما يوحى بأن ما يقرره هـو القول الفصل والمرجع الاخير ، فى كل الامور .

هذه لمحات مجملة عن اشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهـد لاستعراض هذه الاشعاعات بالتفصيل : « والسـماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود » ..

تبدأ السورة ـ قبل الاشارة الى حادث الاخدود ـ بهذا القسم : بالسماء ذات البروج ، وهى اما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الضخمه أى قصورها المبنية ، كما قال : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » ·· وكما قال « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها » ·· واما أن تكون هى المنازل التى تتنقل فيها تلك الاجرام فى أثناء دورانها ، وهى مجالاتها التى لا تتعداها فى جريانها فى السماء · والاشارة اليها يوحى بالضخامة · وهو الظل المراد القاؤه فى هذا الجو ·

« واليوم الموعود » ·· وهو يوم الفاصل فى أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها · وهو الموعود الذى وعد الله بمجيئة ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ، وأمهل المتخاصمين والمتفاضين اليه · وهو اليوم العظيم الذى تتطلع اليه الخلائق ، وتترقبة لترى كيف تصير الامور ·

« وشاهد ومشهود » ·· فى ذلك اليوم الذى تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين ·· ويعلم كل شىء · ويظهر مكشوفا لا يستره ساتر عن القلوب والعيون ···

وتلتقى السماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ·· تلتقى جميعا فى القاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذى يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود ·· كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذى يوضع فيه هذا الحادث · وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه ·· وهو أكبر من مجال الارض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود ··

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هذا المجال ، تجىء الاشارة الى الحادث فى لمسات قلائل :

« قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود · اذ هم عليها قعود · وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود · وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد · الذى له ملك السماوات والارض ، والله على كل شىء شهيد » ··

وتبدأ الاشارة الى الحادث باعلان النقمة على أصحاب الأخدود : « قتل أصحاب الأخدود » ·· وهى كلمة تدل على الغضب · غضب الله على الفعلة وفاعليها · كما تدل على شناعة الذنب الذى يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه ·

ثم يجيء تفسير الاخدود : « النار ذات الوقود » والاخدود : الشق فى الأرض • وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا ، فصارت النار بدلا فى التعبير من الاخدود للايحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها •

قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النقمة وهذا الغضب ، فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الاثم ، ويزاولون تلك الجريمة : « أذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود »•• وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار فى الاجسام فى لذة وسعار ، كأنما يثبتون فى حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثأر : « وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد • الذى له ملك السماوات والأرض • والله على كل شيء شهيد » •• فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على ما يريد ، الحميد : المستحق للحمد فى كل حال ، والمحمود بذاته ولو لم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالايمان وبالعبودية له ، وهو وحده الذى له ملك السماوات والارض وهو يشهد كل شيء وتتعلق به ارادته تعلق الحضور• ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود •• وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين • فالله كان شهيدا • وكفى بالله شهيدا •

وتنتهى رواية الحادث فى هذه الآيات القصار ، التى تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعلة وفاعليها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه • فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه فى حساب الله ما وراءه •

كذلك تنتهى رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة • روعة الايمان المستعلى على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة • ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الارض • فقد كان فى مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم فى مقابل الهزيمة لايمانهم • ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم فى الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الارواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! انه معنى كريم جدا ومعنى كبير جدا هذا الذى ربحوه وهم

يعد فى الارض · ربحوه وهم يجدون مس النار فتحترق أجسادهم . وينتصر هذا المعنى الكريم الذى تزكيه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولاعدائهم الطاغين حساب ·· يعقب به السياق ··

* * *

« ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ـ ثم لم يتوبوا ـ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق · ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الانهار · ذلك الفوز الكبير » ··

ان الذى حدث فى الارض وفى الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف · فالبقية آتية هناك · والجزاء الذى يضع الأمر فى نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت · وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عند الله :

« ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات » ·· ومضوا فى ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا « ثم لم يتوبوا » ·· «فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » ·· وينص على « الحريق » ·· وهو مفهوم من عذاب جنهم · ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلا للحريق فى الأخدود · وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث · ولكن أين حريق من حريق ؟ فى شدته أو فى مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق · وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهى ، وحريق الآخرة آباد · لا يعلمها الا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الانسانى الكريم · ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميم !

ويتمثل رضى الله وانعامه · على الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى الجنة : « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ·· وهذه هى النجاة الحقيقية : « ذلك الفوز الكبير » ·· والفوز : النجاة والنجاح · والنجاة من عذاب الآخرة فوز · فكيف بالجنات تجرى من تحتها الانهار ؟

بهذه الخاتمة يستقر الامر فى نصابه · وهى الخاتمة الحقيقية للموقف · فلم يكن ما وقع منه فى الارض الا طرفا من أطرافه ، لا يتم به تمامه ·· وهذه هى الحقيقة التى يهدف اليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر فى قلوب القلة المؤمنة فى مكة ، وفى قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون ·

ثم تتوالى التعقيبات ..

« ان بطش ربك لشديد » .. واظهار حقيقة البطش وشدته فى هذا الموضع هو الذى يناسب ما مر فى الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذى يحسبه أصحابه ويحسبه الناس فى الارض كبيرا شديدا . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذى له ملك السماوات والارض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الارض محدودة فى رقعة من الزمان محدودة ..

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب ــ وهو الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والقائل وهو الله عز وجل وهو يقول له : « ان بطش ربك .. » ربك الذى تنتسب الى ربوبيته ، وسندك الذى تركن الى معونته .. ولهذه النسبة قيمتها فى هذا المجال الذى يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

« انه هو يبدىء ويعيد » .. والبدء والاعادة وان اتجه معناهما الكلى الى النشأة الاولى والنشأة الآخرة .. الا أنهما حدثان دائبان فى كل لحظة من ليل أو نهار . ففى كل لحظة بدء انشاء ، وفى كل لحظة اعادة لما بلى ومات . والكون كله فى تجدد مستمر .. وفى بلى مستمر .. وفى ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والاعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة فى واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لاعادة . أو اعادة لبدء .. فى هذه الحركة الدائبة الدائرة ..

« وهو الغفور الودود » .. والمغفرة تتصل بقوله من قبل : « ثم لم يتوبوا » .. فهى من الرحمة والفضل الفائض بلا حدود ولا قيود . وهى الباب المفتوح الذى لا يغلق فى وجه عائد تائب . ولو عظم الذنب وكبرت المعصية .. أما الود .. فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شىء . وهو الايناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه الى مرتبة ، يتحرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها .. مرتبة الصداقة .. الصداقة بين الرب والعبد .. ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين .. فماذا تكون الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذى احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا الى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ والى جانب لمحة من هذا الايناس الحبيب ؟

ان عبيدا من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم الى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أو لمحة رضاء تبدو

فى وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله « ذو العرش المجيد » العالى المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز ، فى سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد ..

« فعال لما يريد » .. هذه صفته الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل .. فعال لما يريد .. فهو مطلق الارادة ، يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريده ويختاره ، دائما أبدا ، فتلك صفته سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به فى هذه الأرض لحكمة يريدها . ويريد مرة أن ينتصر الايمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يديرها .. يريد مرة أن يأخذ الجبارين فى الارض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود .. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، فى قدره المرسوم ..

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتى من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الارادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الاحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها فى الوجود .

فعال لما يريد .. وهاك نموذجا من فعله لما يريد :

« هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ » . وهى اشارة الى قصتين طويلتين ، ارتكانا الى المعلوم من أمرهما للمخاطبين ، بعدما ورد ذكرهما كثيرا فى القرآن الكريم . ويسميهم الجنود . اشارة الى قوتهم واستعدادهم .. هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟

وهما حديثان مختلفان فى طبيعتهما وفى نتائجهما .. فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بنى اسرائيل ، ومكن لهم فى الارض فترة ، ليحقق بهم قدرا من قدره ، وارادة من ارادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحا والقلة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . انما هى مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الارادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة الى الله واحتمالاتها المتوقعة ، الى جانب الاحتمال الثالث الذى وقع فى حادث الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلة المؤمنة فى مكة ، ولكل جيل من أجيال المؤمنين ..

وفى الختام يجىء ايقاعان قويان جازمان . فى كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير :

« بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط » ..

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون بـه ويصبحون . « والله من ورائهم محيط » .. وهم [illegible] يحيط بهم من قهر اللـه وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة فى الطوفان العميم !

« بـل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ..

والمجيد الرفيع الكريم العريق .. وهـل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهـو فى لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمـر الغيب الـذى تفرد الله بعلمه . انما ننتفع نحن بالظـل الذى يلقيه التعبير . والايحاء الـذى يتركه فى القلوب . وهـو أن هـذا القرآن مصون ثابت . قوله هـو المرجع الأخير ، فى كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول . وقوله هو المرعى المحفوظ ..

ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود ، وفى الحقيقة التى وراءه .. وهو القول الاخير ..

ثانيا : الحديث الشريف وكتب التراث :

١ ـ عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له سـاحر فلما كبر قال للملك . انى قـد كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر فبعث اليـه غلاما يعلمه ، فكان فى طريقه اذا سلك راهب فقعد اليه وسمع اليه وسمع كلامه فأعجبـه فكان اذا أتى السـاحر مـر بالراهب وقعـد اليه فاذا أتى الساحر ضربه فشـكى ذلك الى الراهب ، فقال اذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى واذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر . فبينما هو كذلك اذ أتى على دابـه عظيمة قـد حبست الناس فقال اليوم أعلم الساحر أفضـل أم الراهب أفضل ، فأخذ حجرا فقال : اللهم ان كان أمر الراهب أحب اليك من أمر السـاحر فاقتل هـذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها ، ومضى النـاس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب أن بنى أنت اليوم أفضـل مبنى قـد بلغ من أمـرك ما أرى وانك ستبتلى فان ابتليت فلا تـدل على . وكان الغلام يبرىء الاكمـه والابرص ويداوى الناس من سائر الادواء فسمع جليس للملك كان قـد عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال ما هاهنا لك أجمع أن أنت شفيتنى قال انى لا شفى أحـدا انما يشفى اللـه فان انت آمنت باللـه دعوت الله فشفاك فآمن بالله فشفاه فاتى الملك فجلس اليـه كما كان يجلس فقال له الملك : متى رد عليـك

بصرك قال ربى قال ولك رب غيرى قال : ربى وربك اللـــه فأخذه فلم يزل يعــذبه حتى دل على الغلام فجيء بالغلام فقال له الملك : أى بنى قـــد بلغ من سحرك ما تبرىء الاكمــه والابرص ، وتفعل وتفعــل فقـــال انى لا أشفي أحدا ، انما يشفى الله عز وجل فاخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فابى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فيمقدمة رأسه فشقه حتى وقعشقاه ثم جيء بجليسالملكفقيل له ارجع عن دينك ، فابى ، فوضع المنشـــار فى مفرق رأســـه فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فابى فدفعـــه الى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به الى جبل كـــذا وكـــذا فاصعدوا بــه الجبل فاذا بلغتهم ذروته فان رجع عن دينه والا فاطرحوه — فذهبوا بــه فصعدوا بــه الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف بهم الجبـــل ، فسقطوا وجـــاء يمشى الى الملك فقال له الملك : ما فعل أصحابك فقال كفانيهم الله • فدفعه الى نفـــر من أصحابه فقال اذهبوا به فاحملوه فى قرقور فتوســـطوا به البحر ، فان رجع عن دينه والا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة ، فغرقوا وجـــاء يمشى الى الملك فقال له الملك ما فعـــل أصحابك فقال كفانيهم اللـــه فقال للملك : انك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك بــه قال وما هوقالتجمعالناسفىصعيدواحد وتصلبنىعلىجذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل « باسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى فانك ان فعلت ذلك قتلتنى • فجمع النـــاس فى صعيد واحـــد وصلبه على جذع ثم أخـــذ سهما من كنانته ثم وضـــع السهم فى كبـــد القوس ثم قال « بسم الله رب الغـــلام ثم رمـــاه فوقع السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغـــه فى موضع السهم فمات فقال الناس آمنـــا برب الغـــلام آمنـــا برب الغلام آمنـــا برب الغلام • فأتى الملك فقيل له أرأيت ما كنت تحذر قال والله قـــد نزل بك حذرك ، قـــد آمن النـــاس فامر بالاخدود بافواه السكك فحفرت وأضرم النيران ، وقال من لم يرجـــع عن دينـــه فاحموه فيهـــا أو قيل له اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأه ومعها صبى لها فتقاعست أن تقـــع فيها فقال لها الغلام يا أمه اصبرى فانه على الحق •

٢ — وقد أورد بن كثير (١) روايات أخرى تشير الى أن دين الغلام كان الاسلام وقد أورد محمد بن اسحاق بن يسار هـــذه القصـــة فى السيرة بسياق آخر فيها مخالفة لمـــا تقدم فقال حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى : وحدثنى أيضـــا بعض أهـــل نجران عن أهلها أن أهـــل نجران كانوا أهـــل شرك يعبدون الاوثان وكان فى قرية من قراها قريبـــا من نجران — ونجران هى القرية العظمى التى اليها يجتمع أهـــل تلك البلاد —

(٢١) أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القرشى (جمعه محمد الصديق) ، راجعه (وعلى حواشيه عبد الوهاب عبد اللطيف) تفسير ابن كثير القرشى • ج ٤ ، القاهرة ١٣٨٩ ، ص ٥٢٣ — ٥٢٧ •

بساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزل فيمون ولم يسموه لي بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا نزلها رجل فابتنى خيمة بنى نجران وبنى تلك القرية التى فيها الساحر وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم الى ذلك الساحر ليعلمهم السحر فبعث ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران فكان اذا مر بصاحب الخيمة اعجبه ما يرى من عبادته وصلاحه فجعل يجلس اليه ويسمع منه حتى أسلم • فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن شرائع الاسلام حتى اذا فقه فيه ••• واستجمع أهل نجران على دين عبد الله الثامر وكان على ما جاء به عيسى بن مريم عليه السلام من الانجيل وحكمه (٢٢) •

وما أورد ابن كثير رواية تشير الى أن قاتل الموحدين هو ذو نواس (٢٣)

وقال ابن اسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظى ، ومعه أهل نجران عن عبد الله التامر فالله أعلم أى ذلك كان فسار اليهم ذو نواس بجنده فدعاهم الى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل فاختاروا القتل فحفر الاخدود فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى ماتوا قريبا من عشرين ألفا ففى ذوى نواس وجنده انزل الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم « قتل أصحاب الأخدود » •

❋ أصحاب الفيل يريدون هدم بيت الله الحرام :

أبرهة الحبشى يحاول غزو مكة وهدم الكعبة •

الحادث مستفيض الشهرة فى حياة الجزيرة العربية •

الحادث دليل على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة •

ميلاد محمد رسول الله فى عام الفيل •

القرآن الكريم : يقول الله تعالى :

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضيل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول •

---

(٢٢) نفس المصدر السابق ص ٥٢٣

(٢٣) نفس المصدر السابق ، ص ٥٢٤

تشير هـذه السورة الى حادث مستفيض الشهرة فى حيـاة الجزيرة العربية قبل البعثة ، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التى اختارها الله لتكون ملتقى النور الاخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التى تبدأ منها زحفها المقدس لطاردة الجاهلية فى أرجاء الارض ، واقرار الهدى والحق والخير فيهـا ..

وجملة ما تشير اليـه الروايات المتعددة عن هـذا الحادث ، أن الحاكم الحبشى لليمن ـ فى الفترة التى خضعت فيها اليمن لحكم الحبشـة بعد طرد الحكم الفارسى منها ـ وتسميه الروايات : « أبرهة » ، كان قـد بنى كنيسـة فى اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لهـا كل أسباب الفخامة ، على نيـة أن يصرف بهـا العرب عن البيت الحرام فى مكـة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهـل اليمن الذين يحكمهم الى هـذا البيت ، شأنهم شـأن بقية العرب فى وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب الى ملك الحبشة بهـذه النية ..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء ابراهيم واسماعيل صاحبى هـذا البيت ، وكان هـذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر بالانساب . وكانت معتقداتهم ـ على تهافتها ـ أفضـل فى نظرهم من معتقدات أهـل الكتاب من حولهم ، وهم يرون مـا فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم « أبرهة » على هـدم الكعبة ليصرف الناس عنهـا ، وقاد جيشـا جرارا تصاحبه الفيلة ، وفى مقدمتها فيـل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب بـه وبقصده . وعز عليهم أن يتوجـه لهدم كعبتهم . فوقف فى طريقه رجـل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال لـه ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سـائر العرب الى حرب أبرهـة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه الى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هـزم وأخذه أبرهة أسيرا .

ثم وقف له فى الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمى فى قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأسر نفيلا ، الـذى قبل أن يكون دليله فى أرض العرب .

حتى اذا مر بالطائف خرج اليه رجال من ثقيف فقالوا له : ان البيت الذى يقصده ليس عندهم انما هـو فى مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذى بنوه للات ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة ، بعث قائدا من قواده حتى انتهى الى مكة فساق اليه أموال تهـامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيهـا مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها • فهمت قريش وكنانه وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله • ثم عرفوا الهم لا طـاقه لهم بـه فتركوا ذلك (٢٤) •

وبعث أبرهة رسولا الى مكـة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وانما جاء لهدم هذا البيت ، فان لم يتعرضوا له فلا حاجة له فى دمائهم ! فاذا كان سيد البلد لايريد الحرب جاء به الى الملك••فلما كلم عبدالمطلب فيما جاء به قال له : والله مانريد حربه وما لنا بذلك من طاقة• هذا بيت الله الحرام • وبيت خليله ابراهيم عليه السلام •• فان يمنعه منـه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه •• فانطلق معـه الى ابرهة ••

قال ابن اسحاق : وكان عبد المطلب أو سم النـاس وأجملهم وأعظمهم • فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسـه تحته ، وكره أن تراه الحبشـة يجلس معـه على سرير ملكـه • فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسـه معـه الى جانبه • ثم قال لترجمانه : قـل له : ما حاجتك؟ فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى • فلمـا قال ذلك ، قال ابرهة لترجمانه ، قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ! أتكلمنى فى مئتى بعير أصبتها لك وتترك بيتـا هو دينك ودين آبائك قـد جئت لهدمه لا تكلمنى فيـه ؟ قال له عبد المطلب : انى أنا رب الابل • وان للبيت ربا سيمنعه • قال : مـا كان ليمتنع منى • قال : أنت وذاك ! •• فرد عليه ابله •

ثم انصرف عبد المطلب الى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكـة ، والتحرز فى شعف الجبال •• ثم قام فأخذ بحلقة بـاب الكعبـة ، وقام معـه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه • وروى عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهم ان العبـد يمنع رحلـه فامنع رحـالك
لا يغلبن صـليبهم ومحـالهم أبـدا محالك
ان كنت تاركهـم وقبلتنا فأمـر ما بدا لك !

---

(٢٤) أخرجه البخارى •

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا فى حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء (أى حزنت) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .. » وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : « ان الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وانه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالامس . ألا فليبلغ الشاهد الغائب » ، فهى حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة فى يوم الفيل ..

ثم كان ما أراده الله من اهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكى عنهم القرآن الكريم .. وأصيب أبرهة فى جسده ،

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » .. وهو سؤال للتعجيب من الحادث ، والتنبيه الى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . ويقولون حدث كذا عام الفيل .. وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات .. والمشهور أن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الالهية المقدرة !

واذن فلم تكن السورة للاخبار بقصة يجهلونها ، انما كانت تذكيرا بأمر يعرفونه ، المقصود به ما وراء هذا التذكير ..

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع فى صورة الاستفهام التقريرى كذلك :

« ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ » .. أى ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلا يصل الى ما يبتغيه .. ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم فى حماية هذا البيت وصيانته ، فى الوقت الذى عجزوا هم عن الوقوف فى وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذى تقدمت يده عليهم فى ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم فى مواجهة محمد صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمته ، فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم فى تضليل فقـــد بينـــه فى صورة وصفية رائعة - « وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل • فجعلهم كعصف مأكول » •• والأبابيل : الجماعات • وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطين • أو حجارة ملوثة بالطين • والعصف : الجاف من ورق الشجر • ووصـــفه بأنه مأكول : أى فتيت طحـــين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهى صورة حسية للتمزيق البدنى بفعل هـــذه الأحجار التى رمتهم بهـــا جماعات الطير • ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدرى أو الحصبة •

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة ••

وأول ما توحى به أن الله ـ سبحانه ـ لم يرد أن يكـــل حماية بيته الى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهـــذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به • فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليـــه ترك المشركين يهزمون أمـــام القوة المعتدية • وتدخلت القدرة ســـافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة فى حمايته ، بحميتهم الجاهلية • ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الامر جرى فى اهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة ـ لا الســـنة المألوفة المعهودة ـ فهذا أنسب وأقرب ••

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الالهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب الى الدخول فى دين اللـــه حينما جاءهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هـــو المانع لهم من الاســـلام ! وهـــذا التذكير بالحادث على هـــذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لاهل الكتاب ـ أبرهـة وجنوده ـ أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الارض المقدسة • حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته • ليبقى هـــذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين • وليحفظ لهـــذه الارض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليهـــا سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ، ولا يهيمن على هـــذا الدين الذى جـــاء ليهيمن على الاديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد • وكان هذا من تدبير اللـــه

لبيته ولدينه قبـــل أن يعلم أحـــد أن نبى هذا الدين قـــد ولد فى هـــذا العـــام !

ونحن نستبشر بايحاء هـــذه الدلالة اليوم ونطمئن ، ازاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدســـة من الصليبية العالميـــة والصهيونية العالمية ، ولا تنى أو تهـــدأ فى التمهيد الخفى اللئيم لهـــذه الاطماع الفاجرة الماكرة • فالله الذى حمى بيته من أهل الكتاب وســـدنته مشركون ، سيحفظه ان شـــاء الله ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والايحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور فى الارض • بـــل لم يكن لهم كيان • قبـــل الاسلام • كانوا فى اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة• وكانت دولتهم حين تقوم هنـــاك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس • وفى الشمال كانت الشام تحت حكم الروم اما مباشرة واما بقيـــام حكومة عربية تحت حماية الرومان •• ولم ينج الا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيـــه ولكنه ظـــل فى حالة بداوة أو فى حالة تفكك لا تجعل منـــه قوة حقيقية فى ميدان القـــوى العالمية • وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين ســـنة ، ولـــكن لم تكن هـــذه القبـــائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عنـــد الدول القوية المجاورة • وما حدث فى عـــام الفيل كان مقياسا لحقيقة هـــذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبى ،

وتحت راية الأسلام ولاول مرة فى تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمى يؤدونه • وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حســـاب • قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العـــروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعـــد أن تزيح القيـــادات الجاهلية المزيفة الضالة •• ولـــكن الذى هيـــأ للعرب هـــذالأول مرة فى تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس • وعصبية العنصر ؟ وذكروا أنهم مسلمون • ومسلمون فقط • ورفعوا راية الاسلام ، وراية الاسلام وحدها • وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها الى البشرية رحمـــة وبرا بالبشرية ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية • حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بهـــا لا مذهبـــا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه •وخرجوا من أرضـــهم جهـــادا فى سبيل الله وحـــده • ولم يخرجوا ليؤسسوا امبراطورية عربية ينعمون ويرتعون فى ظلها • ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها • ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس الى حكم العرب والى حكمهم أنفسهم ! انما قاموا ليخرجوا النـــاس من عبادة العبـــاد جميعا الى عبادة اللـــه وحده • كمـــا قال ربعى بن عامـــر رسول المسلمين فـــىمجلس يزدجـــرد : « اللـــه ابتعثنـــا

لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام (٢٥) » ٠

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة ٠٠ ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله ٠ وقد ظلت لهم قوتهم ٠ وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة ٠ حتى اذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الارض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه !

وما العرب بغير الاسلام ؟ ما الفكرة التى قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها اذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ ان كل أمة قادت البشرية فى فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة ٠ والأمم التى لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية فى الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، انما ذابوا فى الامم التى فتحوها والفكرة الوحيدة التى تقدم بها العرب للبشرية كانت هى العقيدة الاسلامية وهى التى رفعتهم الى مكان القيادة ، فاذا تخلوا عنها لم تعد لهم فى الارض وظيفة ، ولم يعد لهم فى التاريخ دور ٠٠ وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا اذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ٠ وأرادوا القيادة ٠٠٠ والله الهادى من الضلال ٠

مكانة أهل البيت الحرام وسدنته :

بسم الله الرحمن الرحيم : لا يلاف قريش ايلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف ٠

استجاب الله دعوة خليله ابراهيم ، وهو يتوجه اليه عقب بناء البيت وتطهيره : « رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات » ٠٠ فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين وجعل من يأوى اليه آمنا ، والمخافة من حوله فى كل مكان ٠٠ حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام ٠٠ لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام ٠

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل ٠ وحفظ الله للبيت أمنه ٠وصان حرمته ، وكان من حونة كما قال الله فيهم :« أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ؟ »

---

(٢٥) البداية والنهاية لابن كثير ٠

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف فى زيادة حرمة البيت عند العرب فى جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا فى الارض آمنين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية وشجعهم على انشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة ـ عن طريق القوافل ـ الى اليمن فى الجنوب ٠ والى الشام فى الشمال ٠ والى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : احداهما الى اليمن فى الشتاء ، والثانية الى الشام فى الصيف ٠

ومع ما كانت عليه حالة الامن فى شعاب الجزيرة من سوء ، وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب ٠ فان حرمة البيت فى أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الامن والسلامة فى هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، فى أمان وسلام وطمأنينة ٠ وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين٠ فصارتا لهم عادة والفا !

هذه هى المنة التى يذكرهم الله بها ـ بعد البعثة ـ كما ذكرهم منة حادث الفيل فى السورة السابقة ، منة ايلافهم رحلتى الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذى أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين ـ وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله ٠ ومنة أمنهم الخوف ٠ سواء فى عقر دارهم بجوار بيت الله ٠ أم فى أسفارهم وترحالهم فى رعاية حرمة البيت التى فرضها الله وحرسها من كل اعتداء ٠

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ، وهو رب هذا البيت الذى يعيشون فى جواره آمنين طاعمين ، ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين ٠٠

يقول لهم : من أجل ايلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع » ٠٠ وكان الاصل ـ بحسب حالة أرضهم ـ أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع « وآمنهم من خوف » ٠ وكان الاصل ـ بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم ـ أن يكونوا فى خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء فى النفوس ٠ ويثير الخجل فى القلوب ٠ وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته فى حياتها ٠ وما كانت فى

ساعة الشدة والكربة تلجأ الا الى رب هـــذا البيت وحـــده ٠ وها هو ذا عبد المطلب لا يواجـــه أبرهة بجيش ولا قوة ٠ انما يواجهـــه برب هـــذا البيت الذى يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولا وثن ، ولم يقل له ٠٠ ان الالهة ستحمى بيتها ٠ انما قال له : « انا رب الابـــل وان للبيت ربـــا سيمنعه » ٠٠ ولـكن انحراف الجاهلية لا يقف عنـــد منطق ، ولا يثوب الى حق ، ولا يرجع الى معقول ٠

العقيدة والشريعة فى حيـــاة جزيرة العرب
من خـــلال
ما كتبه المستشرقون ومن سار على نهجهم

الكتاب الاول : س ٠ موسكاتى (تعريب د ٠ السيد يعقوب بكر ، راجعه د ٠ محمد القصاص) الحضارات السامية القديمة ، القاهرة ، ص ١٩٤ ــ ١٩٦

تشتمل النقوش العربيه الجنوبية على طائفة كبيرة من أسماء الآلهـــة وألقابها وهـــذا يوحى بوجود نظام للآلهـــه بالغ التعقيد ٠ ويزيد من الصعوبات التى يلاقيها الباحث الطابع المحلى لمعظم الآلهـــة ٠ والاشارة اليها عـــادة دون ذكر أسمائها أو يذكر ألقابها ٠ ولكن لا ريب فى وجـــود أفكار عامة معينة يمكن تجميع جمهرة الآلهة حولها ٠

فقد ساد فى جنوب الجزيرة العربية ثالوث من الكواكب ، رأيناه من قبل فى أرض الرافدين : اله نجمة الصباح ، واله القمر ، واله الشمس ٠ ومن الغلو أن نحاول كما فعـــل نيلسن فى بحثـه المشهور ، اخضـــاع جميع الآلهة لحدود هـــذا الثالوث ، ولكن الحق أنه لعب دورا هاما فى نظـــام الآلهة بجنوب الجزيرة العربية ، وان كثيرا من الآلهة المختلفة ليست ســـوى مظاهر له ٠

واسم اله نجمة الصباح معروف للمنطقة كلها : عثتر ، نظير عشتر لدى البابليين والأشوريين وعشترت لدى الكنعانيين ٠ ولـــكن من الجدير بالملاحظة أن عثتر العربى الجنوبى اله ذكر ، بينما أن نظائره فى جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة ٠

ويتخذ الها القمر والشمس أسماء مختلفة ٠ فاله القمر اسمه ودعند المعينيين والمقـــة عند السبئيين ، وعم فى قتبان ، وسين فى حضرموت (كمـــا فى بابل) واله الشمس اسمه قتبان وحضرموت شمس ، الى جانب أســـماء

أخرى ، والاسم شمس قريب من الاسم شمس فى أرض الرافدين • فهذه الصلات تؤيد أن كثيرا من العناصر الدينية فى الشعوب السامية كان يتوقف بعضها على بعض •

والى جانب الآلهة المشتركة كانت هناك طائفة كبيرة من الآلهة الخاصة تحمى بعض الأماكن أو القبائل بل الأسر أيضا • ويشار اليها غالبا بالاسم بعل الذى رأيناه من قبل لدى الكنعانيين ، ومعناه « صاحب » أو « سيد » ولم تأت هذه الآلهة جميعا من التراث القومى ، فبعضها أخذ عن الشعوب المجاورة طبقا لاستعداد عام بين العرب الجنوبيين يحدوهم الى النقل والاستيعاب وهو استعداد يسر فى مراحل متأخرة من تاريخهم دخول العقائد اليهودية والمسيحية •

وبين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها ، يبتهل اليها فرادى أو جماعات باسم اله أو آلهة مكان أو جماعة أو شعب ما •

ولنذكر خاصة ال ، وهو اله سامى مشترك : ال لدى الاكديين ، وال لدى الكنعانيين ، والوهيم عند العبريين ، والله عند العرب • وقد عرف اليمنيون أيضا هذا الاسم ، واستعملوه فى الغالب اسما عاما بمعنى اله • وهو مدلوله الأصلى حقا • ولكنهم استعملوه أحيانا علما على اله خاص ويكثر وروده ـ عنصرا فى أعلام الأشخاص •

وأعلام الأشخاص التى تدخل فى تركيبها أسماء الآلهة هى المصدر الاساسى لمعلوماتنا عن الصفات التى اعتاد العرب الجنوبيين اطلاقها على الآلهة فى ابتهالاتهم • فمن أشهر هذه الصفات : الأب والرب والملك والعزيز والعادل والأمين • ويبرز دين العرب الجنوبيين عبودية الانسان للآلهة وهذه النظره الدينية تستدعى دائما أن يسعى الانسان للظفر بحماية الآلهة •

وقد دخل دين العرب الجنوبيين كل صورة من صور حياتهم • ولما كانوا يرون أنه لا بد من حماية الآلهة لتوفيق كل حى ونجاح كل عمل • فقد كان للقبائل والأسر ، بل للدول والجماعات الزراعية والتجارية أيضا ، آلهة تحميها وكانت تقام عند أداء أى عمل له أهمية ما احتفالات لاسترضاء الآلهة وتكريس ذلك العمل لها • وكانت المعابد والقنوات ، والقوانين ومراسيم الدولة وانصاب القبور ، توضع كلها فى رعاية الآلهة ، وكان على الآلهة أن تنتقم من كل من ينتهك تلك الأشياء أو يدنسها •

وفى مثل هذه البيئة كانت للمعابد أهمية كبرى قصوى • فكانت تخصص

لها العشور ومصادر دخل أخرى لتوفير أموال كافية لتعهدها • وكان تعهد المعابد واجب الكهنة ، وكانوا كثيرين على نظام حسن • وربما كان من وظائفهم أيضا اصدار النبوءات باسم الآلهة ، ولكن معلوماتنا في هذا الصدد لا تكفى للعلم اليقين • وكان بين العاملين فى المعبد أيضا بغايا مقدسات ، أكثرهن اماء أجنبيات يوهبن للآلهة ويهبن أنفسهم تماما لخدمتها •

وكانت تقدم قرابين من حيوانات مختلفة ، كالثيران والغنم ، فى اعداد كبيرة غالبا •وكانت هناك أيضا قرابين من غير دم ، كقرابين الشراب وتقديم البخور •

ومن العادات التى تدعو الى الاهتمام البالغ عادة الحج الى الاماكن المقدسة، وكان لها نظير فى وسط الجزيرة العربية صار فيما بعد من فرائض الاسلام • وليست هناك أدلة صريحة على عادة الطواف بالاماكن المقدسة ولكن هناك دلائل تشير الى أنها وجدت فى صورة لا تختلف عن الصورة التى سادت بين سائر العرب •

ولا بد أن الصلوات الخاصة ، أى الصلوات التى لا ترتبط بوظائف دينية أو بأوقات محددة ، كانت منتشرة انتشارا واسعا • وكان الغرض منها قبل كل شيء استجداء حماية الآلهة حتى يتحقق الخصب للأرض ، والرواج للتجارة والخلاص من الفقر والمرض • وكان انتهاك مبدأ الطهارة يستدعى الاعتراف علنا به وكانت الطهارة ركنا هاما من أركان الطقوس • ولدينا أمثلة لاعترافات أدلت بها قبائل لآلهة مختلفة ، واستغفار على الملأ أداه بعض الملوك •

وقد وجدت فى قبور جنوب الجزيرة حلى وكئوس وأختام وأشياء من كل نوع وهذا يشير الى الايمان بالحياة الأخرى ، ولكننا هنا أيضا لا نستطيع التحقق من تفاصيل تلك العقيدة •

فالحياة الدينية لجنوب الجزيرة تتميز فى جملتها بطابع حضارة مستقرة بالغة الشأن لها شخصيتها البارزة واستقلالها فى نطاق بيئتها • وهى تختلف عن أحوال العرب البدو فى الشمال اختلافا كبيرا من عدة وجوه •

فيبقى علينا هنا أن نصور الأحوال الدينية فى الجزيرة العربية قبل الاسلام فالدول التى قامت فى أوقات مختلفة على الأطراف الخارجية للصحراء كان لكل منها تطورها الدينى المحلى حسب الظروف التاريخية لتكوينها ووجودها• وفى قلب الصحراء كان للبدو بسبب أسلوب معيشتهم فرص أقل لاقامة

أوضاع دينية منظمة وكانت حياتهم الدينية أقل صرامة ، في مظاهرها الخارجية على الاقل • ولكن لم تبق الجزيرة العربية بمنأى عن دينى التوحيد الكبيرين اللذين قاما على حدودها ، فقد نفذت اليهودية والمسيحية الى الصحراء وأحدثتا فيها آثارا غريبة عملت فيها بعد ذلك دعوة محمد • فعندما نتحدث عن تراث العرب الروحي قبل مجيء الاسلام ، يجب أن يكون حديثنا عن أديان العرب لا عن الدين العربي •

وفي دينى النبط والتدمريين نجد تركيبات غريبة قوامها أساس عربي وعناصر محلية وآثار أرامية • ففى البتراء كان دوشرا هو الاله القومى ، ولعله كان صورة من اله الخصب السامي (بعل : المترجم) وكانت زوجه اللات العربية ومعنى هذا الاسم « الالهة » • وفى تدمر نجد الإله بعل السامى بالاسم « بيل » الذى يرجع أصلا الى أرض الرافدين ، او بالاسم بعل ـ شمين ((رب السماء)) الذى وجدناه فى المنطقة السامية الشمالية الغربية ونجده كذلك فى نقوش الحضر • وثمة أسماء مركبة للاله بعل تطورت الى آلهة مستقلة هى يرحبول ، وعجليبول وملكبيل • ومن المحتمل أن السامى المشترك بعل وفى تدمر أيضا نجد اللات وثالوث الكواكب الذى عرفته شعوب سامية كثيرة •

وتعيننا نقوش اللحيانيين والثموديين والصفويين على معرفة بعض عناصر النظام الدينى لتلك الشعوب • فقد احتفظت من التراث المشترك بالله واللات الشائعين بين العرب ، وأضافت اليهما آلهة محلية مثل ذو غاية لدى الحيانيين ورضا لدى الثموديين والصفويين • وهناك أخيرا عدة آلهة عربية جنوبية ونبطية وتدمرية وأرامية •

وقد عرفت القبائل البدوية فى وسط الجزيرة طائفة كبيرة من الآلهة ، ولكنها ليست آلهة أو الهات محددة تحديدا واضحا لها صفاتها وأساطيرها الثابتة ، بل أرواح كل منها تهيمن على موضع وتحميه مثل البعول الكنعانية المختلفة • فخيال البدوى أضفى أرواحا على الآبار والاشجار والحجارة ، وشعر بوجود آلهة فيها •

وكانت تسكن الصحراء أرواح أخرى محلية غير الآلهة ، هى خليط من مخلوفات غريبة بعضها خير وبعضها شرير ، تملك القدرة على الاستخفاء ، وكان على المرء استرضاؤها اذا أراد اجتناب أذاها • ويقص القرآن الكريم (٤٦ : ٢٩ ـ ٣١) أن بعض هؤلاء الجن استمعوا الى القرآن فآمنوا به •

وكان تعدد آلهة الصحراء نتيجة لحالة التشتت التى كانت تعيش فيها

القبائل ، وليلها الغالب الى التطرف . وكان الاله لا يستطيع الا نادرا التغلب على هذين العاملين . ومد نفوذه الى ما وراء حدود منطقته المحلية مثلما فعلت الالهات الثلاث : اللات ومناة والعزى وكانت تعبد فى المنطقة التى حول مكة . وكان يعلو عليهن أبوهن « الله » وهذا الاسم كما رأينا اسم ذات معناه ((الاله)) وقد شاع استعماله بين العرب لا للدلالة على الاله الأعلى فحسب ، ولكن للدلالة على عدة آلهة خاصة أيضا . وقد استعمل الرسول هذا الاسم للدلالة على الله الاوحد الذى كان يدعو الى الايمان به .

وكانت الآبار والاشجار والأحجار التى تسكنها أرواح الآلهة حماة الأماكن المختلفة ، هياكل ومراكز لعبادة تلك الآلهة بالطبع . وكانت حياة البداوة لاتسمح الا بتطور بدائى محدود للعبادة الدينية . والى جانب الهياكل المحلية الثابتة ، كانت هناك أيضا هياكل قبلية متنقلة ، تحملها القبيلة معها فى تجوالها وتجعلها حماها فى المعركة . وكانت الأرض التى تحيط بالهياكل الثابتة أرضا مقدسة . وكان يحج الى هذه الهياكل فى أوقات معينة بصحبة الغناء والموسيقى وكان الحجيج يطوفون عدة مرات حول المكان المقدس ويرمون الحجارة أو يصيحون صيحات دينية .

ولم يكن فى مثل هذا المجتمع مكان لهيئة منظمة من القسس . وكانت ترعى الأماكن المقدسة جماعات من الأسر والقبائل ، ولكن لم يكن هناك احتكار لحق تقديم القرابين أو أداء أية طقوس أخرى . وكان هناك نمط خاص من المتنبئين ــ يسمى الواحد منهم كاهنا (= كوهين فى العبرية ، ولكن هذه معناها « قس ») . وكان هؤلاء الكهان يتكهنون بارادة الآلهة بوساطة نبوءات خاصة غامضة ، كما كانوا يؤدون واجبات القاضى والحكم . وكانت هناك شخصية دينية بارزة أخرى بين العرب هى السادن أى راعى المعبد ، وكانت واجباته شبيهة بواجبات القسس .

وكانت بين المناطق الدينية العديدة فى وسط الجزيرة منطقة واحدة تجاوزت أهميتها حدودها الخاصة ، وهى مكة . فكانت كعبتها التى تضم الحجر الأسود المكرم مقصد الحجاج من أنحاء كثيرة بالجزيرة . فموقع مكة على الطريق التجارى الممتد الى الشمال جعل منها ، كما رأينا ، مركزا تجاريا ومدينة من مدن الاسواق . والاهمية التجارية والاهمية الدينية مجتمعتين جعلتا منها ملتقى لقوى العرب المتفرقة ، وبداية لجمع العرب فى صعيد واحد . فأتاح هذا أن تتكون نواة تقاليد قومية مشتركة فى المجالات الدينية والمدنية والتجارية استعان بها محمد فى اقامة وحدة العرب السياسية .

وقد تلقت الصحراء أيضا ، عدا تقاليد الوثنية ، تقاليد دينى التوحيد

الكبيرين اللذين كان مركزهما على مقربة من حدود الصحراء · فقد هاجر جماعات من اليهود الى الجنوب ، ولعل ذلك كان من أيام تخريب الرومان لبيت المقدس وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجارى وفى واحات الحجاز · وكانوا يشتغلون بالزراعة خاصة · وقد اتوا الى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية واتخذوا العربية لغة لهم ·

وقد جاءت المسيحية الى بلاد العرب لسبب مختلف ، كما سلكت مسلكا مختلفا · فقد كان مجيئها جزءا من الحركة العامة لنشر الدين الجديد وكانت تحدوه فكرة تسمو على الاعتبارات القومية ، وبفضل هذه الفكرة لم يكن دخول المسيحية بلادا جديدة مجرد هجرة جماعات مسيحية ، وانما كان قبل كل شيء انتشار الأنجيل · وقد اعتنقت المسيحية مملكتا الغساسنة واللخميين ، كما قامت جاليات مسيحية فى الحجاز بمكة وكذلك فى اليمن حيث اتصلت بالاثيوبيين المسيحيين · وفيما عدا هذه الجاليات المسيحبة العادية ، كان هناك الرهبان فى الصحراء ·

ولم يكن المسيحيون العرب جميعا من الأرثوذكس ، وانما كان هناك كثيرون من القائلين بالطبيعة الواحدة ، كما كان هناك أتباع للمذاهب الغنوصية المختلفة· ولم يكن العرب يهتمون بالفروق بين المذاهب المسيحية · وكانوا يعجبون بعض الاعجاب بالحياة التى يحياها الرهبان والنساك · ولكنهم لم يكونوا يعرفون عن دينهم الشيء الكثير ·

وكان للايمان بالله الواحد الأحد بعض السطوة فى بلاد العرب قبل الاسلام · وتحدثنا الرواية أنه قبيل دعوة محمد كان هناك قليلون يؤمنون بالتوحيد ، فمهدت دعوتهم الطريق للدين الجديد الذى كان فى طريقه الى الظهور · فالعرب والدين الجديد على الأبواب ، كانوا يدينون بمعتقدات جاهلية و باليهودية أو النصرانية أو التوحيد ، ولم يكن يستطيع التأليف بين هذه العناصر جميعا سوى روح فريدة فى قوة التقبل · وكان محمد هذه الروح ·

ملاحظات على ما كتبه موسكاتى :

أولا : أغفل الكاتب كل الرسالات السماوية ، سواء رسالة هود أو رسالة صالح أو رسالة شعيب ·

ثانيا : زعم الكاتب بأن الحج عادة كانت سائدة فى المجتمع العربى الوثنى ، وأنه لما جاء محمد صلى الله عليه وسلم اعتبرها من فرائض الاسلام أى أن الحج كان عادة وثنية أقرها الاسلام ·

ثالثـــا : الزعم بأن المسيحيه واليهوديه دينا توحيد ، وانهما قد أثرا فى دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعـــا : الكاتب يتبنى منهج ما يسمى بعلم الدين المقارن ، وهو ان الدين من اختراع العقل البشرى وأنه تطور ، ومن هذا المنطلق يزعم بأن « الله » هو أبو اللات ومناة والعزى ، وأنه له دلالة على الاله الأعلى وعـــدة آلهة خاصة ، وأن الرسول محمد قد استعمل هذا الاسم للدلاله عـلى الاله الاوحد .

خامسا : يزعم الكاتب بأن أحجار الكعبة تسكنها الالهة ، وخاصة الحجـــر الاسود ، وأن العرب اعتبروها أرضا مقدسة وأنهم كانوا يحجون اليها فى أوقات معينة يصحبه الغناء والموسيقى و .. وأن ذلك قد جعـل لمكة أهمية دينية الى جانب أهميتها التجارية ، دفعت العرب الى الالتقاء والتجمع فيها وأنها كانت نواة تقاليد قومية مشتركة فى المجـالات الدينية والمدنية والتجارية وأن محمد قد استعان بها فى اقامة وحدة العرب السياسية .

سادسا : إن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لم يأت بدين من عند اللـه وانما قد قام بالتأليف بين المعتقدات الجاهلية واليهودية والنصرانية والتوحيد .

الكتاب الثانى : محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ، ط ٢ القاهرة ١٩٥٢ .

أما دياناتهم فقد نقلت الينا النقوش أسماء معابد كثيرة ، وأكثر من مائة اله ولكن لا يعرف عن هذه الآلهة الا أسماءها : ولا شك أن بعـض الالهة كان يعبد فى كل البلاد ، وأكبر آلهتهم الشمس ، وكانت لها مظاهر متعددة فى جهات مختلفة ومن بين آلهتهم عطار الذى يدل على كوكب الزهرة ، ولعل إسمه مشتق من إشتار البابلى أوعشتوريت الكنعانى ، وكان القمر بين آلهتهم الكبرى . ويرى بعض العلماء أنه كانت له الافضلية على الشمس على اعتبار أنه المعبود الذكر ، وأن الشمس الأنثى زوجته ، وكان يسمى عندهم ورح أو شهر أو سين ، وكان لـكل منطقة الهها المحلى ، فكانت معين تعبد الاله ود ، وقتبان تعبد الاله عم ، وسـبأ تعبد الاله المقاه ، وهمدان تعبد الاله تعلب ريام ولعل هذه الاله المحلية أو القبلية كانت مظاهر لاله القمر ، وهناك فى النقوش ما يشير الى أن القمـر والشمس

والزهرة كانت تكون أسرة مقدسة كما كان أوزوريس وحوريس يكونون ثالوثا مقدسا عند المصريين • وكان الثور وقرنا الثور والهلال تعتبر من رموز القمر كما كانت البقرة هاتور عند المصريين القدماء •

وفى بعض الأوقات كان الملوك يعبدون بعد موتهم بوصف كونهم آلهة وكان اليمنيون يعتقدون أن الشعب هو سليل الملك ، وأن الملك هو الابن الاكبر للاله ، وكثيرا ما نرى عبارة « الاله والملك والشعب » على النقوش • ولم يكن للآلهة تماثيل كما كان عند المصريين القدماء • وكان الناس يتقدمون الى الآلهة بتماثيل لأشخاصهم لكى تبارك أعمالهم ، كما كانوا يقربون لهم قرابين من الضحايا والبخور ، وكانوا يؤدون الحج فى فصول معلومة من السنة ، وكان شهر الحج يسمى ذو الحجة أو ذو المحجة • وعرفنا أيضا أسماء بعض شهورهم ويمت عدد منها بصلة الى الزراعة ، وكان اسم الكاهن فى لغتهم (رشو) ولعل معناها المعطى •

وزاد النفوذ اليهودى فى أواخر أيام دولة الحميريين ، وتهود بعض ملوكهم وكان من آثار اليهودية أن شاع ذكر اسم (الرحمن) فى النقوش دلالة على الله •

ودخلت النصرانية بلاد اليمن قبل الغزو الحبشى ، وانتشرت بعد ذلك الفتح ، ولكنها لم تلق قبولا ، وذلك لأنها كانت تعتبر دليلا على السيطرة الأجنبية ، وأسس أبرهه كنيسة القليس المشهورة فى صنعاء ، ولكنها لم تلق ارتيادا كبيرا ، أما الفتك بالنصارى فى نجران فكانت له أسباب سياسية كما كانت له أسباب دينية •

أما ديانة أهل تدمر فلا تختلف كثيرا فى أصولها عن ديانة أهل شمال سوريا والقبائل العربية الضاربة فى الصحراء الشرقية ، وكان أشهر آلهتهم اله الشمس ويسمى عندهم سمس أو شمس ومعناها شمس ، وبقايا معبد الشمس الكبير لا تزال قائمة فى أنقاض تدمر الآن • وكانوا يعبدون القمر أيضا ، ويسمونه عجلى بل ، وكانت أشهر الالهات الاناثيات الآلهة اللات المشهورة عند العرب القدامى ، ومن بين الآلهة بعل شمين ((أو سيد السموات)) ومن بين الآلهة اله يحمل هذا الاسم العربى الواضح ، وهو « شيعا القوم » وكانوا يصفونه بأنه اله الخير الطيب الذى لا يشرب الخمر ومعنى شيعا القوم أى حامى أو مرافق القوم ، وهو الذى يرعى القوافل فى سيرها ، هذا وقد كشفت النقوش عن أسماء نحو اثنين وعشرين الها فى تدمر •

وبسقوط مملكة تدمر انتقل الطريق التجارى مرة أخرى الى الجنوب فحلت

بصرة وغيرها من المدائن الغسانية محل تدمر وورثتها كما ورثت تدمر بطرة من قبـل •

ولكن تدمر انتعشت قليلا فى أواخر القرن الثالث الميلادى عندما اتخذها دقلديانوس محطة حربية • وقبيل ذلك الوقت سلكت المسيحية سبيلها اليها ، بدليل أننا نجد ذكرا لبعض التدامرة بين الآباء الدينيين الـذين حضروا مجمع نيقة سنة ٣٢٥ م وفى سنة ٥٢٧ أمدها جاستنيان بقناطر نجلب الماء ، وأقام فيها حائطا لا تزال أثاره باقية •

وعند الفتح الاسلامى للشام سلمت تدمر لخالد بن الوليد ، ولكن أهلهـا لم يعتنقوا الاسلام • ثم تحولت المدينة الى معقل اسلامى يأوى اليه الكثيرون من المستعمرين العرب •

وثنية العرب وأصنامهم :

لم يكن عرب الشمال ـ وغالبيتهم العظمى من البدو ـ شديدى التأثر بالدين • كما كان عرب الجنوب ـ الذين وصفنا الحالة الدينية عندهم فى الفقره ٦٠ من هذا الكتاب فارجع اليها • والعرب كما يقولون ـ أمة شعراء ، الشـعر سجل أعمالهم ، ولكنك قل أن تجد فيما وصل الينا من الشعر الجاهلى ما يعكس لك صورة واضحة عن الحالة الدينية فى بلاد العرب ، وقد يكون السبب فى ذلك أن الشعر الدينى ـ بسبب اعتناق العرب للاسلام ، وقد حظرت روايته فضاع • ويبدو أن العربى لم يكن يهتم للدين كثيرا ، يدلنـــا على ذلك ما رواه صـــاحب الأغانى من أن امرأ القيس بن حجر الكندى عندما قتـل أبوه مر بمعبـــد ذى الخلصة ، ليستقسم بالســـهام ، فلما أخرج السادن سهم النهى ثلاث مـرات قذف امرؤ القيس بالسهام فى وجه الصنم ، وقال : لو كان أبوك الذى قتل لمـا نهيتنى عن طلب الثأر له •

وفيما عدا الشعر فان مراجعنا فى وثنية العرب قبل الاسلام تكاد تنحصر فيما ورد عن الوثنية فى القرآن الكريم ـ الذى يصور لنا الحياة الجاهليـة فى نواحيها المتعددة من دينية واجتماعيـــة أصدق تصوير وأروعه ـ وفى بعـض ما كتب من الأدب الاسلامى ، ونخص بالذكر منه كتاب الأصنام للكلبى (المتوفى حوالى سنة ٨٢٠م) •

وكانت معبودات العرب فى الجاهلية تختلف ما بين الصنم والوثن والنصب فأما الصنم فما كان على صورة انسان من معدن أو خشب ، والوثن ما كان عـلى شكل الانسان من حجر ، أما النصب فهو حجر غفل ليس على صورة معينة •

ولعل الوثنية العربية كانت أبسط شكل للمعتقدات السامية ، فهي لم نترق كما ترقت وثنية عرب الجنوب ، التى كانت لها معابد فاخرة ، وشعائر معقدة مما تتطلبه حالة الاقامة ، على عكس عرب الشمال ، الذين كانوا فى الغالب بدوا ، وتشبه وثنية العرب معظم الوثنيات الأخرى ، فى وجود آلهة خاصة بالقبائل ، تنفرد كل قبيلة بعبادة الها ، وتشترك معظم القبائل فى عبادة الاله الأكبر .

وكانت المناطق الزراعية تعبد الها يمت الى الشمس بصلة ، وأوضح أمثلة لعبادة الشمس كانت فى مدينة تدمر ومدينة البتراء ، ولا يخفى أن سكان الاقاليم الزراعية قد أدركوا ما بين حرارة الشمس وبماء الزرع من علاقة (قارن هذا بعبادة المصريين القدماء لرع اله الشمس) .

وكان بعض قبائل البدو يدينون الطوطمية ، ويعبدون الحيوانات ، وتفسير هذا يمكننا أن نرجعه الى ما كان يعود عليهم من نفع من الحيوان المعبود ومدى ارتباطهم به (قارن هذا أيضا بعبادة الحيوان عند قدماء المصريين) .

وكانت آلهة المناطق الزراعية — فى الغالب — من الآلهة الخيرة ، التى تجلب النفع للناس ، أما آلهة المناطق الجرداء فكانت من الآلهة الشريرة والشياطين وهذه كانت تعبد دفعا لأذاها ولاتقاء شرورها ، كما كانت تعبد الأولى استجلابا لرضاها واستدرار لنفعها .

وعبد العرب أيضا بعض مظاهر الطبيعة ، التى كانت تحيط بهم ، فعبدوا بعض الأشجار وعيون الماء والكهوف والحجارة ، ولكن عبادتهم لهذه الأشياء كانت كوسيلة لتقربهم الى الآلهة التى كانت حسب ما يعتقدون تتخذ مقارها فى بعض هذه الأشياء ، ولسنا ندرى ان كانت بئر زمزم قد عبدت قبل الاسلام ولكن القزوينى يذكر أن بئر عروة — كان الناس اذا مروا بها أخذوا من مائها يهدونه الى أهليهم . أما الكهوف فكانت قداستها ترجع الى انها تتصل بقوى الآلهة السفلية ، وقوى باطن الارض التى لا يرونها ، ومن أمثلة ذلك كانت نخغب فى نخلة حيث كان العرب يقربون للإلهة العزى .

كذلك عبد بعض العرب بعض الأجرام السماوية ، ولعلهم تأثروا فى ذلك بالمجوس جيرانهم ، فعبدوا القمر ، وكانت عبادته شاسعة فى مناطق الرعى ، كما كانت عبادة الشمس شائعة فى مناطق الزراعة ، ويجب أن نذكر هنا أن ضوء القمر كان يهدى بالليل ، وكان ظهوره ينظم لهم مواقيتهم ، وقد ورد فى

القرآن الكريم ذكرود ، وهو أحد آلهة القمر ، وكان أهم اله يعبد فى معين ببلاد اليمن ٠

وقد سبق أن أشرنا فى تاريخ اليمن فى الفقرة ٥٢ عند الكلام على قصة أصحاب الأخدود خبر نخلة فى نجران ، كان القوم يعبدونها هناك ، ولهذه النخلة نظير فى شجرة العزى ، المسماه بذات أنواط فى نخلة ، والتى كان يهرع اليها أهل مكة كل عام فيقدمون القرابين لها كماكان يقدم أهل نجران لنختلهم قرابين من الأسلحة والملابس وغيرها ، وكانت اللات فى الطائف يمثلها حجر مربع وذو الشرى فى البتراء يمثله كتلةمستطيلة من حجر أسود غيرمنحوت يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام وعرضه قدمان ، وكان لكل من هذه الآلهة حمى من أرض المراعى المحيطة به لا يعتدى عليه ولا يعتدى فيه ٠

وكان البدو يؤمنون بأن الصحراء مسكونة بمخلوقات لها طبيعة الوحوش يطلقون عليها أسماء الجن والشياطين ، وكان الجن ــ فى نظرهم يختلفون عن الآلهة من حيث طبيعتهم من جهة ، ومن حيث علاقتهم بالانسان ، فالآلهة فى نظرهم كانت بصفة عامة أصدقاء لهم ، اما الجن فكانوا لهم خصوما ، ولعل ما تنطوى عليه الصحراء من هول ، وما يعمرها من وحوش ــ هو الذى دفعهم الى هذا الاعتقاد ، وأرض الآلهة هى الارض التى يطرقها الانسان ، أما أرض الجن فهى أرض البرية التى لم يطرقها أحد ، ولعل لفظ المجنون بالعربية معناه الذى أصابه الجن ٠

ولسنا ننكر الجن فقد ورد ذكرهم فى أكثر من موضوع فى القرآن وفى مناسبات متعددة ، ولكن المقصود بهم كان يختلف عما ذهب اليه العرب فى الجاهلية ٠

وقد ورد ذكر اللات والعزى ومناة فى القرآن ، وهذه الآلهات الثلاث كان العرب يسمونها بنات الله ، وكن يعبدون فى المنطقة التى اتيح لها أن تكون مهد الأسلام فيما بعد ، وقد ورد ذكرهن فى القرآن فى سورة النجم الآية ١٩ وما بعدها : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى » ٠

فأما اللات (ولعلها مشتقة من كلمة الآلهة) فقد كان حماها وحرمها على مقربة من الطائف ، وكان أهل مكة يحجون اليها ويقدمون لها القرابين ، وكان لا يجوز أن تقتلع أشجار من حماها ولا يصاد ولا يراق دم آدمى فيه ، وقد ذكر هيرودوت فى تاريخه اسم « اللات » من بين آلهة الانباط ٠

وأمـا العزى (وهى مؤنث الأعز وكان يقصـد بهـا الزهرة « فينوس » نجمة الصـباح) فكانت تعبد فى نخلة الى الشرق فى مكـة . وقـد ذكر الكلبى : أن قريشـا كانت تقدسها أعظم تقديس ، وأن النبى عليه السلام وهـو حدث قدم لها القرابين (٢٦) ٠ (فى ذلك شك) وكان حرمها يتكون من ثلاث أشجار ، وعبادتها تتطلب تقديم القرابين البشرية ، وكان اسم عبد العزى من الأسماء الشائعة المحببه وقت ظهور الاسلام ٠

أمـا منـاة (من المنية وهى القضاء المحتوم) فكانت آلهة القضـاء والقدر ، ولعلها كانت من أقـدم الآلهات عند العرب ، وكان حرمها عبـارة عن صخرة سوداء فى قديد علي الطريق بين مكـة ويثرب ، وكان أعظم عبادها الأوس والخزرج الذين ناصروا النبى عليـه السـلام فى هجرته من مكـة ولا يزال النظامون العرب يشكرون المنية والدهر فى قصائدهم الى يومنـا هذا ٠

ونستطيع أن نقرر ــ بمناسبة هـذه الآلهات الثلاث ــ أن عبـادة الأناث كانت أسبق من عبـادة الذكور في بلاد العرب ، لأن العرب ــ شـأن كل الساميين الاخر كانوا يعلقون أهمية على دم الامومة أكثر من دم الابوة ٠

وكانت الكعبـة مقر أوثان أكثر العرب وأصنامهم ، وكان هـذا من الاسباب التى جعلت لمكـة وقريش الصـدارة على كل مـدن الحجاز وقبائله أمـا أشهر آلهـة الكعبة فكان الاله هبـل (واسمه مشتق من لفظ آرامى معنـاه الروح) وكان صنم هبـل على صورة أنسان ، ذكر المؤرخون أنه كان من العقيق الاحمر مكسور اليد اليمني ، أدركته قريش كذلك ، فجعلت له يدا من ذهب ، وكان تمثاله أعظم صنم معلق على الكعبة ، التي كان بداخلها صنمان يمثلان ابراهيم واسماعيل ، وكان الى جوار صنم هبـل الأزلام وهى القداح أو السهام التى كان أهـل الجاهلية يستقسمون بهـا وكان الكاهن (وهـو لفظ مأخوذ زمن الآرامية أيضـا) يقرر مصائر الناس بوسـاطة هذه السهام ، وقـد ذكر ابن هشام فى سيرته أن عمرو بن لحى الخزاعى هـو الذى أحضر هـذا الصنم من مؤاب أو العراق الى مكـة ، ولقـد أصـاب بقوله هـذا كبـد الحقيقة ، لأن اسم الإله يحمل ذلك الاسـم الآرامى ، ويقـال أيضـا أن عمرو بن لحى هـذا هـو الذى أتى بأساف ونائلة من أرض الشـام ، ووضعها فى داخـل الكعبة فعبدا ، على أن هنـاك رواية أخرى تذكر أن أسافا ونائلة كانا رجـلا وامرأة أتيـا الفاحشة فى داخـل الكعبة فأحالتهما الآلهة أصناما ٠ أمـا بقية القصة التى تقول ان

(٢٦) كيف يستبيح الكاتب أن يورد هذه الفرية هنا ٠

عمرو بن لحي كان أول من أدخل عبادة الاصنام الى بلاد العرب بنقله هبل وأن العرب كانو لا يعبدون أصناما قبل هذا ـ فهى بعيدة بعدا كبيرا عن الحقيقة ، وقد لقى هبل هو والثلثمائة وستون صنما التى كانت معلقة حول الكعبة مصرعها الاخير يوم الفتح على يد النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا يجولن بالخاطر أن ما ذكرناه عن وثنية بلاد العرب ـ يستلزم أنهم كانوا لا يعبدون الا الأوثان أو الأصنام ، اذ الثابت أن الشطر الاكبر منهم ، ان لم يكن جميعهم ـ كانوا يعبدون هذه الحجارة والاصنام لا على أنها صاحبة الحول والطول ، بل على أنها وسيلة تقربهم الى الاله الاكبر الذى كانوا يؤمنون به ، فكانوا كما قال الله سبحانه وتعالى فى محكم كتابه « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » فأنت ترى أن الله تعالى كان معروفا لديهم وكلمة « الله » هى صورة من صور لفظ الاله المضاف اليها أداة التعريف ، مما يفهم منه أنه الاله الرئيسى ، وقد عثر النقابون على نقوش قديمة فيها لفظ « الله » وقد عثر على نقش فى الصفا يرجع عهده الى ما قبل الاسلام بخمسة قرون ورد فيه لفظ الجلاله على هذا الشكل (هالله) ومعروف أن والد النبى عليه السلام كان يسمي عبد الله وكان أهل مكة قبل الاسلام ـ يعتبرون أن الله هو الخالق المعطى القاهر فوق عباده ، وهو الذى يفزع الناس اليه اذا اشتد الخطب، كما يستدل على ذلك من آيات كثيرة فى القرآن نذكر من بينها قوله تعالى « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » لقمان آية ٢٥ ، وقوله تعالى « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون » الأنعام آية ١٠٩ .. الخ .

ولم يحل وقوع مكة فى واد غير ذى زرع ، وفى مناخ لا يوافق الصحة كثيرا دون أن يكون الحجاز بسببها أهم مركز دينى فى شمال بلاد العرب .

أما فيما يتعلق بآلهة بلاد العرب الأخرى ـ فانا نذكر منها « نسرا » وكان على هيئة نسر و « عوف » وكان على هيئة طير كبير و « يغوث » وكان على صورة أسد و « يعوق » وكان على هيئة فرس ، وغيرها من الحيوان والطير مما يذكرنا بآثار الطوطمية الاولى .

ولا نستطيع أن نستنتج من ثنايا الادب القديم الموثوق بصحته ـ ما يوضح لنا عقيدتهم فى الدار الآخرة توضيحا كبيرا ، أما ما ورد على ألسنة بعضهم من ذكر للدار الآخرة ، فأكبر ظننا أنه كان صدى للمعتقدات المسيحية التى اتصلوا بها .

ونريد أن نذكر فى هـــذا الصدد أيضا ـ أن العرب قـــد توافقوا فيما بينهم على أن يجعلوا من بين شهور السنة أربعة شهور حرم ، لا يحل فيها القتال وكان غرضهم من ذلك أن يتيحوا لذوى الرأى فرصـــة يصلحون فيها ذات البين وهـــذا عـدا حرصهم على الاطمئنان على متاجرتهم ، وعـــدم تعريض سلعهم للبوار والضياع ، وتشـــبه هـذه الشهور الحرم ـ وهى شهور ذى القعدة وذى الحجة ـ والمحرم ثم رجب الفرد ـ الهـــدنة الربانية التى كانت معروفة فى أوربا فى العصور الوسطى ، وكانت الشهور الثلاثة الأولى تخصص للعبادة ، فيذهب النـــاس فيها من كافة أنحـــاء الحجاز وغيره الى مكـــة ويقدمون القرابين من أبل وأغنـــام الى آلهتهم أما الشهر الرابع فكان يخصص للتجارة ولا يخفى أن الحجاز ـ بوقوعه على طريق التجارة الرئيسى بين الشمال والجنوب ـ كان يتيح فرصـــة صالحة للنشاط الدينى والنشاط التجارى ، وهـــذا هو السبب الذى من أجله قامت أســـواق للعرب فى الجاهلية ، ونخص بالذكر منها عكاظ ، التى كان فيها ســـوق أسبوعية تقوم يوم الاحد للبيع والشراء ، وسوق سنوية ينزلون به فى أول ذى القعدة ويستمرون عشرين يومـــا تجتمع فيها القبـــائل فيتناشـــدون الاشـــعار . ويتعارفون ويتحابون ويفـدون أسراهم ويرفعون مظالمهم الى من يقوم بأمـر الحكومة ، ثم يتوجهون منها الى مكـــة ، فيقفون بعرفة ويقضون مناســـك الحج ثم يرجعون الى أوطانهم .

ومثـل سوق عكاظ أسواق أخرى ، كسوق مجنة قرب مكـــة ، وســوق ذى المجاز خلف جبل عرفات .

ونريد قبل أن نختتم كلامنا عن ديانة العرب الوثنية قبـــل الاســـلام أن نذكر أنه كان هنـــاك أفراد منهم يطلق عليهم الحنفيون أو الاحنـــاف (أى المنحرفون عن العبادة العامة) لم تـــكن تلك العبادات التى وصفناهـا تعجبهم ويرون أن هنـــاك حقيقة غابت عنهم ، وأن طرائقهم التى هم عليهـا لا توصلهم الى اللـــه ويقولون فى أنفسهم ما معنى التوســـل الى اللـــه بحجارة لا تضر ولا تنفع ؟ ومن أشهر هؤلاء ـ ورقة بن نوفل الذى استحكم فى النصرانية ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو وعبد الله بن جحش ، وأمية بن أبى الصلت ، وقس بن ساعدة الايادى ، وغيرهم ممن ترك عبـادة الأوثان ، وان كان لم يعتنق دينا سماويا . ووجود أمثـال هؤلاء يدلنا على أنـه كانت هنـــاك حركة دينية قبيل البعثة النبوية ، تبحث عن دين ابراهيم الحنيف وتسب الأصنام ولا ترى فى عبادتها غذاءا روحيـا يرضى عـقلاء العرب ، ولكنها لم تكن حركة منتجة لانهـــا لم تؤد الى شىء مـــا من التغيير فى عبادة الاوثان ، ـ ولا الى شىء من اصـلاح أحوال العرب ، ولكنهـــا ، دون جدال ـ عبدت الطريق وجعلت فى بعض الانفس شيئا من الاستعداد لقبول الاسلام ، ويطلق بعض المؤرخين على أولئك الذين ذكرنا اسم الحنفاء .

المسيحية ببلاد العرب :

ذكرنا فى كلامنا على حضارة بلاد اليمن أخبار المسيحية فيها فارجع اليها ونذكر هنا ان المسيحيه كانت منتشرة فى قبائل تغلب وغسان فى الشمال ولسنا فى حاجة الى القول بأن قرب هذه المناطق من أرض البيزنطيين ، كان من العوامل التى جعلت هذه الديانة تنتشر فى تلك الجهات ، على أنا لا نعدو الحقيقة اذ قررنا أن المسيحية لم ترسخ أقدامها ولم تجد لها أنصارا بين عرب الشمال لأن مبادئها وما انطوت عليه من حب للسلام لا يتفق مع طبيعة أولئك البدو ، وقد يكون من العوامل التى عاقت انتشار المسيحية ، أن الاباطرة لم يسعوا سعيا جديا فى نشرها ، كما أن ما كان بين المسيحية من خلاف وانقسام الى فرق متناحرة ، وما تسلل الى المسيحية من بعض مظاهر وثنية ، وكذلك مقاومة اليهود خفية لها ، لما كان بينهم وبين المسيحيين من خصومة ـ كان من العوامل التى أوقفت تقدمها ، وجعلت العرب يؤثرون وثنيتهم عليها ، وأشهر مذاهب المسيحية التى اعتنقها العرب مذهبان : مذهب النساطرة وكان شائعا فى الحيرة ومذهب اليعاقبة وكان شائعا فى غسان ، وغيرها من قبائل العرب الضاربة فى صحراء الشام ٠

اليهودية فى بلاد العرب :

كانت اليهودية أرسخ قدما فى بلاد العرب من المسيحية ، وقد ذكرنا فى تاريخ بلاد اليمن كيف تهود بعض ملوكهم فى أواخر دولة الحميريين ، وقلنا ان تهودهم كان لاغراض سياسية ، وهى مقاربة النفوذ البيزنطى ، وكراهيتهم للأحباش ، الذين كانوا يعتنقون المسيحية ، ونذكر هنا أن اليهودية دخلت بلاد العرب فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، وقد ذكر المؤرخون العرب لدخول اليهود الى بلاد العرب أسباب أقرب الى الخيال منها الى التاريخ الصحيح ويكاد يجمع المؤرخون المحدثون على أن اليهود جاءوا الى جزيرة العرب مهاجرين من فلسطين عندما ضاقت عليهم سبل الرزق فيها فهاجر فريق منهم الى العراق ، وآخرون الى مصر ، وغيرهم الى البلاد العرب ٠ ولما قضى الرومان على دولة اليهود ، واستولوا على فلسطين ، قامت ثورات ضد نفوذ الرومان فيها ، أطفأها الرومان بشدة لم يستطع فريق من اليهود صبرا عليها فخرج من لم يستطع البقاء منهم الى شبه جزيرة العرب التى كانت اذ ذاك بعيدة عن حطر الرومان ، ، ولما قامت الحروب اليهودية الرومانية حوالى سنة ٧٠ق٠م ـ شتت كثير من اليهود فانتشروا فى أصقاع الأرض ـ وكانت بلاد العرب بعض الجهات التى ذهبوا اليها ٠

وأشهر المستعمرات التى أقاموا فيها هى يثرب وتيماء وفدك وخيبر

ووادى القرى وكان يهود يثرب ثلاث قبائل هم : بنو النضير ، وبنو قينقاع ، وبنو قريظة وقد اصطبغ اليهود بالصبغة العربية ، فعلى الرغم من كثرة عددهم كانوا يتكلمون العربية وكانت أسمائهم عربية مما حدا ببعض المؤرخين الى القول بأنهم كانوا عربا تهودوا ، وأنهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد، ولو أنهم كانوا شديدى التمسك بدينهم ·

ولا يخفى أن اليهود كانوا ــ فى شمال الحجاز ابان البعثة النبوية قوة كبيرة تعادل قوة قريش في الجنوب ، وكانوا أكثر من العــرب ثروة وغنى وأوفر ســلاحا وكانت بلدانهم حصينة ، وفى منطقة المدينة لم يكن الاوس والخزرج سوى أجراء لهم يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالاجر ·

المجوسية والصابئية :

بقيت كلمة واحــدة عن أديان العرب قبل الاسلام ، وهى كلمتنا عن المجوس اتخذوا النار الها لهم لأنها فى نظرهم أساس الارض ، بما عليهـا من وديان وجبال ومهـد المجوسية الاصلى بلاد فارس ومنها انتشرت ــ بحكم الجوار الى المناطق المجاورة · فوصلت الى بــلاد البحرين ، وانطبعت هنــاك بالطابع العربى ، فكانت عبادة الاجرام السماوية أهم مظاهرها ، وقــد شيدت لها بيوت لعبادتها كان يتجه اليها للحج ·

أما الصابئــة فقد ورد ذكرهم فى القرآن فى ثلاث مناسبات ، وكانوا يعرفون فيها باليهود المسيحيين دائما ، ومرة واحــدة بالمجوس أيضــا ، وقــد ورد فى دائرة المعارف البريطانية : انهم طائفة نصف مسيحية ، كانت تسكن فى بابــل وتشبه ما يعرفون بمسيحى القديس يوحنــا المعمدان (يحيى ابن زكريا) ·· وربما كان لفظ الصابئــة مشــتق من لفظ آرامى معنــاه المغتسلة ، أى الذين يغسلون أنفسهم ، وهناك رأى يقول : انهم كانوا عبــاد النجوم · ويذهب معظم المفسرين الى القول بأنهم كانوا يمثلون دينــا وسطا بين اليهودية والمسيحية يقول بالوحدانية ولكنه يعبد الملائكة (٢٧) ·

وقــد اختلف المؤرخون والمفسرون فى اعتبارهم من أهــل الكتاب ، ولــكن الاغلبية ترفض أن تعاملهم معاملة أهــل الكتاب ، ولا ينفى هــذا أنهم أعتبروا فى فترة ما لاغراض سياسية ــ من أهل الكتاب ·

وعلى الرغم من أن القوتين اللتين كانتــا تحيطان ببلاد العرب ــ من الشرق وهي قوة المجوسية ومن الغرب وهى قوة المسيحية ــ كانتــا أعظم قوتين فى ذلك العصر الا انهمــا كانتــا ضعيفتي الأثر ومن أعجب الأمــور

(٢٧) كما عرفنا لا يوجد شيء اسمه دين دعى الى الوحدانية سوى الاسلام·

أن تظـــل شبه الجزيرة وكأنها واحـــة حصينة آمنة من انتشـــار الدعوه الدعوة الدينية مسيحية أو مجوسية ، الا فى قليل من قبائلها ٠

ملاحظات على ما أورده الكاتب :

أولا : أغفل الكاتب ذكر دين الاسلام الذى دعى اليه هود عليه الســـلام ، رغم أن لديه علم يقينى فى هذه المسألة اعتمادا على ما ذكره القـــرآن وكتب التراث ٠

ثانيا : ذكر الكاتب أن عرب الجنوب كانوا يؤدون الحج فى فصول معلومـة من السنة ، ولكنه لم يقل لنا – ولو مجرد افتراض – من اين لهم بهذه العبادة ، وهل هذا من رواسب دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين أم لا ؟

ثالثا : زعم الكاتب أن أصحاب الأخدود كانوا نصارى ، والنصارى كانـــوا أصحاب كتاب ولكنهم ليسوا موحدين ، وحديث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يذكر ان أصحاب الأخدود كانوا على التوحيد ٠

رابعا : يزعم الكاتب أن لفظ الجلالة « الله » كان معروفا قبل الاســلام بخمسة قرون ، والكاتب حتما يتبنى منهج مقارنة الاديان التى تقول بأن الدين تطور ، وأنه أخذ النتائج التى وصل اليها العقل البشرى وأقرها (الى آخـر ما ورد فى عبارة الكاتب) وكان من الواجب أن يقول لنا أن هذه رواســـب خط توحيد الله الذى بينته الرسالات السماوية التى سبقت رسالة محمد بوقت طويل وأنها كلها دعت الى الاسلام ٠

خامسا : يقول الكاتب ان العرب قد توافقوا فيما بينهم على أن يجعلوا من بين شهور السنة أربعة أشهر حرم ، وانها تشبه الهدنة الربانية عند المسيحيين ، ولا ندرى ماذا يقصد الكاتب بذلك ، هل الايحاء من طرف خفى بأن الأشهر الحرم ليست توقيف من الله ، وانما هو ما اتفق عليه الفكر البشرى ثم أقرته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؟

سادسا : ان عقائد الدار الآخرة التى عرفها بعض العرب – هى صـــدى للمعتقدات المسيحية وكان من الواجب عليه ان يقول أنها بقايا دعوات الرســـل التى سبقت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

سابعا : يذكر المؤلف انه كان فى جزيرة العرب طائفة تسمى الحنيفيـــة (فسرها) بالمنحرفين عن العبادة العامة ٠

ثامنا : اعتبر الكاتب الفذ ان المسلمين الذين خرجوا يجاهدون فى ســبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى – مســـتعمرين عـــرب ٠

الفصل الثانى عشر

العقيدة والشريعة
فى حياة جزيرة العرب
من خلال القرآن والسنة

* حقيقة الشرك الذى كان يزاوله المجتمع العربى الجاهلى .
* القرآن الكريم يلقى الضوء على هذه القضية الاعتقادية .

يقول الله تعالى :

« ان الله لا يغفر أن يشرك به . ويغفر ما دون ذلك ــ لمن يشــاء ــ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » ..

والشرك بالله ــ كما أسلفنا فى هذا الجزء عند تفسير مثل هذه الآية من قبل ــ يتحقق باتخاذ آلهة مع الله اتخاذا صريحا على طريقة الجاهلية العربية وغيرها من الجاهليات القديمة ــ كما يتحقق بعدم افراد الله بخصائص الألوهيــة . والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص . كاشراك اليهود والنصارى الــذى حكاه القرآن من أنهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ولــم يكونوا عبدوهم مع الله . ولكن كانوا فقط اعترفوا لهم بحق التشريع لهم من دون الله . فحرموا عليهم وأحلوا لهم . فاتبعوهم فى هذا . ومنحوهم خاصية من خصائص الألوهية ! فحق عليهم وصف الشرك . وقيل عنهم انهم خالفوا ما أمروا به من التوحيد « وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا » . فيقيموا له وحده الشعائر ، ويتلقوا منه وحده الشرائع والأوامر .

ولا غفران لذنب الشرك ــ متى مات صاحبه عليه ــ بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه .. عندما يشاء الله .. والسبب فى تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة ، أن من يشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماما ، وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبدا :

« ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » ..

ولو بقى خيط واحد صالح من خيوط الفطرة لشده الى الشعور بوحدانية ربه ، ولو قبل الموت بساعة .. فأما وقد غرغر ــ وهو على الشرك ــ فقد انتهى أمره وحق عليه القول :

« ونصله جهنم . وساءت مصيرا ! » .

ثم يصف بعض أوهام الجاهلية العربية فى شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ــ هن الملائكة ــ وحول عبادتهم للشيطان ــ وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة

وتماثيلها الأصنام ــ كما يصف بعض شعائرهم فى تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للالهة ! وفى تغييرهم خلق الله ٠ والشرك بالله ٠ وهو مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها :

« ان يدعون من دونه الا اناثا ، وان يدعون الا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ٠٠ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ٠ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا » ٠

لقد كان العرب ــ فى جاهليتهم ــ يزعمون أن الملائكة بنات الله ٠ ثم يتخذون لهذه الملائكة تماثيل يسمونها أسماء الاناث : « اللات ٠ والعزى ٠ ومناة » وأمثالها ثم يعبدون هذه الأصنام ــ بوصفها تماثيل لبنات الله ــ يتقربون بها الى الله زلفى ٠٠ كان هذا على الأقل فى مبدا الأمر ٠٠ ثم ينسون أصل الأسطورة ، ويعبدون الأصنام ذاتها ، بل يعبدون جنس الحجر ، كما بينا ذلك فى الجزء الرابع ٠

كذلك كان بعضهم يعبد الشيطان نصا ٠٠ قال الكلبى : كانت بنو مليح من خزاعة يعبدون الجن ٠٠

على أن النص هنا أوسع مدلولا ، فهم فى شركهم كله إنما يدعون الشيطان ، ويستمدون منه : هذا الشيطان صاحب القصة مع أبيهم آدم ، الذى لعنه الله ، بسبب معصيته وعدائه للبشر ٠ والذى بلغ من حقده بعد طرده ولعنته ، أن يأخذ من الله ــ سبحانه ــ اذنا بأن يغوى من البشر كل من لا يلجا الى حمى الله :

« ان يدعون من دونه الا اناثا ٠ وان يدعون الا شيطانا مريدا ٠ لعنه الله ٠ وقال : لاتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ٠ ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، لآلامرنهم فلنبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » ٠

انهم يدعون الشيطان ــ عدوهم القديم ــ ويستوحونه ويستمدون منه هذا الضلال ٠ ذلك الشيطان الذى لعنه الله ٠ والذى صرح بنيته فى اضلال فريق من أبناء آدم ، وتمنيتهم بالأمنيات الكاذبة فى طريق الغواية ، من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة ، ونجاة من الجزاء فى نهاية المطاف ! كما صرح بنيته فى أن يدفع بهم الى أفعال قبيحة ، وشعائر سخيفة ، من نسج الأساطير ٠ كتمزيق آذان بعض الأنعام ، ليصبح ركوبها بعد ذلك حراما ، أو أكلها حراما ــ دون أن يحرمها الله ــ ومن تغيير خلق الله وفطرته بقطع بعض أجزاء الجسد أو تغيير شكلها فى الحيوان أو الانسان ، كخصاء الرقيق ، ووشم الجلود ٠٠ وما اليها من التغيير والتشويه الذى حرمه الاسلام ٠

وشعور الانسان بأن الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذى يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير فى نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذى نصبه العـــدو • وقـد جعل الاسلام المعركة الرئيسية بين الانسان والشيطان • ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذى ينشئه فى الأرض ، والوقوف تحت راية الله وحزبه ، فى مواجهة الشيطان وحزبه : وهى معركة دائمة لا تضع أوزارها • لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التى أعلنها منذ لعنه وطرده • والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها • وهو يعلم أنه اما أن يكون وليا لله، واما أن يكون وليا للشيطان ، وليس هنالك وسط •• والشيطان يتمثل فى نفسه وما يبثه فى النفس من شهوات ونزوات ، ويتمثل فى أتباعه من المشركين وأهل الشر عامة • والمسلم يكافحه فى ذات نفسه ، كما يكافحه فى أتباعه •• معركة واحدة متصلة طوال الحياة •

ومن يجعل الله مولاة فهو ناج غانم • ومن يجعل الشيطان مولاه فهو خاسر هالك :

« ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا » ••
ويصور السياق القرآنى فعل الشيطان مع أوليائه ، فى مثل حالة الاستهواء •
« يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا » •

انهـــا حالة استهواء معينة هى التى تنحرف بالفطرة البشرية عن الايمان والتوحيد ، الى الكفـــر والشرك • ولولا هـــذا الاستهواء لمضت الفطرة فى طريقها ، ولكان الايمان هو هادى الفطرة وحاديها •

وانها حالة استهواء معينة هى التى يزين فيها الشيطان للانسان سوء عمله ، فيراه حسنا ! ويعده الكسب والسعادة فى طريق المعصية ، فيعدو معه فى الطـــــريق ! ويمنيه النجاة من عاقبة ما يعمل فيطمئن ويمضى فى طريقه الى المهلكة !

« وما يعدهم الشيطان الا غرورا » ••

وحين يرتسم المشهد على هذا النحو ، والعدو القديم يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى الا الجبلات الموكوسة المطموسة هى التى تظل سادرة لا تستيقظ ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعـــرف الى أى طريق تساق ، والى أية هوة تستهوى !

وبينما هـــذه اللمسة الموقظة تفعل فعلها فى النفوس ، وتصـــور حقيقة المعركة ، وحقيقة الموقف ، يجىء التعقيب ببيان العاقبة فى نهاية المطاف :

عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة ٠٠ وعاقبة من من يفلتون من حبالته ، لأنهم آمنوا بالله حقا ٠ والمؤمنون بالله حقا فى نجوة من هذا الشيطان لأنه ــ لعنة الله عليه ــ وهو يستأذن فى اغواء الضالين ، لم يؤذن له فى المساس بعباد الله المخلصين ٠ فهو ازاءهم ضعيف ضعيف ، كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين :

« ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ٠ يعدهم ويمنيهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا ٠ أولئك مأواهم جهنم ، ولا يجدون عنها محيصا ٠ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقا ، ومن أصدق من الله قيلا ؟» ٠٠

فهى جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان ٠٠ وهى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله ٠٠ وعد الله :

« ومن أصدق من الله قيلا » ؟

والصدق المطلق فى قول الله هنا ، يقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هنــــاك ! وشـــــتان بين من يثق بوعد الله ، ومن يثق بتغرير الشيطان !

ثم يعقب السياق بقاعدة الاسلام الكبرى فى العمل والجزاء ٠٠ ان ميزان الثواب والعقاب ليس موكولا الى الأمانى ، انه يرجع الى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى ٠ قانون تستوى أمامه الأمم ــ فليس أحد يمت الى الله سبحانه بنسب ولا صهر ــ وليس أحد تخرق له القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون ٠٠ ان صاحب السوء مجزى بالسوء ، وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ٠ ولا محاباة فى هذا ولا مماراة :

« ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ٠ من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ٠٠ ومن يعمل من الصالحات ــ من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ــ فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا ومن أحسن دينا ممن أسلم وجه لله ــ وهو محسن ــ واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » ٠

ولقد كان اليهود والنصارى يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ٠٠ وكانوا يقولون : « لن تمسنا النار الا أياما معدودة » ٠٠ وكان اليهود ولا يزالون يقولون : انهم شعب الله المختار !

ولعل بعض المسلين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس · وأن الله متجاوز عما يقع منهم ·· بما أنهم المسلمون ··

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء الى العمل ، والعمل وحده · ويرد الناس كلهم الى ميزان واحد · هو ســلام الوجه لله ــ مع الاحسان ــ واتباع مله ابراهيم وهى الاسلام · ابراهيم الذى اتخذه الله خليلا ··

فأحسن الدين هو هذا الاســلام ــ ملة ابراهيم ــ وأحسن العمل هــو « الاحسان » ·· والاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك · وقد كتب الاحسان فى كل شيء حتى فى اراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهى تذبح !

وفى النص تلك التسوية بين شقى النفس الواحدة ، فى موقفهما من العمل والجزاء ، كما أن فيه شرط الايمان لقبول العمل ، وهو الايمان بالله :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو انثى ــ وهــو مؤمن ــ فأولئك يدخلون ولا يظلمون نقيرا » ··

وهو نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة شقى النفس الواحدة ــ من ذكر أو أنثى · كما هو نص صريح فى اشتراط الايمان لقبول العمل · وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الايمان · ولا يصاحبــه الايمان · وذلك طبيعى ومنطقى · لان الايمان باللــه هو الذى يجعل العمل الصــالح يصدر عن تصور معين وقصــد معلوم ، كما يجعله حركة طبيعية مطردة ، لا استجابة لهوى شخصى ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة ··

« ومن يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » ··

فقد كانوا يعرفون طبيعة النفس البشرية ، ويعرفون أنهــا لابد أن تعمل سوءا · مهما صلحت ، ومهما عملت من حسنات ·

كانوا يعرفون النفس البشرية ــ كما هى فى حقيقتها ــ وكانوا من ثــم يعرفون أنفسهم ·· لم يخدعوا أنفسهم عن حقيقتها ، ولم يخفوا عن أنفسهم سيئاتها ، ولم يتجاهلوا ما يعتور نفوسهم من ضعف أحيانا ، ولم ينكروا أو يغطوا هــذا الضعف الذى يجدونه · ومن ثم ارتجفت نفوسهم ، وهم يواجهون بأن كل ســوء يعملونه يجزون به · ارتجفت نفوسهم كالــذى يواجــه العاقبــة فعلاويلامسها ، وهــذه كانت ميزتهم · أن يحسـوا الآخرة على

هـذا النحو ، ويعيشوا فيها فعلا بمشاعرهم كأنهم فيها . لا كأنها آتية لا ريب فيها فحسب ! ومن ثم كانت رجفتهم المزلزلة لهـذا الوعيد الاكيد !

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا اسماعيل ، عن أبى بكر بن أبى زهير ، قال : « أخبرت أن أبا بكر – رضى الله عنه – قال : « يا رسول الله ، كيف الفلاح بعد هـذه الآية ؟ « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهـل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به » .. فكل سـوء عملناه جزينا بـه .. فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « غفر الله لك يا أبا بكر . ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن » ألست تصيبك اللأواء ؟ قال بلى ! قال « فهـو مما تجزون به » ... ورواه الحـاكم عن طريق سفيان الثورى عن اسماعيل .

وروى أبو بكر بن مردويه – باسناده – الى ابن عمر ، يحدث عن أبى بكر الصديق . قال : كنت عنـد النبى – صلى الله عليه وسلم – فنزلت هذه الآية : « من يعمل سـوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليـا ولا نصيرا » فقال رسول اللـه – صلى الله عليه وسلم – : « يـا أبابكر ، ألا أقرئك آيـة نزلت على ؟ » قال : قلت يا رسـول اللـه فأقرأنيها ... فلا أعلم أنى قـد وجدت انفصاما فى ظهرى ، حتى تمطيت لها ! فقـال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « مالك يا أبا بكر ؟ » فقلت : بأبى أنت وأمى يـا رسـول اللـه ! وأينا لم يعمل السـوء ، وانـا لمجزيون بكل سـوء عملناه ! فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – . « أمـا أنت يا أبا بكر وأصحابك المؤمنون فانكم تجزون بذلك فى الدنيا ، حتى تلقوا اللـه ليس لكم ذنوب ، وأما الآخرون فيجمع ذلك لهم حتى يجزوا بـه يوم القيامة » . (وكذا رواه الترمذى) .

وروى ابن أبى حـاتم – باسناده – عن عائشـة قالت : قلت يـا رسول الله انى لاعلم أشـد آية فى القرآن . فقال « ما هى يا عائشة ؟ » قلت : « من يعمل سـوءا يجز بـه » فقال . « ما يصيب العبد المؤمن ، حتى النكبة ينكبها » . (ورواه ابن جرير) .

وروى مسلم والترمذى والنسائى من حديث سفيان بن عيينة – باسناده – عن أبى هريرة – رضى اللـه عنـه – قال : لمـا نزلت : « من يعمل سوءا يجز بـه » شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله – صـلى اللـه عليه وسلم – : « سـددوا وقاربوا فان فى كل مـا يصاب به المسلم كفارة . حتى الشوكه يشاكها والنكبة ينكبها » ..

على أية حال لقد كانت هذه حلقة في انشاء التصور الايماني الصحيح عن العمل والجزاء . ذات أهمية كبرى في استقامة التصور من ناحية ، واستقامة الواقع العملي من ناحية أخرى . ولقد هزت هذه الآية كيانهم ، ورجفت لها نفوسهم ، لأنهم كانوا يأخذون الأمر جدا . ويعرفون صدق وعد الله حقا ! . ويعيشون هذا الوعد ويعيشون الآخرة وهم بعد في الدنيا .

وفي الختام يجيء التعقيب على قضية العمل والجزاء ، وقضية الشرك قبلها والايمان ، يرد كل ما في السماوات والارض لله ، واحاطة الله بكل شيء في الحياة وما بعد الحياة :

« ولله ما في السماوات وما في الارض ، وكان الله بكل شيء محيطا » .

وافراد الله سبحانه بالالوهية يصاحبه في القرآن كثيرا افراده سبحانه بالملك والهيمنة ـ والسلطان والقهر ، فالتوحيد الاسلامي ليس مجرد توحيد ذات الله . وانما هو توحيد ايجابي . توحيد الفاعلية والتأثير في الكون ، وتوحيد السلطان والهيمنة أيضا .

ومتى شعرت النفس أن لله ما في السموات وما في الارض . وانه بكل شيء محيط ، لايند شيء عن علمه ولا عن سلطانه . كان هذا باعثها القوى الى افراد الله سبحانه بالالوهية والعبادة ، والى محاولة ارضائه باتباع منهجه وطاعة أمره .. وكل شيء ملكه . وكل شيء في قبضته . وهو بكل شيء محيط .

وبعض الفلسفات تقرر وحدانية الله . ولكن بعضها ينفي عنه الارادة . وبعضها ينفي عنه العلم . وبعضها ينفي عنه السلطان . وبعضها ينفي عنه الملك .. الى آخر هذا الركام الذي يسمى « فلسفات ! » .. ومن ثم يصبح هذا التصور سلبيا لا فاعلية له في حياة الناس ، ولا أثر له في سلوكهم وأخلاقهم ، ولا قيمة له في مشاعرهم وواقعهم .. كلام ! مجرد كلام !

ان الله في الاسلام ، له ما في السموات وما في الارض . فهو مالك كل شيء .. وهو بكل شيء محيط . فهو مهيمن على كل شيء .. وفي ظل هذا التصو يصلح الضمير . ويصلح السلوك . وتصلح الحياة .. وتصلح الحياة ..

* عقائد المشركين فى جزيرة العرب تقوم على الانحراف عن ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام ·

* لا يمكن ادراك هـــذا الانحراف العقائدى الا اذا عرفنـــا العقيدة الصحيحة ·

يقول الله تعـــالى :

« الله لا اله الا هو الحى القيوم » ··

وهذا التوحيد الخالص الناصع هو مفرق الطريق بين عقيدة المســــلم وســـائر العقائد ، سواء منها عقائد الملحدين والمشركين ، وعقائـــد أهـــل الكتاب المنحرفين : يهودا أو نصارى · على اختلاف مللهم ونحلهم جميعا · كمـــا أنه هو مفرق الطريق بين حيـــاة المسلم وحياة سائر أهل العقائد فى الأرض · فالعقيدة هنـــا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديدا كاملا دقيقا ··

« الله لا اله الا هو » ·· فلا شريك له فى الالوهية ·· « الحى » ·· الذى يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كل قيد فلا شـــبيه له فى صفته ·· « القيوم » ·· الذى به تقوم كل حيـــاة وبه يقوم كل وجود ، والذى يقوم كذلك على كل حيـــاة وعلى كل وجود · فلا قيـام لحياة فى هذا الكون ولا وجود الا به سبحانه ·

وهـــذا مفرق الطريق فى التصور والاعتقاد · ومفرق الطريق فى الحياة والسلوك ·

مفرق الطريق فى التصور والاعتقاد · بين تفرد الله ـ سبحانه ـ بصفة الالوهية وذلك الركام من التصورات الجاهلية : سواء فى ذلك تصـــورات المشركين ـ وقتها فى الجزيرة ـ وتصورات اليهود والنصارى ـ وبخاصـــة تصورات النصارى ·

ولقد حكى القرآن عن اليهود أنهم كانوا يقولون : عزير ابن الله · كما أن الانحراف الذى سجله ما يعتبره اليهود اليوم « الكتاب المقـــدس » يتضمن شيئا كهذا · كما جـاء فى سفر التكوين : الاصحاح السادس ·

فأما انحرافات التصورات المسيحية فقـــد حكى القرآن منها قولهم : ان الله ثالث ثلاثة · وقولهم : ان الله هو المسيح بن مريم · واتخاذهم المسيح

وأمــه الهين من دون الله · واتخاذهم أحبــارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ··

وقد جاء فى كتاب « الدعوة الى الاسلام » تأليف أرنولد ، شىء عن هــذه التصورات ··

« ولقد أفلح جستنيان قبل الفتح الاسلامى بمائة عــام فى أن يكسب الامبراطورية الرومانية مظهرا من مظاهر الوحدة · ولــكن سرعان ما تصدعت بعد موته ، وأصبحت فى حاجــة ماسة الى شعور قومى مشترك ، يربط بين الولايات وحاضرة الدولة · أمــا هرقل فقد بذل جهودا لم تصادف نجاحــا كاملا فى اعــادة ربط الشام بالحكومة المركزية · ولــكن ما اتخذه من وسائل عامة فى سبيل التوفيق قــد أدى لســوء الحظ الى زيادة الانقسام بدلا من القضاء عليه · ولم يكن ثمة ما يقوم مقــام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية · فحاول بتفسيره العقيدة تفسيرا يستعين به على تهدئة النفوس أن يقف ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتنــاحرة من خصومات ، وأن يوحــد بين الخارجين على الدين وبين الكنيســة الارثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية ·· وكان مجمع خلقيدونية قــد أعلن فى سنة ٤٥١ ميلادية أن المسيح ينبغى أن يعترف بأنه يتمثل فى طبيعتين لا اختلاط بينهما ، ولا تغير ، ولا تجزؤ ، ولا انفصال ، ولا يمكن أن ينتفى خلافهما بسبب اتحادهما · بل الاحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها ، وتجتمع فى أقنوم واحد ، وجسد واحد · لا كمــا لو كانت متجزئة أو منفصلة فى أقنومين · بل متجمعة فى أقنوم واحد هو ذلك الابن والله والكلمة ·· وقــد رفض اليعاقبة هــذا المجمع ، وكانوا لا يعترفون فى المسيح الا بطبيعــة واحدة · وقالوا : انه مركب الاقانيم · له كل الصفات الالهيــة والبشرية · ولكن المــادة التى تحمل هــذه الصفات لم تعد ثنائية ·· بل أصبحت وحدة مركبــة الاقانيم ·· وكان الجدل قــد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الارثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجــه خاص فى مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطــاق الامبراطورية البيزنطية ، فى الوقت الــذى سعى فيــه هرقل فى اصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة · ففى الوقت الــذى نجد فيه هــذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين ، اذا به يتمسك بوحدة الاقنوم فى حياة المسيح البشرية · وذلك بانكاره وجود نوعين من الحياة فى أقنوم واحــد · فالمسيح الواحد ، الذى هو ابن الله ، يحقق الجانب الانسانى والجانب الالهى بقوة الهية انســانية واحــدة · ومعنى هــذا أنه لا يوجــد ســوى ارادة واحــدة فى الكلمــة المتجسدة ·· لكن هرقل قد لقى المصير الذى انتهى اليه كثيرون جــدا ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام · ذلك بأن الجدل لم يحتدم مرة أخرى

كأعنف ما يكون فحسب ، بل ان هرقل نفســـه قد وصم بالالحاد ، وجـــر على نفسه سخط الطائفتين على السواء » (١) •

كذلك يقول باحث مسيحى آخر هو « كانون تايلور » عن الحالة بين نصـــارى الشرق عند البعثة المحمدية : « وكان الناس فى الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسيين والملائكة (٢) » •

أما انحرافات عقائد المشركين فقـــد حكى القرآن عنها : عبادتهم للجن والملائكة والشمس والقمر والاصنام • وكان أقـــل عقائدهم انحرافا عقيدة من يقولون عن هذه الآلهة : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » !

فأما هـــذا الركام من التصورات الفاسدة التى أشرنا اليها هـــذه الاشارات الخاطفة جاء الاسلام فى هذه السورة ـ ليعلنها ناصعة واضـــحة صريحة حاسمة :

« الله لا اله الا هو الحى القيوم » •

فكانت مفرق الطريق فى التصور والاعتقاد •• كذلك كانت مفرق الطريق فى الحياة والسلوك ••

ان الذى يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الذى لا اله الا هو • الحى الواحد الذى لا حى غيره • القيوم الواحد الذى بـه تقوم كل حيـــاة أخرى وكل وجود ، كما أنه هو الذى يقوم على كل حى وكل موجود •

ان الذى يمتلىء شعوره بوجود الله الواحد الذى هـذه صفته ، لا بد أن يختلف منهج حيـــاته ونظامها من الاساس عن الذى تغيم فى حســـه تلك التصورات التائهة المهوشة • فلا يجد فى ضميره أثرا لحقيقة الالوهية الفاعلة المتصرفة فى حياته !

انه مع التوحيد الواضح الخالص لا مكان لعبودية الا لله • ولا مكـــان للاســـتمداد والتلقى الا من اللـــه • لا فى شريعة أو نظام ، ولا فى أدب أو خلق • ولا فى اقتصـــاد أو اجتماع • ولا مكان كذلك للتوجـــه لغير اللـــه فى شـــأن من شؤون الحياة ومـــا بعد الحياة •• أمـــا فى تلك التصورات

---

(١) ترجمة حسن ابراهيم وزميله ص ٥٢ ـ ٥٣ •
(٢) المصدر نفسه ص ٦٧

الزائغة المنحرفة المهزوزة الغامضة فلا متجه ولا قرار ، ولا حدود لحرام أو حلال ، ولا لخطأ أو صواب : فى شرع أو نظام ، فى أدب أو خلق ، وفى معاملة أو سلوك .. فكلها .. كلها .. انما تتحدد وتتضح عندما تتحدد الجهة التى منها التلقى ، واليها التوجه ، ولها الطاعة والعبودية والاستسلام ..

ومن ثم كانت هذه المواجهة بذلك الحسم فى مفرق الطريق :

« الله لا اله الاهو الحى القيوم » ..

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الاسلامية ــ لا لطبيعة الاعتقاد وحده ــ فالحياة الاسلامية بكل مقوماتها انما تنبثق انبثاقا من حقيقة هذا التصور الاسلامى عن التوحيد الخالص الجازم . التوحيد الذى لا يستقيم عقيدة فى الضمير ما لم تتبعه آثاره العملية فى الحياة . من تلقى الشريعة والتوحيد من الله فى كل شأن من شئون الحياة . والتوجه كذلك الى الله فى كل نشاط وكل اتجاه .

وعقب هذا الايضاح الحاسم فى مفرق الطريق ، باعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته ، يجىء الحديث عن وحدانية الجهة التى تتنزل منها الاديان والكتب والرسالات . أى التى يتنزل منها المنهج الذى يصرف حياة البشر فى جميع الاجيال .

« نزل عليك الكتاب بالحق ــ مصدقا لما بين يديه ــ وأنزل التوراة والانجيل من قبل ــ هدى للناس ــ وأنزل الفرقان . ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد . والله عزيز ذو انتقام » .

وتتضمن هذه الآية فى شطرها الاول جملة حقائق أساسية فى التصور الاعتقادى ، وفى الرد كذلك على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحة ما جاء به من عند الله .

فهى تقرر وحدة الجهة التى تتنزل منها الكتب على الرسل . فالله الذى لا اله الا هو الحى القيوم ، هو الذى نزل هذا القرآن ــ عليك ــ كما أنه أنزل التوراة على موسى والانجيل على عيسى من قبل . واذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية . انما هناك اله واحد ينزل الكتب على المختارين من عباده . وهناك عبيد يتلقون . وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين .

وهى تقرر وحدة الدين ووحدة الحق الذى تتضمنه الكتب المنزلة من عند الله • فهذا الكتاب نزله ـ عليك ـ « بالحق » •• « مصدقا لما بين يديه » •• من التوراة والانجيل •• وكلها تستهدف غاية واحدة : «هدى للناس » •• وهذا الكتاب الجديد « فرقان » بين الحق الذى تضمنته الكتب المنزله ، والانحرافات والشبهات التى لحقت بها بفعل الاهواء والتيارات الفكرية والسياسية (التى رأينا نموذجا منها فيما نقلناه عن الكاتب المسيحى سيرت • و • أرنولد فى كتاب « الدعوة الى الاسلام ») •

وهى تقرر ـ ضمنا ـ أنه لا وجه لتكذيب أهل الكتاب للرسالة الجديدة • فهى سائرة على نمط الرسالات قبلها • وكتابها نزل بالحق كالكتب المنزلة • ونزل على رسول من البشر كما نزلت الكتب على رسل من البشر • وهو مصدق لما بين يديه من كتب الله ، يضم جناحيه على « الحق » الذى تضم جوانحها عليه • وقد نزله من يملك تنزيل الكتب •• فهو منزل من الجهة التى لها « الحق » فى وضع منهاج الحياة للبشر ، وبناء تصوراتهم الاعتقادية ، وشرائعهم وأخلاقهم وآدابهم فى الكتاب الذى ينزله على رسوله •

ثم تتضمن الآية فى شطرها الثانى التهديد الرعيب للذين كفروا بآيات الله ، وتلوح لهم بعزة الله وقوته وشدة عذابه وانتقامه •• والذين كفروا بآيات الله هم الذين كذبوا بهذا الدين الواحدباطلاقه •• وأهل الكتاب الذين انحرفوا عن كتاب الله الصحيح المنزل اليهم من قبل ، فقادهم هذا الانحراف الى التكذيب بالكتاب الجديد ـ وهو فرقان واضح مبين ـ هم أول المعنيين هنا بصفة الكفر ، وهم أول من يتوجه اليهم التهديد الرعيب بعذاب الله الشديد وانتقامه الاكيد ••

وفى صدد التهديد بالعذاب والانتقام يؤكد لهم علم الله الذى لايند عنه شىء ، فلا خفاء عليه ولا افلات منه :

« ان الله لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء » ••

وتوكيد العلم المطلق الذى لا يخفى عليه شىء ، واثبات هذه الصفة لله ـ سبحانه ـ فى هذا المقام •• هذا التوكيد يتفق أولا مع وحدانية الالوهية والقوامة التى افتتح بها السياق • كما يتفق مع التهديد الرعيب فى الآية السابقة •• فلن يفلت « شىء » من علم الله « فى الارض ولا فى السماء » بهذا الشمول والاطلاق • ولن يمكن اذن ستر النوايا عليه ، ولا اخفاء الكيد عنه • ولن يمكن كذلك التفلت من الجزاء الدقيق ، ولا التهرب من العلم اللطيف العميق •

وفى ظلال العلم اللطيف الشامل الذى لا يخفى عليـــه شىء فى الارض ولا فى السماء يلمس المشاعر الانسانية لمســـة رفيقة عميقة ، تتعلق بالنشأة الانسانية • النشـأة المجهولة فى ظلام الغيب وظلام الارحام ، حيث لا علـم للانسان ولا قدرة ولا ادراك :

« هــو الذى يصوركم فى الارحام كيف يشاء • لا اله الا هــو العزيز الحكيم » •••

هكذا « يصوركم » ••• يمنحكم الصورة التى يشاء ، ويمنحكم الخصائص المميزة لهـــذه الصورة • وهو وحـده الذى يتولى التصوير ، بمحض ارادته ومطلق مشيئته : « كيف يشاء » •• « لا اله الا هو » •• « العزيز » •• ذو القدرة والقوة على الصنع والتصوير « الحكيم » •• الذى يدبر الأمر بحكمته فيما يصور ويخلق بلا معقب ولا شريك •

وفى هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى فى عيسى عليه الســـلام ونشأته ومولده • فاللــــه هو الذى صور عيسى •• « كيف يشاء » •• لا أن عيسى هو الرب • أو هوالله • أو هو الابن • أو هـــو الاقنوم اللاهـــوتى الناسوتى • الى آخر مـــا انتهت اليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبـة لفكرة التوحيد الناصعة الواضحة اليسيرة التصور القريبة الادراك !

بعدئذ يكشف الذين فى قلوبهم زيغ ، الذين يتركون الحقائق القاطعـة فى آيات القرآن المحكمة ، ويتبعون النصوص التى تحتمل التأويل ، ليصوغوا حولها الشبهات ، ويصور سمات المؤمنين حقـــا وايمانهم الخالص وتسليمهم لله فى كل ما يأتيهم من عنده بلا جدال :

« هــو الذى أنزل عليــك الكتاب • منــه آيات محكمات هن أم الكتاب • وأخر متشابهات • فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشـــابه منــه ابتغـاء الفتنة وابتغـاء تأويله • ومـا يعلم تأويله الا اللــه • والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به • كل من عند ربنا ــ وما يذكر الا أولو الالباب ــ ربنـا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة • انك أنت الوهاب • ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه • ان الله لا يخلف الميعاد »••

وقــد روى أن نصارى نجران قالوا للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألست تقول عن المسيح : انه كلمة اللــــه وروحه ؟ يريدون أن يتخذوا من هـــذا التعبير أداة لتثبيت معتقداتهم عن عيسى ــ عليه السلام ــ وأنه ليس

من البشر ، انما هـــو روح الله ــ على ما يفهمون هم من هـذا التعبير ــ بينما هم يتركون الآيات القاطعة المحكمة التى تقرر وحدانية الله المطلقة ، وتنفى عنـــه الشريك والولد فى كل صورة من الصور ٠٠ فنزلت فيهم هـذه الآية ، تكشف محاولتهم هـــــذه فى استغلال النصوص المجازية المصورة ، وترك النصوص التجريدية القاطعة ٠

على أن نص الآية أعم من هـــــذه المناسبة ، فهى تصور موقف الناس على اختلافهم من هـذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ متضمنا حقائق التصور الايمانى ، ومنهـــاج الحيـاة الاسلامية ، ومتضمنا كذلك أمورا غيبية لا سبيل للعقل البشرى ان يدركها بوســائله الخاصة ، ولا مجال له لأن يدرك منها أكثر مما تعطيه النصوص بذاتها ٠

فأما الاصول الدقيقة للعقيدة والشريعة فهى مفهومة المدلولات قاطعـــة الدلالة ، مدركة المقاصد ــ وهى أصـــل هـذا الكتاب ــ وأمـا السمعيات والغيبيات ــ ومنها نشـأة عيسى عليه السلام ومولده ــ فقـد جاءت للوقوف عند مدلولاتها القريبة والتصديق بهـــا لأنها صادرة من هـذا المصدر « الحق » ويصعب ادراك ماهياتها وكيفياتها ، لأنهـــا بطبيعتها فوق وسائـل الادراك الانسانى المحدود ٠

وهنـا يختلف الناس ــ حسب استقامة فطرتهم أو زيغها ــ فى استقبال هـــذه الآيات وتلك ٠ فأما الـذين فى قلوبهم زيغ وانحراف وضـــلال عن ســواء الفطرة ، فيتركون الاصول الواضحة الدقيقة التى تقوم عليها العقيدة والشريعة والمنهاج العملى للحياة ، ويجرون وراء المتشـــابه الذى يعول فى تصديقه على الايمان بصدق مصدره ، والتسليم بأنه هــو الذى يعلم « الحق » كله ، بينما الادراك البشرى نسى محدود المجال ٠ كما يعول فيـــه على استقامة الفطرة التى تدرك بالالهام المباشر صـــدق هـــذا الكتاب كله ، وانه نزل بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠٠ ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالا لايقـــاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر ، نتيجة اقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ٠٠ « ومـا يعلم تأويله الا الله » ٠٠

وأما الراسخون فى العلم ، الذين بلغ من علمهم أن يعرفوا مجـــال العقل وطبيعة التفكير البشرى ، وحدود المجال الذى يملك العمل فيـــه بوسائله الممنوحة له ٠٠ أمـــا هؤلاء فيقولون فى طمأنينة وثقة :

« آمنا به ، كل من عند ربنا » ٠٠

يدفعهم الى هـــذه الطمأنينة ، انه من عند ربهم فهو اذن حق وصـــدق. ومـــا يقرره اللـــه صادق بذاته . وليس من وظيفة العقـــل البشرى ولا فى طوقه أن يبحث عن أسبابه وعلله ، كما أنه ليس فى طوقه أن يدرك ماهيته وطبيعة العلل الكامنة وراءه .

والراسخون فى العلم يطمئنون ابتداء الى صـــدق ما يأتيهم من عند الله - يطمئنون اليـــه بفطرتهم الصادقة الواصلة .. ثم لا يجدون من عقولهم شكا فيـــه كذلك ، لأنهم يدركون أن من العلم ألا يخوض العقل فيما لا مجـــال فيه للعلم ، وفيما لا تؤهله وسائله وأدواته الانسانية لعلمه ..

وهذا تصوير صحيح للراسخين فى العلم .. فمـــا يتبجح وينكر الا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم .. فيتوهمون أنهم أدركوا كل شيء ، وأن مـــا لم يدركوه لا وجود له ، أو يفرضون ادراكهم على الحقائق ، فـــلا يسمحون لها بالوجود الا على الصورة التى أدركوها . ومن ثم يقابلون كلام اللـــه المطلق بمقررات عقلية لهم ! صاغتها عقولهم المحدودة ! أمـــا العلماء حقـــا فهم أكثر تواضعا ، وأقرب الى التسليم بعجز العقل البشرى عن ادراك حقائق كثيرة تكبر طاقته وترتفع عليها . كمـــا أنهم أصـــدق فطرة فما تلبث فطرتهم الصادقة أن تتصـــل بالحق وتطمئن اليه .

« وما يذكر الا أولو الالباب » ..

وكأنه ليس بين أولى الالباب وادراك الحق الا أن يتذكروا .. فاذا الحق المستقر فى فطرتهم الموصولة بالله ، ينبض ويبرز ويتقرر فى الالباب .

عندئذ تنطلق ألسنتهم فى دعاء خاشع وفى ابتهال منيب : أن يثبتهم على الحق ، وألا يزيغ قلوبهم بعد الهدى ، وأن يسبغ عليهم رحمته وفضله .. ويتذكرون يوم الجمع الذى لا ريب فيه ، والميعاد الذى لا خلف له :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا . وهب لنـــا من لدنك رحمـــة . انك أنت الوهاب .. ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه . ان اللـــه لا يخلف الميعاد » ..

هـــذا هو حال الراسخين فى العلم مع ربهم ، وهـــو الحال اللائق بالايمان ، المنبثق من الطمأنينة لقول اللـــه ووعده ، والثقة بكلمته وعهده ، والمعرفة برحمته وفضله ، والاشفاق مع هـــذا من قضائه المحكم وقدره المغيب ، والتقوى والحساسية واليقظة التى يفرضها الايمان على قلوب أهله ، فـــلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى فى ليل أو نهار ..

والقلب المؤمن يدرك قيمة الاهتداء بعد الضلال · قيمة الرؤية الواضحة بعد الغبش · قيمة الاستقامة على الدرب بعد الحيرة · قيمة الطمأنينه للحق بعد الارجحة · قيمة التحرر من العبودية للعبيد بالعبوديه للـه وحده · فيمه الاهتمامات الرفيعة الكبيرة بعد اللهو بالاهتمامات الصغيرة الحقيرة ·· ويدرك أن الله منحه بالايمان كل هـــذا الزاد ·· ومن ثم يشفق من العـــودة الى الضلال ، كما يشفق الســـائر فى الدرب المستقيم المنير أن يعود الى التخبط فى المنعرجات المظلمة · وكما يشفق من ذاق نـدواة الظلال أن يعود الى الهجير القائظ والشواظ ! وفى بشـــاشة الايمان حلاوة لا يدركها الا من ذاق جفاف الالحاد وشقاوته المريرة · وفى طمأنينة الايمان حلاوة لا يدركها الا من ذاق شقوة الشرود والضلال !

ومن ثم يتجه المؤمنون الى ربهم بذلك الدعاء الخاشع :

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا » ··

وينادون رحمة الله التى أدركتهم مرة بالهدى بعد الضلال ، ووهبهم هـــذا العطاء الذى لا يعد له عطاء :

« وهب لنا من لدنك رحمة · انك أنت الوهاب » ··

وهم بوحى ايمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شىء الا بفضل اللـــه ورحمته · وأنهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله ·· فيتجهون اليـــه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة ·

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كثيرا ما يدعو : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قلت : يا رسول الله ،مـــا أكثر ما تدعو بهـذا الدعاء · فقال : « ليس من قلب الا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن · اذا شـــاء أن يقيمه أقامـه ، وان شاء أن يزيغه ازاغه » ··

ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هـــذا النحو لم يكن أمامه الا أن يلتصق بركن الله فى حرارة · وأن يتشبث بحماه فى اصرار ، وأن يتجه اليـــه يناشده رحمته وفضـله ، لاستبقاء الكنز الذى وهبـــه . والعطاء الذى أولاه !

* « لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم · وقال المسيح : يا بنى اسرائيل اعبدو االله ربى وربكم · انه من يشرك باللـــه فقد حرم الله

عنيه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ٠٠ لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة ٠ ومـــا من اله الا اله واحد ٠ وان لم ينتهوا عمـــا يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ٠ أفلا يتوبون الى اللـــه ويستغفرونه ؟ والله غفور رحيم ٠ ما المسيح ابن مريم الا رســـــول قـــد خلت من قبلـــه الرسل ، وأمـــه صديقة كانا يأكلان الطعام ٠ انظر كيف نبين لهم الأيات . ثم انظر أنى يؤفكون ٠ قـــل : أتعبدون من دون الله مـــا لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ؟ والله هـــو السميع العليم ؟ قل : يـــا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قـــد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيرا ، وضلوا عن سواء السبيل » ٠٠

ولقـــد سبق أن بينا ــ باختصار ــ كيف ومتى تسربت هـــذه المقولات المنحرفة من المجامع الى العقيدة النصرانية التى جـــاء بهـــا عيسى عليه السلام رسولا من عند الله ، كاخوانه الرســــل ، الذين جاءوا بكلمة التوحيـــد خالصة ، لا يشوبها ظـــــل من الشرك ، لأن الرسالات كلها ، جـــاءت لتقرير كلمة التوحيد فى الارض وابطال كلمة الشرك ٠

فالآن نذكر ــ باختصار ــ كذلك ــ ما انتهت اليـــه تلك المجامع من الاتفاق على التثليث وألوهية المسيح والخلاف فيما بينها بعد ذلك ، على النحو الذى أسلفناه ٠٠

« جـــاء فى كتاب « سوسنة سليمان » لنوفل بن نعمة الله بن جرجس النصرانى : ان عقيدة النصارى التى لا تختلف بالنسبة لهـــا الكنائس ، وهى أصـــــل الدستور الذى بينه المجمع النيقـــاوى هى الايمان باله واحد : آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى٠ وبرب واحد يسوع ، الابن الوحيد المولود من الآب قبل الدهور من نور الله٠ اله حق من اله حق ٠ مولود غيرمخلوق ، مساو للاب فى الجوهر ، الـــذى به كان كل شىء ، والذى من أجلنـــــا نحن البشر ، ومن أجـــل خطايانا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العـــذراء تأنس ، وصلب عنـــا على عهـــد بيلاطس ٠ وتألم وقبر ، وقام من الاموات فى اليوم الثالث على ما فى الكتب ، وصعـــد الى السمـــاء وجلس على يمين الرب ٠ وسيـــأتى بمجد ليدين الاحياء والاموات ، ولا فناء لملكه ٠ والايمان بالروح القـــدس ، الرب المحيى المنبثق من الآب ٠ الذى هو مع الابن يسجد له ، ويمجده ، الناطق بالانبياء » ٠

« وقال الدكتور « بوست » فى تاريخ الكتاب المقدس : طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية ٠ اللـــه الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ٠

فالى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن • والى الابن الفـــداء • والى الروح القدس التطهير » •

ونظرا لصعوبة تصور الاقانيم الثلاثة فى واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث ، فان الكتاب النصارى عن اللاهوت حاولوا تأجيل النظر العقلى فى هذه القضية ، التى يرفضها العقـــل ابتداء • ومن ذلك مـا كتبه القس « بوطر » فى رسالة « الاصول والفروع » حيث يقول : « قـد فهمنا ذلك على قـــدر طاقة عقولنا • ونرجو ان نفهمه فهما أكثر جـــلاء فى المستقبل حين يكشف لنـــا الحجاب عن كل ما فى السماوات وما فى الارض • وأمـــا فى الوقت الحاضر ففى القدر الذى فهمناه كفاية » •

والله ـ سبحانه ـ يقول : ان هـــذه المقولات كلها كفر • وهى تتضمن ـ كما رأينا ـ القول بألوهية المسيح عليه السلام ، والقول بأن الله ثالث ثلاثة •• وليس بعـد قول الله ـ سبحانه ـ قول • والله يقول الحق وهو يهدى السبيل :

« لقد كفر الذين قالوا : ان الله هو المسيح ابن مريم • وقال المسيح : يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم • انه من يشرك بالله فقـــد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار » •

وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه ، وما أنذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاء الى النار •• ونسوا قول المسيح ـ عليه السلام •

* « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم • ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن منـــكر فعلوه • لبئس ما كانوا يفعلون ! ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا • لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون • ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء • ولكن كثيرا منهم فاسقون » ••

وهكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا بعد وفاته عنهم وأن أنبياءهم الذين أرسلوا لهدايتهم وانقاذهم ، هم فى النهاية الذين تولوا لعنتهم وطردهم من هداية الله ، فسمع الله دعاءهم وكتب السخط واللعنة على بنى اسرائيل •

والذين كفروا من بنى اسرائيل هم الذين حرفوا كتبهم المنزلة ، وهـم

الذين لم يتحاكموا الى شريعة الله ـ كما مر فى المواضع القرآنية المتعددة فى هذه السورة وفى السور غيرها ـ وهم الذين نقضوا عهد الله معهم لينصرن كل رسول ويعززونه ويتبعونه :

((ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)) ..

فهى المعصية والاعتداء ، يتمثلان فى كل صورهما الاعتقادية والسلوكية على السواء . وقد حفل تاريخ بنى اسرائيل بالمعصية والاعتداء .. كما فصل الله فى كتابه الكريم .

ولم تكن المعصية والاعتداء أعمالا فردية فى مجتمع بنى اسرائيل . ولكنها انتهت الى أن تصبح طابع الجماعة كلها ، وأن يسكت عنها المجتمع . ولا يقابلها بالتناهى والنكير :

((كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون !)) ..

ان العصيان والعدوان قد يقعان فى كل مجتمع من الشريرين المفسدين المنحرفين . فالأرض لا تخلو من الشر ، والمجتمع لا يخلو من الشذوذ ، ولكن طبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يصبحا عرفا مصطلحا عليه ، وأن يصبحا سهلا يجترىء عليه كل من يهم به .. وعندما يصبح فعل الشر أصعب من فعل الخير فى مجتمع من المجتمعات ، ويصبح الجزاء على الشر رادعا وجماعيا تقف الجماعة كلها دونه ، وتوقع العقوبة الرادعة عليه .. عندئذ ينزوى الشر ، وتنحسر دوافعه . وعندئذ يتماسك المجتمع فلا تنحل عراه . وعندئذ ينحصر الفساد فى أفراد أو مجموعات يطاردها المجتمع ، ولا يسمح لها بالسيطرة ، وعندئذ لا تشيع الفاحشة . ولا تصبح هى الطابع العام !

والمنهج الاسلامى ـ بعرضه لهذه الظاهرة فى المجتمع الاسرائيلى ـ فى صورة الكراهية والتنديد . يريد للجماعة المسلمة أن يكون لها كيان حى متجمع صلب ، يدفع كل بادرة من بوادر العدوان والمعصية ، قبل أن تصبح ظاهرة عامة ، ويريد للمجتمع الاسلامى أن يكون صلبا فى الحق ، وحساسا تجاه الاعتداء عليه ، ويريد للقائمين على الدين أن يؤدوا أمانتهم التى استحفظوا عليها ، فيقفوا فى وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء .. ولا يخافوا لومة لائم ، سواء جاء هذا الشر من الحكام المتسلطين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلطين بالمال ، أو الأشرار المتسلطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلطة بالهوى . فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواء .

والاسلام يشدد فى الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامة بما

يقع فيها من شر اذا هى سكتت عليه ، ويجعل الأمانة فى عنق كل فرد ، بعد أن يضعها فى عنق الجماعة عامة ·

روى الامام أحمد ــ باسناده ــ عن عبد الله بن مسعود ، قال : قــال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم · فضرب الله بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ··· (ذلك بمــا عصوا وكانوا يعتدون)) · وكان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ متكئــا فجلس ، فقال : ((ولا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا)) ·

وروى أبو داود ــ باسناده ــ عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ((ان أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فانه لا يحل لك · ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده · فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض)) ، ثم قال : ((لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم)) ــ الى قوله : ((فاسقون)) ثم قال · « كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخــذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ــ أو تقصرنه على الحق قصرا ــ »

فليس هو مجرد الأمر والنهى ، ثم تنتهى المسألة ، انما هو الاصرار ، والمقاطعة ، والكف بالقوة عن الشر والفساد والمعصية والاعتداء ·

وروى مسلم ــ باسناده ــ عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ·· وذلك أضعف الايمان)) ·

وروى الامام أحمد ــ باسناده ــ عن عدى بن عميرة قال ــ سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : ((ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ــ وهم قادرون على أن ينكروه ــ فلا ينكرونه فاذا فعلوا عذب الله العامة والخاصة)) ·

وروى أبو داود والترمذى ــ باسناده ــ عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : ((أفضل الجهاد كلمة حق عند امام جائر)) ··

وتتوارد النصوص القرآنية والنبوية تترى فى هذا المعنى ، لأن هــذا التماسك فى كيان الجماعة بحيث لا يقول أحد فيها ــ وهو يرى المنكر يقع من

غيره — : وأنا مالى ؟! وهذه الحمية ضد الفساد فى المجتمع ، بحيث لا يقبـول أحد — وهو يرى الفساد يسرى ويشيع — وماذا أصنع والتعرض للفساد يلحق بى الأذى ؟! وهذه الغيرة على حرمات الله ، والشعور بالتكليف المباشر بصيانتها والدفع عنها للنجاة من الله .. هذا كله هو قوام الجماعة المسلمة الذى لا قيـام لها الا به ..

وهذا كله فى حاجة الى الايمان الصحيح بالله ، ومعرفة تكاليف هـذا الايمان . والى الادراك الصحيح لمنهج الله ، ومعرفة أنه يشمل كل جـوانب الحياة . والى الجد فى أخذ العقيدة بقوة ، والجهد لاقامة المنهج الذى ينبثق منها فى حياة المجتمع كله .. فالمجتمع المسلم الذى يستمد قانونه من شريعة الله ، ويقيم حياته كلها على منهجه ، هو المجتمع الذى يسمح للمسلم أن يزاول حقيقة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بحيث لا يصبح هذا عملا فرديا ضائعا فى الخضم ، أو يجعله غير ممكن أصلا فى كثير من الأحيان ! كما هو الحال فى المجتمعات الجاهلية القائمة اليوم فى أرجاء الارض ، والتى تقيم حياتها على تقاليد ومصطلحات اجتماعية تسترذل تدخل أحد فى شأن أحد ، وتعتبر الفسق والفجور والمعصية ((مسائل شخصية)) ! ليس لأحد أن يتدخل فى شأنها .. كما تجعل من الظلم والبطش والاعتداء والجور سيفا مصلتا من الارهاب يلجم الأفواه ، ويعقد الالسنة ، وينكل بمن يقول كلمة حق أو معروف فى وجـه الطغيان ..

ان الجهد الأصيل ، والتضحيات النبيلة يجب أن تتجه أولا الى اقامـة المجتمع الخير .. والمجتمع الخير هو الذى يقوم على منهج الله .. قبـل أن ينصرف الجهد والبذل والتضحية الى اصلاحيات جزئية ، شخصية وفردية ، عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

انه لا جدوى من المحاولات الجزئية حين يفسد المجتمع كله ، وحين تطغى الجاهلية ، وحين يقوم المجتمع على غير منهج الله ، وحين يتخذ له شريعة غيـر شريعة الله . فينبغى عندئذ أن تبدأ المحاولة من الأساس ، وأن تنبت مـن الجذور ، وأن يكون الجهد والجهاد لتقرير سلطان الله فى الأرض .. وحـين يستقر هذا السلطان يصبح الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئا يرتكن الى أساس .

وهذا يحتاج الى ايمان . والى ادراك لحقيقة هذا الايمان ومجاله فى نظام الحياة . فالايمان على هذا المستوى هو الذى يجعل الاعتماد كله عـلى الله ، والثقة كلها بنصرته للخير — مهما طال الطريق — واحتساب الاجـر عنده ،

فلا ينتظر من ينهض لهذه المهمة جزاء في هذه الارض ، ولا تقديرا من المجتمع الضال ، ولا بصيرة من اهل الجاهلية في أي مكان !

ان كل النصوص القرآنية والنبوية التي ورد فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت تتحدث عن واجب المسلم في مجتمع مسلم . مجتمع يعترف ابتداء بسلطان الله ، ويتحاكم الى شريعته ، مهما وجد فيه من طغيان الحكم ، في بعض الاحيان ، ومن شيوع الاثم في بعض الاحيان .. ونحن نجد في قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : ((افضل الجهاد كلمة حق عند امام جائر)) .. فهو « امام » ، ولا يكون اماما حتى يعترف ابتداء بسلطان الله ، وبتحكيم شريعته . فالذي لا يحكم شريعة الله لا يقال له : ((امام)) انما يقول عنه الله - سبحانه - « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون » ..

فأما المجتمعات الجاهلية التي لا تتحاكم الى شريعة الله ، فالمنكر الاكبر فيها والاهم ، هو المنكر الذي تنبع منه كل المنكرات .. هو رفض الوهية الله برفض شريعته للحياة .. وهذا المنكر الكبير الاساسي الجذري هو الذي يجب أن يتجه اليه الانكار ، قبل الدخول في المنكرات الجزئية ، التي هي نبع لهـذا المنكر الاكبر ، وفرع عنه ، وعرض له ..

أنه لا جدوى من ضياع الجهد .. جهد الخيرين الصالحين من الناس .. في مقاومة المنكرات الجزئية ، الناشئة بطبيعتها من المنكر الاول .. منكر الجرأة على الله وادعاء خصائص الالوهية ، ورفض الوهية الله ، برفض شريعته للحياة .. لا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة منكرات هي مقتضيات ذلك المنكر الأول وثمراته النكدة بلا جدال ..

على أنه الام نحاكم الناس في أمر ما يرتكبونه من منكرات ؟ بأي ميـزان نزن أعمالهم لنقول لهم : ان هذا منكر فاجتنبوه ؟ أنت تقول : ان هذا مُنكر . فيطلع عليك عشرة من هنا ومن هناك يقولون لك : كلا ! ليس هذا منكرا . لقد كان منكرا في الزمان الخالي ! والدنيا ((تتطور)) ، والمجتمع « يتقدم » وتختلف الاعتبارات !

فلا بد اذن من ميزان ثابت نرجع اليه بالأعمال ، ولا بد من قيم معترف بها نقيس اليها المعروف والمنكر . فمن أين نستمد هذه القيم ؟ ومن أين نأتي بهذا الميزان ؟

من تقديرات الناس وعرفهم وأهوائهم وشهواتهم - وهي متقلبة لا تثبت على حال ؟ اننا ننتهي اذن الى متاهة لا دليل فيها ، والى خضم لا معالم فيه !

فلا بد إبتداء من اقامة الميزان .. ولا بد أن يكون هذا الميزان ثابتا لا يتأرجح مع الأهواء ..

هذا الميزان الثابت هو ميزان الله ..

فماذا اذا كان المجتمع لا يعترف – ابتداء – بسلطان الله ؟ ماذا اذا كان لا يتحاكم الى شريعة الله ؟ بل ماذا اذا كان يسخر ويهزأ ويستنكر وينكل بمن يدعوه إلى منهج الله ؟

ألا يكون جهدا ضائعا ، وعبثا هازلا ، ان تقوم في مثل هذا المجتمع لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . في جزئيات وجانبيات من شئون الحياة ، تختلف عليها الموازين والقيم ، وتتعارض فيها الآراء والأهواء ؟!

انه لا بد من الاتفاق مبدئيا على حكم ، وعلى ميزان ، وعلى سلطان ، وعلى جهة يرجع اليها المختلفون فى الآراء والأهواء ..

لا بد من الأمر بالمعروف الأكبر وهو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة . والنهى عن المنكر الأكبر وهو رفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة .. وبعد اقامة الأساس يمكن أن يقام البنيان ! فلتوفر الجهود المبعثرة اذن ، ولتحشد كلها فى جبهة واحدة ، لاقامـــة الأساس الذى عليه وحده يقـــام البنيان !.

وان الانسان ليرثى أحيانا ويعجب لأناس طيبين ، ينفقون جهدهم فى ((الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الفروع ، بينما الاصل الذى تقـــوم عليه حياة المجتمع المسلم ، ويقوم عليه الامر بالمعروف والنهى عـــن المنـــكر ، مقطوع)) !

فما غناء أن تنهى الناس عن أكل الحرام مثلا فى مجتمع يقوم اقتصـــاده كله على الربا ، فيستحيل ماله كله حراما ؛ ولا يملك فرد فيه أن يأكل من حلال .. لان نظامه الاجتماعى والاقتصادى كله لا يقوم على شريعة الله ، لأنه ابتــداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن الفسق مثلا فى مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمة – الا فى حالة الاكراه – ولا يعاقب حتى فى حالة الاكراه بشريعة الله .. لأنه ابتداء يرفض ألوهية الله برفض شريعته للحياة ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن السكر فى مجتمع قانونه يبيح تداول وشرب

الخمر ، ولا يعاقب الا على حالة السكر البين في الطريق العام · وحتى هـذه لا يعاقب فيها بحد الله · لأنه لا يعترف ابتداء بحاكمية الله ؟!

وما غناء أن تنهى الناس عن سب الدين ، في مجتمع لا يعترف بسلطان الله ، ولا يعبد فيه الله · انما هو يتخذ أربابا من دونه ، ينزلون له شريعتـه وقانونه ، ونظامه وأوضاعه ، وقيمه وموازينه · والساب والمسبوب كلاهمـا ليس في دين الله · انما هما واهل مجتمعهما طرا في دين من ينزلون لهـم الشرائع والقوانين ، ويضعون لهم القيم والموازين ؟!

ما غناء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مثل هذه الأحوال ؟ ما غنـاء النهي عن هذه الكبائر ـ فضلا عن أن يكون النهي عن الصـغائر ـ والكبيرة الكبرى لا نهي عنها ·· كبيرة الكفر بالله ، برفض منهجه للحياة ؟!

ان الأمر أكبر وأوسع وأعمق ، مما ينفق فيه هؤلاء ((الطيبون)) جهدهم وطاقتهم واهتمامهم ·· انه ـ في هذه المرحلة ـ ليس أمر تتبع الفرعيات ـ مهما تكن ضخمة حتى ولو كانت هي حدود الله · فحدود الله تقوم ابتداء عـلى الاعتراف بحاكمية الله دون سواه · فاذا لم يصبح هذا الاعتراف حقيقة واقعة ، تتمثل في اعتبار شريعة الله هي المصدر الوحيد للتشريع ، واعتبار ربوبيـة الله وقوامته هي المصدر الوحيد للسلطة ·· فكل جهد في الفروع ضائع ، وكل محاولة في الفروع عبث ·· والمنكر الأكبر أحق بالجهد والمحاولة من سـائر المنكرات ··

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : ((من رأى منكم منكرا فليغيره بيده · فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبـه · وذلك أضـعف الايمان)) ··

وقد يجيء على المسلمين زمان لا يستطيعون فيه تغيير المنكر بأيديهم ، ولا يستطيعون فيه تغيير المنكر بألسنتهم ، فيبقى أضعف الايمان ، وهو تغييره بقلوبهم ، وهذا ما لا يملك أحد أن يحول بينهم وبينه ، ان هم كانوا حقا على الاسلام !

وليس هذا موقفا سلبيا من المنكر ـ كما يلوح في بادىء الأمر ـ وتعبير الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه تغيير دليل على أنه عمل ايجـابي في طبيعته · فانكار المنكر بالقلب ، معناه احتفاظ هذا القلب بايجابيته تجـاه المنكر ·· انه ينكره ويكرهه ولا يستسلم له ، ولا يعتبره الوضع الشرعي الذي

يخضع له ويعترف به .. وانكار القلوب لوضع من الأوضاع قوة ايجابية لهدم هذا الوضع المنكر ، ولاقامة الوضع ((المعروف)) في أول فرصة تسنح ، وللتربص بالمنكر حتى تواتى هذه الفرصة .. وهذا كله عمل ايجابي في التغيير .. وهو على كل حال أضعف الايمان . فلا أقل من أن يحتفظ المسلم بأضعف الايمان ! أما الاستسلام للمنكر لأنه واقع ، ولأن له ضغطا ـ قد يكون ساحقا ـ فهو الخروج من آخر حلقة ، والتخلى حتى عن أضعف الايمان !

هذا والا حقت على المجتمع اللعنة التي حقت على بني اسرائيل :

((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم . ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . لبئس ما كانوا يفعلون !)) ..

ثم يمضى السياق الى نهاية هذا المقطع في الحديث عن بني اسرائيل ، وهو نهاية هذا الجزء .. فيصف حالهم على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى حالهم في كل زمان وفى كل مكان ، فهم يتولون الذين كفروا . ويتناصرون معهم ضد الجماعة المسلمة . وعلة ذلك ـ مع أنهم أهل كتاب ـ أنهم لم يؤمنوا بالله والنبى وأنهم لم يدخلوا في دين الله الأخير .. فهم غير مؤمنين . ولو كانوا مؤمنين ما تولوا الكافرين :

((ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم . وفى العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء . ولكن كثيرا منهم فاسقون)) ..

وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود ـ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ينطبق على حالهم اليوم وغدا ، وفى كل حين .. كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم .. مما يدعو الى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن ، وفى عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آن ..

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ، ويؤلبونهم على المسلمين . ((ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)) .. كما حكى عنهم القرآن الكريم . وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب ، ومن قبلها ومن بعدها كذلك ، الى اللحظة الحاضرة .. وما قامت اسرائيل في أرض فلسطين أخيرا الا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين !

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو يتعاون مع المادية الالحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين ! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك ، كلما كانت المعركة مع المسلمين ! حتى و ((المسلمون)) لا يمثلون الاسلام فى شيء • الا فى أنهم من ذرارى قوم كانوا مسلمين ! ولكنها الاحنة التى لا تهدأ على هذا الدين ، ومن ينتمون اليه ، ولو كانوا فى انتمائهم مدعين !

وصدق الله العظيم : ((ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا)) ••

« لبئس ما قدمت لهم أنفسهم : أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون » ••

فهذه هى الحصيلة التى قدمتها لهم أنفسهم •• انها سخط الله عليهم • وخلودهم فى العذاب • فما أبأسها من حصيلة ! وما أبأسها من تقدمة تقدمها لهم أنفسهم ، ويا لها من ثمرة مرة • ثمرة توليهم للكافرين !

فمن منا يسمع قول الله سبحانه عن القوم ؟ فلا يتخذ من عند نفسه مقررات لم يأذن بها الله : فى الولاء والتناصر بين أهل هذا الدين ، وأعدائه الذين يتولون الكافرين !

وما الدافع ؟ ما دافع القوم لتولى الذين كفروا ؟ انه عدم الايمان بالله والنبى :

((ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء • ولكن كثيرا منهم فاسقون)) •••

هذه هى العلة •• انهم لم يؤمنوا بالله والنبى •• ان كثرتهم فاسقة •• انهم يتجانسون — اذن — مع الذين كفروا فى الشعور والوجهة ، فلا جرم يتولون الذين كفروا ولا يتولون المؤمنين ••

المشركون فى جزيرة العرب يجعلون لله الجن ويخرقون له بنين وبنات بغير علم •

يقول الله تعالى :

« وجعلوا لله شركاء الجن — وخلقهم — وخرقوا له بنين وبنات بغير علم • سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم » •

وقد كان بعض مشركي العرب يعبدون الجن .. وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها اوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق تبدء شبر استدقت في انحرافها الى أي مدى ، وانفرجت المسافه بينها وبين نقطة الانحراف التي بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ ! وهؤلاء المشركون كانوا على دين اسماعيل .. دين التوحيد الذى جاء به ابراهيم عليه السلام في هذه المنطقة .. ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد .. ولا بد أن يكون الانحراف قد بدأ يسيرا .. ثم انتهى الى مثل هذا الانحراف الشنيع .. الذى يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله .. وهم من خلقه سبحانه :

« وجعلوا لله شركاء الجن ـ وخلقهم ـ » !

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة في الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة ـ تشبه فكرة الشياطين ـ وخافوا هذه الكائنات ـ سواء كانت أرواحا شريرة أو ذوات شريرة ـ وقدموا لها القرابين اتقاء لشرها ، ثم عبدوها !

والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التي وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، في صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله .. سبحانه ..

والسياق القرآني يواجههم بسخف هذا الاعتقاد .. يواجههم بكلمة واحدة :

« وخلقهم » ..

وهي لفظة واحدة ، ولكنها تكفي للسخرية من هذا التصور ! فاذا كان الله سبحانه هو الذى « خلقهم » فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ؟!

ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات :

« وخرقوا له بنين وبنات بغير علم » .

و « خرقوا » أى : اختلقوا .. وفي لفظها جرس خاص وظل خاص ، يرسم مشهد الطلوع بالفرية التي تخرق وتشق !

خرقوا له بنين : عند اليهود : عزير . وعند النصارى : المسيح : وخرقوا له بنات . عند المشركين : الملائكة . وقد زعموا أنهم اناث .. ولا يدرى أحد طبعا لماذا هم اناث ! فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم .. فكلها « بغير علم » ..

« سبحانه وتعالى عما يصفون ! » ..

ولم يكن العرب ــ فى جاهليتهم ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون ــ وخالق الناس ، ورازقهم كذلك من ملكه ، الذى ليس وراءه ملك تقتات منه العباد !٠٠ وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق ــ على قلة من الفلاسفة الماديين من الاغريق !ــ ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التى تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الاغريق ٠٠ لذلك لم يكن الاسلام يواجه فى الجاهلية العربية الا الانحراف فى التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة ــ مع الله ــ على سبيل الزلفى والقربى من الله ! ــ والا الانحراف فى تلقى الشرائع والتقاليد التى تحكم حياة الناس ٠٠ أى أنه لم يكن يواجه الالحاد فى وجود الله ــ سبحانه ــ كما يقول اليوم « ناس » ! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير !

والحق أن هؤلاء الذين يجادلون فى وجود الله اليوم قلة ٠ وسيظلون قلة ٠ انما الانحراف الأساسى هو ذاته الذى كان فى الجاهلية ٠ وهو تلقى الشرائع فى شؤون الحياة من غير الله ٠٠ وهذا هو الشرك التقليدى الأساسى الذى قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضا :

والقلة الشاذة التى تجادل فى وجود الله اليوم لا تعتمد على « العلم » وان كانت هذه دعواها ٠ فالعلم البشرى ذاته لا يملك أن يقرر هذا الالحاد ولا يجد عليه دليلا لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون ٠٠ انما هى لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة والهها الذى كانت تستذل به الرقاب من غير أصل من الدين ٠٠ ثم نقص فى التكوين الفطرى لهؤلاء المجادلين ، ينشأ عنه تعطل فى الوظائف الأساسية للكينونة البشرية ٠٠ كما يقع للأمساخ من المخلوقات٠٠!

ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه ــ كحقيقة انبثاق الحياة أيضا ــ لم تكن تساق فى القرآن لاثبات وجود الله ــ اذ كان الجدال فى وجوده تعالى سخفا لا يستحق من جدية القرآن العناية به ــ انما كانت تساق لرد الناس الى الرشاد ، كى ينفذوا فى حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة افراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية فى حياتهم كلها ، وعبادته وحده بلا شريك ٠٠

مع هذا فان حقيقة الخلق والتقدير فيه ــ كحقيقة ابنثاق الحياة أيضا ــ تقذف فى وجوه الذين يجادلون فى الله ــ سبحانه ــ بالحجة الدامغة التى لا يملكون بازائها الا المراء ٠ والا التبجح الذى يصل الى حد الاستهتار فى كثير من الأحيان !

طبقة مشركى العرب : تصر على الباطل رغم معرفة الحق ــ سورة الأنعام تجلو لنا هذه الحقيقة كاملة ٠

* « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ؟ فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

ان مشركى العرب فى جاهليتهم ـ وخاصة تلك الطبقة التى كانت تتصدى للدعوة من قريش ـ لم يكونوا يشكون فى صدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد عرفوه صادقا أمينا ، ولم يعلموا عنه كذبة واحدة فى حياته الطويلة بينهم قبل الرسالة ، كذلك لم تكن تلك الطبقة التى تتزعم المعارضة لدعوته تشك فى صدق رسالته ، وفى أن هذا القرآن ليس من كلام البشر ، ولا يملك البشر أن يأتوا بمثله ..

ولكنهم ـ على الرغم من ذلك ـ كانوا يرفضون اظهار التصديق ، ويرفضون الدخول فى الدين الجديد ! انهم لم يرفضوا لأنهم يكذبون النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن لأن فى دعوته خطرا على نفوذهم ومكانتهم .. وهذا هو السبب الذى من أجله قرروا الجحود بآيات الله ، والبقاء على الشرك الذى كانوا فيه ..

والأخبار التى تقرر الأسباب الحقيقية لموقف قريش هذا وحقيقة ظنهم بهذا القرآن كثيرة :

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى : أنه حدث ، أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام والاخنس بن شريق بن عمرو ابن وهب الثقفى ، حليف بنى زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه . فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الصبح تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفائهم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا . حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة . ثم انصرفوا . حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له . حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك .. ثم تفرقوا .. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس :

وأنا والذى حلفت به . ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه فى بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف .. أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى اذا تجاثينا على الركب . وكنا كفرسى رهان ، قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ! قال : فقام عنه الأخنس وتركه ..

وروى ابن جرير - من طريق أسباط عن السدى - فى قوله : « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .. لما كان يوم بدر ، قال الاخنس بن شريق لبنى زهرة . يا بنى زهرة ان محمدا ابن أختكم ، فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته ، فان كان نبيا لم تقاتلوه اليوم ، وان كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته . قفوا حتى ألقى أبا الحكم ، فان غلب محمد رجعتم سالمين ، وان غلب محمد فان قومكم لن يصنعوا بكم شيئا - فيومئذ سمى الاخنس وكان اسمه أبى - فالتقى الاخنس بأبى جهل ، فخلا به ، فقال : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟ فانه ليس هاهنا من قريش غيرى وغيرك يستمع كلامنا ! فقال أبو جهل : ويحك ! والله ان محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن اذا ذهب بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : « فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

ونلاحظ : أن السورة مكية ، وهذه الآية مكية لا شك فى ذلك ، بينما الحادثة المذكورة كانت فى المدينة يوم بدر .. ولكن اذا عرفنا أنهم كانوا يقولون أحيانا عن آية ما : « فذلك قوله : كذا .. » ويقرنون اليها حادثا ما لا النص على أنها نزلت بسبب الحادث الذى يذكرونه ، ولكن بسبب انطباق مدلولها على الحادث ، بغض النظر عما اذا كان سابقا أو لاحقا .. فاننا لا نستغرب هذه الرواية ..

وقال ابن اسحاق : حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظى ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا - قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس فى المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ - وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ، ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزيدون ويكثرون - فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم اليه فكلمه . فقام

اليه عتبــة حتى جلس الى رسول اللــه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا ابن أخي . انك منــا حيث علمت من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب . وانك قــد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت بـه جماعتهم ، وسفهت أحلامهم ، وعبت به آلهتم ودينهم ، وكفرت بـه من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليـك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبــل منهـا بعضها .. قــال : فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قل يا أبا الوليد اسمع » . قال : يا ابن أخي ، ان كنت انما تريد بما جئت به من هــذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنــا حتى تكون أكثرنا مــالا ، وان كنت تريد بـه شرفا سودناك علينــا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد بــه ملكا ملكناك علينا ، وان كان هــذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنــا لك الاطبـاء ، وبذلنا فيها أموالنا حتى نبرئك منــه ، فانه ربما غلب التابع على الرجــل حتى يداوى منـه .. أو كما قال .. حتى اذا فرغ عتبة ، ورسول الله ـ صــلى اللــه عليه وسلم ـ يستمع منه ـ قال : « أفرغت يـا أبا الوليد ؟ » قال : نعم .. قال : « فاستمع مني » . قال : أفعــل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم : حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتــاب فصلت آياته قرآنا عربيـا لقوم يعلمون . بشيرا ونــذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ... » ثم مضى رسول الله ـ صــلى الله عليه وسلم ـ فيهـا وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبــة أنصت لها ، وألقى يديــه خلف ظهره ، معتمدا عليهما ، يستمع منــه ، حتى انتهى رســول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى السجدة منها فسجد . ثم قال : « قــد سمعت يا أبـا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك » .. فقام عتبــة الى أصحابه . فقال بعضهم لبعض : نحلف باللــه لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجــه الــذى ذهب به ! فلما جلس اليهم قالوا : مــا وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولا واللــه ما سمعت مثله قط . واللــه ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي .. خلــوا بين الرجــل وما هو فيه ، فاعتزلوه ، فواللــه ليكونن لقوله الذى سمعت نبــأ ، فان تصبــه العرب كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أســعد الناس به .. قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هــذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم !

وقد روى البغوي في تفسيره حديثا ـ باسناده ـ عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صــلى الله عليه وسلم ـ مضى في قراءته الى قوله : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثــل صاعقة عــاد وثمود » .. فأمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع الى أهله ، ولم يخرج الى قريش ، واحتبس عنهم ... الى آخره ... ثم لمــا حدثوه في هذا قال : فأمسكت

بفيه ، وناشدته الرحم أن يكف • وقد علمتم أن محمدا اذا قال شيئا لم يكذب فخشيت أن ينزل بكم العذاب ••

وقال ابن اسحاق : ان الوليد بن المغيرة اجتمع اليه نفر من قريش — وكان ذا سن فيهم — وقد حضر الموسم • فقال لهم : يا معشر قريش ، انه قد حضر هذا الموسم ، وان وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا • قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأيا نقل به • قال : بل أنتم فقولوا : اسمع • قالوا : نقول : كاهن ! قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ! قالوا : فتقول : مجنون ! قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته ! قالوا : فنقول : شاعر ! قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ! قالوا : فنقول : ساحر ! قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ! قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله ان لقوله لحلاوة ، وان أصله لعذق ، وان فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا الا عرف انه باطل ! وان أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته •• فتفرقوا عنه بذلك • فجعلوا يجلسون بسبل الناس — حين قدموا الموسم — لا يمر بهم أحد الا حذروه اياه ، وذكروا له أمره !

وقال ابن جرير :حدثنا ابن عبد الاعلى ، حدثنا محمد بن ثورة ، عن معمر ، عن عبادة بن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له • فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام • فأتاه فقال له : أي عم ! ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ! قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فانك أتيت محمدا تتعرض لما قبله ! (يريد الخبيث أن يثير كبرياءه من الناحية التي يعرف أنه أشد بها اعتزازا !) قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولا يعلم قومك انك منكر لما قال ، وانك كاره له ! قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا • والله ان لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه ليحطم ما تحته ، وانه ليعلو وما يعلى • قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه •• قال : فدعني حتى أفكر فيه •• فلما فكر قال : ان هذا الا سحر يؤثر • يؤثره

عن غيره . فنزلت : « ذرني ومن خلقت وحيدا ... » حتى بلغ : « عليها تسعة عشر » .

وفي رواية أخرى أن قريشا قالت : لئن صبأ الوليد لتصبون قريش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه .. وانه قال - بعد التفكير الطويل - انه سحر يؤثر . أما ترون انه يفرق بين المرء واهله وولده ومواليه .

فهذه الروايات كلها تبين أن هؤلاء المكذبين لم يكونوا يعتقدون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكذبهم فيما يبلغه لهم . وانما هم كانوا مصرين على شركهم لمثل هذه الاسباب التي وردت بها الروايات ، وما وراءها من السبب الرئيسي ، وهو ما يتوقعونه من وراء هذه الدعوة من سلب السلطان المغتصب ، الذي يزاولونه ، وهو سلطان الله وحده . كما هو مدلول شهادة أن لا اله الا الله التي يقوم عليها الاسلام ، وهم كانوا يعرفون جيدا مدلولات لغتهم ، وكانوا لا يريدون ان يسلموا بمدلول هذه الشهادة . وهو انما يمثل ثورة كاملة على كل سلطان غير سلطان الله في حياة العباد .. وصدق الله العظيم :

« قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون . فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ..

والظالمون في هذا الموضع هم المشركون . كما يغلب في التعبير القرآني الكريم .

ويستطرد من تطييب خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبيان الاسباب الحقيقية لموقف المكذبين منه ومن دعوته ، ومن آيات الله الناطقة بصدقه وصدق ما جاء به .. يستطرد من هذا الى تذكيره بما وقع لاخوانه الرسل قبله - وقد جاءه من أخبارهم في هذا القرآن - ثم ما كان منهم من الصبر والمضي في الطريق ، حتى جاءهم نصر الله . ليقرر أن هذه هي سنة الدعوات التي لا تتبدل ، ولا يغير منها اقتراحات المقترحين ، كما أنها لا تستعجل مهما ينزل بالدعاة من الأذى والتكذيب والضيق :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » .

ان موكب الدعوة الى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماض في الطريق اللاحب ، ماض في الخط الواصب .. مستقيم الخطى ،

ثابت الاقدام . يعترض طريقه المجرمون من كل سبيل ، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعون ، ويصيب الاذى من يصيب من الدعاة ، وتسيل الدماء وتتمزق الاشلاء .. والموكب في طريقه لا ينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد .. والعاقبة هي العافية ، مهما طال الزمن ومهما طال الطريق .. ان نصر الله دائما في نهاية الطريق :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » ..

كلمات يقولها الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. كلمات للذكرى ، وللتسرية وللمواساة ، وللتأسية .. وهي ترسم للدعاة الى الله من بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ طريقهم واضحا ، ودورهم محددا ، كما ترسم لهم متاعب الطريق وعقباته ، ثم ما ينتظرهم بعد ذلك كله في نهاية الطريق ..

انها تعلمهم ان سنة الله في الدعوات واحدة . كما انها كذلك واحدة . وكذلك لا تتجزأ .. دعوة تتلقاها الكثرة بالتكذيب ، وتتلقى اصحابها بالاذى .. وصبر من الدعاة على التكذيب وصبر كذلك على الاذى .. وسنة تجري بالنصر في النهاية .. ولكنها تجيء في موعدها .. لا يعجلها عن هذا الموعد أن الدعاة الابرياء الطيبين المخلصين يتلقون الاذى والتكذيب ، ولا أن المجرمين الضالين والمضلين يقدرون على أذى المخلصين الابرياء الطيبين ! ولا يعجلها كذلك عن موعدها أن صاحب الدعوة المخلص المتجرد من ذاته ومن شهواته انما يرغب في هداية قومه حبا في هدايتهم ، ويأسى على ما هم فيه من ضلال وشقوة ، وعلى ما ينتظرهم من دمار وعذاب في الدنيا والآخرة .. لا يعجلها عن موعدها شيء من ذلك كله . فان الله لا يعجل لعجلة أحد من خلقه . ولا مبدل لكلماته . سواء تعلقت هذه الكلمات بالنصر المحتوم ، أم تعلقت بالاجل المرسوم ..

انه الجد الصارم ، والحسم الجازم ، الى جانب التطمين والتسرية والمواساة والتسلية ...

* اقتصار المجتمع العربي الجاهلي يقوم على المعاملات الربوية .

* خطر النظام الربوي على المجتمعات لا يتضح الا اذا عرفنا لماذا بطل الاستسلام النظام الربوي في حيناة المجتمع الغربي .

ولم يبلغ من تفظيع أمر أراد الإسلام ابطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفظيع الربا . ولا بلغ من التهديد فى اللفظ والمعنى منا بلغ التهديد فى امر الربا — فى هذه الايات وفى غيرها فى مواضع أخرى — ولله الحكمة البالغة . فلقد كانت للربا فى الجاهلية مفاسده وشروره . ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح ما كانت كلها بادية فى مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت فى عالمنا الحاضر ، ولا كانت البثور والدمامل فى ذلك الوجه الدميم مكشوفة كلها كما تكشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث . فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الايات على ذلك النظام المقيت ، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية ، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الاولى . ويدرك — من يريد أن يتدبر حكمة الله وعظمة هذا الدين وكمال هذا المنهج ودقة هذا النظام — يدرك اليوم من هذا كله ما لم يكن يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم ما يصدق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا . والبشرية الضالة التى تأكل الربا وتوكله تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام الربوى ، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها . وتتلقى — حقا — حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب .. أفرادا وجماعات ، وأمما وشعوبا ، وهى لا تعتبر ولا تفيق !

وحينما كان السياق يعرض فى الدرس السابق دستور الصدقة كان يعرض قاعدة من قواعد النظام الاجتماعى والاقتصادى الذى يريد الله للمجتمع المسلم أن يقوم عليه ، ويحب للبشرية أن تستمتع بما فيه من رحمة .. فى مقابل ذلك النظام الآخر الذى يقوم على الاساس الربوى الشرير القاسى اللئيم .

انهما نظامان متقابلان : النظام الاسلامى . والنظام الربوى ! وهما لا يلتقيان فى تصور ، ولا يتفقان فى أساس ، ولا يتوافقان فى نتيجة .. ان كلا منهما يقوم على تصور للحياة والأهداف والغايات يناقض الآخر تمام المناقضة . وينتهى الى ثمرة فى حياة الناس تختلف عن الاخرى كل الاختلاف .. ومن ثم كانت هذه الحملة المفزعة ، وكان هذا التهديد الرعيب !

ان الاسلام يقيم نظامه الاقتصادى — ونظام الحياة كلها — على تصور معين يمثل الحق الواقع فى هذا الوجود .. يقيمه على أساس أن الله — سبحانه — هو خالق هذا الكون . فهو خالق هذه الارض ، وهو خالق هذا الانسان .. هو الذى وهب كل موجود وجوده ..

وإن الله ــ سبحانه ــ وهو مالك كل موجود بما أنه هو موجده قد استخلف الجنس الانساني في هذه الارض ، ومكنه مما ادخر له فيها من أرزاق وأقوات ومن قوى وطاقات ، على عهد منه وشرط ٠ ولم يترك له هذا الملك العريض فوضى ، يصنع فيه ما يشاء كيف شاء وانما استخلفه فيه في اطار من الحدود الواضحة ٠٠ استخلفه فيه على شرط أن يقوم في الخلافة وفق منهج الله ، وحسب شريعته ٠ فما وقع منه من عقود وأعمال ومعاملات وأخلاق وعبادات وفق التعاقد فهو صحيح نافذ ٠ وما وقع منه مخالفا لشروط التعاقد فهو باطل موقوف ٠٠ فاذا انفذه قوة وقسرا فهو اذن ظلم واعتداء لا يقره الله ولا يقره المؤمنون بالله ــ فالحاكمية في الارض ــ كما هي في الكون كله ــ لله وحده ٠ والناس ــ حاكمهم ومحكومهم ــ انما يستمدون سلطاتهم من تنفيذهم لشريعة الله ومنهجه ، وليس لهم ــ في جملتهم ــ أن يخرجوا عنها ، لأنهم انما هم وكلاء مستخلفون في الارض بشرط وعهد وليسوا ملاكا خالقين لما في أيديهم من أرزاق ٠

من بين بنود هذا العهد أن يقوم التكافل بين المؤمنين بالله ، فيكون بعضهم أولياء بعض ، وأن ينتفعوا برزق الله الذى أعطاهم على أساس هذا التكامل ــ لا على قاعدة الشيوع المطلق كما تقول الماركسية ٠ ولكن على أساس الملكية الفردية المقيدة ــ فمن وهبه الله منهم سعة أفاض من سعته على من قدر عليه رزقه ٠ مع تكليف الجميع بالعمل كل حسب طاقته واستعداده وفيما يسره الله له ــ فلا يكون أحدهم كلا على أخيه أو على الجماعة وهو قادر كما بينا ذلك من قبل ٠ وجعل الزكاة فريضة في المال محددة ٠ والصدقة تطوعا غير محدد ٠

وقد شرط عليهم كذلك أن يلتزموا جانب القصد والاعتدال ، ويتجنبوا السرف والشطط فيما ينفقون من رزق الله الذى أعطاهم ، وفيما يستمتعون به من الطيبات التى أحلها لهم ٠ ومن ثم تظل حاجتهم الاستهلاكية للمال والطيبات محدودة بحدود الاعتدال ٠٠ وتظل فضلة من الرزق معرضة لفريضة الزكاة وتطوع الصدقة ٠ وبخاصة أن المؤمن مطالب بتثمير ماله وتكثيره ٠

وشرط عليهم أن يلتزموا في تنمية أموالهم وسائل لا ينشأ عنها الأذى للآخرين ، ولا يكون من جرائها تعويق أو تعطيل لجريان الارزاق بين العباد ، ودوران المال في الايدى على أوسع نطاق ٠ « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ٠

وكتب عليهم الطهارة فى النيـــة والعمل ، والنظافة فى الوســـيلة والغاية ، وفرض عليهم قيودا فى تنمية المال لا تجعلهم يسلكون اليها سبلا تؤذى ضمير الفرد وخلقه ، أو تؤذى حياة الجماعة وكيانها ٠

وأقام هـــذا كله على أساس التصور المثـل لحقيقة الواقع فى هـــذا الوجود ، وعلى اساس عهد الاستخلاف الذى يحكم كل تصرفات الانســـان المستخلف فى هذا الملك العريض ٠٠

ومن ثم فالربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الايمانى اطلاقا ، ونظام يقوم على تصور آخر ٠ تصور لا نظر فيه للـــه سبحانه وتعالى ٠ ومن ثم لا رعاية فيـه للمبادىء والغايات والأخلاق التى يريد الله للبشر أن تقوم حياتهم عليها ٠

انه يقوم ابتداء على أساس أن لا علاقة بين ارادة الله وحياة البشر ٠ فالانسان هو سيد هـــذه الارض ابتداء ، وهو غير مقيد بعهـد من الله ، وغير ملزم باتباع أوامر الله !

ثم ان الفرد حر فى وسائل حصوله على المـــال ، وفى طرق تنميته ، كما هو حر فى التمتع به ٠ غير ملتزم فى شىء من هـــذا بعهد من اللـــه أو شرط ، وغير مقيد كذلك بمصلحة الآخرين ٠ ومن ثم فلا اعتبـــار لان يتأذى الملايين اذا هـو أضاف الى خزانته ورصيده ما يستطيع اضافته ٠ وقـد تتدخل القوانين الوضعية أحيانا فى الحـد من حريته هـــذه ـ جزئيا ـ فى تحديد سعر الفائدة مثـلا ، وفى منع أنواع من الاحتيال والنصب والغصب والنهب ٠ والغش والضرر ٠ ولكن هـــذا التدخل يعود الى ما يتواضع عليه الناس أنفسهم ، وما تقودهم اليه أهواؤهم ٠ لا الى مبـــدأ ثابت مفروض من سلطة الهية !

كذلك يقوم على أســـاس تصور خاطىء فاسد ٠ هـو أن غاية الغايات للوجود الانسانى هى تحصيله للمـال ـ بأية وسيلة ـ واستمتاعه بـــه على النحو الذى يهوى ! ومن ثـم يتكالب على جمع المـــال وعلى المتاع به ، ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين !

ثم ينشىء فى النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا ، ويشقيها فى حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا ، لمصلحة حفنـــة من المرابين ، ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا ، ويحدث الخلل فى دورة المـــال ونمو الاقتصاد البشرى نموا سويا ٠ وينتهى ـ كما انتهى فى العصر الحديث ـ الى تركيز الســـلطة

الحقيقية والنفوذ العملي على البشرية كلهـــا فى أيدى زمرة من أحط خلق اللـه وأشدهم شرا ، وشرذمـة ممن لا يرعون فى البشرية الا ولاذمة ، ولا يراقبون فيها عهدا ولا حرمة ٠٠ وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا ، كمـا يداينون الحكومات والشعوب ـ فى داخل بلادهم وفى خارجها ـ وترجع اليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها ، وكد الآدميين وعرقهم ودمائهم ، فى صـورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدا !

وهم لا يملكون المـال وحده ٠٠ انما يملكون النفوذ ٠٠ ولمـا لم تكن لهم مبادىء ولا أخلاق ولا تصور دينى أو أخلاقى على الاطلاق ، بـل لمـا كانوا يسخرون من حكاية الاديان والاخلاق والمثـل والمبادىء ، فانهم بطبيعة الحال يستخدمون هـذا النفوذ الهائـل الذى يملكونه فى انشـاء الاوضـاع والأفكار والمشروعات التى تمكنهم من زيادة الاستغلال ، ولا تقف فى طريق جشعهم وخسـة أهدافهم ٠٠ وأقرب الوسائل هى تحطيم أخـلاق البشرية واسقاطها فى مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات ، التى يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه ، حيث تسقط الفلوس فى المصـائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم فى جريان الاقتصاد العالمى وفق مصالحهم المحدودة ، مهما أدى هـذا الى الازمات الدورية المعروفة فى عـالم الاقتصاد ، والى انحراف الانتـاج الصناعى والاقتصادى كلـه عمـا فيـه مصلحة المجموعة البشرية الى مصلحة الممولين المرابين ، الذين تتجمع فى أيديهم خيوط الثروة العالمية !

والكارثة التى تمت فى العصر الحديث ـ ولم تكن بهـذه الصورة البشعة فى الجاهلية ـ هى أن هؤلاء المرابين ـ الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية ـ قـد استطاعوا بما لديهم من سـلطة هائلة مخيفة داخـل أجهزة الحكم العالمية وخارجها ، وبما يملكون من وسائل التوجيه والاعلام فى الارض كلها ٠٠ سـواء فى ذلك الصحف والكتب والجامعات والاساتذة ومحطـات الارسال ودور السينما وغيرها ٠٠ أن ينشئوا عقلية عامـة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك المرابون عظامهم ولحومهم ، ويشربون عرقهم ودماءهم فى ظـل النظام الربوى ٠٠ هذه العقلية العامة خاضعة للايحـاء الخبيث المسموم بأن الربا هـو النظام الطبيعى المعقول ، والأساس الصحيح الـذى لا أساس غيره للنمو الاقتصادى ، وانه من بركات هـذا النظام وحسناته كان هـذا التقدم الحضارى فى الغرب ٠ وأن الذين يريدون ابطـاله جماعة من الخياليين ـ غير العمليين ـ وانهم انما يعتمدون فى نظرتهم هـذه على مجرد نظريات أخلاقية ومثـل خيالية لا رصيد لهـا من الواقع ، وهى كفيلة بافساد النظام الاقتصادى كله لو سمح لهـا أن تتدخل فيـه ! حتى ليتعرض

للذين ينتقدون النظـام الربوى من هـذا الجانب للسحرية من البشر الذين هم فى حقيقة الامر ضحايا بائسـة لهـذا النظام ذاته ! ضحايا شأنهم شأن الاقتصاد العالمى نفسه · الذى تضطره عصابات المرابين العالمية لأن يجرى جريانا غير طبيعى ولا سـوى · ويتعرض للهزات الدورية المنظمة ! وينحرف عن أن يكون نافعـا للبشرية كلها ، الى أن يكون وقفـا على حفنـة من الذئاب قليلة !

ان النظام الربوى نظام معيب من الوجهـة الاقتصادية البحتة ـ وقـد بلغ من سوئه أن تنبه لعيوبه بعض أساتذة الاقتصاد الغربيين أنفسهم ، وهـم قـد نشأوا فى ظلـه ، وأشربت عقولهم وثقافتهم تلك السموم التى تبثهـا عصابات المـال فى كل فروع الثقافة والتصور والاخلاق ، وفى مقدمة هؤلاء الاساتذة الذين يعيبون هـذا النظام من الناحية الاقتصادية البحتة « دكتور شاخت » الألمـانى ومدير بنك الرايخ الألمـانى سابقا · وقـد كان مما قاله فى محاضرة له بدمشق عـام ١٩٥٣ أنه بعملية رياضية (غير متناهيـة) يتضح أن جميع المـال فى الارض صائر الى عـدد قليل جدا من المرابين · ذلك أن الدائن المرابى يربح دائما فى كل عملية ، بينما المدين معرض للربح والخسارة · ومن ثم فان المـال كله فى النهاية لابد ـ بالحساب الرياضى ـ أن يصـير الى الـذى يربح دائما ! وأن هـذه النظرية فى طريقها للتحقق الكامل · فان معظم مـال الارض الآن يملكه ـ ملكا حقيقيا ـ بضعة ألوف ! أمـا جميع الملاك وأصحاب المصانع الذين يستدينون من البنوك ، والعمال ، وغيرهم ، فهم ليسوا سوى أجراء يعملون لحساب أصحاب المـال ، ويجنى ثمرة كدهم أولئك الألوف ! ·

وليس هـذا وحده هو كل ما للربا من جريرة · فان قيـام النظـام الاقتصادى على الاساس الربوى يجعل العلاقة بين أصحاب الاموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة · فان المرابى يجتهـد فى الحصول على أكبر فائدة · ومن ثـم يمسك المـال حتى يزيد اضطرار التجارة والصناعة اليه فيرتفع سـعر الفائدة ، ويظل يرفع السعر حتى يجد العاملون فى التجارة والصناعة أنـه لا فائدة لهم من اسـتخدام هـذا المال ، لأنه لا يدر عليهم ما يوفون بـه الفائدة ويفضـل لهم منـه شىء ·· عندئذ ينكمش حجم المـال المستخدم فى هـذه المجالات التى تشتغل فيها الملايين ، وتضيق المصانع دائرة انتاجها ، ويتعطل العمال ، فتقل القدرة على الشراء · وعندما يصل الامر الى هـذا الحد ، ويجد المرابون أن الطلب على المـال قـد نقص أو توقف ، يعودون الى خفض سـعر الفائدة اضطرارا · فيقبل عليه العاملون فى الصـناعة والتجارة من جديد ، وتعود دورة الحياة الى

الرخـــاء ٠٠ وهـكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية ٠ ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة !

ثم ان جميع المســتهلكين يؤدون ضريبة غير مبـــاشرة للمرابين ٠ فان أصحاب الصناعات والتجار لا يدفعون فائدة الاموال التى يقترضونها بالربـا الا من جيوب المســتهلكين ، فهم يزيدونها فى أثمان السـلع الاستهلاكية فيتوزع عبؤها على أهـــل الارض لتدخل فى جيوب المرابين فى النهاية ٠ أمـا الديون التى تقترضها الحكومات من بيوت المـال لتقوم بالاصلاحات والمشروعات العمرانية فان رعاياها هم الذين يؤدون فائدتها للبيوت الربوية كذلك ٠ اذ أن هـــذه الحكومات تضطر الى زيادة الضرائب المختلفة لتسدد منهـا هــذه الديون وفوائدها ٠ وبذلك يشترك كل فرد فى دفع هـــذه الجزية للمرابين فى نهاية المطاف ٠٠ وقلما ينتهى الأمر عند هـــذا الحد ، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون ٠٠ ثم تكون الحروب بسبب الاستعمار !

ونحن هنـــا ـ لا نستقصى عيوب النظام الربوى فهـــذا مجاله بحث مستقل ـ فنكتفى بهـــذا القدر لنخلص منه الى تنبيه من يريدون أن يكونوا مسلمين الى جملة حقائق أســـاسية بصـدد كراهية الاسلام للنظـام الربوى المقيت :

الحقيقة الاولى : ـ التى يجب أن تكون مستيقنة فى نفوسهم ـ انه لا اسلام مع قيام نظام ربوى فى مكان وكل مـــا يمكن أن يقوله أصحاب الفتـــاوى من رجال الدين أو غيرهم ســـوى هـذا دجـل وخداع ٠ فأساس التصـور الاسلامى ـ كما بينا ـ يصطدم اصطداما مبـــاشرا بالنظام الربوى ، ونتائجه العملية فى حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم ٠

والحقيقة الثانية : أن النظام الربوى بـــلاء على الانسانية ـ لا فى ايمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب ـ بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية ، وأنه أبشع نظـــام يمحق ســـعادة البشرية محقا ، ويعطل نموها الانسانى المتوازن ، على الرغم من الطلاء الظاهرى الخداع ، الـذى يبدو كأنه مساعدة من هذا النظام للنمو الاقتصادى العام !

والحقيقة الثالثة : أن النظـــام الأخلاقى والنظام العملى فى الاســـلام مترابطان تماما ، وأن الانسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهـــد الاستخلاف وشرطه ، وأنه مختبر ومبتـــلى وممتحن فى كل نشـــاط يقوم بـه فى حياته، ومحاسب عليه فى آخرته ، فليس هنـــاك نظام أخلاقى وحـده ونظام عمـــلى وحـده ، وانما هما معـــا يؤلفان نشاط الانسان ، وكلاهما عبادة يؤجر عليها

ان أحسن ، واثم يؤاخذ عليه ان أســـاء • وأن الاقتصاد الاسلامى الناجح لا يقوم بغير اخلاق ، وأن الاخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية •

والحقيقة الرابعة : أن التعامل الربوى لا يمكن الا أن يفســـد ضمير الفرد وخلقــه ، وشعوره تجاه أخيــه فى الجماعة ، والا أن يفســـد حياة الجماعه البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشر والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة • أمـــا فى العصر الحديث فانه يعـد الدافع الأول لتوجيه رأس المـــال الى أحط وجوه الاستثمار • كى يستطيع رأس المـــال المستدان بالربا أن يربح ربحـــا مضمونا ، فيؤدى الفائدة الربوية ويفضـــل منــه شيء للمستدين • ومن ثم فهو الدافع المباشر لاستثمار المـــال فى الافلام القذرة والصحفة القـــذرة والمراقص والملاهى والرقيق الابيض وســـائر الحرف والاتجاهات التى تحطم أخلاق البشرية تحطيما •• والمـــال المستدان بالربا ليس همه أن ينشىء أنفع المشروعات للبشرية ، بـــل همـــه أن ينشىء أكثرها ربحا• ولو كان الربح اثما يجيء من استثارة أحط الغرائز وأقـــدر الميول ••• وهـــذا هـــو المشاهد اليوم فى أنحاء الارض • وسببه الاول هو التعامل الربوى !

والحقيقة الخامسة : أن الاســـلام نظام متكامل • فهو حين يحرم التعامل الربوى يقيم نظمه كلهـــا على أساس الاستغناء عن الحاجـــة اليه ، وينظم جوانب الحياة الاجتماعية بحيث تنتفى منها الحاجة الى هـــذا النوع من التعامل بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والانسانى المطرد •

والحقيقة السادسة : ان الاسلام ـ حين يتـــاح له أن ينظم الحيـــاة وفق تصوره ومنهجه الخاص ـ لن يحتاج عند الغـــاء التعامل الربوى ، الى الغـــاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم • ولكنه فقط سيطرها من لوثة الربا ودنســـه • ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة • وفى أول هـــذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات ومـــا اليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث •

والحقيقة السابعة : ـ وهى الأهم ـ ضرورة اعتقاد من يريد أن يكون مسلما ، بأن هناك استحالة اعتقادية فى أن يحرم اللـــه أمرا لا تقوم الحيـــاة البشرية ولا تتقدم بدونه ! كما أن هنـــاك استحالة اعتقادية كذلك فى أن يكون هنـــاك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتميا لقيـــام الحياة وتقدمها •• فاللـــه سبحانه هـــو خالق هذه الحياة ، وهو مستخلف الانسان فيها ، وهـــو الآمر بتنميتها وترقيتها ، وهو المريد لهـــذا كله الموفق اليه • فهنـــاك استحالة

اذن فى تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شىء لا تقوم الحياة البشرية ولا تتقدم بدونه • وان يكون هنـــاك شىء خبيث هو حتمى لقيـام الحيـــاة ورقيها • وانما هـــو ســوء التصور • وســوء الفهم والدعاية المسمومة الخبيثة الطاغية التى دأبت أجيـــالا على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادى والعمـــرانى ، وأن النظـــام الربـــوى هو النظـــام الطبيعى ، وبث هـــذا التصور الخـــادع فى مناهـــل الثقـــافة العـــامة ، ومنابع المعرفة الانسانية فى مشـــارق الارض ومغاربها • ثم قيام الحيـاة الحديثة على هــذا الاساس فعلا بسعى بيوت المـــال والمرابين • وصـــعوبة تصور قيامها على أســـاس آخر • وهى صعوبة تنشـــأ أولا من عـــدم الايمان• كما تنشـــأ ثانيا من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الـــذى اجتهد المرابون فى بثـــه وتمكينه بمالهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الحكومات العالمية ، وملكية لأدوات الاعلام العامة والخاصة •

والحقيقة الثامنة : أن استحالة قيـــام الاقتصاد العالمى اليوم وغـــدا على أساس غير الاساس الربوى •• ليست ســـوى خرافة • أو هى أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التى يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقائهـــا أجهزة ضخمة فعـــلا ! وانه حين تصح النيـــة ، وتعزم البشرية ـ أو تعزم الأمـــة المسلمة ـ أن تسترد حريتها من قبضـــة العصابات الربوية العالمية ، وتريد لنفسها الخير والســـعادة والبركة مع نظافة الخلق وطهـــارة المجتمع ، فان المجال مفتوح لاقامة النظـــام الآخر الرشيد ، الذى أراده اللـــه للبشرية ، والـــذى طبق فعـــلا ، وتمت الحيـــاة فى ظلـــه فعـــلا ، ومـــا تزال قابلة للنمو تحت اشرافه وفى ظلاله ، لو عقل الناس ورشدوا !

وليس هنـــاك مجال تفصيل القول فى كيفيات التطبيق ووسائله •• فحسبنا هـــذه الاشارات المجملة • وقد تبين أن شناعة العملية الربوية ليست ضرورة من ضرورات الحياة الاقتصادية ، وأن الانسانية التى انحرفت عن النهج قديما حتى ردها الاسلام اليـــه ، هى الانسانية التى تنحرف اليوم الانحراف ذاته ، ولا تفىء الى النهج القويم الرحيم السليم •

فلننظر كيف كانت ثورة الاسلام على تلك الشناعة التى ذاقت منهـــا البشرية ما لم تذق قط من بلاء :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كمـــا يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس • ذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثـــل الربا • وأحـــل الله البيع وحرم

الربا • فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله • ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • يمحق الله الربا ويربى الصدقات • والله لا يحب كل كفار أثيم » ••

انها الحملة المفزعة ، والتصوير المرعب :

« لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ••

وما كان أى تهديد معنوى ليبلغ الى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة •• صورة الممسوس المصروع •• وهى صورة معروفة معهودة للناس • فالنص يستحضرها لتؤدى دورها الايحائى فى افزاع الحس ؛ لاستجاشة مشاعر المرابين ، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف عادتهم فى نظامهم الاقتصادى ، ومن حرصهم على ما يحققه لهم من الفائدة •• وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها • بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة •• ولقد مضت معظم التفاسير على أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة المفزعة ، هو القيام يوم البعث • ولكن هذه الصورة — فيما نرى — واقعة بذاتها فى حياة البشرية فى هذه الارض أيضا • ثم انها تتفق مع ما سيأتى بعدها من الانذار بحرب من الله ورسوله • ونحن نرى أن هذه الحرب واقعة وقائمة الآن ومسلطة على البشرية الضالة التى تتخبط كالممسوس فى عقابيل النظام الربوى • وقبل أن نفصل القول فى مصداق هذه الحقيقة من واقع البشرية اليوم، نبدأ بعرض الصورة الربوية التى كان يواجهها القرآن فى الجزيرة العربية ، وتصورات أهل الجاهلية عنها ••

ان الربا الذى كان معروفا فى الجاهلية والذى نزلت هذه الآيات وغيرها لابطاله ابتداء كانت له صورتان رئيسيتان : ربا النسيئة • وربا الفضل •

فأما ربا النسيئة فقد قال عنه قتادة : « ان ربا أهل الجاهلية يبيع الرجل البيع الى أجل مسمى ، فاذا حل الاجل ، ولم يكن عند صاحبه قضاء زاده وأخر عنه » •

وقال مجاهد « كانوا فى الجاهلية يكون للرجل على الرجل الدين ، فيقول : لك كذا وكذا وتؤخر عنى فيؤخر عنه » •

وقال أبو بكر الحصاص : « انه معلوم أن ربا الجاهلية انما كان قرضا مؤجلا بزيادة مشروطة • فكانت الزيادة بدلا من الاجل • فأبطله الله تعالى » ••

وقال الامـــام الرازى فى تفسيره : « ان ربـــا النسيئة هـــو الذى كان مشهورا فى الجاهلية • لأن الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره الى أجــــل ، على أن يأخذ منه كل شهر قدرا معينـــا ، ورأس المـــال باق بحاله • فاذا حـــل طالبه برأس ماله • فان تعـذر عليه الاداء زاده فى الحق والاجل » •

وقـد ورد فى حديث أســـامة بن زيد – رضى الله عنهما – أن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا ربا الا فى النسيئة (٣) » ••

أما ربـــا الفضل فهو أن يبيع الرجل الشىء بالشىء من نوعـــه مـــع زيادة • كبيع الذهب بالذهب • والدراهم بالـــدراهم • والقمح بالقمح • والشعير بالشعير •• وهـكذا •• وقد ألحق هـــذا النوع بالربا لمـــا فيه من شبه به ، ولمـــا يصاحبه من مشاعر مشابهة للمشاعر المصاحبة لعملية الربا •• وهـــذه النقطة شديدة الاهمية لنا فى الكلام عن العمليات الحاضرة !

عن أبى سعيد الخدرى قال :قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « الذهب بالذهب والفضة بالفضـــة والبر بالبر ، والشعير بالشـــعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح •• مثـــلا بمثـل •• يدا بيد •• فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء (٤) » ••

وعن أبى سعيد الخدرى أيضا قال : جـاء بلال الى النبى – صلى الله عليه وسلم – بتمر برنى فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – « من أين هذا ؟ » • قال : كان عندنا تمر ردىء فبعت منـــه صاعين بصاع • فقال : أوه • ! عين الربا • عين الربا • لا تفعل • ولـــكن اذا أردت أن تشترى فبع التمر ببيع آخر ، ثم اشتر به (٥) •

فأما النوع الاول فالربا ظاهر فيـــه لا يحتاج الى بيان ، اذ تتوافر فيـــه العناصر الاساسية لكل عملية ربوية • وهى : الزيادة على أصـــل المـــال • والاجل الذى من أجله تؤدى هـــذه الزيادة • وكون هـــذه الفائدة شرطـــا مضمونا فى التعاقد • أى ولادة المـــال للمال بسبب المدة ليس الا ••

---

(٣) رواه البخارى ومسلم •

(٤) رواه الشيخان •

(٥) متفق عليه •

وأما النوع الثانى : فما لا شك فيه أن هنالك فروقا أساسية فى الشيئين المتماثلين هى التى تقتضى الزيادة • وذلك واضح فى حادثة بلال حين أعطى صاعين من تمره الردىء وأخذ صاعا من التمر الجيد •• ولكن لأن تماثل النوعين فى الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، اذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ النوعين فى الجنس يخلق شبهة أن هناك عملية ربوية ، اذ يلد التمر التمر ! فقد وصفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالربا • ونهى عنه • وأمر ببيع الصنف المراد استبداله بالنقد ، ثم شراء الصنف المطلوب بالنقد أيضا • ابعادا لشبح الربا من العملية تماما !

وكذلك شرط القبض : « يدا بيد » •• كى لا يكون التأجيل فى بيع المثل بالمثل ، ولو من غير زيادة ، فيه شبح من الربا ، وعنصر من عناصره !

الى هذا الحد بلغت حساسية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشبح الربا فى أية عملية • وبلغت كذلك حكمته فى علاج عقلية الربا التى كانت سائدة فى الجاهلية •

فأما اليوم فيريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية والنظم الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا ــ ربا النسيئة ــ بالاستناد الى حديث أسامة ، والى وصف السلف للعمليات الربوية فى الجاهلية • رأن يحلوا ــ دينيا ــ وباسم الاسلام ! الصور الاخرى المستحدثة التى لا تنطبق فى حرفية منها على ربا الجاهلية !

ولكن هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية •• فالاسلام ليس نظام شكليات • انما هو نظام يقوم على تصور أصيل • فهو حين حرم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة • انما كان يناهض تصورا يخالف تصوره ، ويحارب عقلية لا تتمشى مع عقليته • وكان شديد الحساسية فى هذا الى حد تحريم ربا الفضل ابعادا لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جدا !

ومن ثم فان كل عملية ربوية حرام • سواء جاءت فى الصور التى عرفتها الجاهلية أم استحدثت لها أشكال جديدة • ما دامت تتضمن العناصر الاساسية للعملية الربوية ، أو تتسم بسمة العقلية الربوية •• وهى عقلية الاثرة والجشع والفردية والمقامرة • وما دام يتلبس بها ذلك الشعور الخبيث • شعور

الحصول على الربح بأية وسيلة ! فينبغى أن نعرف هـذه الحقيقة جيدا . ونستيقن من الحرب المعلنة من اللـه ورسوله على المجتمع الربوى .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » ..

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم ، وان كانواهم أول المهددين بهـذا النص الرعيب ــ انما هم أهـل المجتمع الربوى كلهم .

عن جابر بن عبد الله ــ رضى لله عنه ــ انه قال : لعن رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ آكل الربا وموكله ، وشـاهديه وكاتبه ، وقال : « هم سواء (٦) » ..

وكان هـذا فى العمليات الربوية الفردية . فأما فى المجتمع الذى يقوم كله على الاساس الربوى فأهله كلهم ملعونون . معرضون لحرب اللـه . مطرودون من رحمته بلا جدال .

انهم لا يقومون فى الحياة ولا يتحركون الا حركة الممسوس المضطرب القلق المتخبط الذى لا ينـال استقرارا ولا طمأنينة ولا راحـة . واذا كان هنـاك شك فى الماضى أيام نشـأة النظام الرأسمالى الحديث فى القرون الأربعة الماضية ، فان تجربة هـذه القرون لا تبقى مجالا للشك أبدا ..

ان العالم الذى نعيش فيه اليوم ــ فى أنحـاء الارض ــ هـو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية ــ باعتراف عقلاء أهلـه ومفكريه وعلمائه ودراسـيه ، وبمشاهدات المراقبـين والزائرين العابرين لأقطـار الحضارة الغربية .. وذلك على الرغم من كل ما بلغتـه الحضارة المادية ، والانتـاج الصناعى فى مجموعه من الضخامة فى هـذه الاقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المـادى التى تأخذ بالابصار .. ثم هـو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الاعصاب ، والاضطرابات التى لا تنقطع هنـا وهناك !

انها الشقوة البائسة المنكودة ، التى لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المـادى ، ولا يسر الحياة المادية وخفضها ولينها فى بقـاع كثيرة . وما قيمة

(٦) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى .

هـــذا كله اذا لـــم ينشيء فى النفوس الســعادة والرضى والاســتقرار والطمأنينة ؟

انها حقيقة تواجـــه من يريد أن يرى ، ولا يضع على عينيـه غشـــاوة من صنع نفســه كى لا يرى ! حقيقة أن النـــاس فى اكثر بلاد الارض رخـاء عاما ٠٠ فى أمريكا ، وفى السويد ، وفى غيرهما من الاقطـار التى تفيض رخاء ماديا ٠٠ أن الناس ليسوا سعداء ٠٠ أنهم قلقون يطـــل القلق من عيونهم وهم أغنياء ! وأن الملـل يأكل حياتهم وهم مستغرقون فى الانتـــاج ! وأنهم يغرقون هـــذا الملـل فى العربدة والصخب تارة ٠ وفى « التقاليع » الغريبة الشـــاذة تارة ٠ وفى الشـذوذ الجنسى والنفسى تارة ٠ ثم يحسون بالحاجة الى الهرب ٠ الهرب من أنفسهم ٠ ومن الخواء الذى يعشش فيهـــا ! ومن الشقاء الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحيـــاة وجريانها ٠ فيهربون بالانتحار ٠ ويهربون بالجنون ٠ ويهربون بالشـــذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبدا !

لمـــاذا ؟

السبب الرئيسى طبعا هو خواء هـــذه الارواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة ــ على كل ما لديها من الرخـــاء المـادى ــ من زاد الروح ٠٠ من الايمان ٠٠ من الاطمئنان الى الله ٠٠ وخواؤها من الاهداف الانســـانية الكبيرة التى ينشئها ويرسمها الايمان بالله ، وخلافة الارض وفق عهـــده وشرطـــه ٠

ويتفرع من ذلك السبب الرئيسى الكبير ٠٠ بلاء الربا ٠٠ بـــلاء الاقتصاد الذى ينمو ولكـــنه لا ينمو سويا معتدلا بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها ٠ انما ينمو مائلا جانحا الى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة فى المصارف ، ويقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة المحددة المضمونة ، ويجبرون الصـــناعة والتجارة على آن تســير فى طريق معين ليس هدفه الاول ســـد مصالح البشر وحاجاتهم التى يســعد بها الجميع، والتى تكفل عملا منتظما ورزقا مضمونا للجميع ، والتى تهيىء طمأنينـــة نفســـية وضمانات اجتماعية للجميع ٠٠ ولـكن هدفه هو انتاج ما يحقق أعلى قـــدر من الربح ــ ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفســـد حياة الملايين، وزرع الشك والقلق والخوف فى حياة البشرية جميعا !

وصدق الله العظيم : « الذين يأكلون الربـا لا يقومون الا كمـا يقـوم

الــذى يتخبطه الشيطان من المس » ·· وها نحن أولاء نرى مصـــداق هــذه الحقيقة فى واقعنا العالمى اليوم !

ولقـــد اعترض المرابون فى عهــد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على تحريم الربا · اعترضوا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية :

« وذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثــل الربا · وأحل الله البيع وحرم الربـــا » ··

وكانت الشبهة التى ركنوا اليها ، هى أن البيع يحقق فائــدة وربحـــا ، كما أن الربا يحقق فائدة وربحا ·· وهى شـــبهة واهية · فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة · والمهـــارة الشخصية والجهد الشخصى والظروف الطبيعية الجارية فى الحياة هى التى تتحكم فى الربح والخسارة · أمـــا العمليات الربوية فهى محددة الربح فى كل حالة · وهـــذا هو الفارق الرئيسى وهــذا هو مناط التحريم والتحليل ··

ان كل عملية يضمن فيها الربح على أى وضع هى عملية ربوية محرمة بسبب ضمان الربح وتحديده ·· ولا مجال للمماحلة فى هـــذا ولا للمداورة !

« وأحل الله البيع وحرم الربا » ··

لانتفاء هــذا العنصر من البيع ، ولأسباب أخرى كثيرة تجعل عمليات التجارة فى أصلها نافعة للحياة البشرية ، وعمليات الربا فى أصـــلها مفسدة للحياة البشرية ··

وقد عالج الاســـلام الاوضاع التى كانت حـــاضرة فى ذلك الزمان معالجة واقعية ، دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية :

« فمن جاءه موعظة من ربــه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله » ··

لقد جعل سريان نظامه منــذابتــداء تشريعه · فمن سمع موعظـــة ربه فانتهى فلا يسترد منـــه ما سلف أن أخذه من الربا وأمره فيـــه الى اللــه ، يحكم فيــه بما يراه ·· وهـــذا التعبير يوحى للقلب بأن النجاة من سالف هـــذا الاثم مرهونة بارادة اللـــه ورحمته ، فيظل يتوجس من الامر ، حتى يقول لنفســـه : كفانى هــذا الرصيد من العمل السيىء ، ولعل اللـــه أن يعفينى من جرائره اذا أنا انتهيت وتبت · فلا أضف اليـــه جديدا بعد ! ·· وهـــكذا يعالج القرآن مشاعر القلوب بهذا المنهج الفريد ·

« ومن عـــاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

وهـذا التهديد بحقيقة العذاب فى الآخرة يقوى ملامح المنهج التربوى الذى أشرنا اليه ، ويعمقه فى القلوب ، ولكن لعـــل كثيرين يغريهم طـــول الأمد ، وجهـــل الموعد ، فيبعدون من حسابهم حســـاب الآخرة هـذا ! فها هو ذا القرآن ينذرهم كذلك بالمحق فى الدنيــا والآخرة جميعا ، ويقرر أن الصدقات ـ لا الربا ـ هى التى تربو وتزكو ، ثم يصم الذين لا يستجيبون بالكفر والاثم . ويلوح لهم بكره الله للكفرة الآثمين :

« يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات ، واللـــه لا يحب كل كفـــار أثيم » ..

وصدق وعيد الله ووعـــده . فها نحن أولاء نرى أنه مـا من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيـــه بركة أو رخاء أو ســـعادة أو أمن أو طمأنينة .. ان الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذى يوجد فيـــه هـــذا الدنس الا القحط والشقاء . وقـــد ترى العين ـ فى ظاهر الامر ـ رخـــاء وانتاجا وموارد موفورة ، ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقـــدر مـــا هى فى الاستمتاع الطيب الآمن بهـــذه الموارد . وقـــد أشرنا من قبل الى الشـــقوة النكدة التى ترين على قلوب الناس فى الدول الغنية الغزيرة الموارد ، والى القلق النفسى الذى لايدفعه الثراء بل يزيده . ومن هـــذه الدول يفيض القلق والذعر والاضطراب على العالم كله اليوم . حيث تعيش البشرية فى تهـديد دائم بالحرب المبيدة ، كما تصحو وتنام فى هم الحرب الباردة ! وتثقـــل الحياة على أعصاب الناس يوما بعد يوم ـ سواء شعروا بهـذا أم لم يشعروا ـ ولا يبارك لهم فى مـــال ولا فى عمر ولا فى صحة ولا فى طمأنينة بال !

وما من مجتمع قام على التكافل والتعاون ـ الممثلين فى الصدقات المفروض منها والمتروك للتطوع ـ وسادته روح المودة والحب والرضى والسماحة ، والتطلع دائما الى فضل اللـــه وثوابه ، والاطمئنان دائما الى عونه واخلافه للصدقة بأضعافها .. مـا من مجتمع قام على هـــذا الاساس الا بارك اللـــه لاهله ـ أفرادا وجماعات ـ فى ما لهم ورزقهم ، وفى صحتهم وقوتهم وفى طمأنينة قلوبهم وراحة بالهم .

والذين لا يرون هـــذه الحقيقة فى واقع البشرية ، هم الذين لا يريدون أن يروا ، لأن لهم هـوى فى عدم الرؤية ! أو الذين رانت على أعينهم غشاوة الاضاليل المبثوثة عمدا وقصدا من أصحاب المصلحة فى قيـــام النظام الربوى المقيت ، فضغطوا عن رؤية الحقيقة !

« والله لا يحب كل كفار أثيم » ..

وهـذا التعقيب هنـــا قاطع فى اعتبار من يصرون على التعامل الربوى ـ بعد تحريمه ـ من الكفار الآثمين ، الذين لا يحبهم اللـه • وما من شك أن الذين يحلون ما حرم اللـــه ينطبق عليهم وصف الكفر والاثـم ، ولو قالوا بألسنتهم ألف مرة : لا اله الا اللـــه • محمد رسول الله •• فالاسلام ليس كلمة باللسان ، انما هـو نظام حيـاة ومنهـج عمل ، وانكار جـــزء منـــه كانكار الكل •• وليس فى حرمة الربا شبهة ، وليس فى اعتباره حلالا واقامة الحياة على أســـاسه الا الكفر والاثـم •• والعياذ بالله •

وفى الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والاثم ، والتهديد الساحق لاصحاب منهج الربا ونظامه ، يعرض صفحة الايمان والعمل الصالح ، وخصائص الجماعة المؤمنة فى هـــذا الجانب ، وقاعدة الحياة المرتكزة الى النظام الآخر ـ نظام الزكاة ـ المقابل لنظام الربا :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة وآتو الزكاه لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ••

والعنصر البارز فى هـــذه الصفحة هو عنصر « الزكاة » • عنصر البذل بلا عوض ولا رد • والسياق يعرض بهـــذا صفة المؤمنين وقاعدة المجتمع المؤمن • ثم يعرض صـــورة الأمن والطمأنينة والرضى الالهى المسبغ على هذا المجتمع المؤمن •

ان الزكاة هى قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن ، الذى لا يحتـاج الى ضمانات النظام الربوى فى أى جانب من جوانب حياته •

وقد بهتت صورة « الزكاة » فى حسنا وحس الاجيـــال التعيسة من الأمـــة الاسلامية التى لم تشهد نظـام الاسلام مطبقا فى عالم الواقع ، ولم تشـــهد هـــذا النظام يقوم على أساس التصور الايمانى والتربية الايمانية والاخلاق الايمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة خاصــــة ، ثم يقيم لهـا النظام الذى تتنفس فيـــه تصوراتها الصحيحة وأخلاقها النظيفة وفضائلهـا العالية • ويجعل « الزكاة » قاعدة هـــذا النظام ، فى مقابل نظـام الجاهلية الذى يقوم على القاعدة الربوية • ويجعل الحيـــاة تنمو والاقتصاد يرتقى عن طريق الجهد الفردى ، أو التعاون البرىء من الربا !

بهتت هـــذه الصورة فى حس هـــذه الاجيال التعيسة المنكودة الحظ التى لم تشهد تلك الصورة الرفيعة من صـــور الانسانية • انما ولـــدت وعاشت فى غمرة النظام المـادى ، القائم على الاساس الربوى • وشـــهدت

الكزازة والشح ، والتكالب والتطاحن ، والفردية الأثرة التى تحكم ضمائر الناس • فتجعل المال لا ينتقل الى من يحتاجون اليه الا فى الصورة الربوية الخسيسة ! وجعلت الناس يعيشون بلا ضمانات ، ما لم يكن لهم رصيد من المال ، أو يكونوا قد اشتركوا بجزء من مالهم فى مؤسسات التأمين الربوية ! وجعلت التجارة والصناعة لا تجد المال الذى تقوم به ، ما لم تحصل عليه بالطريقة الربوية ! فوقر فى حس هذه الاجيال المنكودة الطالع أنه ليس هناك نظام الا هذا النظام ، وأن الحياة لا تقوم الا على هذا الأساس !

بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت هذه الاجيال تحسبها احسانا فرديا هزيلا ، لا ينهض على أساسه نظام عصرى ! ولكن كم تكون ضخامة حصيلة الزكاة ، وهى تتناول اثنين ونصفا فى المائة من أصل رؤوس الاموال الاهلية مع ربحها (٧) ؟ يؤديها الناس الذين يصنعهم الاسلام صناعة خاصة ، ويربيهم تربية خاصة ، بالتوجيهات والتشريعات ، وبنظام الحياة الخاص الذى يرتفع تصوره على ضمائر الذين لم يعيشوا فيه ! وتحصلها الدولة المسلمة ، حقا مفروضا ، لا احسانا فرديا • وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ، حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة فى كل حالة ، وحيث يقضى عن الغارم المدين دينه سواء كان دينا تجاريا أو غير تجارى ، من حصيلة الزكاة •

وليس المهم هو شكلية النظام • انما المهم هو روحه • فالمجتمع الذى يربيه الاسلام بتوجيهاته وتشريعاته ونظامه ، متناسق مع شكل النظام واجراءاته ، متكامل مع التشريعات والتوجيهات ، ينبع التكافل من ضمائره ومن تنظيماته معا بتناسقة متكاملة • وهذه حقيقة قد لا يتصورها الذين نشأوا وعاشوا فى ظل الانظمة المادية الاخرى • ولكنها حقيقة نعرفها نحن ـ أهل الاسلام ـ ونتذوقها بذوقنا الايمانى • فاذا كانوا هم محرومين من هذا الذوق لسوء طالعهم ونكد حظهم ـ وحظ البشرية التى صارت اليهم مقاليدها وقيادتها ـ فليكن هذا نصيبهم ! وليحرموا من هذا الخير الذى يبشر الله به : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » •• ليحرموا من الطمأنينة والرضى ، فوق حرمانهم من الاجر والثواب • فانما بجهالتهم وجاهليتهم وضلالهم وعنادهم يحرمون !

ان الله ـ سبحانه ـ يعد الذين يقيمون حياتهم على الايمان والصلاح

---

(٧) ترتفع هذه النسبة الى ٥٪ والى ١٠٪ والى ٢٠٪ فى الزروع والكنوز •

والعبادة والتعاون ، أن يحتفظ لهم بأجرهم عنده • ويعدهم بالامن فلا يخافون وبالسعادة فلا يحزنون :

« فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ••

في الوقت الذى يوعد أكلة الربا والمجتمع الربوى بالمحق والسحق ، وبالتخبط والضلال ، وبالقلق والخوف • وشهدت البشرية ذلك واقعا فى المجتمع المسلم ، وتشهد اليوم هذا واقعا كذلك فى المجتمع الربوى ! ولو كنا نملك أن نمسك بكل قلب غافل فنهزه هزا عنيفا حتى يستيقظ لهذه الحقيقة الماثلة ، ونمسك بكل عين مغمضة فنفتح جفنيها على هذا الواقع •• لو كنا نملك لفعلنا •• ولكننا لا نملك الا أن نشير الى هذه الحقيقة ، لعل الله أن يهدى البشرية المنكودة الطالع اليها •• والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن • والهدى هدى الله ••

وفى ظل هذا الرخاء الآمن الذى يعد الله به الجماعة المسلمة ، التى تنبذ الربا من حياتها ، فتنبذ الكفر والاثم ، وتقيم هذه الحياة على الايمان والعمل الصالح والعبادة والزكاة •• فى ظل هذا الرخاء الآمن يهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت ، والا فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله ، بلا هوادة ولا امهال ولا تأخير :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله • وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » ••

ان النص يعلق ايمان الذين آمنوا على ترك ما بقى من الربا • فهم ليسوا بمؤمنين الا أن يتقوا الله ويذروا ما بقى من الربا • ليسوا بمؤمنين ولو أعلنوا أنهم مؤمنون • فانه لا ايمان بغير طاعة وانقياد واتباع لما أمر الله به • والنص القرآنى لا يدعهم فى شبهة من الامر • ولا يدع انسانا يتستر وراء كلمة الايمان ، بينما هو لا يطيع ولا يرتضى ما شرع الله ، ولا ينفذه فى حياته ، ولا يحكمه فى معاملاته • فالذين يفرقون فى الدين بين الاعتقاد والمعاملات ليسوا بمؤمنين • مهما ادعوا الايمان وأعلنوا بلسانهم أو حتى بشعائر العبادة الاخرى أنهم مؤمنون !!

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا •• ان كنتم مؤمنين » ••

لقد ترك لهم ما سلف من الربا — لم يقرر استرداده منهم ، ولا مصادرة أموالهم كلها أو جزء منها بسبب أن الربا كان داخلا فيها •• اذ لا تحريم

بغير نص .. ولا حكم بغير تشريع .. والتشريع ينفذ وينشىء آثاره بعد صدوره .. فأما الذى سلف فأمره الى الله لا الى أحكام القانون . وبذلك تجنب الاسلام احداث هزة اقتصادية واجتماعية ضخمة لو جعل لتشريعه أثرا رجعيا . وهو المبدأ الذى أخذ به التشريع الحديث حديثا ! ذلك أن التشريع الاسلامى موضوع ليواجه حياة البشر الواقعية ، وييسرها ، ويطهرها ، ويطلقها تنمو وترتفع معا .. وفى الوقت ذاته علق اعتبارهم مؤمنين على قبولهم لهذا التشريع وانفاذه فى حياتهم منذ نزوله وعلمهم به . واستجاش فى قلوبهم ـ مع هذا ـ شعور التقوى لله . وهو الشعور الذى ينوط به الإسلام تنفيذ شرائعه ، ويجعله الضمان الكامن فى ذات الانفس ، فوق الضمانات المكفولة بالتشريع ذاته . فيكون له من ضمانات التنفيذ ما ليس للشرائع الوضعية التى لا تستند الا للرقابة الخارجية ! وما أيسر الاحتيال على الرقابة الخارجية ، حين لا يقوم من الضمير حارس له من تقوى الله سلطان .

فهذه صفحة الترغيب .. والى جوارها صفحة الترهيب .. الترهيب الذى يزلزل القلوب :

« فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ..

يا للهول ! حرب من الله ورسوله .. حرب تواجهها النفس البشرية حرب رهيبة معروفة المصير ، مقررة العاقبة .. فأين الانسان الضعيف الفانى من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة ؟ !

ولقد امر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامله على مكة بعد نزول هذه الآيات التى نزلت متأخرة أن يحارب آل المغيرة هناك اذا لم يكفوا عن التعامل الربوى . وقد أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى خطبته يوم فتح مكة بوضع كل ربا فى الجاهلية ـ وأوله ربا عمه العباس ـ عن كاهل المدينين الذى ظلوا يحملونه الى ما بعد الاسلام بفترة طويلة ، حتى نضج المجتمع المسلم ، واستقرت قواعده ، وحان أن ينتقل نظامه الاقتصادى كله من قاعدة الربا الوبيئة . وقال صلى الله عليه وسلم فى هذه الخطبة :

« وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين . وأول ربا أضع ربا العباس » .. ولم يأمرهم برد الزيادات التى سبق لهم أخذها فى حال الجاهلية .

فالامام مكلف ـ حين يقوم المجتمع الاسلامى ـ أن يحارب الذين يصرون على

قاعدة النظام الربوى ، ويعتون عن أمر الله ، ولو أعلنوا أنهم مسلمون · كما حارب أبو بكر – رضي‌الله عنه – مانعي الزكاة ، مع شهادتهم أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقامتهم للصلاة · فليس مسلما من يأبى طاعة شريعة الله ، ولا ينفذها في واقع الحياة !

على أن الايذان بالحرب من الله ورسوله أعم من القتال بالسيف والمدفع من الامام · فهذه الحرب معلنة – كما قال أصدق القائلين – على كل مجتمع يجعل الربا قاعدة نظامه الاقتصادى والاجتماعى · هذه الحرب معلنة فى صورتها الشاملة الداهمة الغامرة · وهى حرب على الاعصاب والقلوب· وحرب على البركة والرخاء · وحرب على السعادة والطمأنينة ·· حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض · حرب المطاردة والمشاكسة · حرب الغبن والظلم · حرب القلق والخوف ·· وأخيرا حرب السلاح بين الامم والجيوش والدول · الحرب الساحقة الماحقة التى تقوم وتنشأ من جراء النظام الربوى المقيت · فالمرابون أصحاب رؤوس الاموال العالمية هم الذين يوقدون هذه الحروب مباشرة أو عن طريق غير مباشر · وهم يلقون شباكهم فتقع فيها الشركات والصناعات · ثم تقع فيها الشعوب والحكومات · ثم يتزاحمون على الفرائس فتقوم الحرب ! أو يزحفون وراء أموالهم بقوة حكوماتهم وجيوشها فتقوم الحرب ! أو يثقل عبء الضرائب والتكاليف لسداد فوائد ديونهم · فيعم الفقر والسخط بين الكادحين والمنتجين ، فيفتحون قلوبهم للدعوات الهدامة فتقوم الحرب ! وأيسر ما يقع – ان لم يقع هذا كله – هو خراب النفوس ، وانهيار الاخلاق ، وانطلاق سعار الشهوات ، وتحطم الكيان البشرى من أساسه ، وتدميره بمالاتبلغه أفظع الحروب الذرية الرعيبة !

انها الحرب المشبوبة دائما · وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا ·· وهى مسعرة الآن ، تأكل الاخضر واليابس فى حياة البشرية الضالة ، وهى غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الانتاج المادى الذى تخرجه المصانع ·· وكانت هذه التلال حرية بأن تسعد البشر لو أنها نشأت من منبت زكى طاهر ، ولكنها – وهى تخرج من منبع الربا الملوث – لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية ، ويسحقها سحقا ، فى حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين ، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون !

لقد دعا الاسلام الجماعة المسلمة الاولى ، ولا يزال يدعو البشرية كلها الى المشرع الطاهر النظيف ، والى التوبة من الاثم والخطيئة والمنهج الوبيء :
« وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم · لا تظلمون ولا تظلمون » ··

فهى التوبة عن خطيئة • انها خطيئة الجاهلية • الجاهلية التى لا تتعلق بزمان دون زمان ، ولا نظام دون نظام •• انما هى الانحراف عن شريعة اللـه ومنهجه متى كان وحيث كان •• خطيئة تنشىء آثارها فى مشاعر الافراد وفى أخلاقهم وفى تصورهم للحياة • وتنشىء آثارها فى حيـاة الجماعة وارتباطاتها العامة • وتنشىء آثارها فى الحياة البشرية كلها ، وفى نمـوها الاقتصادى ذاته • ولو حسب المخدوعون بدعاية المرابين ، أنها وحدها الاساس الصالح للنمو الاقتصادى !

واسترداد رأس المـال مجردا ، عدالة لا يظلم فيها دائن ولا مدين •• فأما تنمية المـال فلها وسائلها الاخرى البريئة النظيفة • لها وسيلة الجهـد الفردى • ووسيلة المشاركة على طريقة المضاربة وهى اعطـاء المـال لمن يعمل فيـه ، ومقاسمته الربح والخسارة • ووسيلة الشركات التى تطرح أسهمها مباشرة فى السوق ــ بدون سندات تأسيس تستأثر بمعظم الربح ــ وتنـاول الارباح الحلال من هـذا الوجه • ووسيلة أيداعها فى المصارف بدون فائدة ــ على أن تساهم بها المصارف فى الشركات والصناعات والاعمال التجارية مباشرة أو غير مباشرة ــ ولا تعطيها بالفائدة الثابتة ــ ثم مقاسمة المودعين الربح على نظـام معين أو الخسارة اذا فرض ووقعت •• وللمصارف أن تتناول قدرا معينا من الأجر فى نظير ادارتها لهـذه الاموال •• ووسائل أخرى كثيرة ليس هنـا مجال تفصيلها •• وهى ممكنة وميسرة حين تؤمن القلوب ، وتصح النيات على ورود المورد النظيف الطاهر ، وتجنب المورد العفن النتن الآسن !

ويكمل السياق الاحكام المتعلقة بالدين فى حالة الاعسـار •• فليس السـبيل هو ربا النسيئة : بالتأجيل مقابل الزيادة •• ولكنه هـو الانظار الى ميسرة • والتحبيب فى التصـدق به لمن يريد مزيدا من الخير أوفى وأعلى :

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وأن تصدقوا خير لكم •• ان كنتم تعلمون » ••

انها السماحة الندية التى يحملها الاسلام للبشرية • انه الظل الظليل الذى تأوى اليه البشرية المتعبة فى هجير الاثرة والشح والطمـع والتكالب والسعار • انها الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع :

ونحن نعرف أن هذه الكلمات لا تؤدى مفهوما « معقولا » فى عقول المناكيد الناشئين فى هجير الجاهلية المادية الحاضرة ! وأن مذاقها الحلو لا طعم له فى حسهم المتحجر البليد ! ــ وبخاصة وحوش المرابين سـواء كانوا أفردا قابعين فى زوايا الارض يتلمظون للفرائس من المحاويج والمنكوبين الذين تحل

بهم المصائب فيحتاجون للمـــال للطعام والكســـاء والدواء أو لدفن موتاهم في بعض الاحيان ، فلا يجدون في هـــذا العالم المـادى الكز الضنين الشحيح من يمد لهم يد المعونة البيضاء ، فيلجأون مرغمين الى أوكار الوحوش • فرائس سهلة تسعى الى الفخاخ بأقدامها • تدفعها الحاجـــة وتزجيها الضرورة ! سواء كانوا أفردا هـــكذا أو كانوا في صورة بيوت مالية ومصارف ربوية • فكلهم سواء • غير أن هؤلاء يجلسون في المكاتب الفخمة على المقاعـــد المريحة ، ووراءهم ركام من النظريات الاقتصادية ، والمؤلفات العلمية ، والاساتذة والمعاهد والجامعات ، والتشريعات والقوانين ، والشرطة والمحاكم والجيوش •• كلهـا قائمة لتبرير جريمتهم وحمايتها ، وأخذ من يجرؤ على التلكؤ في رد الفائدة الربوية الى خزائنهم باسم القانون •• ! !

نحن نعرف أن هـــذه الكلمات لا تصل الى تلك القلوب •• ولكنا نعرف أنها الحق • ونثق أن ســعادة البشرية مرهونة بالاستماع اليها والاخـــذ بهـــــا :

« وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة • وأن تصدقوا خير لكـم ان كنتم تعلمون » •

ان المعسر – في الاسلام – لا يطارد من صاحب الدين ، أو من القانون والمحاكم • انما ينظر حتى يوسر •• ثم ان المجتمع المسلم لا يترك هـــذا المعسر وعليه دين • فالله يدعو صاحب الدين أن يتصدق بدينه – ان تطوع بهـــذا الخير • وهو خير لنفســـه كما هو خير للمدين • وهو خير للجماعة كلهـا ولحياتها المتكافلة • ولو كان يعلم ما يعلمه الله من سريرة هذا الامر !

ذلك أن ابطال الربا يفقـــد شطرا كبيراً من حكمته اذا كان الـــدائن سيروح يضايق المدين ، ويضيق عليـــه الخناق • وهـــــو معسر لا يملك السداد • فهنا كان الامر – في صورة شرط وجواب – بالانتظار حتى يوسر ويقدر على الوفاء • وكان بجانبه التحبيب في التصدق بالدين كله أو بعضه عند الاعسار •

على أن النصوص الاخرى تجعل لهـــذا المدين المعسر حظـــا من مصارف الزكاة ، ليؤدى دينه ، وييسر حياته : « انما الصدقات للفقراء والمساكين •• والغارمين •• » وهم أصحاب الديون • الذين لم ينفقوا ديونهم على شهواتهم وعلى لذائذهم • انما أنفقوها في الطيب النظيف • ثم قعدت بهم الظروف !

ثم يجيء التعقيب العميق الايحاء ، الذى ترجف منـــه النفس المؤمنة ، وتتمنى لو تنزل عن الدين كله ، ثم تمضى ناجية من الله يوم الحساب .

« واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله • ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ••

واليوم الذى يرجعون فيه الى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير ، له فى القلب المؤمن وقع ، ومشهده حاضر فى ضمير المؤمن ، وله فى ضمير المؤمن هول • والوقوف بين يدى الله فى هـــذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جـو المعاملات • جـــو الأخذ والعطاء • جـــو الكسب والجزاء •• انه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل ما فيه • والقضاء الأخير فى الماضى بين كل من فيـــه • فما أجدر القلب المؤمن أن يخشـــــاه وأن يتوقاه •

ان التقوى هى الحارس القابع فى أعماق الضمير ، يقيمه الاســـلام هناك لا يملك القلب فرارا منه لانه فى الاعماق هناك !

انه الاسلام •• النظام القوى •• الحلم الندى الممثــــل فى واقع أرضى •• رحمة الله بالبشر • وتكريم الله للانسان • والخير الذى تشرد عنـه البشرية ، ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الانسان !

* المجتمع العربى الجاهلى وشرب الخمر •

* المنهج الربانى يكشف لنا عمق هـــذا الرجس فى حياة المجتمع العربى •

يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم ســكارى ــ حتى تعلموا ما تقولون ــ ولا جنبا ــ الا عابرى سبيل ــ حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ، فتيمموا صـــــعيدا طيـــــبا ، فامسحوا بوجـوهكم وأيديكم • اللـــــه كان عفوا غفورا » ••

انها حلقة فى سلسلة التربية الربانية للجماعة المسلمة ــ التى التقطها المنهج الاســـلامى من سفح الجاهلية ــ وكانت الخمر احـــدى تقاليد المجتمع الجاهلى الاصيلة الشاملة ، واحدى الظواهر المميزة لهـــذا المجتمع • كمـــا أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل جاهلية فى القديم والحديث أيضـــا •• الخمر كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الرومانى فى أوج جاهليته ، وللمجتمع الفارسى أيضا • وكذلك هى اليوم ظاهرة مميزة للمجتمع الأوروبى والمجتمع

الامريكى فى أوج جاهليته ! والشـأن أيضا كذلك فى جاهليـة المجتمع الافريقي المتخلفة من الجاهلية الاولى !

فى السويد ـ وهى أرقى أو من أرقى أمم الجاهلية الحديثة ـ كانت كل عائلة فى النصف الأول من القرن الماضى تعد الخمر الخاصة بهـا ٠ وكان متوسط ما يستهلكه الفرد ، حوالى عشرين لترا ٠ وأحست الحكومة خطورة هذه الحال ، وما ينشره من ادمان ، فاتجهت الى سياسـة احتكار الخمور ، وتحديد الاستهلاك الفردى ، ومنع شرب الخمور فى المحال العـامة ٠٠ ولكنها عادت فخففت هـذه القيود منذ أعوام قليلة ! فأبيح شرب الخمر فى المطاعم بشرط تناول الطعام ٠ ثم أبيحت الخمر فى عـدد محدود من المحال العامة ، حتى منتصف الليل فقط ! وبعد ذلك يبـاح شرب « النبيذ والبيرة » فحسب ! وادمان الخمر عند المراهقين يتضاعف ٠٠ !

أما فى أمريكا ، فقد حاولت الحكومة الامريكية مرة القضـاء على هـذه الظاهرة فسنت قانونا فى سنة ١٩١٩ سمى قانون « الجفاف » ! من باب التهكم عليـه ، لأنه يمنع « الرى » بالخمر ! وقـد ظل هذا القانون قائمـا مدة أربعة عشر عاما ، حتى اضطرت الحكومة الى الغائـه فى سـنة ١٩٣٣ ٠ وكانت قد استخدمت جميع وسائل النشر والاذاعـة والسينما والمحاضرات للدعاية ضد الخمر ٠ ويقدرون ما أنفقته الدولة فى الدعاية ضـد الخمر بما يزيد على ستين مليونا من الدولارات ٠ وأن مـا نشرته من الكتب والنشرات يشتمل على عشرة بلايين صفحة ٠ وما تحملته فى سـبيل تنفيذ قانون التحريم فى مـدة أربعة عشر عاما لا يقل عن ٢٥٠ مليون جنيه ٠ وقـد أعـدم فيها ٣٠٠ نفس ، وسجن كذلك ٥٣٢ر٣٣٥ نفسـا ٠ وبلغت الغرامات ١٦ مليون جنيه ٠ وصادرت من الأملاك ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة بلايين جنيه ٠٠ وبعد ذلك كله اضطرت الى التراجع والغاء القانون ٠

فأما الاسلام فقضى على هـذه الظاهرة العميقة فى المجتمع الجاهلى ٠٠ ببضع آيات من القرآن ٠

وهـذا هو الفرق فى علاج النفس البشرية ، وفى عـلاج المجتمع الانسانى ٠٠ بين منهج الله ، ومناهج الجاهلية قديما وحديثا على السواء !

ولكى ندرك تغلغل هـذه الظاهرة فى المجتمع الجاهلى ، يجب أن نعود الى الشعر الجاهلى ، حيث نجد « الخمر » عنصرا أساسيا من عناصر المـادة الأدبية ، كما أنه عنصر أساسى من عناصر الحياة كلها ٠

لقد بلغ من شيوع تجارة الخمر ، أن أصبحت كلمة التجارة ، مرادفة لبيع الخمر ٠٠ يقول لبيد :

قد بت سامرها وغاية تاجر وافيت اذ رفعت وعز مدامها

ويقول عمرو بن قميئة :

اذ أسحب الريط والمروط الى أدنى تجارى وانفض اللمما

ووصف مجالس الشراب ، والمفاخرة بهـــا تزحم الشعر الجاهلى ، وتطبعه طابعا ظاهرا ٠

يقول أمرؤ القيس :

أوصـــبحت ودعت الصبـــا غير أننى
أراقب خـــلات من العيش أربعـــا
فمنهن قـــولى للنـــدامى : ترفقـــوا
يداجـــون نشـــاجا من الخمر مترعـــا
ومنهن ركض الخيـــل ترجم بالقنـــا
يبـــادرن سربا آمنـــا أن يفزعـــا
٠٠٠ الخ

ويقول طرفة بن العبد :

فلولا ثـــلاث هـــن من عيشـــة الفتى
وجـــدك لـــم أحفـــل متى قـــام عـــودى
فمنهن ســـبقى العـــاذلات بشربـــة
كمية متى مـــا تعـــل بالمـــاء تزبد
ومـــا زال تشرابى الخمـــور ولـــذتى
وبـــذلى وانفـــاقى طريفى وتالـــدى
الى أن تحـــامتنى العشـــيرة كلهـــا
وأفـــردت افراد البعيـــر المعبـــد

ويقول الأعشى :

فقـــد أشرب الراح قـــد تعلمـــين
يـــوم المقـــام ويـــوم الـــظعن
وأشـــرب بالـــريف حتى يقـــال
قـــد طال بالريف مـــا قـــد دجن

ويقول المنخل اليشكرى :

ولقــــد شــــربت من المـــــدا
مـــــة بالصـــغير وبالـــكبير
فــــاذا ســـــكرت فــــاننى
رب الخـــورنق والســـــدير (٨)
واذا صــــــحوت فــــاننى
رب الشـــويهة والبعـــــير

وغير هذا كثير فى الشعر الجاهلى ..

ورواية الحوادث التى صاحبت مراحل تحريم الخمر فى المجتمع المسلم ، والرجال الذين كانوا أبطال هـــذه الحوادث .. وفيهم عمر ، وعلى ، وحمزة، وعبد الرحمن بن عوف .. وأمثال هـــذا الطراز من الرجال .. تشى بمـــدى تغلغل هــــذه الظاهرة فى الجاهلية العربية . وتكفى عن الوصف المطـــول المفصل :

يقول عمر رضى الله عنه فى قصة اسلامه .. فى روايـــة .. « كنت صاحب خمر فى الجاهلية . فقلت لو أذهب الى فلان الخمار فأشرب ... » .

وظل عمر يشرب الخمر فى الاسلام . حتى اذا نزلت آية : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما اثم كبير ومنافع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهما » .. قال : « اللهم بين لنـــا بيانا شافيا فى الخمر » .. واستمر .. حتى اذا نزلت هـــذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .. قال : اللهم بين لنـــا بيانا شافيا فى الخمر ! حتى اذا نزلت آية التحريم الصريحة : « انما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر اللـــه وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .. قال : انتهينا انتهينا ! وانتهى ..

وفى سبب هـــذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » ترد روايتان يشترك فى أحداثهما على وعبد الرحمن بن عوف من المهاجرين . وسعد بن معاذ من الانصار .

روى ابن أبى حاتم : حدثنا يونس بن حبيب ، حدثنا أبو داود ـ باسناده

---

(٨) قصران للنعمان بن المنذر كانت تتحدث بهما العرب فى الجاهلية .

عن مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : « نزلت فى أربع آيات • صنع رجـــل من الانصار طعاما فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الانصار • فأكلنا وشربنا ، حتى سكرنا ، ثم افتخرنا ، فرفع رجـــل لحى بعير (عظم الفك) فغرز بها أنف سعد • فكان سعد مغروز الانف • وذلك قبل تحريم الخمر • فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » •• والحديث بطوله عند مسلم من رواية شعبة •

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار • حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى أبو جعفر • عن عطـــاء بن السائب ، عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على بن أبى طالب قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما ، فدعانا ، وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منـــا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا فلانا قال : فقرأ : قل يا أيها الكافرون • ما أعبد ما تعبدون • ونحن نعبد مـا تعبدون ! فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » •

ولا نحتاج الى مزيد من الامثلة والروايات ، لندلل على تغلغل ظاهرة الخمر فى المجتمع الجاهـــلى • فهى كانت والميسر ، الظاهرتين البارزتين ، المتداخلتين ، فى تقاليد هذا المجتمع ••

فماذا صنع المنهج الربانى لمقاومة هــــذه الظاهرة المتغلغلة ؟ ماذا صنع لمكافحة هــــذه الآفة ، التى لا يقوم معهـــا مجتمع جـــاد صالح مستقيم واع أبدا ؟ ماذا صنع ليقف فى وجـــه عادة أصيلة قديمة ، تتعلق بهـــا تقاليد اجتماعية ، كما تتعلق بها مصالح اقتصادية ؟

لقد عالج المنهج الربانى هذا كله ببضع آيات من القرآن ، وعلى مراحل ، وفى رفق وتؤدة • وكسب المعركة • دون حرب • ودون تضحيات • ودون اراقة دمـــاء •• والذى أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منهـــا كانت فى أفواه الشاربين ــ حين سمعوا آية التحريم ــ فمجوها من أفواههم • ولم يبلعوها • كما سيجىء !

فى مكة ــ حيث لم يكن للاسلام دولة ولا سلطان •• الا سلطان القرآن ــ وردت فى القرآن المكى تلميحة سريعة الى نظرة الاسلام للخمر • تدرك من ثنايا العبارة • وهى مجرد اشارة :

جـــاء فى سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منـــه

سكرا ورزقا حسنا » .. فوضع « السكر » وهو الشراب المسكر الذى كانوا يتخذونه من ثمرات النخيل والاعناب ، فى مقابل الرزق الحسن ! ملمحا بهذا التقابل الى أن السكر شيء . والرزق « الحسن » شيء آخر .. وكانت مجرد لمسة من بعيد ، للضمير المسلم الوليد !

ولكن عادة الشراب ، أو تقليد الشراب - بمعنى أدق - فقد كان أعمق من عادة فردية . كان تقليدا اجتماعيا ، له جذور اقتصادية .. كان أعمق من أن تؤثر فيه هذه اللمسة السريعة البعيدة ..

وفى المدينة حيث قامت للاسلام دولة وكان له سلطان .. لم يلجأ الى تحريم الخمر بقوة الدولة وسيف السلطان . انما كان أولا سلطان القرآن ..

وبدأ المنهج عمله فى رفق وفى يسر ، وفى خبرة بالنفس البشرية ، والاوضاع الاجتماعية ..

بدأ بآية البقرة ردا على أسئلة تدل على فجر اليقظة فى الضمير المسلم ضد الخمر والميسر : « يسألونك عن الخمر والميسر . قل : فيهما اثم كبير ، ومنافع للناس .. واثمهما أكبر من نفعهما » ..

الملتظى ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة ، وضيقها الخانق ، الى رياض الاسلام البديعة ، وظلاله الندية ، ونوره الوضيء ، وحريته الكريمة ، وسعته التى تشمل الدنيا والآخرة !

وملأ فراغها - وهذا هو الأهم - بالايمان . بهذا الاحساس الندى الرضى الجميل البهيج . فلم تعد فى حاجة الى نشوة الخمر ، تحلق بها فى خيالات كاذبة وسمادير ! وهى ترف بالايمان المشع الى الملأ الأعلى الوضيء .. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب ، فتمج طعم الخمر ونشوتها ، وترفض خمارها وصداعها ، وتستقذر لوثتها وخمودها فى النهاية !

انه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية ، وفتحها بمفتاحها ، الذى لا تفتح بغيره ، وتمشى فى حناياها وأوصالها ، وفى مسالكها ودروبها .. ينشر النور ، والحياة ، والنظافة ، والطهر ، واليقظة ، والهمة ، والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخلافة فى الأرض ، على أصولها ، التى قررها العليم الخبير ، وعلى عهد الله وشرطه ، وعلى هدى ونور ..

ان الخمر ــ كالميسر . كبقية الملاهى . كالجنون بما يسمونه « الألعاب الرياضية » والاسراف فى الاهتمام بمشاهدها .. كالجنون بالسرعة .. كالجنون بالسينما .. كالجنون « بالمودات » « والتقاليع » .. كالجنون بمصارعة الثيران .. كالجنون ببقية التفاهات التى تغشى حياة القطعان البشرية فى الجاهلية الحديثة اليوم ، جاهلية الحضارة الصناعية !

ان هذه كلها ليست الا تعبيرا عن الخواء الروحى .. من الايمان أولا .. ومن الاهتمامات الكبيرة التى تستنفد الطاقة ثانيا .. وليست الا اعلانا عن افلاس هذه الحضارة فى اشباع الطاقات الفطرية بطريقة سوية .. ذلك الخواء وهذا الافلاس هما اللذان يقودان الى الخمر والميسر لملء الفراغ ، كما يقودان الى كل أنواع الجنون التى ذكرنا .. وهما بذاتهما اللذان يقودان الى « الجنون » المعروف ، والى المرض النفسى والعصبى .. والى الشذوذ ..

انها لم تكن كلمات .. هى التى حققت تلك المعجزة الفريدة .. انما كان منهج . منهج هذه الكلمات متنه وأصله . منهج من صنع رب الناس . لا من صنع الناس ! وهذا هو الفارق الأصيل بينه وبين كل ما يتخذه البشر من مناهج ، لا تؤدى الى كثير !

انه ليست المسألة أن يقال كلام ! فالكلام كثير . وقد يكتب فلان من الفلاسفة . أو فلان من الشعراء . أو فلان من المفكرين . أو فلان من السلاطين ! قد يكتب كلاما منمقا جميلا يبدو أنه يؤلف منهجا ، أو مذهبا ، أو فلسفة .. الخ .. ولكن ضمائر الناس تتلقاه ، بلا سلطان . لأنه ((ما أنزل الله به من سلطان)) ! فمصدر الكلمة هو الذى يمنحها السلطان .. وذلك فوق ما فى طبيعة المنهج البشرى ذاته من ضعف ومن هوى ومن جهل ومن قصور !

فمتى يدرك هذه الحقيقة البسيطة من يحاولون أن يضعوا لحياة الناس مناهج . غير منهج العليم الخبير ؟ وأن يشرعوا للناس قواعد غير التى شرعها الحكيم البصير ؟ وأن يقيموا للناس معالم لم يقمها الخلاق القدير ؟

متى ؟ متى ينتهون عن هذا الغرور ؟؟؟

* العرب يمارسون النسىء وهو زيادة فى الكفر .

* المبدأ العربى المشهور : انصر أخاك ظالما أو مظلوما .

* التعاون على الاثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى .

* آيات من سورة المائدة تلقى الضوء على هذه الجوانب فى حياة المجتمع العربى ٠

على عقد الايمان بالله ، والعبودية لله ، تقوم سائر العقود ٠٠ سواء ما يختص منها بكل أمر وكل نهى فى شريعة الله ، وما يتعلق بكل المعاملات مع الناس والأحياء والأشياء فى هذا الكون فى حدود ما شرع الله ــ فكلها عقود ينادى الله الذين آمنوا بصفتهم منه ، أن يوفوا بها ، اذ أن صفة الايمان ملزمة لهم بهذا الوفاء ، مستحثة لهم كذلك على الوفاء ٠٠ ومن ثم كان النداء :

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » ٠ ثم يفصل فى تفصيل بعض العقود ٠

« يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ، أحلت لكم بهيمة الأنعام ــ الا ما يتلى عليكم ــ غير محل الصيد وانتم حرم ، ان الله يحكم ما يريد ٠ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ٠ واذا حللتهم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب ٠ حرمت عليكم الميتة ، والدم ولحم الجنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ــ الا ما ذكيتم ــ وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام ٠ ذلكم فسق ٠٠ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ، فلا تخشوهم واخشون ٠٠ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا ٠٠ فمن اضطر فى مخمصة ــ غير متجانف لاثم ــ فان الله غفور رحيم » ٠٠

ان هذا التحريم والتحليل فى الذبائح ، وفى الأنواع ، وفى الأماكن ، وفى الأوقات ٠٠ ان هذا كله من « العقود » ٠٠ وهى عقود قائمة على عقد الايمان ابتداء ٠ فالذين آمنوا يقتضيهم عقد الايمان أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله وحده ، ولا يتلقوا فى هذا شيئا من غيره ٠٠ ومن ثم تودوا هذا النداء ، فى مطلع هذا البيان ٠٠ وأخذ بعده فى بيان الحلال والحرام :

« أحلت لكم بهيمة الأنعام ــ الا ما يتلى عليكم ــ » ٠٠

وبمقتضى هذا الاحلال من الله ، وبمقتضى اذنه هذا وشرعه ــ لا من أى مصدر آخر ولا استمدادا من أى أصل آخر ــ صار حلالا لكم ومباحا أن تأكلوا من كل ما يدخل تحت مدلول « بهيمة الأنعام » من الذبائح والصيد ــ الا ما يتلى عليكم تحريمه منها ــ وهو الذى سيرد ذكره محرما ٠٠ اما حرمة وقتية أو

مكانية ، واما حرمة مطلقة فى أى مكان وفى أى زمان • وبهيمة الأنعام تشمل الابل والبقر والغنم ، ويضاف اليها الوحشى منها ، كالبقر الوحشى ، والحمر الوحشية والظباء •

ثم يأخذ فى الاستثناء من هذا العموم •• وأول المستثنيات الصيد فى حال الاحرام :

« غير محلى الصيد وأنتم حرم » ••

والتحريم هنا ينطبق ابتداء على عملية الصيد ذاتها • فالاحرام للحج أو للعمرة ، تجرد عن أسباب الحياة العادية وأساليبها المألوفة وتوجه الى الله فى بيته الحرام ، الذى جعله الله مثابة الأمان •• ومن ثم ينبغى عنده الكف عن بسط الأكف الى أى حى من الأحياء •• وهى فترة نفسية ضرورية للنفس البشرية ، تستشعر فيها صلة الحياة بين جميع الأحياء فى واهب الحياة ، وتأمن فيها وتؤمن كذلك من كل اعتداء ، وتتخفف من ضرورات المعاش التى أحل من أجلها صيد الطير والحيوان وأكله ، لترتفع فى هذه الفترة على مألوف الحياة وأساليبها ، وتتطلع الى هذا الأفق الرفاف الوضىء •

وقبل أن يمضى السياق فى بيان المستثنيات من حكم الحل العام ، يربط هذا العقد بالعقد الأكبر ، ويذكر الذين آمنوا بمصدر ذلك الميثاق .

((ان الله يحكم ما يريد)) ••

طليقة مشيئته ، حاكمة ارادته ، متفردا ـ سبحانه ـ بالحكم وفق ما يريد• ليس هنالك من يريد معه ، وليس هنالك من يحكم بعده ، ولا راد لما يحكم به •• وهذا هو حكمه فى حل ما يشاء وحرمة ما يشاء ••

ثم يستأنف نداء الذين آمنوا لينهاهم عن استحلال حرمات الله :

((يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله • ولا الشهر الحرام • ولا الهدى • ولا القلائد • ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا • واذا حللتم فاصطادوا ••)) •

وأقرب ما يتجه اليه الذهن فى معنى « شعائر الله » فى هذا المقام أنها شعائر الحج والعمرة وما تتضمنه من محرمات على المحرم للحج أو العمرة حتى ينتهى حجه بنحر الهدى الذى ساقه الى البيت الحرام ، فلا يستحلها المحرم فى فترة احرامه ، لأن استحلالها فيه استهانة بحرمة الله الذى شرع هذه

الشعائر ٠ وقد نسبها السياق القرآنى الى الله تعظيما لها ، وتحذيرا مـــن استحلالها ٠

والشهر الحرام يعنى الأشهر الحرم ، وهى رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم ٠ وقد حرم الله فيها القتال ـ وكانت العرب قبل الاســـلام تحرمها ـ ولكنها تتلاعب فيها وفق الأهواء ، فينسئونها ـ أى يؤجلونهـــا ـ بفتوى بعض الكهان ، أو بعض زعماء القبائل القوية ! من عام الى عام ٠ فلمـا جاء الاسلام شرع الله حرمتها ، وأقام هذه الحرمة على أمر الله ، يوم خـــلق الله السماوات والأرض كما قال فى آية التوبة : « ان عدة الشهور عند اللـه اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ٠ ذلك الدين القيم ٠٠ » وقرر أن النسىء زيادة فى الكفر ٠ واستقام الأمر فيهـا على أمر الله ٠٠ ما لم يقع الاعتداء فيها على المسلمين ، فان لهم حينئذ أن يردوا الاعتداء ، وألا يدعوا المعتدين يحتمون بالاشهر الحرم ـ وهم لا يرعـــون حرمتها ـ ويتترسون خلفها للنيل من المسلمين ، ثم يذهبون ناجين ! وبين الله حكم القتال فى الأشهر الحرم كما مر بنا فى سورة البقرة ٠

والهدى وهو الذبيحة التى يسوقها الحاج أو المعتمر ، وينحرها فى آخر أيام الحج أو العمرة ، فينهى بها شعائر حجه أو عمرته ٠ وهى ناقة أو بقرة أو شاة ٠٠ وعدم حلها معناه ألا ينحرها لأى غرض آخر غير ما سيقت له ، ولا ينحرها الا يوم النحر فى الحج وعند انتهاء العمرة فى العمرة ٠ ولا ينتفع من لحومها وجلودها وأشعارها وأوبارها بشىء ، بل يجعلها كلها للفقراء ٠

والقلائد ٠ وهى الأنعام المقلدة التى يقلدها أصحابها ـ أى يضعون فى رقبتها قلادة ـ علامة على نذرها لله ، ويطلقونها ترعى حتى تنحر فى موعـــد النذر ومكانه ـ ومنها الهدى الذى يشعر : أى يعلم بعلامة الهدى ويطلق الى موعد النحر ـ فهذه القلائد يحرم احلالها بعد تقليدها ، فلا تنحر الا لما جعلت له ٠٠ وكذلك قيل : ان القلائد هى ما كان يتقلد به من يريدون الأمان من ثأر أو عدو أو غيره ، فيتخذون من شجر الحرم ما يتقلدون به ، وينطلقـــون فى الأرض لا يبسط أحد يده اليهم بعدوان ـ وأصحاب هذا القول قالوا : ان ذلك قد نسخ بقول الله فيما بعد : « انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » ٠٠ وقوله : « فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم » ٠٠ والأظهر القول الأول ، وهو أن القلائد هى الأنعام المقلدة للنذور لله ، وقد جاء ذكرهـا بعد ذكر الهدى المقلد للنحر للحج أو العمرة ، للمناسبة بين هذا وذاك ٠

كذلك حرم الله آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ٠٠

وهم الذين يقصدون البيت الحرام للتجارة الحلال وطلب الرضوان من الله ٠٠ حجاجا أو غير حجاج ٠٠ وأعطاهم الأمان فى حرمة بيته الحرام ٠

ثم أحل الصيد متى انتهت فترة الاحرام ، فى غير البيت الحـــرام ، فلا صيد فى البيت الحرام :

((واذا حللتم فاصطادوا)) ٠٠

انها منطقة الأمان يقيمها الله فى بيته الحرام ، كما يقيم فترة الأمان فى الأشهر الحرم ٠٠ منطقة يأمن فيها الناس والحيوان والطير والشجر أن ينالها الأذى ٠ وأن يروعها العدوان ٠٠ انه السلام المطلق يرفرف على هذا البيت ، استجابة لدعوة ابراهيم ــ أبى هذه الأمة الكريم ــ ويرفرف على الأرض كلهـا أربعة أشهر كاملة فى العام ــ فى ظل الاسلام ــ وهو سلام يتــذوق القلب البشرى حلاوته وطمأنينته وأمنه ، ليحرص عليه ــ بشروطه ــ وليحفظ عقـد الله وميثاقه ، وليحاول أن يطبقه فى الحياة كلها على مدار العـام ، وفى كل مكان ٠٠

وفى جو الحرمات وفى منطقة الأمان ، يدعو الله الذين آمنوا به ، وتعاقدوا معه ، أن يفوا بعقدهم ، وأن يرتفعوا الى مستوى الدور الذى ناطه بهم ٠٠ دور القوامة على البشرية ، بلا تأثر بالمشاعر الشخصية ، والعواطف الذاتيـــة ، والملابسات العارضة فى الحياة ٠٠ يدعوهم ألا يعتدوا حتى على الذين صدوهم عن المسجد الحرام فى عام الحديبية ، وقبله كذلك ، وتـــركوا فى نفـــوس المسلمين جروحا وندوبا من هذا الصد ، وخلفوا فى قلوبهم الكره والبغض ٠ فهذا كله شىء ، وواجب الأمة المسلمة شىء آخر ٠ شىء يناسب دورها العظيم .

« ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ٠ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ٠ واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب » ٠٠

انها قمة فى ضبط النفس ، وفى سماحة القلب ٠٠ ولكنها هى القمـة التى لا بد أن ترقى اليها الأمة المكلفة من ربها أن تقوم على البشرية لتهديهـا وترتفع بها الى هذا الأفق الكريم الوضىء ٠

انها تبعة القيادة والقوامة والشهادة على الناس ٠٠ التبعة التى لا بد أن ينسى فيها المؤمنون ما يقع على أشخاصهم من الأذى ليقدموا للناس نموذجا من السلوك الذى يحققه الاسلام ، ومن التسامى الذى يصنعه الاسلام ٠ وبهـذا يؤدون للاسلام شهادة طيبة ، تجذب الناس اليه وتحببهم فيه ٠

وهو تكليف ضخم ، ولكنه ـ فى صورته هذه ـ لا يعنت النفس البشرية ، ولا يحملها فوق طاقتها • فهو يعترف لها بأن من حقها أن تغضب ، ومن حقها أن تكره • ولكن ليس من حقها أن تعتدى فى فورة الغضب ودفعة الشنآن •• ثم يجعل تعاون الأمة المؤمنة فى البر والتقوى ، لا فى الاثم والعدوان ، ويخوفها عقاب الله ، ويأمرها بتقواه ، لتستعين بهذه المشاعر على الكبت والضبط ، وعلى التسامى والتسامح ، تقوى لله ، وطلبا لرضاه •

ولقد استطاعت التربية الاسلامية ، بالمنهج الربانى ، أن تروض نفوس العرب على الانقياد لهذه المشاعر القوية ، والاعتياد لهذا السلوك الكريم •• وكانت أبعد ما تكون عن هذا المستوى وعن هذا الاتجاه •• كان المنهج العربى المسلوك والمبدأ العربى المشهور : « انصر أخـــاك ظالما أو مظلوما » •• كانت حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية • كان التعاون على الاثم والعدوان أقــــرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى ، وكان الحلف على النصرة ، فى البـاطل قبل الحق • وندر أن قام فى الجاهلية حلف للحق • وذلك طبيعى فى بيئــــة لا ترتبط بالله ، ولا تستمد تقاليدها ولا أخلاقها من منهج الله وميزان الله •• يمثل ذلك كله ذلك المبدأ الجاهلى المشهور : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » •• وهو المبدأ الذى يعبر عنه الشاعر الجاهلى فى صورة أخرى ، وهو يقول :

وهـــل أنا الا من غـــــزية ان غـــوت
غـــويت ، وان ترشـــد غـزية أرشد !

ثم جاء الاسلام •• جاء المنهج الربانى للتربية •• جاء ليقـــول للذين آمنـــوا :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتــدوا • وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان • واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب » ••

جاء ليربط القلوب بالله ، وليربط موازين القيم والأخلاق بميزان الله • جاء ليخرج العرب ويخرج البشرية كلها ـ من حمية الجاهلية ، ونعرة العصبية ، وضغط المشاعر والانفعالات الشخصية والعائلية والعشائرية فى مجال التعامل مع الأصدقاء والأعداء ••

وولد « الانسان » من جديد فى الجزيرة العربية •• ولد الانسان الذى يتخلق بأخلاق الله •• وكان هذا هو المولد الجديد للعرب ، كما كان هو المولد الجديد للانسان فى سائر الأرض •• ولم يكن قبل الاســـلام فى الجزيرة الا الجاهلية المتعصبة العمياء : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » • كذلك لم يـكن فى الأرض كلها الا هذه الجاهلية المتعصبة العمياء !

والمسافة الشاسعة بين درك الجاهلية ، وأفق الاسلام ، هي المسافة بين قول الجاهلية المأثور : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » . وقول الله العظيم : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا . وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وشتان شتان !

ثم يأخذ السياق فى تفصيل ما استثناه فى الآية الأولى من السورة من حل بهيمه الأنعام :

« حرمت عليكم الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، والمنخنقه ، والموقوذة ، والمترديه ، والنطيحه ، وما اكل السبع ــ الا ما ذكيتم ــ وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام .. ذلكم فسق .. اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا .. فمن اضطر فى مخمصة ــ غير متجانف لاثم ــ فان الله غفور رحيم » .

والميتة والدم ولحم الخنزير ، سبق بيان حكمها ، وتعليل هذا الحكم فى حدود ما يصل اليه العلم البشرى بحكمة التشريع الالهى ، عند استعراض آية سورة البقرة الخاصة بهذه المحرمات (ص ١٥٦ ــ ص ١٥٧ من الجزء الثانى من الظلال) وسواء وصل العلم البشري الى حكمة هذا التحريم أم لم يصل ، فقد قرر العلم الالهي أن هذه المطاعم ليست طيبة ، وهذا وحده يكفى . فالله لا يحرم الا الخبائث . والا ما يؤذى الحياة البشرية فى جانب من جوانبها . سواء علم الناس بهذا الأذى أو جهلوه .. وهل علم الناس كل ما يؤذى وكل ما يفيد ؟!

وأما المنخنقة (وهى التى تموت خنقا) والموقـودة (وهى التى تضرب يوحد الله ، ويفرده ــ سبحانه ــ بالألوهية ويرتب على هذا التوحيد مقتضياته . وأول هذه المقتضيات أن يكون التوجه الى الله وحده بكل نية وكل عمل ، وأن يهل باسمه ــ وحده ــ فى كل عمل وكل حركة ، وأن تصدر باسمه ــ وحده ــ كل حركة وكل عمل . فما يهل لغير الله به ، وما يسمى عليه بغير اسم الله (وكذلك ما لا يذكر اسم الله عليه ولا اسم أحد) حرام ؛ لأنه ينقض الايمان من أساسه ، ولا يصدر ابتداء عن ايمان .. فهو خبيث من هـذه الناحية ، يلحق بالخبائث الحسية من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأما المنخنقة (وهى التى تموت خنقا) والموقـوذة (وهى التى تضرب

بعصا أو خشبة أو حجر فتموت) والمتردية (وهى التى تتردى من سطح أو جبل او تتردى فى بئر فتموت) والنطيحة (وهى التى تنطحها بهيمة فتموت) وما اكل السبع (وهى الفريسة لاى من الوحش) ‥ فهى كلها أنواع مـــن الميتة اذا لم تدرك بالذبح وفيها الروح : (الا ما ذكيتم) فحكمها هو حكم الميتة ‥ انما فصل هنا لنفى الشبهة فى أن يكون لها حكم مستقل ‥ على أن هناك تفصيلا فى الأقوال الفقهية واختلافا فى حكم « التذكية » ، ومتى تعتبر البهيمة مذكاة ، فبعض الأقوال يخرج من المذكاة ، البهيمة التى يكون ما حل بها مـــن شأنه أن يقتلها سريعا ــ أو يقتلها حتما ــ فهذه حتى لو أدركت بالذبح لا تكون مذكاة . بينما بعض الأقوال يعتبرها مذكاة متى أدركت وفيها الروح ، أيا كان نوع الاصابة ‥ والتفصيل يطلب فى كتب الفقه المختصة ‥

وأما ما ذبح على النصب ــ وهى أصنام كانت فى الكعبة وكان المشركون يذبحون عندها وينضحونها بدماء الذبيحة فى الجاهلية ، ومثلها غيرها فى أى مكان ــ فهو محرم بسبب ذبحه على الأصنام ــ حتى لو ذكر اسم الله عليه ، لما فيه من معنى الشرك بالله .

ويبقى الاستقسام بالأزلام . والأزلام : قداح كانـــوا يستشيرونها فى الاقدام على العمل أو تركه . وهى ثلاثة فى قول ، وسبعة فى قول . وكانت كذلك تستخدم فى الميسر المعروف عند العرب ، فتقسم بواسطتها الجزور ــ أى الناقة التى يتقامرون عليها ــ اذ يكون لكل من المتقامرين قدح ، ثم تدار ، فاذا خرج قدح أحدهم كان له من الجزور بقدر ما خصص لهذا القدح ‥ فحرم الله الاستقسام بالأزلام ــ لأنه نوع من الميسر المحرم ــ وحرم اللحوم التى تقسم عن هذا الطريق ‥

‥ « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لاثم فان الله غفور رحيم » .

فالمضطر من الجوع ــ وهو المخمصة ــ الذى يخشى على حياته التلف ، له أن يأكل من هذه المحرمات ، ما دام أنه لا يتعمد الاثم ، ولا يقصد مقـــارفه الحرام . وتختلف آراء الفقهاء فى حد هذا الأكل : هل هو مجرد ما يحفـــظ الحياة . أو هو ما يحقق الكفاية والشبع . أو هو ما يدخر كذلك لأكلات أخرى اذا خيف انقطاع الطعام ‥ فلا ندخل نحن فى هذه التفصيلات ‥ وحسبنا أن ندرك ما فى هذا الدين من يسر ، وهو يعطى للضرورات أحـــكامها بلا عنت ولا حرج . مع تعليق الأمر كله بالنية المستكنة ، والتقوى الموكولة الى الله ‥ فمن أقدم مضطرا ، لا نية له فى مقارفة الحرام ولا قصد ، فلا اثم عليه اذن ولا عقاب :

« فان الله غفور رحيم » ..

* الأميون فى الجزيرة العربية يمثلون سفح الجاهلية الكاملة بكل مقوماتها الاعتقادية والتصورية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

* سورة النساء تجلو لنا كيف شاء السميع العليم أن يتحول هؤلاء الأميين الى خير أمة أخرجت للناس .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ، فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت ، حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما . فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما . ان الله كان توابا رحيما » ..

ان الاسلام يمضى هنا على طريقه ، فى تطهير المجتمع وتنظيفه ، وقد اختار ــ فى أول الأمر ــ عزل الفاحشات من النسوة ، وابعادهن عن المجتمع ، متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة . وايذاء الرجال ، الذين يأتون الفاحشة الشاذة ، ويعملون عمل قوم لوط . ولم يحدد نوع الايذاء ومداه ، ثم اختار ــ فيما بعد ــ عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجال أيضا عقوبة واحدة هى حد الزنا كما ورد فى آية سورة النور ، وهى الجلد ، وكما جاءت بها السنة أيضا ، وهى الرجم . والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث ، والمحافظة عليه نظيفا عفيفا شريفا .

وفى كل حالة وفى كل عقوبة يوفر التشريع الاسلامى الضمانات ، التى يتعذر معها الظلم والخطأ والأخذ بالظن والشبهة ، فى عقوبات خطيرة ، تؤثر فى حياة الناس تأثيرا خطيرا .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم . فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » ..

وفى النص دقة واحتياط بالغان . فهو يحدد النساء اللواتى ينطبق عليهن الحد : « من نسائكم » ــ أى المسلمات ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون على وقوع الفعل : « من رجالكم » ــ أى المسلمين ــ فحسب هذا النص يتعين من توقع عليهن العقوبة اذا ثبت الفعل . ويتعين من تطلب اليهم الشهادة على وقوعه .

ان الاسلام لا يستشهد على المسلمات ــ حين يقعن فى الخطيئة ــ رجالا غير مسلمين • بل لابد من أربعة رجال مسلمين • منكم • من هذا المجتمع المسلم • يعيشون فيه ، ويخضعون لشريعته ، ويتبعون قيادته ، ويهمهم أمره ، ويعرفون ما فيه ومن فيه • ولا تجوز فى هذا الامر شهادة غير المسلم ، لانه غير مأمون على عرض المسلمة ، وغير موثوق بأمانته وتقواه ، ولا مصلحة له ولا غيرة كذلك على نظافة هذا المجتمع وعفته ، ولا على اجراء العدالة فيه • وقد بقيت هذهالضمانات فى الشهادة حين تغير الحكم ، وأصبح هو الجلد أو الرجم ••

« فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت » ••

لا يختلطن بالمجتمع ، ولا يلوثنه ، ولا يتزوجن ، ولا يزاولن نشاطا •• « حتى يتوفاهن الموت » ••

فينتهى أجلهن ، وهى على هذه الحال من الامساك فى البيوت •

« أو يجعل الله لهن سبيلا » ••

فيغير ما بهن ، أو يغير عقوبتهن ، أو يتصرف فى أمرهن بما يشاء •• مما يشعر أن هذا ليس الحكم النهائى الدائم ، وانما هو حكم فترة معينة ، وملابسات فى المجتمع خاصة • وانه يتوقع صدور حكم آخر ثابت دائم • وهذا هو الذى وقع بعد ذلك ، فتغير الحكم كما ورد فى سورة النور ، وفى حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وان لم تتغير الضمانات المشددة فى تحقيق الجريمة •

قال الامام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة بن الصامت • قال : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذا نزل عليه الوحى أثر عليه ، وكرب لذلك ، وتغير وجهه • فأنزل الله عليه عز وجل ذات يوم ، فلما سرى عنه قال : « خذوا عنى •• قد جعل الله لهن سبيلا •• الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر • الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة • والبكر جلد مائة. ثم نفى سنة » •• وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق عن قتادة ، عن الحسن ، عن حطان ، عن عبادة بن الصامت • عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولفظه : « خذوا عنى • خذوا عنى • قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام • والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة » •• وقد ورد عن السنة العملية فى حادث ماعز والغامدية كما ورد فى صحيح مسلم : أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ

رجمهما ولم يجلدهما • وكذلك فى حادث اليهودى واليهودية اللذين حكم فى قضيتهما ، فقضى برجمهما ولم يجلدهما •• فدلت سنته العملية على أن هذا هو الحكم الأخير :

« واللذان يأتيانها منكم فآذوهما • فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان توابا رحيما » •

والأوضح أن المقصود بقوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم ••• » هما الرجلان يأتيان الفاحشة الشاذة • وهو قول مجاهد ـ رضى الله عنه ـ وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما : « فآذوهما » : هو الشتم والتعيير والضرب بالنعال !

« فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما » ••

فالتوبة والاصلاح ـ كما سيأتى ـ تعديل أساسى فى الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن ايذاء هذين المنحرفين الشاذين • وهذا هو الاعراض عنهما فى هذا الموضع : أى الكف عن الايذاء •

والايماءة اللطيفة العميقة :

« ان الله كان توابا رحيما » ••

وهو الذى شرع العقوبة ، وهو الذى يأمر بالكف عنها عند التوبة والاصلاح • ليس للناس من الامر شىء فى الاولى ، وليس لهم من الامر شىء فى الاخيرة • انما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه • وهو تواب رحيم • يقبل التوبة ويرحم التائبين •

واللمسة الثانية فى هذه الايماءة ، هى توجيه قلوب العباد للاقتباس من خلق الله والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق • واذا كان الله توابا رحيما ، فينبغى لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء ، أمام الذنب الذى سلف ، وأعقبه التوبة والاصلاح • انه ليس تسامحا فى الجريمة وليس رحمة بالفاحشين • فهنا لا تسامح ولا رحمة • ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين ، وقبولهم فى المجتمع ، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه ، وتطهروا منه ، وأصلحوا حالهم بعده ، فينبغى ـ حينئذ ـ مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة

كريمة ، ونسيان جريمتهم حتى لا تثير فى نفوسهم التأذى كلمـا واجهوا المجتمع بهـا ، مما قـد يحمل بعضهم على الانتكاس والارتكاس ، واللجاج فى الخطيئة ، وخسـارة أنفسهم فى الدنيا والآخرة • والافساد فى الارض ، وتلويث المجتمع ، والنقمة عليه فى ذات الاوان •

وقد عدلت هـذه العقوبة كذلك ـ فيما بعد ـ فروى أهـل السنن حديثا مرفوعا عن ابن عباس ـ رضى اللـه عنهما ـ قال : (قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من رأيتموه يعمل عمـل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ») •

وتبدو فى هـذه الاحكام عناية المنهج الاسلامى بتطهير المجتمع المسلم من الفاحشة ، ولقـد جاءت هـذه العناية مبكرة : فالاسـلام لم ينتظر حتى تكون له دولة فى المدينة ، وسـلطة تقوم على شريعة اللـه ، وتتولاها بالتنفيذ • فقد ورد النهى عن الزنا فى سـورة الاسراء المكية : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشـة وساء سبيلا » كما ورد فى سورة المؤمنون : : « قـد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون •• والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » •• وكرر هـذا القول فى سورة المعارج •

ولكن الاسلام لم تكن له فى مكة دولة ، ولم تكن له فيها سلطـة ، فلم يسن العقوبات لهـذه الجريمة التى نهى عنها فى مكـة ، الا حـين استقامت له الدولة والسـلطة فى المدينة ، ولم يعتبر النواهى والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة ، وصيانة المجتمع من التلوث • لان الاسلام دين واقعى ، يدرك أن النواهى والتوجيهات وحـدها لا تكفى ، ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سـلطة • وأن الدين هـو المنهج أو النظام الذى تقوم عليـه حياة الناس العملية ، وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش فى الضمير ، بلا سـلطة وبلا تشريع ، وبلا منهج محدد ، ودستور معلوم !

ومنذ أن استقرت العقيدة الاسلامية فى بعض القلوب فى مكـة ، أخذت هذه العقيدة تكافح الجاهلية فى هـذه القلوب ، وتطهرها وتزكيها • فلما أن أصبحت للاسـلام دولة فى المدينة ، وسـلطة تقوم على شريعة معلومة ، وتحقق فى الارض منهج اللـه فى صورة محددة ، أخـذ يزاول سلطته فى صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب ـ الى جانب التوجيـه والموعظة ـ فالاسلام كما قلنـا ليس مجرد اعتقاد وجدانى فى الضمير ، انما هو ـ الى جانب ذلك ـ سلطان ينفذ فى واقع الحيـاة ذلك الاعتقاد الوجدانى ، ولا يقوم أبدا على سـاق واحدة •

وكذلك كان كل دين جـــاء من عند الله ٠ على عكس ما رسخ خطـــأ في بعض الاذهان من أن هنـــاك اديانا سماوية جاءت بغير شريعه ٠ وبغير نظـــام ، وبغير سلطان ٠٠ كلا ! فالدين منهج للحياة ٠ منهج واقعى عملى ٠ يدين الناس فيه لله وحـــده ، ويتلقون فيه من الله وحـــده ٠ ويتلقـون التصور الاعتقادى والقيم الاخلاقية ، كما يتلقون الشرائع التى تنظم حياتهم العملية ٠ وتقوم على هـــذه الشرائع ســلطة تنفذها بقوة السلطان فى حياة الناس ، وتؤدب الخارجين عليها وتعاقبهم ، وتحمى المجتمع من رجس الجاهلية٠ لتكون الدينونة للـــه وحـــده ، ويكون الدين كله لله ٠ أى لا تكون هنـــاك آلهة غيره ــ فى صورة من الصور ــ آلهـــة تشرع للناس ، وتضـع لهم القيم والموازين ، والشرائع والانظمة ٠ فالاله هو الذى يصنع هـــذا كله ٠ وأيما مخلوق ادعى لنفســـه الحق فى شيء من هـــذا فقد ادعى لنفســـه الألوهية على الناس ٠٠ وما من دين من عند اللـــه يسمح لبشر أن يكون الها ، وأن يدعى لنفســـه هذه الدعوى ، ويباشرها ٠٠ ومن ثم فانه ما من دين من عنـد الله يجيء اعتقادا وجدانيا صرفا ، بلا شريعة عملية ، وبلا ســلطان ينفذ به هذه الشريعة !

وهكذا أخذ الاسلام فى المدينة يزاول وجوده الحقيقى ، بتطهير المجتمع عن طريق التشريع والتنفيذ ، والعقوبة والتأديب ٠ على نحو ما رأينـــا فى هـــذه الاحكام التى تضمنتها هـــذه السورة ، والتى عدلت فيما بعد ، ثم استقرت على ذلك التعديل ٠ كما أرادها الله ٠

ولا عجب فى هـــذه العنـــاية الظاهرة بتطهير المجتمع من هـــذه الفاحشة ، والتشدد الظاهر فى مكافحتها بكل وسيلة ٠ فالســـمة الاولى للجاهلية ــ فى كل زمان ــ كما نرى فى جاهليتنا الحاضرة التى تعم وجـــه الارض ــ هى الفوضى الجنسية ، والانطلاق البهيمى ، بلا ضابط من خلق أو قانون ٠ واعتبـــار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرا من مظاهر « الحرية الشخصية » لا يقف فى وجهها الا متعنت ! ولا يخرج عليها الا متزمت!

ولقد يتسامح الجاهليون فى حرياتهم « الانسانية » كلها ، ولا يتسامحون فى حريتهم « البهيمية » هـــذه ! وقـــد يتنازلون عن حرياتهم تلك كلها ، ولكنهم يهبون فى وجـــه من يريد أن ينظم لهم حريتهم البهيمية ويطهرها !

وفى المجتمعـــات الجاهلية تتعـــاون جميع الاجهزة على تحطيم الحواجز الاخلاقية ، وعلى افساد الضوابط الفطرية فى النفس الانسانية وعلى تزيين الشهوات البهيمية ووضع العناوين البريئة لها ، وعلى اهاجة السعار الجنسى بشتى الوسائل ، ودفعه الى الافضاء العملى بلا ضابط ، وعلى توهين ضوابط

الاسرة ورقابتها ، وضوابط المجتمع ورقابته ، وعلى ترذيل المشـاعر الفطرية السليمة التى تشمئز من الشهوات العارية ، وعلى تمجيد هذه الشهوات وتمجيد العرى العاطفى والجسدى والتعبيرى !

كل هـذا من سمات الجاهلية الهابطة التى جـاء الاسـلام ليطهر المشـاعر البشرية والمجتمعات البشرية منها . وهى هى بعينها سمـة كل جاهلية .. والذى يراجع أشـعار امرىء القيس فى جاهلية العرب يجـد لها نظائر فى أشعار الجاهلية الاغريقية والجاهلية الرومانية .. كما يجد لهـا نظائر فى الآداب والفنون المعاصرة فى جاهلية العرب والجاهليات الأخـرى المعاصرة أيضا ! كما أن الذى يراجع تقاليد المجتمع ، وتبـذل المرأة ، ومجون العشـاق ، وفوضى الاختلاط فى جميع الجاهليات قديمها وحديثها يجـد بينها كلها شبها ورابطة ، ويجدها تنبع من تصورات واحدة ، وتتخذ لهـا شعارات متقاربة !

ومع أن هذ الانطلاق البهيمى ينتهى دائما بتدمير الحضارة وتدمير الامة التى يشيع فيها ـ كما وقع فى الحضارة الاغريقية ، والحضارة الرومانية ، والحضارة الفارسية قديما ـ وكما يقع اليوم فى الحضـارة الاوربية وفى الحضارة الامريكية كذلك ، وقـد أخذت تتهاوى على الرغم من جميع مظاهر التقدم الساحق فى الحضارة الصناعية . الأمر الذى يفزع العقلاء هنـاك . وان كانوا يشعرون ـ كما يبدو من أقوالهم ـ بأنهم أعجز من الوقوف فى وجه التيار المدمر !

مع أن هـذه هى العاقبة ، فان الجاهليين ـ فى كل زمـان وفى كل مكان ـ يندفعون الى الهاوية ، ويقبلون أن بفقدوا حرياتهم « الانسانية » كلها أحيانا ، ولا يقبلون أن يقف حاجز واحد فى طريق حريتهم « البهيمية » . ويرضون أن يستعبدوا استعباد العبيد ، ولا يفقدوا حق الانطلاق الحيوانى !

وهو ليس انطلاقا ، وليس حرية . انما هى العبودية للميل الحيوانى والانتكاس الى عالم البهيمة ! بـل هم أضـل ! فالحيوان محكوم ـ فى هـذا ـ بقانون الفطرة ، التى تجعل للوظيفة الجنسية مواسم لا تتعداها فى الحيوان ، وتجعلها مقيدة دائما بحكمة الاخصاب والانسال . فلا تقبل الأنثى الذكر الا فى موسم الاخصاب ، ولا يهاجم الذكر الانثى الا وهى على استعداد ! أما الانسان فقد تركه الله لعقله ، وضبط عقله بعقيدته . فمتى إنطلق من العقيدة ، ضعف عقله أمـام الضغط ، ولم يصبح قادرا على كبح جماح النزوة المنطلقة فى كيانه . ومن ثـم يستحيل ضبط هـذا الاندفاع وتطهير وجـه

المجتمع من هـــذا الرجس ، الا بعقيدة تمسك بالزمام ، وســـلطان يستمد من هـذه العقيدة ، وسلطة تأخذ الخارجين المتبجحين بالتأديب والعقوبة . وترد الكائن البشرى بـــل ترفعه من درك البهيمة الى مقـــام « الانسان » الكريم على اللـــه .

والجاهلية التى تعيش فيها البشرية ، تعيش بلا عقيدة ، كما تعيش بلا سلطة تقوم على هـــذه العقيدة ، ومن ثم يصرخ العقـــلاء فى الجاهليـــات الغربية ولا يستجيب لهم أحـــد ، لأن أحـــدا لا يستجيب لكلمات طائرة فى الهواء ليس وراءها سلطة تنفيذية وعقوبات تأديبية . وتصرخ الكنيســـة ويصرخ رجال الدين ولا يستجيب لهم أحـــد ، لأن أحـــدا لا يستجيب لعقيدة ضائعة ليس وراءها ســـلطة تحميها ، وتنفذ توجيهاتها وشرائعها ! وتندفع البشرية الى الهاويـــة بغير ضـــابط من الفطرة التى أودعهـــا الله الحيوان ! وبغير ضابط من العقيدة والشريعة التى أعطاها الله الانسان !

وتدمير هـــذه الحضارة هو العاقبة المؤكدة ، التى توحى بهـــا كل تجارب البشرية السابقة . مهما بدا من متـــانة هـــذه الحضارة ، وضخامة الأسس التى تقوم عليها . « فالانسان » بلا شك ــ هو أضخم هـــذه الاسس . ومتى دمر الانســـان ، فلن تقوم الحضارة على المصانع وحـــدها ، ولا على الانتـــاج !

وحين ندرك عمق هـــذه الحقيقة ، ندرك جانبا من عظمة الاسلام ، فى تشديد عقوباته على الفاحشـــة لحماية « الانسان » من التدمير ، كى تقوم الحياة الانسانية على أساسها الانسانى الاصيل .. كما ندرك جانبا من جريمة الأجهزة التى تدمر أسس الحياة الانسانية بتجميد الفاحشة وتزيينها ، واطلاق الشهوات البهيمية من عقالها ، وتسمية ذلك أحيانا « بالفن » وأحيانا «بالحرية» وأحيانا « بالتقدمية » .. وكل وســـيلة من وسائل تدمير « الانســـان » ينبغى تسميتها باسمها .. جريمة .. كما ينبغى الوقوف بالنصح والعقوبة فى وجـــه هـــذه الجريمة ! .. وهـــذا ما يصنعه الاسلام . والاســلام وحده ، بمنهجه الكامل المتكامل القويم .

* والموضوع الثانى فى هـــذا الدرس هو موضوع المرأة ..

ولقد كانت الجاهلية العربية ــ كما كانت ســـائر الجاهليات من حولهم ــ تعامل المرأة معاملة سيئة .. لا تعرف لهـــا حقوقها الانسانية ، فتنزل بهـــا عن منزلة الرجـــل نزولا شنيعا ، يدعها أشـــبه بالسلعة منها بالانسان . وذلك فى الوقت الـــذى تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنـــة

للنفوس . واغـراء للغرائز ومـادة للتشـهى والغـزل العـارى المكشـوف .. فجـاء الاسـلام ليرفع عنهـا هـذا كله ، ويردهـا الى مكانها الطبيعى فى كيان الاسرة والى دورها الجدى فى نظـام الجماعة البشرية . المكان الذى يتفق مع المبدأ العام الذى قرره فى مفتتح هـذه السورة : « الـذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها . وبث منهما رجالا كثيرا ونسـاء » .. ثم ليرفع مسـتوى المشـاعر الانسانية فى الحياة الزوجية من المستوى الحيوانى الهابط الى المستوى الانسانى الرفيع ، ويظللها بظلال الاحترام والمـودة والتعاطف والتجمل ، وليوثق الروابـط والوشائج ، فلا تنقطع عند الصدمة الاولى ، وعند الانفعال الأول :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ الا أن يأتين بفاحشـة مبينة ـ وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ، ويجعـل اللـه فيـه خيرا كثيرا . وان أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم احـداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقـد أفضى بعضكم الى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ ولا تنكحوا مـا نكح آباؤكم من النساء ـ الا ما قـد سلف ـ انه كان فاحشـة ومقتا وسـاء سبيلا » ..

كان بعضهم فى الجاهلية العربية قبـل أن ينتشل الاسلام العرب من هـذه الوهدة ويرفعهم الى مستواه الكريم ـ اذا مـات الرجل منهم فأولياؤه أحق بامرأته ، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات ! ان شـاء بعضهم تزوجهـا ، وان شاءوا زوجوها وأخـذوا مهرها ـ كما يبيعون البهـائم والمتروكات ! وان شاءوا عضلوها وأمسكوها فى البيت . دون تزويج ، حتى تفتدى نفسها بشىء ..

وكان بعضهم اذا توفى عن المرأة زوجها جـاء وليه فألقى عليها ثوبه ، فمنعها من الناس ، وحازها كما يحوز السلب والغنيمة ! فان كانت جميلـة تزوجها ، وان كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، أو تفتدى نفسـها منه بمال ، فأما اذا فاتته فانطلقت الى بيت أهلها قبل أن يدركها فيلقى عليها ثوبه ، فقد نجت وتحررت وحمت نفسها منه !

وكان بعضهم يطلق المرأة ، ويشترط عليها ألا تنكح الا من أراد ، حتى تفتدى نفسها منه ، بما كان أعطاها .. كله أو بعضه !

وكان بعضهم اذا مات الرجـــل حبسوا امرأته على الصبى فيهم حتى يكبر فيأخذها !

وكان الرجل تكون اليتيمة فى حجره يلى أمرها ، فيحبسها عن الزواج ـ حتى يكبر ابنه الصغير ليتزوجها ، ويأخذ مالها !

وهكذا . وهكذا . مما لا يتفق مع النظرة الكريمة التى ينظر بهـــا الاسلام لشقى النفس الواحدة ، ومما يهبط بانسانية المرأة وانسانية الرجل على السواء .. ويحيل العلاقة بين الجنسين علاقة تجار ، أو علاقة بهائم !

ومن هـــذا الدرك الهابط رفع الاســـلام تلك العلاقة الى ذلك المستوى العالى الكريم ، اللائق بكرامة بنى آدم ، الذين كرمهم اللـــه وفضلهم على كثير من العالمين . فمن فكرة الاســـلام عن الانسان ، ومن نظرة الاسلام الى الحياة الانسانية ، كان ذلك الارتفاع ، الذى لم تعرفه البشرية الا من هـــذا المصدر الكريم .

حرم الاسلام وراثة المرأة كما تورث الســـلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الـــذى تسامه المرأة ، ويتخذ أداة للاضرار بها ـ الا فى حـالة الاتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حـــد الزنا المعروف ـ وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافا . بكر أو ثيبا مطلقة او متوفى عنهـا زوجها . وجعل العشرة بالمعروف فريضـــة على الرجال ـ حتى فى حـــالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة ـ ونسم فى هـــذه الحالة نسمة الرجـــاء فى غيب الله وفى علم اللـــه . كى لا يطـــاوع المرء انفعاله الأول ، فيبت وشيجة الزوجية العزيزة . فما يدريه أن هنالك خيرا فيمـــا يكره ، هو لا يدريه . خيرا مخبوءا كامنا ، لعله كظم انفعاله واستبقى زوجـه سيلاقيه :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ـ الا أن يأتين بفاحشة مبينـــــة ، وعاشروهن بالمعروف . فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شـــيئا ، ويجعل الله فيـــه خيرا . كثيرا » ..

وهذه اللمسة الاخيرة فى الآية ، تعلق النفس بالله ، وتهدىء من فورة الغضب ، وتفثـــأ من حـــدة الكره ، الاجتماعى .. يريدون أن ينطلق السعار الجنسى المحموم بلا حاجز ولا كابح ، من أى لون كان . الســـعار المحموم

الذى لا يقر معـــه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معـــه بيت ، ولا يسلم معـــه عرض ، ولا تقوم معـــه أسرة • يريدون أن يعود الآدميون قطعانا من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الاناث بلا ضابط الا ضابط القوة أو الحيلة أو مطلق الوسيلة ! كل هـــذا الدمار ، وكل هـــذا الفساد ، وكل هـــذا الشر باسم الحرية وهى ـ فى هـــذا الوضع ـ ليست سوى اسـم آخر للشهوة والنزوة !

وهذا هو الميل العظيم الذى يحذر اللـــه المؤمنين اياه ، وهو يحذرهم ما يريده لهم الذين يتبعون الشهوات • وقد كانوا يبذلون جهدهم لرد المجتمع المسلم الى الجاهلية فى هـــذا المجال الاخلاقى ، الذى تفوقوا فيـــه وتفردوا بفعل المنهج الالهى القويم النظيف • وهو ذاته ما تريده اليوم الاقلام الهابطة والاجهزة الموجهـــة لتحطيم ما بقى من الحواجز فى المجتمع دون الانطـــلاق البهيمى ، الذى لا عاصم منه ، الا منهج الله ، حين تقره العصبة المؤمنة فى الارض ان شاء الله •

واللمسة الاخيرة فى التعقيب تتولى بيان رحمة الله بضعف الانسان ، فيما يشرعه له من منهج وأحكام والتخفيف عنـــه ممن يعلم ضعفه ، ومراعاة اليسر فيما يشرع له ، ونفى الحرج والمشقة والضرر والضرار •

« يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا » ••

فأما فى هـــذا المجال الذى تسنهدفه الآيات السابقة ، ومـــا فيها من تشريعات وأحكام وتوجيهات ، فارادة التخفيف واضحة ، تتمثل فى الاعتراف بدوافع الفطرة ، وتنظيم الاستجابة لهـــا وتصريف طاقتهـــا فى المجال الطيب المأمون المثمر ، وفى الجو الطاهر النظيف الرفيع ، دون أن يكلف اللـــه عباده عنتـــا فى كبتها حتى المشقة والفتنة ، ودون أن يطلقهم كذلك ينحدرون فى الاستجابة لها بغير حد ولا قيد •

وأما فى المجال العام الـــذى يمثله المنهج الالهى لحياة البشر كلهـــا فارادة التخفيف تبدو كذلك واضحة ، بمراعاة فطرة الانســـان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ، واطلاق كل طاقاته البانية • ووضع السياج الـــذى يقيها التبدد وسوء الاستعمال !

وكثيرون يحبسون أن التقيد بمنهج اللـــه ـ وبخاصة فى عـــلاقات

الجنسين — شاق مجهد • والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير •• فاطلاق الشهوات من كل قيد ، وتحرى اللذة — واللذة وحدها — في كل تصرف ، واقصاء « الواجب » الذي لامكان له اذا كانت اللذة وحدها هي الحكم الاول والاخير ، وقصر الغاية من التقاء الجنسين في عالم الانسان على ما يطلب من مثل هذا الالتقاء في عالم البهائم ، والتجرد في علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقي ، ومن كل التزام اجتماعي •• ان هذه كلها تبدو يسرا وراحة وانطلاقا • ولكنها في حقيقتها مشقة وجهد وثقلة • وعقابيلها في حياة المجتمع — بل في حياة كل فرد — عقابيل مؤذية مدمرة ماحقة ••

والنظر الى الواقع في حياة المجتمعات التي « تحررت ! » من قيود الدين والاخلاق والحياء في هذه العلاقة ، يكفي لالقاء الرعب في القلوب- لو كانت هنالك قلوب !

لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المعول الاول الذي حطم الحضارات القديمة • حطم الحضارة الاغريقية وحطم الحضارة الرومانية وحطم الحضارة الفارسية • وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارةالغربية الراهنة ، وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة في انهيارات فرنسا التي سبقت في هذه الفوضى ، وبدأت هذه الآثار تظهر في أمريكا والسويد وانجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة •

وقد ظهرت آثار هذه الفوضى في فرنسا مبكرة ، مما جعلها تركع على أقدامها في كل حرب خاضتها منذ سنة ١٨٧٠ الى اليوم ، وهي في طريقها الى الانهيار التام ، كما تدل جميع الشواهد • وهذه بعض الامارات التي أخذت تبدو واضحة من بعد الحرب العالمية الاولى :

« ان أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم : اضمحلال قواهم الجسدية ، وتدرجها الى الضعف يوما فيوما • فان الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ، وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم، وطغيان الامراض السرية قد أجحف بصحتهم • فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين • لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الايام •• وهذا مقياس أمين • يدلنا كدلالة مقياس الحرارة — في الصحة والتدقيق — على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في

الأمـة الفرنســية ٠ ومن أهم عوامل هــذا الاضمحلال : الامراض السرية الفتاكة ٠ يــدل على ذلك أن كان عــدد الجنود الذين اضطرت الحكومة الى أن تعفيهم من العمل ، وتبعث بهم الى المستشفيات ، فى السنتين الاوليين من سنى الحرب العالمية الاولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهرى ، خمسة وسبعين ألفــا ٠ وابتلى بهـذا المرض وحده ٢٤٢ جنديا فى آن واحــد فى ثكنة متوسطة ٠ وتصور ـ بالله ـ حـال هـذه الامة البائسة فى الوقت الذى كانت فيـه ـ بجانب ـ فى المضيق الحرج بين الحيــاة والموت ، فكانت أحوج ما تكون الى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين لسـلامتها وبقائها ٠ وكان كل فرنك من ثروتها مما يضن بـه ويوفر ، وكانت الحال تدعـو الى بـذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وســائر الادوات والوسائل فى سبيل الدفاع ٠ وكان ـ بجانب آخر ـ أبناؤها الشــباب الذين تعطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع ، من جراء انغماسهم فى اللذات ، ومــا كفى أمتهم ذلك خسرانا ، بـل ضيعوا جانبا من ثروة الأمــة ووسائلها فى علاجهم ٠ فى تلك الاوضاع الحرجة ٠

يقول طبيب فرنسى نطاسى يدعى الدكتور ليريه : انه يموت فى فرنســا ثلاثون ألف نسمة بالزهرى ، وما يتبعه من الامراض الكثيرة فى كل ســنة ٠ وهـذا المرض هو أفتك الامراض بالامة الفرنسية بعد حمى « الدق » ٠ وهذه جريرة مرض واحد من الامراض السرية التى فيها عــدا هـذا أمراض كثيرة أخرى » ٠

والامة الفرنسية يتناقض تعدادها بشــكل خطير : ذلك أن سهولة تلبية الميل الجنسى ، وفوضى العلاقات الجنســية والتخلص من الاجنــة والمواليد ، لا تدع مجالا لتكوين الاسرة ، ولا لاستقرارها ولا لاحتمال تبعـة الاطفال الذين يولدون من الالتقاء الجنسى العابر ٠ ومن ثم يقل الزواج ، ويقل التناسل ، وتتدحرج فرنسا منحدرة الى الهاوية ٠

« سبعة أو ثمانية فى الالف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون فى فرنسا اليوم ٠ ولك أن تقدر من هــذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التى لا تتزوج من أهاليها ٠ ثم هــذا النزر القليل من الذين يعقدون الزواج ، قــل فيهم من ينوون به التحصن والتزام المعيشة البرة الصالحة بــل هم يقصدون به كل غرض ســوى هــذا الغرض ٠ حتى انه كثيرا ما يكون من مقاصد زواجهم أن يحللوا به الولد النغــل الذى قـد ولدته أمــه قبل النكاح ! ويتخذوه ولدا شرعيا ! فقد كتب « بول بيورو » : من العادة الجارية فى طبقة العاملين فى فرنسا أن المرأة منهم تأخــذ من خدنها ميثاقا قبــل أن

يعقد بينهما النكاح ، أن الرجـــل سيتخذ ولدها الذى ولدته قبل النكاح ولدا شرعيا له • وجاءت امرأة فى محكمة الحقوق بمدينة ســـين Siene فصرحت : اننى كنت قد آذنت بعلى عن النكاح بأنى لا أقصـــد بالـــزواج الا استحلال الاولاد الذين ولدتهم نتيجة اتصالى به قبل النكاح • وأما أن أعاشره وأعيش معه كزوجة ، فما كان فى نيتى عند ذاك ، ولا هـــو فى نيتى الآن • ولذلك اعتزلت زوجى فى أصيل اليوم الذى تم فيـــه رواجنا ، ولم ألتق به الى هـــذا اليوم ، لأنى كنت لا أنوى قط أن أعاشره معاشرة زوجية •

« قال عميد كلية شهيرة فى باريس لبول بيورد : ان عامة الشـــباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغى فى بيتهم أيضـــا • ذلك أنهم يظلون مدة عشر سنين أو أكثر يهمون فى أودية الفجور أحرارا طلقـــاء • ثم يأتى عليهم حين من دهرهم يملون تلك الحيـــاة الشريدة المتقلقلة ، فيتزوجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينته ، ولـــذة المخادنة الحرة خارج البيت » •

وهكذا تدهورت فرنسا • وهكذا هزمت فى كل حرب خاضتها ، وهـكذا تتوارى عن مسرح الحضارة ثم عن مسرح الوجود يوما بعد يوم • حتى تحق سنة الله التى لا تتخلف ، وان بدت بطيئة الدوران فى بعض الأحيـان ! بالقياس الى تعجل الانسان !

أما فى الدول التى لا تزال تبدو فتية ، أو لم تظهر فيهـــا آثار الدمار واضحة بعد ، فهذه نماذج مما يجرى فيها :

يقول صحفى ممن زاروا السويد حديثا •• بعد أن يتحدث عن « حرية الحب فى السويد ، وعن الرخاء المـــادى ، والضمانات الاجتماعية فى مجتمعها الاشتراكى النموذجى :

« اذا كانت أقصى أحلامنا أن نحقق للشعب هـــذا المستوى الاقتصادى الممتاز ، وأن نزيل الفوارق بين الطبقات بهـــذا الاتجاه الاشتراكى الناجح ، وأن نؤمن المواطن ضـــد كل ما يستطيع أى عقـــل أن يتصوره من أنواع العقبات فى الحياة •• اذا وصلنا الى هـــذا الحلم البهيج الذى نسعى بكل قوانا وامكانياتنا الى تحقيقه فى مصر •• فهل نرضى نتائجها الاخرى ؟ هـــل

نقبل الجانب الاسود من هذا المجتمع المثـالى ؟ هل نقبل « حـرية الحب ، وآثارها الخطيرة على كيان الاسرة ؟

« دعونا نتحدث بالارقام ... » .

« مع وجود كل هـذه المشجعات على الاستقرار فى الحياة ، وتكوين أسرة ، فان الخط البيانى لعـدد سكان السويد يميل الى الانقراض ! .. مع وجود الدولة التى تكفل للفتاة اعانة زواج ، ثم تكفل لطفلها الحيـاة المجانية حتى يتخرج فى الجامعة ، فان الاسرة السويدية فى الطريق الى عـدم انجاب أطفال على الاطلاق !

« يقابل هـذا انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين . وارتفاع مستمر فى نسبة عـدد المواليد غير الشرعيين . مع ملاحظة أن عشرين فى المـائة من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبدا .

« لقد بدأ عهد التصنيع . وبدأ معـه المجتمع الاشتراكى فى السويد عام ١٨٧٠ . كانت نسبة الامهات ـ غير المتزوجات ـ فى ذلك العام ٧ فى المـائة ، وارتفعت هـذه النسبة فى عـام ١٩٢٠ الى ١٦ فى المـائة . والاحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها . ولكنها ولا شك مستمرة فى الزيادة .

« وقد أجرت المعاهد العلمية عـدة استفسارات عن « الحب الحر » فى السويد ، فتبين منها أن الرجل تبدأ علاقاته الجنسية بدون زواج فى سن الثامنة عشرة . والفتاة فى سن الخامسة عشرة . وأن ٩٥ فى المـائة من الشبان فى سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية !

واذا أردنا تفصيلات تقنع المطالبين بحرية الحب ، فاننـا نقول : ان ٧ فى المـائة من هـذه العلاقات الجنسية مع خطيبات ، و٣٥ فى المائة منها مع حبيبات ! و ٥٨ فى المائة منها مع صديقات عابرات !

« واذا سجلنا النسب عن علاقة المرأة الجنسية بالرجل قبل سن العشرين . وجدنا أن ٣ فى المائة من هـذه العلاقات مع أزواج . و ٢٧ فى المائة منهـا مع خطيب ! و ٦٤ فى المائة منها مع صديق عابر !

« وتقول الابحاث العلمية : ان ٨٠ فى المائة من نسـاء السويد مارسن علاقات جنسية كاملة قبل الزواج و ٢٠ فى المائة بقين بلا زواج !

« وأدت حرية الحب بطبيعة الحال الى الزواج المتأخر ، والى الخطبة الطويلة الاجل .. مع زيادة الاطفال غير الشرعيين لما قلت ٠

« والنتيجة الطبيعية بعد ذلك أن يزيد تفكك الاسرة ٠٠ ان أهـــل السويد يدافعون عن « حرية الحب » بقولهم : ان المجتمع السويدى ينظر نظرة احتقار الى الخيانة بعد الزواج ، اى مجتمع متمدن آخر ! وهـــــذا صحيـــح لا ننكره ! ولكنهم لا يستطيعون الدفاع عن الاتجاه الى انقراض النسل ٠ ثم الزيادة المروعة فى نســـبة الطلاق ٠

« ان نسبة الطلاق فى السويد هى أكبر نسبة فى العالم ٠ ان طلاقا واحدا يحدث بين كل ست أو سبع زيجات ، طبقـــا للاحصاءات التى أعدتها وزارة الشئون الاجتماعية بالسويد ٠ والنسبة بدأت صغيرة ، وهى مستمرة فى الزيادة ٠٠ فى عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقا بين كل ١٠٠ ألف من السكان ــ ارتفع هـــذا الرقم الى ١٠٤ فى عام ١٩٥٢ ، ثم ارتفع الى ١١٤، فى عام ١٩٥٤ ٠

« وسبب ذلك أن ٣٠ فى المـــائة من الزيجات تتم اضطرارا تحت ضغط الظروف ، بعد أن تحمل الفتاة والزواج يحكم « الضرورة » لايدوم بطبيعة الحال كالزواج العـــادى ٠ ويشجع على الطلاق أن القانون السويدى لايضع أية عقبة أمـــام الطلاق اذا قرر الزوجان انهما يريدان الطلاق ٠ فالأمر سهل جـــدا ، واذا طلب أحدهما الطلاق ٠ فان أى سبب بســـيط يقدمه ، يمكن أن يتم به الطلاق !

« واذا كانت حرية الحب مكفولة فى السويد ٠٠ فهناك حرية أخـرى يتمتع بها غالبية أهـــل السويد ٠٠ انها حرية عدم الايمان بالله ! لقـــد انتشرت فى السويد الحركات التحررية من ســـلطان الكنيسة على الاطلاق٠ وهـــذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضا ٠ المدرسون فى المـــدارس والمعاهد يدافعون عن هـــذه الحرية ويبثونها فى عقول النشء والشباب ٠

« والجيل الجديد ينحرف ٠٠ وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد فى السويد وباقى دول اسكندنافيا ٠ ان افتقادهم للايمان يجرفهم الى الانجراف والى الادمان على المخدرات والخمور ٠٠ وقـــد قدر عـدد أطفال العائلات التى لها أب مدمن بحوالى ١٧٥ ألفا ٠ أى ما يوازى ١٠ فى المائـة من مجموع أطفال العائلات كلها ٠ واقبـــال المراهقين على ادمان الخمر يتضاعف ٠٠ ان من يقبض عليهم البوليس السويدى فى حالة ســـكر شديد من المراهقين بين

سن ١٥ ، ١٧ يوازى ثلاثة أمثــال عـدد المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عاما • وعـــادة الشرب بين المراهقين والمراهقات تسير من سيىء الى أسوأ •• ويتبع ذلك حقيقة رهيبة •

« إن عشر الذين يصلون الى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقلية ! ويقول أطبــاء السويد : ان ٥٠ في المــائة من مرضاهم يعانون من اضطرابات عقلية تلازم أمراضهم الجسدية • ولا شك أن التمادى في التمتع بحرية عـــدم الايمان سيضاعف هـــذه الانحرافات النفسية ، ويزيد من دواعى تفكك الاسرة • ويقربهم الى هوة انقراض النسل ••• » •

والحال في أمريكا لا تقل عن هــذه الحال • ونذر السوء تتوالى • والامة الامريكية في عنفوانها لا تتلفت للنذر • ولــكن عوامل التدمير تعمل فى كيانها ، على الرغم من هـــذا الرواء الظاهرى ، وتعمل بسرعة ، ممـــا يشى بسرعة الدمار الداخلى على الرغم من كل الظواهر الخارجية ! ! !

لقد وجد الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لاعدائهم . لا لأنهم فى حاجة الى المــال : ولكن لان بهم شذوذا جنسيا ، ناشئا من آثـار الفوضى الجنسية السائدة فى المجتمع •

وقبل سنوات وضع البوليس الأمريكى يـده على عصابة ضخمة ذات فروع فى مدن شتى • مؤلفة من المحامين والاطباء ــ أى من قمة الطبقة المثقفة ــ مهمتها مساعدة الأزواج والزوجات على الطلاق بايجاد الزوج أو الزوجـــه فى حالة تلبس بالزنا ، وذلك لان بعض الولايات لا تزال تشترط هـــذا الشرط لقبول توقيع الطلاق ! ومن ثم يستطيع الطرف الكاره أن يرفع دعوى على شريكه بعد ضبطه عن طريق هـــذه العصابة متلبسا ، وهى التى أوقعته فى حبائلها !

كذلك من المعروف أن هنـاك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الازوا(الهاربين ! وذلك فى مجتمع لا يدرى فيـــه الزوج أن كان سيعود فيجد زوجته فى الدار أم يجدها قـــد طارت مع عشيق ! ولاتدرى الزوجـــة ان كان زوجها الذى خرج فى الصباح سيعود اليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشـــد جاذبية ! مجتمع تعيش البيوت فيه فى مثـــل هذا القلق الذى لا يدع عصبا يستريح ! ! !

وأخيرا يعلن رئيس الولايات المتحدة أن ســـتة من كل ســـبعة من

شباب أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقى الذى يعيشون فيه .

وقد تنبت احدى المجلات الامريكية منذ أكثر من ربع قرن تقول :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم .. وهى جميعها فى تسعير سعير لاهل الارض . أولها : الأدب الفاحش الخليع الذى لا يفتأ يزداد فى وقاحة ورواجة بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعه عجيبة . والثانى الافلام السينمائية التى لا تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى فحسب ، بل تلقنهم دروسا عملية فى بابه . والثالث انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء ، الذى يظهر فى ملابسهن ، بل فى عريهن ، وفى اكثارهن من التدخين ، واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. هذه المفاسد الثلاث فينا الى الزيادة والانتشار بتوالى الأيام . ولا بد أن يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الأمر . فان نحن لم نحد من طغيانها ، فلا جرم أن يأتى تاريخنا مشابها لتاريخ الرومان ، ومن تبعهم من سائر الأمم ، الذين قد أوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خمر ونساء ، أو مشاغل رقص ولهو وغناء » .

والذى حدث أن أمريكا لم تحد من طغيان هذه العوامل الثلاثة ، بل استسلمت لها تماما وهى تمضى فى الطريق الذى سار فيه الرومان !

ويكتب صحفى آخر عن موجة انحراف الشباب فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا ، ليهون من انحلال شبابنا ! يقول :

« انتشرت موجة الاجرام بين المراهقين والمراهقات من شباب أمريكا . وأعلن حاكم ولاية نيويورك ، أنه سوف يجعل علاج هذا الانحراف على رأس برنامج الاصلاح الذى يقوم به فى الولاية :

« وعمد الحاكم الى انشاء المزارع و « الاصلاحيات » التهذيبية والأندية الرياضية .. الخ »

« ولكنه أعلن أن علاج الادمان على المخدرات — التى انتشرت بصفة خاصة بين طلبة وطالبات الجامعات ومنها الحشيش والكوكايين ! — لا يدخل فى برنامجه ، وأنه يترك أمره للسلطات الصحية !

« وأما فى انجلترا فقد كثرت فى العامين الأخيرين جرائم الاعتداء على النساء وعلى الفتيات الصغيرات فى طرق الريف . وفى معظم الحالات كان

المعتدي أو المجرم غلاما مراهقا . وفي بعضها كان المجرم يعمد الى خنق الفتاة أو الطفلة ، وتركها جثة هامدة ، حتى لا تفشى سره ، أو تتعرف عليه ، اذا عرضه عليها رجال البوليس .

« ومنذ شهرين اثنين كان شيخ عجوز في طريقه الى القرية ، عندما أبصر على جانب الطريق ـ وتحت شجرة ـ غلاما يضاجع فتاة ..

« واقترب الشيخ منهما . ووكز الغلام بعصاه وزجره ووبخه ، وقال له : ان ما يفعله لا يجوز ارتكابه في الطريق العام !

« ونهض الفتي ، وركل الشيخ بكل قوته في بطنه ... ووقع الشيخ .

((وهنا ركله الفتي في رأسه بحذائه ... واستمر يركله بقسوة حتى نهشم الرأس)) !

« وكان الغلام في الخامسة عشرة ، والفتاة في الثالثة عشرة من عمرها ! »

وقد قررت لجنة الأربعة عشر الأمريكية التي تعنى بمراقبة حالة البلاد الخلقية أن ٩٠ في المائة من الشعب الامريكي مصابون بالأمراض السرية الفتاكة (وذلك قبل وجود المركبات الحديثة من مضادات الحيسويات كالبنسلين والاستربيتومايسين !)

وكتب القاضي لندسى بمدينة « دنفر » أنه من كل حالتى زواج تعرض قضية طلاق ! .

وكتب الطبيب العالم العالمى ألكسيس كاريل في كتابه : « الانسان ذلك المجهول » :

« بالرغم من أننا بسبيل القضاء على اسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية . الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال . فهناك عدد كبير من أمراض الجهاز العصبي والقوى العقلية ... ففي بعض ولايات أمريكا يزيد عدد المجانين الذين يوجدون في المصحات على عدد المرضى الموجودين في جميع المستشفيات الأخرى . وكالجنون ، فان الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية آخذ في الازدياد . وهي أكثر العناصر نشاطا في جلب التعاسة للأفراد ، وتحطيم الأسر .. ان الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية ، التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ! » .

هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة ، في جاهليتها الحديثة ، من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا الى منهج الله للحياة . المنهج الملحوظ فيه اليسر والتخفيف على الانسان الضعيف ، وصيانته من نزواته ، وحمايته من شهواته ، وهدايته الى الطريق الآمن ، والوصول به الى التوبة والصلاح والطهارة :

« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » .

***

والفقرة الثانية فى هذا الدرس ، تتناول جانبا من العلاقات المالية فى المجتمع المسلم ، لتنظيم طرق التعامل فى هذا الجانب ، لضمان طهارة التعامل بين الأفراد عامة ، ثم لتقرير حق النساء كالرجال فى الملك والكسب ـ كل حسب نصيبه ـ وأخيرا لتنظيم التعامل فى عقود الولاء التى كانت سارية فى الجاهلية وفى القسم الأول من صدر الاسلام ، لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ، ومنع عقود الولاء الجديدة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ـ الا أن تكون تجارة عن تراض منكم ـ ولا تقتلوا أنفسكم ، ان الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا . وكان ذلك على الله يسيرا .. ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ، وندخلكم مدخلا كريما . ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله ، ان الله كان بكل شيء عليما . ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ، والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ان الله كان على كل شيء شهيدا » ..

انها حلقة فى سلسلة التربية ، وحلقة فى سلسلة التشريع .. والتربية والتشريع فى المنهج الاسلامى متلازمان ، أو متداخلان . أو متكاملان .. فالتشريع منظور فيه الى التربية ، كما هو منظور فيه الى تنظيم شؤون الحياة الواقعية ، والتوجيهات المصاحبة للتشريع منظور فيها الى تربية الضمائر ، كما أنه منظور فيها الى حسن تنفيذ التشريع ، وانبعاث التنفيذ عن شعور بجدية هذا التشريع ، وتحقق المصلحة فيه . والتشريع والتوجيه المصاحب منظور فيهما ـ معا ـ الى ربط القلب بالله ، واشعاره بمصدر هذا المنهج المتكامل من التشريع والتوجيه .. وهذه هى خاصية المنهج الربانى للحياة البشرية .. هذا

التكامل الذى يصلح الحياة الواقعية ، ويصلح الضمير البشرى فى ذات الأوان ..

وهنا فى هذه الفقرة نجد النهى للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل ــ وبيان الوجه الحلال للربح فى تداول الأموال ــ وهو التجارة ــ ونجد الى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ، وهلكة وبوار .. ونجد الى جانبه كذلك التجذير من عذاب الآخرة ، ومس النار !.. وفى الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير ، والعون على الضعف والعفو عن التقصير .. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع الى ما أنعم الله على البعض ، والتوجه الى الله ــ صاحب العطاء ــ وسؤال من بيده الفضل والعطاء . وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن ، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شىء عليما .. كما أن بيان التصرف فى عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوبا بأن الله كان على كل شىء شهيدا .. وهى لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالانسان ، وتكوينه النفسى ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة .

***

* من رجس الجاهلية العربية :

* عدم وجود ضمانات لليتامى وأموالهم وأنفسهم فى محيط الأسرة وفى محيط الجماعة .

* عدم خلو المجتمع الجاهلى من الفاحشة والعناصر الملوثة .

* المرأة مظلومة ولا تملك من أمر نفسها شيئا .

* لا يمكن ادراك خطر ذلك الرجس الا اذا استعرضنا آيات من سورة النساء لنرى حقيقة الأوضاع التي أزالها الرسول الكريم بالمنهج الربانى .

ان سورة النساء تعمل بجد وجهد فى محو ملامح المجتمع الجاهلى ــ الذى منه التقطت المجموعة المسلمة ــ ونبذ رواسبه ، وفى تكييف ملامح المجتمع المسلم ، وتطهيره من رواسب الجاهلية فيه ، وجلاء شخصيته الخاصة . كما تعمل بجد وجهد فى استجاشته للدفاع عن كينونته المميزة ، وذلك ببيان طبيعة المنهج الذى منه انبثقت هذه الكينونة المميزة ، والتعريف بأعدائه الراصدين له من حوله ــ من المشركين وأهل الكتاب وبخاصة اليهود ــ وأعدائه المتميعين فيه ــ من ضعاف الايمان والمنافقين ــ وكشف وسائلهم وحيلهم ومكايدهم ،

وبيان فساد تصوراتهم ومناهجهم وطرائقهم • مع وضع الأنظمة والتشريعات التي تنظم هذا كله وتحدده ، وتصبه في القالب التنفيذي المضبوط •

وفي الوقت ذاته نلمح رواسب الجاهلية ، وهي تتصارع مع المنهج الجديد ، والقيم الجديدة ، والاعتبارات الجديدة • ونرى ملامح الجاهلية وهي تحاول طمس الملامح الجديدة الوضيئة الجميلة • ونشهد المعركة التي يخوضها المنهج الرباني بهذا القرآن في هذا الميدان • وهي معركة لا تقل شدة ولا عمقا ولا سعة ، عن المعركة التي يخوضها في الميدان الآخر ، مع الأعداء الراصدين له والأعداء المتميعين فيه !

وحين ندقق النظر في الرواسب التي حملها المجتمع المسلم من المجتمع الجاهلي الذي منه جاء ، والتي تعالج هذه السورة جوانب منها ـ كما تعالج سور كثيرة جوانب أخرى ـ قد ينالها الدهش لعمق هذه الرواسب ، حتى لتظل تغالب طوال هذه الفترة التي رجحنا أن آيات السورة كانت تتنزل فيها •• ومن العجب أن تظل لهذه الرواسب صلابتها حتى ذلك الوقت المتأخر •• ثم ينالنا الدهش كذلك للنقلة البعيدة السامقة الرافيعة التي انتهى اليها هذا المنهج العجيب الفريد ، بالجماعة المسلمة • وقد التقطها من ذلك السفح الهابط، الذي تمثله تلك الرواسب ، فارتقى بها في ذلك المرتقى الصاعد الى تلك القمة السامقة •• القمة التي لم ترتق اليها البشرية قط ، الا على حداء ذلك المنهج العجيب الفريد • المنهج الذي يملك وحده أن يلتقط الكينونة البشرية من ذلك السفح ، فيرتقي بها الى تلك القمة ، رويدا رويدا ، في يسر ورفق ، وفي ثبات وصبر ، وفي خطو متناسق موزون !

والذي يدقق النظر في هذه الظاهرة الفريدة في تاريخ البشرية ، يتجلى له جانب من حكمة الله في اختيار « الأميين » في الجزيرة العربية ، في ذلك الحين ، لهذه الرسالة العظيمة •• حيث يمثلون سفح الجاهلية الكاملة ، بكل مقوماتها • الاعتقادية والتصورية ، والعقلية والفكرية ، والأخلاقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية ، ليعرف فيهم أثر هذا المنهج ، وليتبين فيهم كيف تتم المعجزة الخارقة ، التي لا يملك أن يأتي بها منهج آخر ، في كل ما عرفت الأرض من مناهج ، وليرتسم فيهم خط هذا المنهج ، بكل مراحله ـ من السفح الى القمة ـ وبكل ظواهره ، وبكل تجاربه ، ولترى البشرية ـ في عمرها كله ـ أين تجد المنهج الذي يأخذ بيدها الى القمة السامقة ، أيا كان موقفها في المرتقى الصاعد ؛ سواء كانت في درجة من درجاته ، أم كانت في سفحه الذي التقط منه « الأميين » !

ان هذا المنهج ثابت في أصوله ومقوماته ، لانه يتعامل مع « الانسان » ـ

وللانسان كينونة ثابتة ، فهو لا يتبدل منها كينونة أخرى . وكل التحورات والتطورات التى تلابس حياته لا تغير من طبيعته ، ولا تبدل من كينونته ، ولا تحوله خلقا آخر . انما هى تغيرات وتطورات سطحية ، كالامواج فى الخضم ، لا تغير من طبيعته المائية ، بل لا تؤثر فى تياراته التحتية الدائمة . المحكومة بعوامل طبيعية ثابتة !

ومن ثم تواجه النصوص القرآنية الثابتة ، تلك الكينونة البشرية الثابتة . ولأنها من صنع المصدر الذى صنع الانسان ، فانها تواجه حياته بظروفها المتغيرة ، وأطوارها المتجددة ، بنفس المرونة التى يواجه بها ((الانسان)) ظروف الحياة المتغيرة ، وأطوارها المتجددة ، وهو محافظ على مقوماته الأساسية .. مقومات الانسان ..

وفى ((الانسان)) هذا الاستعداد ، وهذه المرونة ، والا ما استطاع أن يواجه ظروف الحياة وأطوارها ، وهى ليست ثابتة من حوله . وفى المنهج الربانى الموضوع لهذا الانسان ، ذات الخصائص ، بحكم أنه صادر من المصدر الذى صدر منه الانسان ، ومودع خصائصه ذاتها ، ومعد للعمل معه الى آخر الزمان .

وهكذا يستطيع ذلك المنهج ، وتستطيع هذه النصوص ، أن تلتقط الفرد الانسانى ، وأن تلتقط المجموعة الانسانية ، من أى مستوى ، ومن أية درجة من درجات المرتقى الصاعد ، فينتهى به وبها الى القمة السامقة .. انه لا يرده ولا يردها أبدا الى الوراء ، ولايهبط به أو بها أبدا الى درجة أسفل فى المرتقى . كما أنه لا يضيق به ولا بها ، ولا يعجز عن رفعه ورفعها ، أيا كان مكانه أو مكانها من السفح السحيق !

المجتمع البدائى المتخلف كالمجتمع العربى فى الجاهلية القديمة ، والمجتمع الصناعى المتحضر ، كالمجتمع الأوروبى والأمريكى فى الجاهلية الحديثة ... كلاهما يجد فى المنهج الربانى والنصوص القرآنية مكانه ، ويجد من يأخذ بيده من هذا المكان ، فيرقى به فى المرتقى الصاعد ، الى القمة السامقة ، التى حققها الاسلام ، فى فترة حية من فترات التاريخ الانسانى ..

ان الجاهلية ليست فترة ماضية من فترات التاريخ . انما الجاهلية كل منهج تتمثل فيه عبودية البشر للبشر . وهذه الخاصية تتمثل اليوم فى كل مناهج الأرض بلا استثناء . ففى كل المناهج التى تعتنقها البشرية اليوم . يأخذ البشر عن بشر مثلهم : التصورات والمبادىء ، والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد . وهذه هى الجاهلية بكل مقوماتها .

الجاهلية التي تتمثل فيها عبودية البشر للبشر ، حيث يتعبد بعضهم بعضا من دون الله ٠

والاسلام هو منهج الحياة الوحيد ، الذى يتحرر فيه البشر من عبودية البشر ، لأنهم يتلقون التصورات والمبادىء ، والموازين والقيم ، والشرائع والقوانين ، والأوضاع والتقاليد ، من يد الله ـ سبحانه ـ فاذا أحنوا رءوسهم فانما يحنونها لله وحده ، واذا أطاعوا الشرائع فانما يطيعون الله وحده ، واذا خضعوا للنظام فانما يخضعون لله وحده ٠٠ ومن ثم يتحررون حقا من عبودية العبيد للعبيد ، حين يصبحون كلهم عبيدا لله بلا شريك ٠

وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية ـ فى كل صورة من صورها ـ وبين الاسلام ٠ وهذه السورة تتولى رسم مفرق الطريق بالدقة وبالوضوح الذي لا تبقى معه ريبة لمستريب ٠

***

ومفهوم أن كل أمر أو نهى أو توجيه ورد فى القرآن الكريم ، كان يواجه حالة واقعة فى المجتمع الجاهلى ، وكان يتوخى اما انشاء حالة غير قائمة ، واما ابطال حالة قائمة ٠٠ وذلك دون اخلال بالقاعدة الأصولية العامة : ((العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)) ٠٠ ومع ملاحظة أن النصوص القرآنية جاءت لتعمل فى كل جيل وفى كل بيئة كما أسلفنا ٠ وفى هذا تكمن المعجزة ٠ فهذه النصوص التى جاءت لتواجه أحوالا بعينها ، هى ذاتها التي تواجه الجماعة الانسانية ، فى أى طور من أطوارها ٠ والمنهج الذى التقط المجموعة المسلمة من سفح الجاهلية ، هو ذاته الذى يلتقط أية مجموعة ـ أيا كان موقفها على الدرج الصاعد ـ ثم يبلغ بها الى القمة السامقة ، التى بلغ اليها بالمجموعة الأولى ، يوم التقطها من ذلك السفح السحيق !

ومن ثم فنحن حين نقرأ القرآن نستطيع أن نتبين منه ملامح المجتمع الجاهلى ، من خلال أوامره ونواهيه وتوجيهاته ، كما نستطيع أن نتبين الملامح الجديدة التى يريد أن ينشئها ، وأن يثبتها فى المجتمع الجديد ٠٠

فماذا نحن واجدون ـ فى هذه السورة ـ من ملامح المجتمع الجاهلى التى ظلت راسبة فى الجماعة المسلمة ، منذ أن التقطها المنهج الربانى من سفح الجاهلية ؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التي يراد انشاؤها فى المجتمع الاسلامي الجديد وتثبيتها !

اننا نجد مجتمعا تؤكل فيه حقوق الأيتام ـ وبخاصة اليتيمات ـ في حجور الأهل والأولياء والأوصياء ، ويستبدل الخبيث منها بالطيب ، ويعمل فيها بالاسراف والطمع ، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها ! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال ، ليتخذهن الأولياء زوجات ، طمعا في مالهن لا رغبة فيهن ! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته !

ونجد مجتمعا يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء ، فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث . انما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء ، القادرون على حمل السلاح ، ولا ينال الضعاف فيه الا الفتات ، وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات ، هو الذي يحتجزن من أجله ، ويحبسن على الأطفال من الذكور ، أو على الشيوخ من الأولياء . كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغرباء !

ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم ، ويعاملها بالعسف والجور . في كل أدوار حياتها . يحرمها الميراث ـ كما قلنا ـ أو يحبسها لما ينالها منه ، ويورثها للرجل كما يورثه المتاع ! فاذا مات زوجها جاء وليه ، فألقى عليها ثوبه ، فيعرف أنها محجوزة له . ان شاء نكحها بغير مهر ، وان شاء زوجها وأخذ مهرها ! ويعضلها زوجها اذا طلقها ، فيدعها لا هي زوجة ، ولا هي مطلقة ، حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها !

ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه ، علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء ، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب ، فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية . حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة .

ونجد مجتمعا تؤكل فيه الاموال بالباطل في المعاملات الربوية . وتغتصب فيه الحقوق . وتجحد فيه الأمانات . وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح . ويقل فيه العدل فلا يناله الا الأقوياء . كما لا تنفق فيه الأموال الا رئاء الناس ، اجتلابا للمفاخر ، ولا ينال الضعاف المحاويج فيه من هذا الانفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء !

وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية ـ وهي التي تصدت لها هذه السورة ـ ووراءها ما صورته السور الأخرى ، وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب . وفيمن حولهم من الأمم ..

انه لم يكن ـ قطعا ـ مجتمعا بلا فضائل . فقد كانت له فضائله ، التي

تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى ٠ ولكن هذه الفضائل انما استنقذها الاسلام استنقاذا ، ووجهها الوجهة البناءة ٠ وكانت ــ لولا الإسلام ــ مضيعة تحت ركام هذه الرذائل ، مفرقة غير متجمعة ، وضائعة غير موجهة ٠ وما كانت هذه الأمة لتقدم للبشرية شيئا ذا قيمة ، لولا هذا المنهج ، الذى جعل يمحو ملامح الجاهلية الشائهة ، وينشىء أو يثبت ملامح الاسلام الوضيئة ، ويستنقذ فضائل هذه الأمة المضيعة المطمورة المفرقة المبددة ، شأنها فى هذا شأن سائر أمم الجاهلية التى عاصرتها ، والتى اندثرت كلها ، لأنها لم تدركها رسالة ولم تنشئها عقيدة !

من تلك الجاهلية ، التى هذه بعض ملامحها ، التقط الاسلام المجموعة التى قسم الله لها الخير ، وقدر أن يسلمها قيادة البشر ، فكون منها الجماعة المسلمة ، وأنشأ بها المجتمع المسلم ٠ ذلك المجتمع الذى بلغ الى القمة التى لم تبلغها البشرية قط ، والتى ما تزال أملا للبشرية ، يمكن أن تحاوله ، حين يصح منها العزم على انتهاج الطريق ٠

يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا واتقوا الله الذى تساءلون به والإرحام ان الله كان عليكم رقيبا ٠

ان هذه الآية الكريمة تشير الى حقائق يمكن أن تجلو للقلب والعين مجالا فسيحا لتأملات شتى :ــ

١ ــ انها ابتداء تذكر ((الناس)) بمصدرهم الذى صدروا عنه ، وتردهم الى خالقهم الذى أنشأهم فى هذه الأرض ٠ هذه الحقيقة التى ينساها ((الناس)) فينسون كل شيء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

ان الناس جاءوا الى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه ٠٠ فمن الذى جاء بهم ؟ انهم لم يجيئوا اليه بارادتهم ٠ فقد كانوا ــ قبل أن يجيئوا ــ عدما لا ارادة له ٠٠ لا ارادة له تقرر المجيء أو عدم المجيء ٠ فارادة أخرى ــ اذن ــ غير ارادتهم ، هي التى جاءت بهم الى هنا ٠٠ ارادة أخرى ــ غير ارادتهم ــ هى التى قررت أن تخلقهم ٠ ارادة أخرى ــ غير ارادتهم ــ هى التى رسمت لهم الطريق ، وهى التى اختارت لهم خط الحياة ٠٠ ارادة أخرى ــ غير ارادتهم ــ هى التى منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم ، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ، ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذى جيء بهم اليه من حيث لا يشعرون ! وعلى غير استعداد ، الا الاستعداد الذى منحتهم اياه تلك الارادة التى تفعل ما تريد ٠

ولو تذكر الناس هذه الحقيقه البديهية التى يغفلون عنها لثــابوا الى الرشد من أول الطريق ..

ان هذ الارادة التى جاءت بهم الى هذا العالم ، وخطت لهم طريق الحيــاة فيه ، ومنحتهم القدرة على التعامل معه ، لهى وحدها التى تملك لهم كل شىء . وهى وحدها التى تعرف عنهم كل شىء ، وهى وحدها التى تدبر أمرهم خير تدبير .. وانها لهى وحدها صاحبة الحق فى أن ترسم لهم منبع حياتهم ، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم ، وأن تضع لهم قيمهم وموازينهم . وهى وحدها التى يرجعون اليها والى منهجها وشريعتها والى قيمها وموازينها عند الاختــلاف فى شأن من هذه الشئون ، فيرجعون الى النهج الواحد الذى أراده الله رب العالمين ..

٢ ــ كما أنها توحى بأن هذه البشرية التى صدرت من ارادة واحدة ، تتصل فى رحم واحدة ، وتلتقى فى وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب الى نسب واحد :

((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)) ..

ولو تذكر الناس هذه الحقيقة ، لتضاءلت فى حسهم كل الفروق الطارئة ، التى نشأت فى حياتهم متأخرة ، ففرقت بين أبناء ((النفس)) الواحــــدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها فى الرعاية ، وصلة النفس وحقها فى المودة ، وصــلة الربوبية وحقها فى التقوى .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا باستبعاد الصراع العنصرى ، الذى ذاقت منه البشرية ما ذاقت ، وما تزال تتجرع منه حتى اللحظة الحاضرة ، فى الجاهلية الحديثة ، التى تفرق بين الألوان ، وتفرق بين العناصر ، وتقيم كيانها على أساس هذه التفرقة ، وتذكر النسبة الى الجنس والقوم ، وتنسى النسبة الى الانسانية الواحدة والربوبية الواحدة .

واستقرار هذه الحقيقة كان كفيلا كذلك باستبعاد الاستعباد الطبقى السائد فى وثنية الهند والصراع الطبقى ، الذى تسيل فيه الدماء أنهارا ، فى الدول الشيوعية ، والذى ما تزال الجاهلية الحديثة تعتبره قاعدة فلســـفتها المذهبية ، ونقطة انطلاقها الى تحطيم الطبقات كلها ، لتسويد طبقة واحدة ،

ناصية النفس الواحدة التي انبثق منها الجميع ، والربوبية الواحدة التي يرجع اليها الجميع !

٣ ـ والحقيقة الأخرى التي تتضمنها الاشارة الى أنه من النفس الواحدة « خلق منها زوجها » .. كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ ان توفر عليها تلك الاخطاء الأليمة ، التي ترددت فيها ، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء .. وهي من النفس الأولى فطرة وطبعا ، خلقها الله لتكون لها زوجا ، وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، فلا فارق في الاصل والفطرة ، انما الفارق في الاستعداد والوظيفة ..

ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلا . جردت المرأة من كل خصائص الانسانية وحقوقها . فترة من الزمان . تحت تأثير تصور سخيف لا أصل له . فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الاخرى ، وأطلقت للمرأة العنان ، ونسيت أنها انسان خلقت لانسان ، ونفس خلقت لنفس ، وشطر مكمل لشطر ، وأنهما ليسا فردين متماثلين ، انما هما زوجان متكاملان .

والمنهج الرباني القويم يرد البشرية الى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد ..

٤ ـ كذلك توحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة . فقد شاء الله أن تبدأ هذه النبتة في الأرض بأسرة واحدة . فخلق ابتداء نفسا واحدة ، وخلق منها زوجها . فكانت أسرة من زوجين . ((وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)) .. ولو شاء الله لخلق ـ في أول النشأة ـ رجالا كثيرا ونساء ، وزوجهم ، فكانوا أسرا شتى من أول الطريق . لا رحم بينها من مبدأ الأمر . ولا رابطة تربطها الا صدورها عن ارادة الخالق الواحد . وهي الوشيجة الأولى . ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها . أن يضاعف الوشائج . فيبدأ بها من وشيجة الربوبية ـ وهي أصل وأول الوشائج ـ ثم يثني بوشيجة الرحم ، فتقوم الأسرة الأولى من ذكر وأنثى ـ هما من نفس واحدة وطبيعة واحدة وفطرة واحدة ـ ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالا كثيرا ونساء ، كلهم يرجعون ابتداء الى وشيجة الربوبية ، ثم يرجعون بعدها الى وشيجة الاسرة . التي يقوم عليها نظام المجتمع الانساني . بعد قيامه على أساس العقيدة .

ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في النظام الاسلامي ، وهذه العناية بتوثيق عراها ، وتثبيت بنيانها ، وحمايتها من جميع المؤثرات التي توهن هذا البناء ـ

وفى أول هذه المؤثرات مجانبة الفطرة ، وتجاهل استعدادات الرجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض ، وتكاملها لاقامة الاسرة من ذكر وأنثى .

وفى هذه السورة وفى غيرها من السور حشد من مظاهر تلك العناية بالأسرة فى النظام الاسلامي .. وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوى ، والمرأة تلقى تلك المعاملة الجائرة ، وتلك النظرة الهابطة التى تلقاها فى الجاهلية ـ كل جاهلية ـ ومن ثم كانت عناية الاسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ورفع هذه النظرة الهابطة .

٥ ـ وأخيرا فان نظرة الى التنوع فى خصائص الافراد واستعداداتهم ـ بعد بثهم من نفس واحدة وأسرة واحدة ـ على هذا المدى الواسع ، الذى لا يتماثل فيه فردان قط تمام التماثل ، على توالى العصور ، وفيما لا يحصى عدده من الافراد فى جميع الأجيال .. التنوع فى الأشكال والسمات والملامح . والتنوع فى الطباع والأمزجة والاخلاق والمشاعر . والتنوع فى الاستعدادات والاهتمامات والوظائف .. ان نظرة الى هذا التنوع المنبثق من ذلك التجمع لتشى بالقدرة المبدعة على غير مثال ، المدبرة عن علم وحكمة ، وتطلق القلب والعين يجولان فى ذلك المتحف الحى العجيب ، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التى لا تنفد ، والتى دائما تتجدد ، والتى لا يقدر عليها الا الله ، ولا يجرؤ أحد على نسبتها لغير الله . فالارادة التى لا حد لما تريد ، والتى تفعل ما تريد ، هى وحدها التى تملك هذا التنويع الذى لا ينتهى ، من ذلك الأصل الواحد الفريد !

والتأمل فى ((الناس)) على هذا النحو كفيل بأن يمنح القلب زادا من الأنس والمتاع ، فوق زاد الايمان والتقوى .. وهو كسب فوق كسب ، وارتفاع بعد ارتفاع !

وفى ختام آية الافتتاح التى توحى بكل هذه الحشود من الخواطر ، يرد ((الناس)) الى تقوى الله ، الذى يسأل بعضهم بعضا به ، والى تقوى الأرحام التى يرجعون اليها جميعا :

« واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » ..

واتقوا الله الذى تتعاهدون باسمه ، وتتعاقدون باسمه ، ويسأل بعضكم بعضا الوفاء باسمه ، ويحلف بعضكم لبعض باسمه .. اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات ..

.. وتقوى الله مفهومة ومعهودة لتكرارها فى القرآن . أما تقوى الأرحام ، فهى تعبير عجيب . يلقى ظلاله الشعوريه فى النفس ، ثم لا يكاد الانسان يجد ما يشرح به تلك الظلال ! اتقوا الأرحام . أرهفوا مشاعركم للاحساس بوشائجها . والاحساس بحقها . وتوقى هضمها وظلمها ، والتحرج من خدشها ومسها .. توقوا أن تؤذوها ، وأن تجرحوها .. وأن تغضبوها .. أرهفوا حساسيتكم بها ، وتوقيركم لها ، وحنينكم الى نداها وظلها .

ثم رقابة الله يختتم بها الآية الموحية :

« ان الله كان عليكم رقيبا » ..

وما أهولها رقابة ! والله هو الرقيب ! وهو الرب الخالق الذى يعلم من خلق ، وهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية ، لا فى ظواهر الأفعال ولا فى خفايا القلوب .

* * *

من هذا الافتتاح القوى المؤثر ، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة ، ومن هذا الأصل الأساسى الكبير ، يأخذ فى اقامة الأسس التى ينهض عليها نظام المجتمع وحياته : من التكافل فى الأسرة والجماعة ، والرعاية لحقوق الضعاف فيها ، والصيانة لحق المرأة وكرامتها ، والمحافظة على أموال الجماعة فى عمومها ، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع ..

ويبدأ فيأمر الاوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد . وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهم طمعاً فى أموالهن . أما السفهاء الذين يخشى من اتلافهم للمال ، اذا هم تسلموه ، فلا يعطى لهم المال ، لأنه فى حقيقته مال الجماعة ، ولها فيه قيام ومصلحة ، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه ، وأن يراعوا العدل والمعروف فى عشرتهم للنساء عامة .

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم . انه كان حوبا كبيرا . وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا . وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فان طبن لكم شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا . ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا وابتلوا اليتامى ، حتى اذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا . ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان

فقيرا فليأكل بالمعروف · فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » ··

وتشي هذه التوصيات المشددة ــ كما قلنا ــ بما كان واقعا في الجاهلية العربية من تضييع لحقوق الضعاف بصفة عامة · والأيتام والنساء بصفة خاصة· هذه الرواسب التي ظلت باقية في المجتمع المسلم ــ المقتطع أصلا من المجتمع الجاهلي ــ حتى جاء القرآن يذيبها ويزيلها ، وينشىء في الجماعة المسلمة تصورات جديدة ، ومشاعر جديدة ، وعرفا جديدا ، وملامح جديدة ·

« وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم ، انه كان حوبا كبيرا » ·

أعطوا اليتامى أموالهم التى تحت أيديكم ، ولا تعطوهم الردىء فى مقابل الجيد · كأن تأخذوا أرضهم الجيدة ، وتبدلوهم منها من أرضكم الرديئة ، أو ماشيتهم ، أو أسهمهم ، أو نقودهم ــ وفى النقد الجيد ذو القيمة العالية والردىء ذو القيمة الهابطة ــ أو أى نوع من انواع المال ، فيه الجيد وفيه الردىء ·· وكذلك لا تأكلوا أموالهم بضمها الى أموالكم ، كلها أو بعضها ·· ان ذلك كله كان ذنبا كبيرا · والله يحذركم من هذا الذنب الكبير ··

فلقد كان هذا كله يقع اذن فى البيئة التى خوطبت بهذه الآية أول مرة · فالخطاب يشي بأنه كان موجها الى مخاطبين فيهم من تقع منه هذه الأمور · وهى أثر مصاحب من آثار الجاهلية ·· وفى كل جاهلية يقع مثل هذا · ونحن نرى أمثاله فى جاهليتنا الحاضرة في المدن والقرى · وما تزال أموال اليتامى تؤكل بشتى الطرق ، وشتى الحيل ، من أكثر الأوصياء ، على الرغم من كل الاحتياطات القانونية ، ومن رقابة الهيئات الحكومية المخصصة للاشراف على أموال القصر · فهذه المسألة لا تفلح فيها التشريعات القانونية ، ولا الرقابة الظاهرية ·· كلا لا يفلح فيها الا أمر واحد ·· التقوى ·· فهى التى تكفل الرقابة الداخلية على الضمائر ، فتصبح للتشريع قيمته وأثره · كما وقع بعد نزول هذه الآية ، اذ بلغ التحرج من الأوصياء أن يعزلوا مال اليتيم عن مالهم ، ويعزلوا طعامه عن طعامهم ، مبالغة فى التحرج والتوقى من الوقوع فى الذنب العظيم ، الذى حذرهم الله منه وهو يقول : « انه كان حوبا كبيرا » ··

ان هذه الأرض لا تصلح بالتشريعات والتنظيمات · ما لم يكن هناك رقابة من التقوى فى الضمير لتنفيذ التشريعات والتنظيمات ·· وهذه التقوى لا تجيش ــ تجاه التشريعات والتنظيمات ــ الا حين تكون صادرة من الجهة

المطلعة على السرائر ، الرقيبة على الضمائر .. عندئذ يحس الفرد ـ وهو يهم بانتهاك حرمة القانون ـ أنه يخون الله ، ويعصى أمره ، ويصادم ارادته ، وأن الله مطلع على نيته هذه وعلى فعله .. وعندئذ تتزلزل أقـــدامه ، وترتجف مفاصله ، وتجيش تقواه ..

ان الله أعلم بعباده ، وأعرف بفطرتهم ، وأخبر بتكوينهم النفسى والعصبى ـ وهو خلقهم ـ ومن ثم جعل التشريع تشريعه ، والقانون قانونه ، والنظـــام نظامه ، والمنهج منهجه ، ليكون له فى القلوب وزنه وأثره ومخافته ومهابته .. وقد علم ـ سبحانه ـ أنه لا يطاع أبدا شرع لا يرتكن الى هذه الجهة التـــى تخشاها وترجوها القلوب ، وتعرف أنها مطلعة على خفايا السرائر وخبايـــا القلوب . وأنه مهما أطاع العبيد تشريع العبيد ، تحت تأثير البطش والارهاب ، والرقابة الظاهرية التى لا تطلع على الأفئدة ، فانهم لابد متفلتون منها كلمـــا غافلوا الرقابة ، وكلما واتتهم الحيلة . مع شعورهم دائما بالقهـــر والكبت والتهيؤ للانتقاض .

* * *

« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلـــك أدنى ألا تعولوا » ..

عن عروة بن الزبير ـ رضى الله عنه ـ أنه سأل عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن قوله تعالى : « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » فقالت : « يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها ، تشركه فى ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا اليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا من النساء سواهن » قال عـــروة : قـــالت عائشة : « وان الناس استفتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد هذه الآية ، فأنزل الله : « ويستفتونك فى النساء . قل الله يفتيكم فيهن . وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ... » قالت عائشة : (وقول الله فى هذه الآية الأخـــرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة أحـــدكم عن يتيمته اذا كانت قليلة المـــال والجمال . فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء الا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن اذا كن قليلات المال والجمال) (١) .

وحديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ يصور جانبا من التصورات والتقاليــد

(١) أخرجه البخارى ..

التى كانت سائدة فى الجاهلية ، ثم بقيت فى المجتمع المسلم ، حتى جاء القرآن ينهى عنها ويمحوها ، بهذه التوجيهات الرفيعة ، ويكل الأمر الى الضمائر ، وهو يقول : « وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » •• فهى مسألة تحرج وتقوى وخوف من الله اذا توقع الولى ألا يعدل مع اليتيمة فى حجره ، ونص الآية مطلق لا يحدد مواضع العدل ، فالمطلوب هو العدل فى كل صوره وبكل معانيه فى هذه الحالة ، سواء فيما يختص بالصداق ، أو فيما يتعلق بأى اعتبار آخر • كأن ينكحها رغبة فى مالها ، لا لأن لها فى قلبه مودة ، ولا لأنه يرغب رغبة نفسية فى عشرتها لذاتها • وكأن ينكحها وهناك فارق كبير فى السن لا تستقيم معه الحياة ، دون مراعاة لرغبتها هى فى ابرام هذا النكاح ، هذه الرغبة التى قد لا تفصح عنها حياء أو خوفا من ضياع مالها اذا هى خالفت عن ارادته •• الى آخر تلك الملابسات التى يخشى ألا يتحقق فيها العدل •• والقرآن يقيم الضمير حارسا ، والتقوى رقيبا • وقد أسلف فى الآية السابقة التى رتب عليها هذه التوجيهات كلها قوله : « ان الله كان عليكم رقيبا » ••

فعندما لا يكون الاولياء واثقين من قدرتهم على القسط مع اليتيمات اللواتى فى حجورهم ، فهناك النساء غيرهن ، وفى المجال متسع للبعد عن الشبهة والمظنة :

« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع • فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم • ذلك أدنى ألا تعولوا » •

وهذه الرخصة فى التعدد ، مع هذا التحفظ عند خوف العجز عن العدل ، والاكتفاء بواحدة فى هذه الحالة ، أو بما ملكت اليمين •

هذه الرخصة ـ مع هذا التحفظ ـ يحسن بيان الحكمة والصلاح فيها • فى زمان جعل الناس يتعالمون فيه على ربهم الذى خلقهم ، ويدعون لأنفسهم بصرا بحياة الانسان وفطرته ومصلحته فوق بصر خالقهم سبحانه ! ويقولون فى هذا الامر وذاك بالهوى والشهوة ، وبالجهالة والعمى • كأن ملابسات وضرورات جدت اليوم ، يدركونها هم ويقدرونها ولم تكن فى حساب الله ـ سبحانه ـ ولا فى تقديره ، يوم شرع للناس هذه الشرائع !!

وهى دعوى فيها من الجهالة والعمى ، بقدر ما فيها من التبجح وسوء الادب • بقدر ما فيها من الكفر والضلالة ! ولكنها تقال ، ولا تجد من يرد الجهال العمى المتبجحين المتوقحين الكفار الضلال عنها ! وهم يتبجحون على الله وشريعته ، ويتطاولون على الله وجلاله ، ويتوقحون على الله ومنهجه ، آمنين سالمين غانمين ، مأجورين من الجهات التى يهمها أن تكيد لهذا الدين !

وهذه المسالة ـ مسالة اباحة تعدد الزوجات بذلك التحفظ الذى قـــرره الاسلام ـ يحسن أن تؤخذ بيسر ووضوح وحسم ، وأن تعرف الملابســـات الحقيقية والواقعية التى تحيط بها ٠٠

روى البخارى ـ باسناده ـ أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم ـ وتحته عشر نسوة ـ فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اختر منهن أربعا » ٠٠

وروى أبو داود ـ باسناده ـ أن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعنـــدى ثمانى نسوة ، فذكرت ذلك للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « اختـر منهن أربعا » ٠٠

وقال الشافعى فى مسنده : أخبرنى من سمع ابن أبى الزياد يقـــول : أخبرنى عبد المجيد عن ابن سهل بن عبد الرحمن ، عن عوف بن الحارث عن نوفل بن معاوية الديلمى ، قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اختر أربعا أيتهن شئت وفارق الأخرى » ٠٠

فقد جاء الاسلام اذن ، وتحت الرجال عشر نسوة أو أكثر أو أقل ـ بـدون حد ولا قيد ـ فجاء ليقول للرجال : ان هناك حدا لا يتجاوزه المسلم ـ هـو أربع ـ وان هناك قيدا ـ هو امكان العدل ـ والا فواحدة ٠٠ أو مـــا ملكت أيمانكم ٠٠

جاء الاسلام لا ليطلق ، ولكن ليحدد ٠ ولا ليترك الأمر لهوى الرجل ، ولكن ليقيد التعدد بالعدل ٠ والا امتنعت الرخصة المعطاة !

« وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ٠ فان طبن لكم عن شىء منه نفسا ، فكلوه هنيئا مريئا » ٠٠

وهذه الآية تنشىء للمرأة حقا صريحا ، وحقا شخصيا ، فى صداقها : وتنبىء بما كان واقعا فى المجتمع الجاهلى من هضم هذا الحق فى صور شتى ٠ واحدة منها كانت فى قبض الولى لهذا الصداق وأخذه لنفسه ، وكأنما هى صفقـــة بيع هو صاحبها ! وواحدة منها كانت فى زواج الشغار ٠ وهو أن يزوج الولى المرأة التى فى ولايته ، فى مقابل أن يزوجه من يأخذها امـرأة هى فى ولاية هذا الآخر ٠ واحدة بواحدة ٠ صفقة بين الوليين لا حظ فيها للمرأتين ٠ كمـا تبدل بهيمة ببهيمة ! فحرم الاسلام هذا الزواج كلية ، وجعل الزواج التقـــاء نفسين عن رغبة واختيار ، والصداق حقا للمرأة تأخذه لنفسها ولا يأخذه الولى ! وحتم تسمية هذا الصداق وتحديده ، لتقبضه المرأة فريضة لها ، وواجبا لا تخلف فيه ٠ وأوجب أن يؤديه الزوج « نحلة » ـ أى هبة خالصة لصاحبتها

وأن يؤديه عن طيب نفس ، وارتياح خاطر • كما يؤدى الهبة والمنحة • فاذا طابت نفس الزوجة بعد ذلك لزوجها عن شيء من صداقها ـ كله أو بعضه ـ فهي صاحبة الشأن في هذا ، تفعله عن طيب نفس ، وراحة خاطر ، والزوج في حل من أخذ ما طابت نفس الزوجة عنه ، وأكله حلالا طيبا هنيئا مريئا • فالعلاقات بين الزوجين ينبغي أن تقوم على الرضى الكامل ، والاختيار المطلق ، والسماحة النابعة من القلب ، والود الذى لا يبقى معه حرج من هنا أو من هناك •

وبهذا الاجراء استبعد الاسلام ذلك الراسب من رواسب الجاهلية في شأن المرأة وصداقها ، وحقها في نفسها وفي مالها ، وكرامتها ومنزلتها • وفي الوقت ذاته لم يجفف ما بين المرأة ورجلها من صلات ، ولم يقمها على مجرد الصرامة في القانون ، بل ترك للسماحة والتراضي والمودة أن تأخذ مجراها في هذه الحياة المشتركة ، وأن تبلل بنداوتها جو هذه الحياة •

* * *

فاذا انتهى من هذا الاستطراد ـ الذى دعا اليه الحديث عن الزواج من اليتيمات ومن غيرهن من النساء ـ عاد الى أموال اليتامى ، يفصل في أحكام ردها اليهم ، بعد أن قرر في الآية الثانية من السورة مبدأ الرد على وجه الاجمال •

ان هذا المال ، ولو أنه مال اليتامى ، الا أنه ـ قبل هذا ـ مال الجماعة ، أعطاها الله اياه لتقوم به ، وهى متكافلة في الانتفاع بهذا المال على أحسن الوجوه • فالجماعة هي المالكة ابتداء للمال العام ، واليتامى أو مورثوهم انما يملكون هذا المال لاستثماره ـ باذن من الجماعة ـ ويظلون ينتفعون به وينفعون الجماعة معهم ، ما داموا قادرين على تكثيره وتثميره ، راشدين في تصريفه وتدبيره ـ والملكية الفردية بحقوقها وقيودها قائمة في هذا الاطار ـ أما السفهاء من اليتامى ذوى المال ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره • فلا يسلم لهم • ولا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه ـ وان بقيت لهم ملكيتهم الفردية فيه لا تنتزع منهم ـ انما يعود التصرف في مال الجماعة الى من يحسن التصرف فيه من الجماعة • مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقا للتكافل العائلي ، الذى هو قاعدة التكافل العام بين الأسرة الكبرى ! وللسفيه حق الرزق والكسوة في ماله مع حسن معاملته :

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ، وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولا معروفا » ••

ويتبين السفه والرشد ـ بعد البلوغ ـ وأمر السفه والرشد لا يخفى عادة ، ولا يحتاج الى تحديد مفهومه بالنصوص • فالبيئة تعرف الراشد من السفيه

وتأنس رشد هذا وسفه ذاك ، وتصرفات كل منهما لا تخفى على الجماعة ، فالاخبار يكون لمعرفة البلوغ ، الذى يعبر عنه النص بكلمة : « النكاح » وهو الوظيفة التى يؤهل لها البلوغ :

« وابتلوا اليتامى ، حتى اذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن يكبروا • ومن كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف • فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا » ••

ويبدو من خلال النص الدقة فى الاجراءات التى يتسلم بها اليتامى أموالهم عند الرشد • كذلك يبدو التشديد فى وجوب المسارعة بتسليم أموال اليتامى اليهم ، بمجرد تبين الرشد ـ بعد البلوغ ـ وتسليمها لهم كاملة سالمة ، والمحافظة عليها فى أثناء القيام عليها ، وعدم المبادرة الى أكلها بالاسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها ! مع الاستعفاف عن أكل شىء منها مقابل القيام عليها ـ اذا كان الولى غنيا ـ والأكل منها فى أضيق الحدود ـ اذا كان الولى محتاجا ـ ومع وجوب الاشهاد فى محضر التسليم •• وختام الآية : التذكير بشهادة الله وحسابه : « وكفى بالله حسيبا » ••

كل هذا التشديد ، وكل هذا البيان المفصل ، وكل هذا التذكير والتحذير •• يشى بما كان سائدا فى البيئة من الجور على أموال اليتامى الضعاف فى المجتمع ، وبما كان يحتاج اليه تغيير هذا العرف السائد من تشديد وتوكيد ، ومن بيان وتفصيل ، لا يدع مجالا للتلاعب عن أى طريق ••

وهكذا كان المنهج الربانى ينسخ معالم الجاهلية فى النفوس والمجتمعات ، ويثبت معالم الاسلام ، ويمحو سمات الجاهلية فى وجه المجتمع ، ويثبت ملامح الاسلام • وهكذا كان يصوغ المجتمع الجديد ومشاعره وتقاليده ، وشرائعه وقوانينه ، فى ظلال تقوى الله ورقابته ، ويجعلها الضمان الاخير لتنفيذ التشريع • ولا ضمان لأى تشريع فى الأرض بغير هذه التقوى وبدون هذه الرقابة : « وكفى بالله حسيبا » ••

* * *

ولقد كانوا فى الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصبية ـ فى الغالب ـ الا التافه القليل • لأن هؤلاء وهؤلاء لا يركبون فرسا ، ولا يردون عاديا ! فاذا شريعة الله تجعل الميراث ـ فى أصله ـ حقا لذوى القربى جميعا ـ حسب مراتبهم وأنصبتهم المبينة فيما بعد ـ وذلك تمشيا مع نظرية الاسلام فى التكافل بين أفراد الاسرة الواحدة ، وفى التكافل الانسانى العام • وحسب قاعدة : الغنم بالغرم •• فالقريب مكلف اعالة قريبة اذا احتاج ، والتضامن معه فى دفع

الديات عند القتل والتعويضات عند الجرح ، فعدل اذن أن يرثه – ان ترك مالا – بحسب درجة قرابته وتكليفه به · والاسلام نظام متكامل متناسق · ويبدو تكامله وتناسقه واضحا في توزيع الحقوق والواجبات ··

« يوصيكم الله في أولادكم : للذكر مثل حظ الأنثيين ·· » ··

وهذا الافتتاح يشير – كما ذكرنا – الى الأصل الذى ترجع اليه هذه الفرائض ، والى الجهة التى صدرت منها ، كما يشير الى أن الله أرحم بالناس من الوالدين بالأولاد ، فاذا فرض لهم فانما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدون بالأولاد ··

وكلا المعنيين مرتبطان ومتكاملان ··

ان الله هو الذى يوصي ، وهو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم الميراث بين الناس – كما أنه هو الذى يوصي ويفرض في كل شيء ، وكما أنه هو الذى يقسم الأرزاق جملة – ومن عند الله ترد التنظيمات والشرائع والقوانين ، وعن الله يتلقى الناس في أخص شئون حياتهم – وهو توزيع أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم – وهذا هو الدين · فليس هناك دين للناس اذا لم يتلقوا في شئون حياتهم كلها من الله وحده ، وليس هناك اسلام ، اذا هم تلقوا في أى أمر من هذه الأمور – جل أو حقر – من مصدر آخر · انما يكون الشرك أو الكفر ، وتكون الجاهلية التى جاء الاسلام ليقتلع جذورها من حياة الناس ·

وان ما يوصي به الله ، ويفرضه ، ويحكم به في حياة الناس – ومنه ما يتعلق بأخص شئونهم ، وهو قسمة أموالهم وتركاتهم بين ذريتهم وأولادهم – لهو أبر بالناس وأنفع لهم ، مما يقسمونه هم لأنفسهم ، ويختارونه لذرياتهم ·· فليس للناس أن يقولوا : انما نختار لأنفسنا · وانما نحن أعرف بمصالحنا ·· فهذا – فوق أنه باطل – هو في الوقت ذاته توقح ، وتبجح ، وتعالم على الله ، وادعاء لا يزعمه الا متوقح جهول !

قال العوفي عن ابن عباس : (« يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » ·· وذلك أنه لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها ما فرض ، للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين ، كرهها الناس – أو بعضهم – وقالوا : تعطى المرأة الربع أو الثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير · وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة ! اسكتوا عن هذا الحديث ، لعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ينساه ، أو نقول له فيغير ! فقالوا : يا رسول الله ، تعطى الجارية نصف ما ترك أبوها ، وليست تركب الفرس ، ولا تقاتل القوم · ويعطى الصبي الميراث ، وليس يغني شيئا – وكانوا يفعلون

ذلك فى الجاهلية ، ولا يعطون الميراث الا لمن قاتل القوم ، ويعطونه الأكبر فالأكبر) ٠٠ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ٠٠

فهذا كان منطق الجاهلية العربية ، الذى كان يحيك فى بعض الصدور ، وهى تواجه فريضة الله وقسمته العادلة الحكيمة ٠٠ ومنطق الجاهلية الحاضرة الذى يحيك فى بعض الصدور اليوم ـ وهى تواجه فريضة الله وقسمته ـ لعله يختلف كثيرا أو قليلا عن منطق الجاهلية العربية ٠ فيقول : كيف نعطى المال لمن لم يكد فيه ويتعب من الذرارى ؟ وهذا المنطق كذاك ٠٠ كلاهما لا يدرك الحكمة ، ولا يلتزم الأدب ، وكلاهما يجمع من ثم بين الجهالة وسوء الأدب !

الموحدون فى الجاهلية :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي (ص) لقي زيد بن عمرو بن نفيل باسفل بلدح قبل أن يرسل علي النبي (ص) الوحي فقدمت الى النبى(ص) سفره فأبى أن يأكل منها ثم قال زيد انى لست آكل مما تذبحون علي أنصابكم ولا آكل الا ماذكر اسم الله عليه وان زيد بن عمرو كان يعيب علي قريش ذبائحهم ويقول الشاه خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وانبت لها من الارض ثم تذبحونها علي غير اسم الله انكارا لذلك واعظاما له ٠ قال موسى حدثنى سالم بن عبد الله ولا أعلمه الا تحدث بـه عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج الى الشام ليسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال انى لعلى ان أدين دينكم فأخبرنى فقال لا تكون علي ديننا حتى تأخذ بنصيبيك من غضب الله قال زيد : ما أفر الا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئا ابدا وانى أستطيعه فهل تدلنى علي غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا قال زيد لا وما الحنيف قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون علي ديننا حتى تأخذ بنصيبيك من لعنة الله قال ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وانى لا أستطيع ، فهل تدلنى علي غيره قال ما أعلمه الا أن يكون حنيفا قال وما الحنيف قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله فلما رأى زيد قولهم فى ابراهيم عليه السلام خرج ، فلما برز رفع يديه فقال اللهم انى أشهد انى على دين ابراهيم (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٠ ، ٥١).

الجاهليون يبيع البعض على بيع البعض ، ويخطب الرجل على خطبة أخيه :

روى أن ابن عمر رضى الله عنهما كان يقول : انهى النبى صلى الله عليه

وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب الرجـــل على خطبة أخيـــه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب (البخارى ، جـ٧ ص ٢٤) ٠

الجاهلي يأكل في سبعة أمعاء :

عن واقد بن محمد عن نافع قال كان ابن عمر لا يأكـــل حتى يؤتى بمسكين يأكل معـــه فأدخلت رجـــلا يأكل معه فأكل كثيرا فقـــال يا نافع لا تدخل هـــذا على سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء ٠

الجاهلي يأكل متكئا :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا آكل متكئا (رواه البخارى ، جـ ٧ ص ٩٣) ٠

الجاهلي والوشم ، الجاهلي يأكل الربا ، ويبيع الكلاب ، ويكسب من وراء البغى ، ويصور التماثيل :

حدثنا عون بن ابى جحيفة عن ابيـــه قال لعن النبى صلى الله عليه وسلم الواشمة والمستوشمة وآكل الربا وموكله ، ونهى عن ثمن الكلب ، وكسب البغى ، ولعن المصورين « رواه البخارى ، جـ ٧ ، ص ٧٩) ٠

الجاهلي يتختم بالذهب :

قال البراء بن عازب رضى الله عنهما أمرنا النبى صـــلى الله عليه وسلم بسبع ونهانا عن سبع ؛ أمرنا بعيادة المريض ، واتبـــاع الجنائز ، وتشميت العاطس وابرار القسم ونصرة المظلوم وافشاء السلام واجابة الداعى ونهانا عن خواتيم الذهب وعن آنية الفضة وعن المياثر والقسية والاستبرق والديباج (رواه البخارى ، جـ ٧ ، ص ٣١) ٠

الجاهليون يأتون البيت الحرام من الظهر :

عن البراء قال كانوا اذا احرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فانزل الله ، « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولـــكن البر من اتقى وأتوا البيوت من ابوابها » (البخارى ، جـ ٦ ، ص ٣٢) ٠

الجاهلي يعتبر العمرة فى اشهر الحج من الفجور :

عن ابن عباس (رضى الله عنه) قال كانوا يرون إن العمرة فى أشهر الحج من الفجور فى الارض ، وكانوا يسمون المحرم صفرا ويقولون اذا بـــدأ الدبر

وعفا الاثر حلت العمرة لمن اعتمر ، قال فقدم رسول الله (ص) وأصحابه رابعة مهلين بالحج ، وأمرهم النبى (صلى الله عليه وسلم) أن يجعلوها عمرة قالوا يا رسول الله أى الحل قال الحل كله (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٤) ٠

جاهلية العرب فى سورة الانعام :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال اذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الانعام « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ــ الى قوله ــ قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ٠ (رواه البخارى ج ٤ ، ص ٢٢٤) ٠

الجاهليون يخالفون مناسك الحج الشرعية :

قال عمر رضى الله عنه ان المشركين كانوا لا يفيضون من جمع حتى تشرق الشمس على ثبير فخالفهم النبى صلى الله عليه وسلم فأفاض قبل أن تطلع الشمس ٠ (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٣) ٠

سمع أبو ذر رضى اللهعنه قال : قلت يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول قال المسجد الحرام قال قلت ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه (ورواه البخارى ، ج ٤ ، ص ١٧٧)

فى الجاهلية كهان :

عن عائشة رضى الله عنها زوج النى صلى الله عليه وسلم أنهـا سمعت رسول الله يقول ان الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب ، فتذكر الامر قضى فى السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه الى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ٠ (البخارى ، ج ٥ ص ١٣٥) ٠

خيار العرب فى الجاهلية ، خيارهم فى الاسلام اذا فقهوا :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قيل يا رسول الله من أكرم الناس ؟ قال أتقاهم فقالوا ليس عن هذا نسالك قال فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله ، قالوا ليس عن هذا نسالك ، قال فعن معادن العرب تسالون ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا (رواه البخارى ، ج ٤ ، ص ١٧٠) ٠

من الجاهلية : الشرب فى آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير :

عن البراء رضى الله عنه قال أمرنا النبى (ص) بسبع ونهانا عن سبع

أمرنا باتباع الجنائز وعيادة المريض واجابة الداعي ونصر المظلوم وابرار القسم ورد السلام وتشميت العاطس ونهانا عن آنية الفضة وخاتم الذهب والحرير والديباج والقسى والاستبرق (البخارى ، جـ ٢ ، ص٨٦) .

الجاهليون يضرب بعضهم رقاب بعض :

عن جرير أن النبى (ص) قال له فى حجة الوداع استنصت الناس فقال لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض (البخارى) .

الجاهليون يقاتلون غضبا وحمية :

عن أبى موسى قال جاء رجال الى النبى (ص) فقال يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله فان أحدنا يقاتل غضبا ويقاتل حمية فرفع اليه رأسه وما رفع اليه رأسه الا أنه كان قائما فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل (البخارى ، جـ ١ ، ص ٤) .

من الجاهليين جواظ عتل ومستكبر :

قال النبى (ص) ألا أدلكم على أهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لابره وأهل النار كل جواظ عتل مستكبر (رواه البخارى ، جـ ٨ ، ص ١٦٧) .

الجاهليون يمصون الجلد والنوى ويلبسون الوبر والشعر ويعبدون الشجر والحجر :

عن جبير بن حية قال بعث عمر الناس فى افناء الامصار يقاتلون المشركين ، فأسلم الهرمزان فقال انى مستشيرك فى مغازى هذه قال نعم: مثلها ومثل من فيها من الناس من عدو المسلمين مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان فان كسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس فان كسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس وأن شرخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس فالرأس كسرى والجناح قيصر والجناح الآخر فارس فمر المسلمين فلينفروا الى كسرى : وقال بكر وزياد وجميعا عن جبير بن حية ، حتى اذا كنا بأرض العدو وخرج علينا عامل كسرى فى أربعين الفا فقام ترجمان فقال ليكلمنى رجل منكم فقال المغيره سل عما شئت ، قال ما أنتم قال نحن أناس من العرب كنا فى شقاء شديد وبلاء شديد نمص الجلد والنوى من الجوع ونلبس الوبر والشعر ونعبد الشجر والحجر ... فبينما نحن كذلك اذ بعث رب السموات ورب الارضين تعالى ذكره وجلت عظمته الينا نبيا من أنفسنا نعرف أباه وأمه فأمرنا نبينا رسول ربنا (ص) ان نقاتلكم حتى تعبدوا الله او تؤدوا الجزيه واخبرنا نبينا (ص) عن رسالة ربنا انه من

قتـــل مـــنا صار الى الجنة فى نعيم لم ير مثلها قط ومن بقى منـــ ملك رقابكم ، فقال النعمان ربما أشهدك الله مثلهـــا مع النبى (ص) فلم يندمك ولم يخزك ولـــكن شهدت القتال مع رسول الله (ص) كان اذا لم يقاتل فى أول النهار انتظر حتى تهب الارواح وتحضر الصلوات (رواه البخارى ، ج ٤ ، ص ١١٩) ٠

عبادة هبل والعزى :

روى البراء بن عازب رضى الله عنهما قال النبى (ص) على الرجاله يوم أحـــد وكانوا خمسين رجلا عبد الله بن جبير فقال ان رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هـــذا حتى أرســـل اليكم وان رأيتمونا هزمنـــا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى ارســـل اليكم فهزموهم قال فانا واللـــه رأيت النساء ينشدون قـــد بدت خلاخلهن واسوتهن رافعات ثيابهن ٠ فقال أصحاب عبد الله بن جبير الغنيمة أى قوم الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون ، فقال عبد الله بن جبير أنسيتم ما قال لكم رســـول الله (ص) قالوا والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة فلما أتوهم صرفت وجوهم فاقبلوا منهزمين فذاك اذ يدعوهم الرســـول فى اخراهم فلم يبق مع النبى (ص) غير اثنى عشر رجـــلا فأصابوا منا سبعين وكان النبى (ص) واصحابه أصـــاب من المشركين يوم بـــدر اربعين ومائة سبعين أسيرا وسبعين قتيلا فقـــال أبو سفيان افى القوم محمد ثلاث مرات فنهاهم النبى (ص) أن يجيبوه ثم قال : أفى القوم ابن ابى قحافه ثلاث مرات ثم قال أفى القوم ابن الخطـــاب ثلاث مرات ثم رجـــع الى أصحابه فقال أمـــا هؤلاء فقـــد قتلوا فما ملك عمر نفســـه فقال كذبت والله يا عـــدو الله ان الذين عددت لاحياء كلهم وقد بقى لك ما يسوؤك ، فاليوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، انكم ستجدون فى القوم مثله لم أمر بها ولم تسؤنى ، ثم أخذ يرتجل أعل هبل اعل هبل قال النبى (ص) ألا تجيبوا له قالوا يا رسول الله ما نقول قال قولوا الله أعـــلى وأجل ، قال ان لنا العزى ولا عزى لكم فقال النبى (ص) ألا تجيبوا له قال قالوا يا رســـول الله ما نقـــول قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم (البخارى ٠ ج ٤ ، ص ٨٠) ٠

الكهان والشياطين :

عن ابن عباس قال انطلق رسول الله (ص) إن طائفة من أصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقـــد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وارسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين فقالوا ما لكم ؟ فقالوا ، حيـــل بيننا وبين خبـــر السمـــاء ، وأرسلت علينا الشهب ، قال ما حـــال بينكم وبين خبر السماء الا ما حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هـــذا الأمر الـــذى

حدث – فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هـذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء ، قال فانطلق الذين توجهوا نحو شهـامة الى رسول الله بنخلة وهو عامد الى سـوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن ، فسمعوا له ، فقالوا هـذا الذى حـال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك رجعوا الى موسعهم فقالوا يا قومنا انـا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنـا أحـدا وأنزل الله ، على نبيه (ص) قل أوحي الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا أنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فامنا به ولن نشرك بربنا أحـدا فانزل الله على نبيه (ص) قل ..

الاشهر الحرم – البلد الحرام :

عن أبى بكر عن النبي (ص) قال الزمـان قـد استدار كهيئة يوم خلق السموات والارض ، السنـة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثـة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننـا انه سيسميه بغير اسـمه قال اليس ذو الحجة قلنا بلى قال فاى بلـد هـذا ؟ قلنـا اللـه ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلدة ؟ قلنا بلى قال فأى يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظنناأنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر؟ قلنا بلى قال فان دماءكم وأموالكم . قال محمد واحسبه قال وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا وفى بلدكم هذا فى شهركم هذا ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم الا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضهم رقاب بعض الا يبلغ الشاهد الغائب .

اليتيمة فى حجر وليها :

كان عروة يحدث أنه سأل عائشة وان خفتم ان تقسطوا فى اليتـامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء .. قالت : هى اليتيمة فى حجر وليهـا فيرغب فى مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها بادنى من سـنة نسائها فنهوا عن نكاحهن الا أن يقسطوا لهن فى اكمال الصداق ثم استفتى الناس رسول الله (ص) فانزل الله .. « ويستفتونك فى النساء » (البخارى ، ج) .

السباب وإساءة معاملة الخدم من أوضاع الجاهلية :

عن واصل الاحدب عن المعرور قال لقيت ابا ذر بالربذة وعليه حلـة وعلى غلامه حلـة فسألته عن ذلك فقال انى ساببت رجلا فعيرته بأمـه فقال لى النبى (ص) يا أبا ذر أعيرته بأمه انك امرؤ فيك جاهلية اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فاعينوهم (رواه البخارى ، ج ١ ص ٢٦) .

الجاهليون مشركون ويطوفون بالبيت عرايا :

روى أن أبا هريرة قال بعثنني أبوبكر الى تلك الحجة في مؤذنين يوم النحر نؤذن بمنى الا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال حميد بن عبد الرحمن ثم اردف رسول الله (ص) عليـا فأمره يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فاذن معنـا على فى أهـل منى يوم النحر لايحج بعد العام مشرك ولايطوف بالبيت عريان (البخارى ، ج ١ ، ص ٩٨) ٠

الشر والجاهلية :

عن حذيفة من اليمان قال كان الناس يسألون رسـوله الله (ص) عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ، فقلت يا رسول اللـه انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهـذا الخير ، فهـل بعد هـذا

ويقول الله تعالى :

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنه نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفـة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنـا من الامر من شيء ، قل إن الامر كله للـه ، يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلي اللـه ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » (آل عمران : ١٥٤) ٠

« أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكمـا لقوم يوقنون » (المائدة : ٥٠) ٠

« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل اللـه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بهـا وأهلها وكان الله بكل شيء عليما » (الفتح : ٢٦) ٠

وذلك يعنى أن الجاهلية ــ كما عناها القرآن وحددها ــ هى حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله : » أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (المائدة ٥٠) أى أن الجاهلية ليست صورة محددة معينة ، أو أنها فترة تاريخية مضت الى غير رجوع ٠ انما هى جوهر معين ، يمكن أن يتخذ صور شتى ، بحسب البيئة والظروف والزمان والمكان فتتشابه كلها فى أنها جاهلية وان اختلفت مظاهرها كل الاختلاف ٠ وليس هى المقابل لما يسمى العلم والمعرفة والحضـارة والمدنية والتقدم المادى ، والقيم الفكرية والاجتماعية والسياسية والانسانية على اطلاقها ، كما يتصورها الخبيثون سواء بالنسبة للجاهلية الغربية وبالنسبة للقرن العشرين ٠

اذن الجاهلية هى مقابل معرفة الله ، والاهتداء بهدى الله والحكم بمـا انزل الله ٠٠ وليست مقابل ما يسمى بالعلم والحضارة المادية ووفرة الانتاج ٠

الخير من شر ؟ قال نعم قلت وهـــل بعد ذلك الشر من خير ، قال نعم وفيه دخن قلت وما دخنه ؟ قال قوم يهدون بغير هـــدى تعرف منهم وتنكر ، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال نعم دعـــاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها ، قلت يا رسول الله صفهم لنـــا قال هم من جلدتنا ، ويتكلمون بالسنتنا ، قلت فما تأمرني ان ادركني ذلك ؟ قال تلزم جماعـــة المسلمين وامامهم قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا امـــام ؟ قـــال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصـــل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على

تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصـل شـجرة حتى يدركك الموت وأنت عـلى

ذلك (البخارى ج ٩ ص ٦٥) ٠

الايمان بالكوكب والكفر بالله :

عن زيد بن خالد الجهنى انه قال صلى بنـــا رسول الله (ص) صلاة الصبح بالحديبية على أثر ســماء كانت من الليلة فلما انصرف النبى (ص) أقبـــل على الناس فقال هـــل تدرون ماذا قال ربكم قالوا اللـــه ورسوله أعلم قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فاما من قال مطرنا بفضـــل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب واما من قال بنوء ـ كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب (البخارى ، ج ٢ ، ص ٤٠) ٠

التطير والاكتواء :

حدثنا ابن عباس قال رسول الله (ص) عرضت على الامم فجعل النبى والنبيين يمرون معهم الرهط والنبى ليس معـــه أحد حتى رفع لى سواد عظيم قلت ما هذا أمتى هـــذه قيل هذا موسى وقومه قيـــل انظر الى الافق فاذا سواد يملأ الافق ثم قيل لى أنظر ها هنـــا وها هنـــا فى آفاق السماء فاذا سواد قد ملأ الافق قيـــل هذه امتك ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا بغير حساب ثم دخل ولم يبين لهم فافاض القوم وقالوا نحن الذين آمنـا بالله واتبعنا الرســـول فنحن هم أو أولادنا الذين ولدوا فى الاســـلام فانا ولدنا فى الجاهلية فبلغ النبى (ص) فخرج فقال هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون (البخارى ، ج ٧ ، ١٦٣) ٠

الجاهليون يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ويصورون فيها الصور :

قال رسول الله (ص) لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ٠

عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبى (ص) فقال ان أولئك اذا كان فيهم الرجل الصالح

فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة (البخارى ، ج ١ ، ص ١١٠) .

الجاهليون محاسبون :

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ قال من أحسن فى الاسلام لم يؤخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الاسلام أخذ بالاول والآخر (البخارى ، ج ٩ ، ص ١٨) .

الجاهليون يكثرون السؤال ، ويضيعون المال ، ويمنعون ويطلبون ويعقون الامهات ويئدون البنات :

كتب المغيرة انى سمعت رسول الله (ص) يقول عند انصرافه من الصلاة لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ثلاث مرات قال وكان ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال ومنع وهات وعقوق الامهات ووأد البنات (البخارى ، ج ٨ ، ص ١٢٤) .

الجاهليون يحلفون بغير الله ويقامرون :

روى أبو هريرة عن رسول الله (ص) قال من حلف منكم فقال فى حلفه باللات والعزى ، فليقل لا اله الا الله ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق (البخارى ، ج ٨ ، ص ٨٣) .

الجاهليون لا يختتنون الرجل حتى يدرك :

سئل ابن عباس مثل من أنت حين قبض النبى (ص) قال انا يومئذ مختون قال وكانوا لا يختتنون الرجل حتى يدرك (رواه البخارى ، ج ٨ ، ص ٨١)

الجاهليون يظنون ويتجسسون ويتحاسدون ، ويتباغضون :

عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال أياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا (رواه البخارى ، ج ٨ ، ص ٤٣)

الجاهليون يشربون فى آنية الفضة والذهب ويلبسون الحرير والديباج :

عن ابن ابى ليلى قال خرجنا مع حذيفه ذكر النبى صلى الله عليه وسلم

قال لاتشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تلبسوا الحرير والديباج فانهـا لهم في الدنيا ولكم في الآخرة (البخارى ج ٧ ، ص ١٤٦) .

قصي الأثر في الجاهلية :

روى أبو هريره رضى الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سريه عينا ، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الانصارى جد عاصم بن عمر فانطلقوا حتى كانوا بالهرأه وهو بين عسفان ومـكه ذكروا لحى من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبًا من مائتى رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة فقالوا هـذا تمر يثرب فاقتصوا أثارهم فلما رآهم عاصم وأصحابه لجوا الى فدفد واحاط بـهم القوم ، فقالوا لهم انزلوا واعطونا بأيديكم ولكم العهـد والميثاق ولا نقتل منكم أحـدا قال عاصم بن ثابت أمير السرية أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمـة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصما فى سبعه فنزل اليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثـاق منهم خبيب الانصارى وابن دثنه ورجل آخر فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فاوثقوهم فقـال الرجل الثالث هـذا أول الغدر والله لأصحبكم ان فى هؤلاء لاسوة يريد القتلى فجروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه فانطلقوا بخبيب وابن دثنه حتى باعوهما بمكة بعد وقعـة بدر فابتـاع خبيب بنو الحارث بن عامر ابن نوفل بن عبد منـاف وكان خبيب هـو قاتل الحارث بن عامر يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبدالله بن عياض أن بنت الحارثة أخبرته انهم حين أصبحوا استعار منها موسى يستحد بها فاعارته ، فأخـذ ابنالى وانا غافلة حيث أتاه قالت فوجدته مجلسه عى مخذه الموسى بيـده ففـزعت فزعـة عرفهـا خبيب في وجـهى ، فقـال تخشين أن أقتله ما كنت لافعل ذلك والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب واللـه لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يـده وانه لموثق فى الحديد وما بمكه من تمر ، وكانت تقول انه لرزق من الله رزقه خبيب فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل قال لهم خبيب ذرونى أركع ركعتين ثم قال لولا أن تظنوا ان ما بى جزع لطولتها اللهم احصهم عددا فقتله ابن الحـارث فكان خبيب هو سن الركعتين لكل امرىء مسلم قتل ... فاستجـاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبى صـلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا . وبعث ناس من كفار قريش الى عاصم حيث حدثـوا انه قتل ليؤتوا بشىء منـه يعرف وكان قدقتـل رجلا من عظمائهم يوم بدر فبعث على عاصم مثـل الظلة من الدبر فحمته من رسولهم فلم يقدروا على أن يقطع من لحمه شيئا (رواه البخارى ، ج ٤ ، ص ٨٢) .

الاعتكاف فى الجاهلية :

عن عمر بن الخطاب (رض) أنه قال يارسول الله انى نذرت فى الجاهلية أن اعتكف ليلة فى المسجد الحرام فقال له النبى (ص) أوف نذرك فاعتكف ليله ٠

امساك المرأة بعد وفاة زوجها من أعمال الجاهلية :

عن ابن عباس رضى الله عنهما « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ٠٠ » الآية قال كانوا اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ان شاء بعضهم تزوجها وان شاءوا زوجها ، وان شاءوا لم يزوجها فهم أحق بها من أهلها ، فنزلت هذه الآية « البخارى ج ٩ ، ص ٢٧) ٠

الجاهليون يقتلون الموحدين :

حدثنا قيس عن خباب بن الارت قال شكونا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة ، فقلنا الا تستنصر لنا ألا تدعو لنا فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الارض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فتوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمنى هذا الامر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله والذئب على غنمه (البخارى ج ٩ ، ص ٢٦) ٠

الزنى والقتل والسرقة :

قال رسول الله (ص) لا يزنى العبد حين يزنى وهو مؤمن ولا يقتل ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن ، ولا يقتل وهو مؤمن ، قال عكرمة ، قلت لابن عباس : كيف ينزع الايمان منه ؟ قال هكذا وشبك بين اصابعه ثم أفرجها فان تاب عاد اليه (البخارى ج ٨ ، ص ٢٠٤)

المشركون يجعلون لله أندادا ، ويقتلون أولادهم ، ويزنون بحليلة الجار :

عن عبد الله رضى الله عنه قال قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، فقلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزانى حليلة جارك ٠ (البخارى ، ج ٨ ، ص ٢٠٤) ٠

الجاهليون يقيمون الحد على الضعيف ولا يقيمونه على الشريف :

عن عائشة أن أسامة كلم النبى صلى الله عليه وسلم فى امرأة فقال انما هلك من كان قبلكم كانوا يقيمون الحدعلى الوضيع ويتركون الشريف . والذى نفسى بيده لو فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها .

عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا اهمتهم المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا من يكلم رسول الله (ص) ومن يجترىء عليه الا اسامة حب رسول الله (ص) فكلم رسول الله (ص) فقال اتشفع فى حد من حدود الله . ثم قام فخطب ، فقال : « يأيها الناس انما ضل من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » (البخارى ج ٨ ، ص ١٩٩) .

الجاهلى لا يعد النساء شيئا :

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لبثت سنة وأنا اريد أن اسئل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم فجعلت أهابه فنزل يوما منزلا فدخل الاراك فلما خرج سألته فقال عائشة وحفصة ، ثم قال كنا فى الجاهلية لا نعد النساء شيئا فلما جاء الاسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن فى شىء من أمورنا ، وكان بيني وبين امرأتى كلام فأغلظت لى فقلت لها وانك لهناك قال تقول هذا لى وابنتك تؤذى النبى صلى الله عليه وسلم فاتيت حفصة فقلت لها انى احذرك ان تعصى الله ورسوله (البخارى ، ج ٧ ، ص ١٩٦) .

الصمت عن الكلام فى الحج من أعمال الجاهلية :

عن قيس بن أبى حازم قال دخل أبو بكر على امرأة آحمس يقال لها زينب فرآها لا تكلم فقال مالها لا تكلم قالوا حجت مصمتة قال لها تكلمى فان هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية ، فتكلمت فقالت من أنت ؟ قال امرؤ من المهاجرين قالت أى المهاجرين قال من قريش قالت من أى قريش أنت ؟ قال انك لسؤال أنا أبو بكر قالت ما بقاؤنا على هذا الامر الصالح الذى جاء الله بعد الجاهلية قال بقاؤكم عليه ما استقامت بكم أئمتكم . قالت وما الائمة ؟ قال أما كان لقومك رؤوس واشراف يأمرونهم فيطيعون قالت بلى قال فهم أولئك على الناس (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٢) .

وجود المشركين فى جزيرة العرب فى الجاهلية :

عن ابن عباس (رضى الله عنه) انه قال يوم الخميس وما أدراك ما يوم

الخميس ثم بكى حتى خضب دمعــه الحصباء ، فقال اشتد برسول اللــه صلى الله عليه وسلم وجعــه يوم الخميس فقال ائتونى بكتاب اكتب لــكم كتابا لاتضلوا بعده ابدا فتنازعوا ولا ينبغى عنده نبى تنازع فقالوا هجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعونى فالذى أنا فيه خير مما تدعونى اليه . وأوصى عند موته بثلاث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ونسيت الثالثة وقال يعقوب بن محمد سالت المغيره بن عبد الرحمن عن جزيرة العرب فقال مكه والمدينة واليمامة واليمن وقال يعقوب : والعرج أول تهامه (رواه البخارى ، ج ٢ ، ص ٨٥) .

الجاهليون يقطعون الطرق :

عن عدى بن حاتم قال بينما أنا عند النبى (ص) اذ أتاه رجل فشكا اليه الفاقه ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال يا عدى هــل رأيت الحيرة ؟ قلت لم أرها ، وقد انبئت عنها ، قال فان طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة تطوف بالكعبة لا تخاف احدا الا اللهقلت بينى وبين نفسى أين دعارطىء الذين قد سعروا البـــلاد . ولئن طالت بك الحيــاة لتفتحن كنوز كسرى قلت كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحــدا يقبله منه .. الخ الحديث (رواه البخارى ج ٤ ، ص ٢٣٩) .

التصوير فى الجاهلية يمنع دخول الملائكة :

عن عائشة زوج النبى (ص) أنها أخبرته أنها اشترت نمرقه فيهــا تصاوير فلما رآها رسول الله (ص) قام على الباب فلم يدخل ، فعرفت فى وجهه الكراهية فقلت يا رسول الله أتوب الى الله ورســوله ماذا اذنبت ؟ فقال رسول الله ما بال هــذه النمرقة ، قالت فقلت اشتريتها لك لتعقد عليها وتوسدها فقال رسول الله (ص) ان أصحاب هــذه الصــور يعذبون يــوم القيامة ، ويقال لهم أحيوا ما خلقتم وقال ان البيت الــذى فيــه الصــور لا تدخله الملائكة (رواه البخاري) .

الجاهلى قد يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها :

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يجمع بين المرأة وعمتها ، ولا بين المرأة وخالتها (البخارى ، ج ٧ ، ص ١٥) .

زواج الشغار من أعمال الجاهلية :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى

عن الشغار والشغار أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق (انبخارى ج ٢ ، ص ١٥) ٠

من رواسب التوحيد فى الجاهلية : السعى بين الصفا والمروة :

سئل النبى بن مالك (رضى) عن الصفا والمروة ، فقال كنا نرى أنهما من أن الجاهلية ، فلما كان الاسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ٠٠

الجاهلى يضرب الخد ويشق الجيب ويدعو بدعوى الجاهلية :

روى عن النبى (ص) قال ليس منـــا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية ٠

الجاهليون يعبدون الشمس والقمر والطواغيت :

عن أبى هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هـــل نرى ربنـــا يوم القيامة فقال رسول الله (ص) هل تضارون فى القمر ليلـــة البدر قالوا لا يا رسول الله ، قال فهل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ، قالوا لا يا رسول الله ، قال فانكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس وينبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هـــذه الامة فيها شافعوها ، أو منافقوها شك ابراهيم فيأتيهم اللـــه فيقول أنـــا ربكم فيقولون هـــذا مكاننا حتى يأتينـــا ربنا فاذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وامتى أول من يجيزها (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٧) ٠

الجاهلى يكذب الحديث ، ويخلف الوعد ، ويغدر بالعهد ، ويفجر فى خصومته :

قال رسول الله (ص) أربع حلال من كن فيه كان منافقا خالصا : من اذا حدث كذب ، واذا وعـــد اخلف ، واذا عاض غدر ، واذا خاصم فجر ، ومن كانت فيه خصلة فهى كانت فيه خصله حتى يدعها ٠

الجاهلى يهل لمناة :

ان الصفا والمروة من شعائر الله ٠٠

انما انزلت هذه الآية فى الانصار كانوا يهلون لمناة ، وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة فلما جـــاء الاســـلام وسألوا رسول الله عن ذلك ، فأنزل الله : « ان الصفا والمروة من شعائر الله » (رواه البخارى ، ج ٦ ، ص ٢٨) ٠

من الجاهلية : نكاح الاستبضاع والبغاء :

روى أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على اربعة انحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها ارسلى الى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها لا يمسها أبدا ، حتى يتبين حملها ٠ من ذلك الرجل الذى تستبضع منه فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر عليها ليالى بعد أن تضع حملها ارسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يتجمعوا عندها تقول لهم قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمى من أحبت فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل ، ونكاح الرابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع فمن جاءها ومن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فاذا حملت أحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم الحقوا ولدها بالذى يرون فالتاط به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الا نكاح الناس اليوم (رواه البخارى ، ج ٧ ، ص ١٩ ، ٢٠) ٠

الدباء والحنتم والمزفت :

عن أبى حمرة قال كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس فقال أن وفد عبد القيس أتوا النبى (ص) فقال من الوفد أو من القوم قالوا ربيعة فقال مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا لا ندامى قالوا انا نأتيك من شقة بعيدة بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك الا فى شهر حرام فمرنا بأن نخبر به من وراءنا فندخل به الجنة فأمرهم بأربع ونهاهم عن اربع أمرهم بالايمان بالله عز وجل وحده قال هل تدرون ما الايمان بالله وحده قالوا الله ورسوله أعلم قال شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وتعطوا الخمس من المغنم ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت قال شعبة ربما قال النقير وربما قال المقير قال احفظوه واخبروه من وراءكم (رواه البخارى ، ج ١ ، ص ٣٢) ٠

الديباج لباس من لا خلاق لهم :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال وجد عمر حله استبرق تباع فى السوق فأتى بها رسول الله (ص) فقال يا رسول الله ابتع هذه الحله فتجمل بها للعيد وللوفود ٠ فقال رسول الله انما هذه لباس من لاخلاق

له . أو انما يلبس هـــذه من لا خلاق له . فلبثت ما شاء الله ثم أرســـل اليه النبى (ص) يجبة ديباج فاقبل بها عمر حتى اتى بها رسول الله (ص) فقال يا رسول الله أنت قلت انما هـــذه لباس من لاخلاق له انما يلبس هده من لاخلاق له ثم ارسلت الى بهذه ، فقال تبعها أو تصيب بها بعض حاجتك (رواه البخارى ، ج ٤ ، ص ٨٥) .

الجاهلى يعبد الحجر والتراب :

أورد البخارى رواية لابى رجاء العطاردى يقول : كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا هو خير منه القيناه واخذنا آخر فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاه فحلبنا عليه ثم طفنا به فاذا دخل شهر رجب قلنا منصل الألسنة فلا ندع رمحا فيه حديد ولا سهما فيه حديد الا نزعناه والقيناه شهر رجب .

ذو الخلصة بيت فى الجاهلية :

عن جرير قال كان بيت فى الجاهلية يقال له ذو الخلصة والكعبة اليمانية والكعبة الشامية فقال لى النبى (ص) ألا تريحنى من ذى الخلصة فنفرت فى مائه وخمسين راكبا فكسرناه وقتلنا من وجدناه عنده فأتيت النبى فأخبرته فدعا لنا (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٢٠٩) .

وفى رواية أخرى ألا تريحنى من ذى الخلصة . وكان بيتا فى خثعم يسمى الكعبة اليمانية .

الجاهليون يسكرون :

عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه ان النبى (ص) بعثه الى اليمن فســـأله عن أشربة تصنع بها فقال ومـــا هى قال البتع والمزر فقلت لابى برده ما البتع ؟ قال نبيذ العسل والمزر نبيذ البعير . فقال كل مســكر حرام (البخارى ، ج ٥ ، ص ٢٠٥) .

من خلال الجاهلية الطعن فى الانساب والنياحة :

عن ابن عباس رضى الله عنه قال خلال من خلال الجاهلية الطعن فى الانسان والنياحة ونسى الثالثة قال سعفان ويقولون انها الاستسقاء بالانواء . (رواه البخارى ، ج ٥ ، ص ٥٦) .

الكهانة من خلال الجاهلية :

عن عائشة رضى الله عنها قالت كان لابى بكر غلام يخرج له الخراج

وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام أتدرى ما هـــذا فقال أبو بكر ، وما هو قال كنت تكهنت لانسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة الا انى خدمته فلقينى فأعطانى بذلك ، فهـــذا الذى أكلت منه ، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء فى بطنه (رواه البخارى ج ٥ ، ص ٥٤) ٠

الجمع بين الاختين :

حدثنا هشام عن أبيه عن زينب عن أم حبيبه قالت قلت يا رسول الله هل لك فى بنت أبى سفيان قال فافعل ماذا ؟ قلت : تنكح ، قال : أتحبين ؟ قلت لست لك بمخليه ، وأحب من شركنى فيك أختى قال انها لا تحل لى ، قلت بلغنى أنك تخطب ، قال ابنـــة أم سلمه ، قلت نعم ، قال ولم تـكن ربيبتى ما حلت لى أرضعتنى واباها ثويبه فلا تعرضن بناتكن ولا اخواتـــكن (رواه البخارى ، جـ ١ ، ص ١٤) ٠



الأناضول
أرمينية
حلب
تدمر
دمشق
القدس
البتراء
تبوك
تيماء
بغداد
الحيرة
البصرة
أحد
بدر
جدة
مكة
الطائف
نجران
مأرب
صنعاء
حضرموت
عدن
إثيوبيا
الصومال
مهرة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم وسنة النبى محمد صلى الله عليه وسلم

تفسير الطبرى

تفسير ابن كثير

صحيح البخارى

صحيح مسلم

فى ظلال القرآن

أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى (ت ٠ ٢١٨ هـ) ، راجعه وعلق عليه محمد خليل هراس ، سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ج ١ ، القاهرة ٠

محمود شكرى الألوسى البغدادى (عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه محمد بهجه الاندلسى بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب ، ط ٣ ، ج ١ ، القاهرة٠

أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمدانى (ت ٠ ٣٣٤ هـ) (قام بنشره محمد بن عبد الله بن بليهد النجدى) كتاب صفة جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٥٣ ٠

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى (تحقيق أحمد زكى) كتاب الأصنام ، القاهرة ١٣٤٣ أبو الوليدمحمد بن عبد الله بن أحمد الاذرقى (ت٠ ٢٥٠ هـ) صححها وعلق على حواشيها ووضع فهارسها رشدى الصالح ملحس أخبار مكة وما جاء فيها من الأخبار ، مكة المكرمة ت ١٣٥ هـ ٠

أبو الحسن على ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابنعبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ (صحح أصوله وكساه ملاحظات الشيخ عبد الوهاب النجار) الكامل فى التاريخ ، ج ١ ، القاهرة ١٣٤٨ ٠

أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى (ت ٣٤٦ هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٣٦٥ هـ ٠

أحمد بن أبى يعقوب بن وهب بن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، المجلد الأول والثانى .

ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، محمد خاتم النبيين وامام المرسلين ، القاهرة .

أبو الفداء حافظ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ط ١ ، الرياض ١٩٦٦ .

أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان .

جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، العراق ١٩٧٠ .

أمين مدنى ، التاريخ العربى ومصادره ، مصر .

جرجى زيدان ، العرب قبل الاسلام ، القاهرة .

محمد مبروك نافع ، تاريخ العرب عصر ما قبل الاسلام .

د . عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية ، بيرت ١٣٨٤ .

محمد أحمد باشميل ، العرب فى الشام قبل الاسلام ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ

د . عمر فروخ ، العرب فى حضارتهم وثقافتهم ، ببروت ١٣٨٨ هـ .

د . نيسلن ، ف . هومل ، رودو كاناكيس ، أد . جرومان (تعريب د . فؤاد حسنين على ، د . زكى محمد حسين) التاريخ العربى القديم ، القاهرة ١٩٥٨ .

جوستاف لوبون (تعريب عادل زعيتر) حضارة العرب ، القاهرة .

نفس المؤلف ، اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى .

د . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى ..... ، القاهرة .

سيديو (تعريب عادل زعيتر) تاريخ العرب العام ، القاهرة ٠

فيليب حتى ، جورجى جبور ، جبرائيل ، تاريخ العرب المطول ٠

ج ٠ ب ٠ جلوب (تعريب خيرى حماده) تاريخ العرب العام ٠

د ٠ أحمد أمين فجر الاسلام ، القاهرة ١٩٥١ ٠

د ٠ عبد الفتاح شحاتة ، دراسات فى تاريخ العرب وصدر الاسلام ، القاهرة ١٣٩٢ هـ ٠

ول ٠ ديورانت (تعريب محمد نجيب سالم ، محمد بدان) قصة الحضارة ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

د ٠ عبد الحميد زايد ، الشرق الخالد ٠

س ٠ موسكاتى (تعريب الدكتور السيد يعقوب بكر) الحضارات السامية القديمة ، القاهرة ٠

محمد قطب ، جاهلية القرن العشرين ، القاهرة ٠

محتويات الكتاب

رقم الايداع ٧٨/٢٦٨٢
الترقيم الدولى ٧٨/٢٦٨٢

دار الطباعة الحديثة
ت : ٩٠٨٣١٨

